القرآن ونظريَّة القراءَة

في نسختها العربيَّة الإسلاميَّة

القرآن ونظريّة القراءَة في نسختها العربيّة الإسْلاميّة

د. إبراهيم عوض

مكتبة الشيخ أحمد

منشية الصدر - القاهرة

١٤٤١هـ - ٢٠١٩م

كلمة سريعة عن موضوع الكتاب

ظهرت فى الغرب فى العقود الأخيرة نظرية نقدية تسمى: "نظرية القراءة" أو "نظرية التلقى". وهى نظرية تركز على القارئ وما يراه ويقوله عن النص الذى يقرؤه، وتغفل المبدع وما أراد توصيله للقارئ. إنها تجعل كلمة القارئ هى العليا، وتبخس قيمة المبدع وإبداعه حتى لترى أن المبدع لم يأت بأى شىء من عنده بل من النصوص الأخرى، ومن ثم ينبغى أن يتحول تاريخ الأدب من رصد ما أبدعه المبدعون إلى رصد ما قاله القارئون. وأصحاب هذه النظرية يرون أن دور القارئ مع النص دور هام وخطير، فالقارئ لا يقرأ لكى يعرف ما أراده المبدع من إبداعه لأن هذا أمر لا يمكن الوصول إليه، إذ كيف نعرف ما فى عقل المبدع ونفسه؟ ولكنه أثناء القراءة يضفى على النص ما يدور فى ذهنه هو. وعند أصحاب تلك النظرية أن جميع القراءات للنص الواحد هى قراءات مشروعة وهامة، ولا ينبغى إهمال أى قراءة منها. كما يرون أن قراءة القارئ للنص لا يصح أن تكون قراءة سلبية كل عمله فيها هو الاجتهاد فى معرفة ما يقوله المبدع، بل يجب أن تكون قراءة إيجابية يقوم أثناءها بملء فراغات فى النص يقولون إن المبدع قد تركها للقارئ كى يكملها. ليس ذلك فقط بل إنهم ليؤكدون أن النص لا يكون له معنى ما لم يقرأه القراء، فهو بدون قراء لا وجود له. وبالمثل يرون أن أهمية النص تكمن فى كسره أفق التوقع لدى القارئ: فإذا قدم النص للقارئ ما يتوقعه فهو ليس نصا جيدا بخلاف ما لو خالف ما ينتظره، إذ يكون عندئذ هو النص المطلوب.

ويتوجس بعض الغيارى على القرآن الكريم من محاولة أى باحث يريد تناول كتاب الله فى ضوء نظرية القراءة، إذ يرون أن النظريات والمناهج النقدية الحداثية لا تصلح ولا تصح مع الكتاب المجيد بل تسىء إليه وتضره. وهذا التوجس قد يوحى بأن القرآن لا يستطيع الصمود فى وجه تلك المناهج الحداثية، وهو ما يولد الانطباع بأن القرآن كتاب قديم لا يمكنه مواجهة مثل تلك المناهج. والعبد لله يرى خلاف ذلك، فالقرآن كتاب الله، وكتاب الله لا يمكن أن يهدده بله يهزمه أى منهج نقدى، ومن ثم لا ينبغى الخشية عليه من أى شىء، فهو جبل راسخ أشم. ونحن من جهتنا لا نتعبد لأى منهج نقدى بل ننظر فيه لنرى ما له وما عليه، ومتى ما أبصرنا فيه عيبا أشرنا إليه ونادينا بتصحيحه بل صححناه بأيدينا نحن قبل سوانا. كما أن كثيرا من الدارسين يرتكبون أخطاء لدى تطبيق هذه المناهج، وعلينا فى هذه الحالة أن ننبه إلى تلك الأخطاء ونصوبها بالعقل والحكمة والمعرفة الواسعة العميقة. لكن لا يصح أن يكون رد فعلنا على هذه الأخطاء النظرية والتطبيقية هو إغلاق الباب فى وجه تلك المناهج إذا ما أراد أحد التوسل بها إلى دراسة القرآن ما دام لديه الثقة بنفسه وبكتاب دينه وعنده العلم الكافى والأفق العقلى الواسع والفكر المرن حتى إذا أبصر فى أى من هذه المناهج ثغرة بادر إلى التنبيه إليها وعراها وصوبها، وإذا وجد خطأ فى تطبيق أى منها على نص من النصوص،

وبخاصة كتاب الله، سارع إلى تسليط الضوء على الخطإ وبين كيفية تقويمه وإصلاحه. أما الخشية من تلك المناهج على القرآن المجيد فإنها لا تحل المشكلة لأننا إذا منعنا هذا الدارس أو ذاك من استخدام هذه المناهج فى دراسة القرآن فلن نستطيع منع كل الدارسين فى كل أنحاء العالم اليوم وغدا وبعد غد إلى ما شاء الله.

والصفحات التى بين يدى القارئ هى محاولة لتطبيق نظرية القراءة على القرآن العظيم وكَشْف ما وجدناه فيها من عيوب وتناوُل أهم مقولاتها وبيان مدى ما فى تلك المقولات من حق أو باطل عند دراسة الكتاب الكريم. والله الموفق.

القراءة: هل هى التى تعطى النص معناه؟

تركز نظرية التلقى على القارئ، فهو عند أصحابها مفتاح الأثر الأدبى وأحد أبرز عناصر التخاطب الأدبى، وتؤكد أن القراءة مفتوحة ومتعددة لا تنتهى، وأن النص يتجدد باستمرار فى كل قراءة. فهى تبحث دائما فى تعدد الدلالات المختلفة التى تكون داخل النص. والعمل الأدبى، عند بعض القائلين بهذه النظرية، لا يحظى بتحقيق دلالته الكاملة إلا بوساطة القراءة. بل إن بعضهم يرى أن النص لا وجود له إلا فى حالة وجود قراء له. فالقراءة هى التى تضفى عليه وجوده ومعناه. وواضح أن أصحاب هذه النظرية ممن يقولون بموت المؤلف. ولكن هل موت المؤلف يخول لنا الكلام بدلا منه؟ إن حقوق الشخص لا تزول بموته، وإلا لكان ينبغى أن ننسب أبناءه لشخص حى بدلا منه، ويستولى أى إنسان على تركته آكلا حق أهله فيها. ثم لقد مات كل المؤلفين من قبله، وما زلنا ننسب آثارهم الإبداعيه إليهم ولا نتجاهلهم. وفوق ذلك فلو طبقنا هذا الكلام على كل مبدع أيا كان لون إبداعه وميدانه حتى تكون هناك مساواة فى الظلم لما عرفنا مَنْ بناة الأهرام مثلا ولا مَنْ أنبياء عاد وثمود ومدين أو خلفاء الإسلام أو ملوك بريطانيا... إلخ، ولعشنا تاريخيا فى حالة عماء وعمى لا نعرف شيئا عن أى شخص إلا أن يكون تافها لا قيمة له وليس له إبداع. أترى القائلين بهذا يرضَوْن بتجاهل أسمائهم بوصفهم أصحاب النظرية التى أصابتنا هنا بالصداع؟ هل يقبلون أن نهملهم فلا نذكر فلانا وعلانا وترتانا ممن قال بتلك الفكرة، ومن زاد عليها ذلك التوضيح، ومن طور ذلك الرأى، والمدرسة التى ينتمى إليها كل منهم، والتاريخ الذى تم فيه هذا؟ أتراهم يجيزون أن يخطئ أو يسهو أحد من الباحثين فى ذلك؟ كذلك تحمل نسخة أى فلم أسماء كل من شارك فى صنعه وإظهاره إلى الوجوه بما فى ذلك القائمون على الإكسسوارات والملابس والمصابيح، ولم يتبق إلا أن يذكروا أيضا كنّاس موقع التصوير وكاسح مجارى المنطقة. وبالمثل فكل صورة زيتية أو بالفحم أو بألوان الماء تحمل توقيع صاحبها. وفضلا عن هذا فإن اسم الرسام كثيرا ما يكون سببا فى ارتفاع ثمن اللوحة إلى أرقام فلكية، ولو حذفنا الاسم فلربما لا يعود لها أية قيمة فى عالم التصوير ولا فى عالم البيع والشراء. فلِمَ بالله عليكم يقتصر الموت على مبدع النص الأدبى دون بقية خلق الله ممن يناظرونه فى المجالات الأخرى؟ الواقع أن هذا كله هو التنطع بعينه.

والغريب أن يتمسك القائلون بموت المؤلف بتلك المقولة السخيفة، وفى نفس الوقت لا يقولون بموت القارئ بل يحتفظون بقراءته والقراءات الأخرى ناسبين إياها لأصحابها. كيف؟ هذا ما لا يمكن أن يفهمه عاقل. إن القائلين بموت المؤلف ليذكِّروننا بما يحدث لذَكَر فَرَس النبى، إذ فى الوقت الذى يعاشر فيه أنثاه تكون الأنثى ماضية فى قضم رأسه ورقبته، فما إن ينتهى من معاشرتها حتى يكون قد راح فى خبر "كان". ولكن من ذا الذى يستطيع أن ينكر أنه أبو أفراس النبى التى حملتها أنثاه؟ لقد مات فعلا، بيد أنه أنجب أبناء يحملون اسمه من بعده. ولسوف بعد قليل نرى أن أصحاب هذه النظرية يخططون لكتابة تاريخ أدبى جديد تُهْمَل فيه آثار المبدعين ويتم التركيز على قراءات القراء مع

أن القراء لم يكونوا ليوجدوا لولا وجود المبدعين وإبداعاتهم، وإلا لما كانت لهم وظيفة يقومون بها، اللهم إلا أن يقشروا بصلا.

ومعروف أن الأدباء كانوا ينظرون إلى النقاد نظرة انتقاص، إذ يقولون إن الناقد هو مشروع أديب فاشل. ونحن، وإن كنا لا نقول بهذا، لا نرضى فى ذات الوقت هذا التجاهل للمبدع، فهو تجاهل سخيف وظالم ويؤدى إلى كوارث، إذ سوف نجد النقاد (أى القراء) يقوِّلونهم كلاما ما أنزل الله به من سلطان وينسبون إليهم من الافكار والمشاعر ما لم يَدُرْ لهم ببال ولا فى الخيال ما دمنا قد أهملناهم وجعلنا القيمة كلها للقراء. بل إن كثيرا من النقاد الفاسدين سوف يتعمدون ذلك تعمدا حتى يُكْسِبوا آراءهم وأفكارهم المنحرفة أو ذات التوجه المعيَّن مشروعية من خلال ربطها بأولئك المبدعين.

ولا شك أن للقارئ دوره، فإن المؤلف إنما كتب ما كتب وأبدع ما أبدع تطلعا إلى أن يقرأه القارئ. لكن القارئ المدقق الذى يريد الوصول إلى الحقيقة فيما كتبه الكاتب لا يأتى بشىء من عنده بل يجتهد بكل قواه كى يكشف ما هو مغطًّى فى النص، فكل شىء موجود فى النص إما واقعا وإما حكما. نعم، القارئ المدقق الذى يريد معرفة ما قاله الكاتب لا يأتى بشىء من عنده، اللهم إلا الاستعداد للفهم والاجتهاد فيه. أما الإبداع فهو من عند الكاتب. ومع هذا فقد زعم بعض أصحاب النظرية أن الكاتب لم يأت بشىء من عنده، إذ هو حسب هذا الزعم إنما أخذ كل ما كتب عن الآخرين، أما القارئ فهو كل شىء.

وأول ما نكشفه من هذا التساخف أن القارئ، بنفس هذا المنطق المعوجّ، هو أيضا لم يأت بشىء من عنده، بل تغذى على كتابات الكُتَّاب. فهو إذن لا يمكنه التخلى عن الكتّاب. وكيف يا ترى يمكن الإنسان أن يهرب من ظله؟ هذا هو المستحيل. ومع ذلك فإن جهد القارئ المتمثل فى التغذى على كتابات الكتّاب لا يرقى إلى مرتبة إبداع ذلك الغذاء الشهى الذى يقدمه الكاتب، فقد تعب وجرب وسار حياته كلها يكتب ويبدع ويقاسى الإرهاق. ثم إنه لم يكتف بهذا بل راجع ما كتب بعين الناقد الفاحص، فحذف واستدرك وزاد وأضاف وغَيَّر وبَدَّل وحَوَّر. نعم إنه يعتمد على كتابات الآخرين، لكنه لم يأخذها ويضعها بعضها بجوار بعض كيفما اتفق كما يومئ أصحاب تلك النظرية، بل يدخل هذا كله عقله وخياله وحساسيته لينصهر هناك ويصبح جزءا من شخصيته وتفرده بفضل موهبته، وما أدراك ما موهبته؟

إننا نقول عن الطبيخ إن فيه "نَفَسَ" مَنْ طبَخَتْه. نقصد أن شخصيتها وذوقها وخبرتها وبراعتها قد طبعت الطبيخ بطابعها، فصار يُنْسَب إليها، ويُحَبّ ويُفَضَّل على غيره من الطبائخ من أجلها. فإذا كان هذا يقال فى الطبيخ، الذى لا يمكن أن يرقى إلى مرتبة الإبداع الأدبى، فما بالنا بذلك الإبداع العجيب المذهل؟ إن هؤلاء السطحيين المتنطعين يتجاهلون الموهبة التى أغدقها الله على المبدع قصاصا كان أو شاعرا أو مسرحيا أو رحالة أو كاتب سيرة... إلخ. فهل تلك الموهبة الإلهية التى تميزه عن غيره وترفعه فوق الرؤوس جميعا لا قيمة لها كما يدعى بعض أصحاب نظريتنا هذه؟ إنك لو أزحت الكاتب من الصورة فقد أزحت كل شىء وأزحت ما كتب وأبدع مما يزعم أصحاب النظرية أن

القارئ هو الذى يضفى عليه معانيه وجماله وروعته، بينما الحقيقة هى أنه ليس إلا مستكشفا لكل ذلك. تَخَلَّصْ من الكاتب، ولسوف تجد نتاجه الإبداعى قد ذهب مع الريح. فهذا النتاج هو من صنعه وإبداعه، ويحمل اسمه ورسمه، وعليه بصمته التى أعطاها الله إياه. وأى كلام غير هذا هو تنطع قمىء.

وليس من المعقول أن يهمل النقاد جميعا من لدن أرسطو بل من قبل أرسطو القارئ ظلما وبطلانا، ويركزوا كل اهتمامهم وعنايتهم على الكاتب محاباة منهم له، وعَمًى فى بصرهم وبصيرتهم. لقد دارت كتابات كثيرة حول المنبع الذى يمتح منه الكاتب كتاباته، وأريق على ذلك الموضوع حبر كثير، واختلفت الآراء فى ذلك لدى الكلام عن الشعر مثلا ما بين القول بالشياطين والقول بالآلهة والقول بحفظ أشعار السابقين والتتلمذ على أيدى الشعراء الكبار. فرأينا العرب يقولون بوادى عبقر حيث تقطن شياطين الفن الشعرى، التى تعين الشاعر على نظم قصائده، والتى تضم الشياطين الفحول والشياطين الضعفاء المهازيل، والشياطين الذكور، والشياطين الإناث. وكان الإغريق يتصورون أن الآلهة التى تعين الشعراء على نظم أشعارهم تسكن فوق قمة جبل الأولمب.

ورأينا لشعراء العرب فى الجاهلية وصدر الإسلام وفى العصر الأموى تلاميذ يلتصقون بهم ويتبعونهم كظلهم ويحفظون أشعارهم ويلقونها فى المناسبات ويقومون بوظيفة آلات التسجيل الصوتى، وفى ذات الوقت يتعلمون على أيديهم ويتخذون من أشعارهم نماذج يحتذونها. وكثيرا ما كان الشاعر يتفاخر بأنه حفظ أشعار كذا شاعرا من الشعراء الكبار. وعندنا أبو نواس مثلا، فإنه حين أراد أن ينظم الشعر ويلتحق بطائفة الشعراء المعترف بهم سأل أستاذَه خَلَفًا الأحمرَ: ماذا ينبغى أن يصنع؟ فنصحه أن يذهب ويحفظ ألفا من الشعر، فلما حفظها عاد إليه وأخبره، فقال له: اذهب وانْسَها ثم تعال. فلما نسيها فاجأه الأستاذ بأنه الآن يستطيع أن يبدأ نظم الشعر. كما كان النقاد يُعْلُون من شأن الموهبة. وهذا وذاك هو ما يقوله النقاد وعلماء النفس الآن، إذ يجعلون الموهبة أساس كل شىء مع تغذيتها وصقلها فى نفس الوقت بحفظ النصوص المشهود لها بالجمال والقوة. لكننا لا نجد للنقاد كلاما مثل هذا عن القارئ.

ثم إن الكاتب مبدع يصدِّر إبداعه للناس كى يقرأوه ويستمتعوا به وينظروا فيه ويقيِّموه، فهو مُصَدِّر مُرْسِل، والقارئ مستقبِلٌ مستورِد، وليس المصدِّر كالمستورد. ترى هل نساوى المستهلك بالمنتج؟ هل نساوى الشارى بالتاجر الذى جاب البلاد وسافر وقَلَّب البضائع واختار ما يصلح منها ثم أحضرها كى تكون غنيمة باردة بين يدى الشارى؟ هل نساوى الأستاذ بالتلميذ، والأستاذ قد فعل كل ما بوسعه كى يعلِّم التلميذ ويرقيه ويرفع مستواه العلمى والثقافى بوجه عام، بينما التلميذ مجرد مستفيد؟ فما بالنا بمن يريدون منا أن نرافئهم على فكرتهم المتهافتة التى تدعى أن القارئ أفضل من المبدع وأهم منه بل أن المبدع لم يصنع شيئا، والقارئ هو صانع كل شىء؟ بل هل نساوى الطباخ، الذى تعلم الطباخة وأحسنها وأتقنها ثم تفنن فى طبخ ما يأكله الآكلون، بمن يأكل طعامه، وهو مسترخٍ هانئ البال لم يتكلف شيئا فى الأكل سوى أنه مد يده فغمس اللقمة وحرك ماضِغَيْه وابتلع؟

إن الكاتب قد كتب، وما كتبه موجود فى الكتاب ينتظر القراء أن يأتوا ويطّلعوا عليه ويقرأوه. أما القول بأن الكتاب يُعَدّ غير موجود ما دام لم يحظ بقراءة القارئ له فكلام غير منطقى. ترى كيف يكون غير موجود، وله وجوده المادى أولا، ووجوده المعنوى ثانيا؟ هل تكون صفحاته بيضاء مثلا قبل أن يفتحه القارئ، ثم تستحيل صفحات مكتوبة فور وقوع عينيه عليها؟ ترى هل فى عينيه قوة سحرية تخلق الكلمات خلقا رغم عدم وجودها؟ وكيف يمكن أن يكون الأمر كما يقولون، وقد بذل فيه المؤلف وقته وجهده وفكره وإبداعه وأعمل فيه حاسته النقدية، وربما عرضه على أصدقائه وزملائه كى يوافوه بآرائهم فيه وملاحظاتهم عليه فيعيد فيه النظر ويصححه بناء عليها؟ أنقول له بكل بساطة وتنطع إنك لم تفعل شيئا من ذلك قط؟ لا بكل يقين. بل لو أن هناك شجرة مثلا فى موضع ما من بيداء واسعة لا تطرقها الأقدام أتكون تلك الشجرة غير موجودة حتى إذا ما ساقت الأقدار إلى هناك ضالا للطريق اخترقت الشجرةُ الأرض من باطنها وقامت واستطالت أغصانها وظهرت أوراقها وصارت هناك شجرة بعد أن لم تكن؟ ألا يكفى الكتاب أن صاحبه قد ألفه؟ ألا يكفى الشجرة أن أحدهم قد ألقى بذرة هناك فساق الله إليها سحابة أنزلت عليها مطرا تسبب فى نباتها؟ بل ألا يكفى أن الله مطلع على وجود الكتاب وعلى الشجرة ويدركهما حتى نقول إنهما موجودان؟

ومن الجهة الأخرى على القارئ أن يبذل جهده فى فهم ما كتبه الكاتب على وجهه الصحيح بكل ما فى وسعه وإمكانه، ومن ثم ينبغى أن يراعى عدة شرائط كى يضمن أن يفهم النص فهما سليما أو قريبا من السليم. أما لو تركنا القارئ يقرأ على النحو الذى يريد، أو حتى على النحو الذى يستطيعه لا يحاول أن يرتقى بحيث يكون أهلا للنص، لذهب ما كتبه الكاتب أدراج الرياح، وصار عندنا نصوص بعدد القراء، وبذلك يضيع الكاتب ويضيع إبداعه، ويتبقى القارئ، أو فلنقل: يتبقى القراء، مع أن القراء تابعون للكاتب، ولم يكونوا ليوجدوا لو لم يوجد الكاتب، إذ مهمتهم هى مطالعة ما كتبه المؤلف، فكيف نقلب الأمور رأسا على عقب ونضع كلا من الطرفين مكان الآخر ونفسد كل شىء. لقد أقبل القارئ على النص كى يعرف ما فيه، وعليه إذن أن يحرص على توفير كل ما يساعده على تأدية هذه المهمة لا أن يقول إن الكاتب ليست له قيمة وإن القيمة هى لى أنا وحدى. ذلك هو التنطع والجهل بعينه.

كما أنه بهذه الطريقة لن يكون هناك أى معنى لتقييم الكُتّاب، إذ على أى أساس سنقيّمهم؟ على ما كتبوا أم على ما يقوله القراء عنهم أم إننا سوف نتجاهلهم تماما لأنهم صاروا بعد أن أبدعوا ما أبدعوا غير موجودين؟ لكن من يقول هذا؟ إن هذا الموقف ليدل على خلل فى العقل والمنطق والخلق، إذ بدلا من تقدير المبدعين على إبداعهم وإمدادهم إيانا بذَوْب قلوبهم وعصارة عقولهم وخيالهم وثمار قراءاتهم وتطويرهم لأنفسهم وتحسينهم لقدراتهم باستمرار إذا بنا ندير لهم ظهورنا ونتناساهم ونَعُدُّهم قد صاروا فى عداد الأموات أو على الأقل: فى عداد المفقودين الذين لا يستطيع أهاليهم العثور عليهم.

كذلك فالقرآن كثيرا ما يصف نفسه بالإبانة وبأنه بلسان عربى، أى بأنه واضح ومفهوم: "ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون * قرآنا عربيا غير ذى عِوَج لعلهم

يتقون"، "إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون"، "وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم"، "ألر تلك آياتُ الكتابِ وقرآنٍ مُبينٍ"، "وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِى وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِى مُبِين"، "وكذلك أنزلناه قرآناعربيا وصرَّفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا"، "وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِى مُبِينٍ"، "كتابٌ فُصِّلَتْ آياتُه قرآنا عربيا لقوم يعلمون"، "ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا: لولا فُصِّلَتْ آياته. أأعجميٌّ وعربىٌّ؟"، "وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها"، "إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون"، "وهذا كتابٌ مصدِّقٌ لسانا عربيا لينذر الذين ظلموا وبُشْرَى للمحسنين". ومعنى هذا أنه يجب على القارئ أن يجعل وُكْدَه فهم النص القرآنى والتغلغل إلى أطوائه والالتصاق به وعدم الانفصال أو الابتعاد عنه. وبمناسبة تأكيد القرآن أنه نزل بلسان عربى كان من الغريب المريب أن يأتى المستشرق البريطانى ديفيد صمويل مرجليوث فى القرن العشرين فيزعم أن العرب لم تكن لهم لغة قومية بل كانت كل قبيلة تستعمل لهجتها فقط، وليست هناك لغة واحدة تجمع تلك القبائل. فمن أين إذن أتى هذا الشعر الجاهلى كله، وهو مكتوب بلغة عربية لم يكن لها وجود طبقا لما يهرف به ذلك المستشرق؟ يقول هذا، والقرآن يكرر مرارا أنه نزل بلسان عربى. فلو كان كلام القرآن غير صحيح لهب المشركون واليهود والنصارى يكذبون النبى ويتهمونه بالاختراع الباطل الذى لا ظل له من الحقيقة. وقراءة مرجليوث، كما نرى، قراءة خاطئة آثمة لأنها قراءة المعاند اللجوج الذى يكره الإذعان للحق الخارق للعين.

على أية حال فطَوَالَ التاريخ نجد المبدعين يفتخرون بفصاحتهم وبلاغتهم بمعنى أنهم بارعون فى غزو عقل القارئ وقلبه. فكيف يأتى بعض أصحاب هذه النظرية التى نحن بصددها ويلغون الكاتب، ويرفعون شأن القارئ؟ بل إن النبى نفسه عليه السلام قد قال: أنا أفصح العرب. ولو كان القارئ هو المهم لما اهتم النبى بوصف نفسه بالفصاحة، إذ العبرة عندئذ ستكون بما يقوله القارئ لا بما كتبه الكاتب أو نطق به القائل. كما كان عليه السلام حريصا على إيصال الرسالة إلى القارئ صحيحة بكل سبيل حتى إنه ليدعو إلى مراعاة مستوى كل قارئ حتى لا يخطئ الفهم: "حَدِّثوا النَّاسَ بما يعرِفونَ. أَتُريدونَ أَن يُكَذَّبَ اللَّهُ ورَسولُهُ؟". وكان النقاد العرب يقولون: "لكل مقام مقال". كما عابوا الغموض وأعلنوا ضيقهم به مثلما هو الحال فى موقفهم من بعض مطالع المتنبى وبعض أشعار أبى تمام رغم أنهما من أكبر وأعظم شعراء العرب. كذلك كان أولئك النقاد يدعون الشاعر إلى توخى كل ما من شأنه أن يجذب القارئ إلى النص ويحببه فيه ويلذه.

وإذا كنا نقول هذا عن الإبداع البشرى فما بالنا بالقرآن المجيد، وهو إبداع إلهى؟ إننا لو نظرنا إليه بعين طائفة ممن يقولون بتلك النظرية التى نحن بصددها لما عاد للقرآن أية أهمية، إذ العبرة لديهم بالقراءات المختلفة للقرآن الكريم. وفى هذه الحالة ستزول قدسية القرآن. ومن ثم لم يكن لمجىء محمد بالإسلام والقرآن أى داع أصلا ما دام كل واحد سيقرأ القرآن بالطريقة التى تَعِنّ له، وتُقْبَل قراءته وقراءات الآخرين كما هى، وتجمع هذه القراءات معا وينتقل الاهتمام إليها بدلا من الاهتمام

بالقرآن. ثم هل يصح أن نقول عن الله سبحانه إنه ليس له فضل فى إنتاج القرآن لأنه إنما حصله من القراءات التى قام بها، وإن الفضل من ثم إنما هو للقراء لا له سبحانه؟ إنه عز وجل هو خالق البشر والعقل والتفكير والشعور والعواطف والكتابة والقراءة، وهو خالق الكاتبين المبدعين، فكيف يقال إنه ليست له أهمية، وإن الأهمية كلها للقراء؟ ألا إن هذا لأمر مضحك. سوف يقال: ولكن أصحاب نظريتنا التى يدور حولها الكلام فى هذا الكتاب لا يؤمنون بنبوة مُحَّد ولا بالألوهية. وتعقيبنا على ذلك هو أنهم أحرار فيما يَرَوْن ويعتقدون، ونحن أحرار أيضا فيما نعتقد ونرى. لقد اتضح لى من خلال الدراسة الأسلوبية والمضمونية للقرآن وتحليلى للنص المجيد ولشخصية النبى الكريم اتضاحا حاسما لا مثنوية فيه أن مصدره سماوى إلهى. والذى نراه هو أن هذه النظرية تعانى من ثغرات واسعة لا يمكن رتقها، وأن ما نقوله أقوم سبيلا. وكما قدموا حيثياتهم فقد قدمنا ونقدم فى هذه الفصول التى فى يد القارئ الكريم حيثياتنا، وهى فيما نرى أصوب وأفضل وأقوى وأرسخ وأرصن وأعقل من حيثياتهم بما لا يقاس.

ونحن لا نقبل أبدا ولا يمكن أن نقبل أبدا قراءة دون ضوابط، ولأننا هنا بصدد قراءة القرآن فلا بد أن نورد الضوابط التى ينبغى أن يراعيها كل قارئ للكتاب الكريم، وإلا فشلت القراءة وابتعدت عن المعنى الصحيح. ومن هذه الضوابط، إلى جانب الذكاء والمرونة العقلية والإخلاص والمعرفة الواسعة والعميقة بموضوعات القرآن المجيد بطبيعة الحال، احترام السياق. والسياق فى موضوعنا ليس ضربا واحدا بل ضروبا: السياق اللغوى، والسياق التاريخى، والسياق القرآنى، والسياق الحديثى. فلا يصح أبدا أن يهجم هاجم على القرآن الكريم وهو لا يعرف العربية، أو يعرف العربية المعاصرة بينما يجهل العربية القديمة التى كانت سائدة أيام نزول الوحى على سيدنا رسول الله، وإلا لفسر "الذَّرَّة" مثلا بأنها الجزء المتناهى فى الصغر من المادة فى حين أن المقصود فى القرآن هو النملة الضئيلة، ولَفَسَّر "السيارة" فى قوله تعالى: "وجاءت سيارةٌ فأرسلوا وارِدَهم فأَدْلَى دَلْوَه" بالعربة ذات المحرك رغم أنها فى القرآن هى القافلة، ولَفَسَّر "الخير" فى قوله عز شأنه فى سياق الحديث عن الإنسان: "وإنه لِحُبِّ الخير لَشديد" على أنه نقيض الشر مع أن القرآن إنما يقصد به هنا الأموال والأملاك، ولفسَّر "الفرح" المنهىّ عنه بالسرور، فى الوقت الذى يريد به القرآن الغرور والبطر ونسيان الآخرة، ولفسَّر "اللَّعِب" لَدُنْ وصفه سبحانه للدنيا بأنها "لعبٌ ولهوٌ" على أنه تصريف الطاقة فى الجرى والقفز وتمضية الوقت فى السباق البدنى والعقلى وما إلى ذلك بغية تنشيط الجسم والعقل والتسرية عن النفس، بينما يقصد القرآن أن حياة الأرض عابرة زائلة وغير جوهرية على عكس الآخرة بأبديتها وجوهريتها، ولفسَّر "اليد والوجه والعرش" بالنسبة لله على أنها اليد والوجه والعرش كما نعرفها فى حياتنا البشرية مع أنها تعنى قدرة الله وعظمته وسلطانه الشامل العميم على الترتيب، ولفسَّر "الجهاد" فى كل الأحوال بمعنى الحرب ضد الكفار رغم أن "الجهاد" هو بذل الجهد لبلوغ الخير فى كل المجالات، ومن ثم فقوله تعالى لرسوله فى المرحلة المكية: "وجاهِدْهم به جهادا كبيرا" ليس معناه: حارِبْهم، بل معناه: اجتهد بكل قوتك لإيصال الوحى إليهم وإقناعهم بصحة ما فيه وكسبهم إلى صف الإيمان بالحجة والموعظة الحسنة.

وبالمناسبة فأنت إذا ما سألت معظم المصريين الآن عن معنى "الصعيد" فلن يخطر فى أذهانهم سوى القسم الجنوبى من بلادهم، ومن ثم كان من الصعب عليهم، لعدم معرفتهم بالأسلوب العربى القديم، أن يفهموا المقصود بقوله عز شأنه: "فتَيَمَّموا صعيدًا طيبًا" وأنه هو الطاهر من التراب والرمل وما إلى ذلك... بل قد يكون قارئ القرآن صحابيا، وتفوته مع ذلك نكتة بلاغية مثلا فيخطئ فهم النص، كما وقع لعَدِىّ بن حاتم حين أخذ الآية القرآنية التالية على حرفيتها، فأحضر خيطا أبيض وآخر أسود وظل يأكل فى خيمته كلما جاع طوال الليل إلى أن تبين له اللونان بعد طلوع النهار، وفاته أن الآية إنما تعنى النور والظلام لا الخيطين الماديين، إذ هى استعارة لا تعبير حقيقى. ونص الآية هو: "وكلوا واشربوا حتى يتبيَّن لكم الخيطُ الأبيضُ من الخيطِ الأسودِ من الفَجْر"... وهكذا.

وكثير من القراء اليوم لن يفهموا بسهولةٍ التراكيب التالية: "وإنّ كُلًّا لما لَيُوَفِّيَنَّهم ربُّك أعمالَهم" (بمعنى أنهم بكل تأكيد سوف يوفيهم جميعا ربُّك أعمالهم)، أو "وإنْ كُلٌّ لما جميعٌ لدينا مُحْضَرون" (يقينا سوف يُحْضَر إلينا كل واحد إحضارا)، "فلا تكن للخائنين خصيما" (لا تأخذ جانب الخائنين وتدافع عنهم)، "وكَأَيِّنْ من قريةٍ هى أشدُّ قوةً من قريتك التى أخرجتكَ أهلكناهم" (ما أكثر الأمم التى كانت أقوى من أمتك، ورغم ذلك أهلكناهم)، "ولا تكونوا كالتى نقضتْ غَزْلَها من بعد قوةٍ أنكاثًا تتخذون أيمانكم دَخَلًا بينكم أن تكون أُمَّةٌ هى أَرْبَى من أُمَّة" (بُغْيَة أن تكون أُمَّة هى أَرْبَى من أمة).

فهذا هو السياق اللغوى للنص القرآنى. أما السياق التاريخى فيأتى على رأسه "أسباب النزول"، إذ بدون الإحاطة بهذه الأسباب سوف نُلْفِى كثيرا جدا من المسلمين يصلّون متجهين إلى الجهة التى تعنّ لهم دون الالتزام بالقبلة اعتمادا على أن هناك آية تقول: "ولله المشرق والمغرب. فأينما تُوَلُّوا فثَمَّ وجهُ الله"، وفاتهم أن الآية إنما نزلت ردا على شعور بعض الصحابة بالحرج بعد اكتشافهم فى الصباح أنهم قد صَلَّوْا الليلة السابقة فى غير اتجاه القبلة بسبب الظلام الدامس وخطئهم فى تحديد جهة الكعبة أثناء السفر، فبيَّن القرآن لهم أن العبرة فى هذه الحالة بالنية والاجتهاد المخلص، وأنهم معذورون فى هذا الخطإ، وأن صلاتهم مقبولة. فهم، وإن كان استقبال القبلة قد أفلت منهم، لم يفلت منهم الأجر لأن الله ليس هنا أو هاهنا بل وجوده مطلق غير منحصر فى أى اتجاه، وهو سبحانه قد قبل منهم صلاتهم نظرا لظروفهم القهرية.

وبدون الاستعانة بأسباب النزول سوف يشرب بعض المسلمين الخمر بناء على فهمهم لما تقوله الآية التالية من سورة "المائدة": "ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جُنَاحٌ فيما طَعِمُوا إذا ما اتَّقَوْا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتَّقَوْا وآمنوا ثم اتَّقَوْا وأحسنوا. والله يحب المحسنين"، وهو ما فعله أحد المسلمين على عهد عمر بناء على ما فهمه من ظاهر الآية، الذى يقول إنه ليس على المسلم حرج فى أكل أى شىء أو شربه ما دام تقيا محسنا يعمل الصالحات، بينما معناها الحقيقى غير ذلك. لقد تساءل بعض الصحابة أيامَ النبى عن مصير المسلمين الصالحين الذين ماتوا وكانوا يشربون الخمر، إذ لم تكن أم الخبائث قد حُرِّمَتْ بعد، فوَضَّح القرآن أنهم ناجون يوم القيامة لتقواهم وإحسانهم

وعملهم الصالحات رغم أنهم كانوا يشربون المسكر. ذلك أن الإسلام لا يحاسب الناس بأثر رجعى، ولا عقوبة إلا بنص. وما دام النص القرآنى الخاص بتحريم الخمر لم يكن قد نزل بعد فليس على هؤلاء الصحابة حرج. كما أنه بعد نزوله لا ينسحب على الزمن الذى مضى. بل ما مضى قد مضى، وانتهى أمره. والمهم فى هذا كله هو التقوى والعمل الصالح سواء كان ذلك قبل تحريم الخمر أو بعده. فإن كان الشخص تقيا صالحا ومات وهو يشرب الخمر قبل تحريمها فهو ناجٍ، أما إن لم يكن مؤمنا ولا يعمل الصالحات وليس تقيا ولا صالحا والتزم، لسبب آخر، بترك الخمر بعد تحريمها فليس من الناجين.

وفى قوله تعالى جَدُّه: "إن الصفا والمروة من شعائر الله. فمَنْ حَجَّ البيتَ أو اعتمر فلا جُنَاح عليه أن يَطَّوَّف بهما" يمكن جدا وقوع كثير من المسلمين فى الظن بأن السعى بين الصفا والمروة هو فى أحسن أحواله غير محرَّم لكنه غير واجب، استنادا إلى ظاهر الآية من أنه ليس هناك إثم على الساعى بينهما، وهو ما يفهم منه أن هذا كل ما هنالك بحيث إذا لم يَسْعَ الحاجُّ بينهما فلا جُنَاح عليه من باب الأَوْلَى. لكن سبب نزولها يقلب المعنى رأسا على عقب، فقد كان بعض الصحابة يتحرج من ذلك السعى نظرا إلى أنه كان هناك صنم فوق كل من التلين فى الجاهلية، فظنوا أن من الأسلم عدم السعى بينهما تجنبا للتشبه بما كان يصنعه الوثنيون آنئذ. وفاتهم أن الصنمين قد أزيلا، وعاد السعى بين التلين إلى وضعه الأصلى قبل انحرافه على أيدى أهل الجاهلية. فالآية لا تقول عن السعى إنه لا بأس به، بل تزيل ما حاك فى نفوس بعض الصحابة جراء اختلاطه فى الجاهلية ببعض شعائر الوثنية، أما حكمه فباقٍ على الوجوب.

وأما السياق القرآنى فمعناه أنه يجب النظر إلى أى نص من كتاب الله فى ضوء النصوص القرآنية التى ترسم الخطوط العامة للإسلام، وبخاصة تلك التى تتعلق بموضوع النص المراد تفسيره. ولنأخذ مثالين على ما نقول: فأما المثال الأول فله صلة بما كتبه ابن سلام فى مقدمة كتابه: "طبقات الشعراء" عن النحل والانتحال فى الشعر الجاهلى، إذ كان من رأيه أن ما بلغنا من أشعار لعاد وثمود هى أشعار منحولة لهاتين القبيلتين زورا وبهتانا. وحجته فى ذلك، وهو ما يهمنها هنا، أن القرآن قد أخبرنا أنهما قد أبيدتا عن آخرهما طبقا لما جاء فى سورتى "النجم" و"الحاقة" على الترتيب: "وأنه أهلك عادًا الأولى * وثمودَ فما أَبْقَى"، "فأما ثمودُ فأُهْلِكوا بالطاغية * وأما عاد فأهلكوا بريحٍ صَرْصَرٍ عاتية * سخَّرها عليهم سبعَ ليالٍ وثمانيةَ أيامٍ حُسُومًا * فترى القوم فيها صَرْعَى كأنهم أعجازُ نخلٍ خاويةٍ * فهل ترى لهم من باقية؟". ومن ثم فالسؤال هو: من يا ترى حفظ أشعارهما وأداها إلينا رغم أن أحدا لم يبق منهما؟ وقد كنت، إلى بضع سنين مضت، أمرّ على تلك الحجة موافقا، مَثَلى مَثَلُ جميع الباحثين الذين تناولوا ابن سلام ونظريته فى النحل والانتحال، ثم بدا لى، ذات مرة فى ظروف لا تهم القارئ هنا، أن أراجع ما قاله القرآن عن عاد وثمود، فألفيته يقول بمنتهى الوضوح والصراحة فى سورة "هود" وغيرها إن الله قد نجى كلا من هود (نبىّ عاد) وصالح (نبىّ ثمود) والذين آمنوا معه ولم يهلكهم مع الكافرين. وهو ما يعنى أن حجة ابن سلام باطلة تمام البطلان، وأنه لا يصح الارتكان

إلى دعوى تدمير هاتين القبيلتين لأنها دعوى متهافتة لا حقيقة لها. والسبب هو أن ابن سلام توقف إزاء نصين قرآنيين يذكران أن تينك القبيلتين لم تتبقَّ منهما باقية، مغفلا نصوصا أخرى توضح أن الذين تم تدميرهم إنما هم الكفار المعاندون من القبيلتين لا كل القبيلتين مؤمنوهم وكافروهم وهود وصالح على السواء. لكن هذا لا يعنى بالضرورة أن ما بلغنا من شعر منسوب لعاد وثمود هو شعر صحيح، بل تلك قضية أخرى.

وأما المثال الآخر فيتعلق بالقتال. وفى هذه الأيام يُتَّهَم الإسلام دائما بأنه دينٌ عدوانىٌّ يسارع إلى قتال أعدائه بل إلى قتلهم. ويُشَار فى هذا الصدد إلى قوله تعالى مثلا فى سورة "التوبة": "فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كلَّ مَرْصَد" وقوله ﷺ من ذات السورة: "قاتِلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرِّمون ما حرَّم اللهُ ورسولُه ولا يَدِينون دينَ الحق من الذين أُوتُوا الكتابَ حتى يعطُوا الجزيةَ عن يدٍ وهم صاغرون". وفات من يشير إلى تَيْنِك الآيتين وأمثالهما قوله تعالى: "وقَاتِلُوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم، ولا تعتدوا. إن الله لا يحب المعتدين"، "وإن عاقبتم فعَاقِبوا بمِثْل ما عُوقِبْتم به. ولَإِنْ صبرتم لَهُوَ خيرٌ للصابرين"، "وإنْ جَنَحُوا للسَّلْم فاجنح لها وتوكل على الله".

كما أن قوله تعالى فى سورة "التوبة": "قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ" الخاص بقتال أهل الكتاب ليس فى الأمر بقتالهم من الباب للطاق، بل فى قتال الروم، الذين كانوا يُعِدّون العدة فى شمال بلاد العرب للهجوم على المسلمين والقضاء على دينهم ودولتهم. أما الآية الخامسة من ذات السورة: "فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ" فهى فى المشركين الذين كانت بينهم وبين المسلمين معاهدة سياسية بالموادعة لمدة معلومة لكنهم غدروا بالمسلمين وحلفائهم بعد توقيعها بقليل وقتلوا منهم طائفة دون أن يكون المسلمون ومن حالفوهم قد أساؤوا لهم قط. ومع هذا فإن القرآن لم يقل للمسلمين: هيا اهجموا عليهم فى الحال. بل قال: أعطوهم مهلة أربعة أشهر يتنقلون فيها بطول البلاد وعرضها حسبما يحلو لهم دون أن تتعرضوا لهم بشىء. بل زاد فأوجب على المسلمين أنهم متى أتاهم آتٍ من الكفار يستجير بهم فَلْيُجِيروه حتى يسمع كلام الله ثم فلْيُبْلِغوه المكان الذى يأمن فيه على نفسه تمام الأمان. ثم بعد ذلك كله حين تنتهى مهلة الأشهر الأربعة فعاقبوهم وأذيقوهم من نفس الكأس التى أذاقوا منها إخوانكم المغدور بهم. ومعروف أن المسلمين لم يقتلوا أحدا من المشركين عندئذ، وكأن الآيات قد نزلت للترهيب وتحطيم الروح المعنوية لديهم ليس إلا. ولقد تسارعت وتيرة الأحداث، وتم فتح مكة، ثم دخل أهلها فى دين الله، لينتشر الإسلام بعدها بإيقاعٍ أسرعَ حتى عَمَّ ضياؤه بلاد العرب جمعاء. فأين العدوانية هنا؟ ولن نتكلم عن راية السلم التى ظل المسلمون يرفعونها طوال الفترة المكية أيام كان الاضطهاد والأذى يحيق بهم من كل جانب وفى كل لحظة.

ويؤيد كلامَنا ما ذكره رسول الله فى بعض أحاديثه كقوله: "لا تَتَمَنَّوْا لقاء العدو. فإذا لقيتموهم فاثْبُتوا"، إذ لو كان قتال غير المسلمين واجبا من الباب للطاق لكان تمنّي لقاء العدو مكرمة لا يمكن أن ينهى عنها النبى عليه السلام. وفى واقعة الحديبية قال ﷺ عن المشركين وتعنتهم معه هو وأتباعه: "والذى نفسى بيدِه لا يسألونّي خُطَّةً يُعظِّمون فيها حُرُماتِ اللهِ إلَّا أعطَيْتُهم إيَّاها" مؤكدا أنه لن يبدأ أبدا بعدوان وأنه سوف يصابر المشركين إلى أبعد مدى. بل إنه، حين بلغه أوانئذ أن قريشا قد أقبلت تريد مقاتلتَه وصَدَّه عن زيارة البيت الحرام بالقوة الغشوم، صرَّح قائلا: "إنَّا لم نجِئْ لقتالِ أحدٍ، ولكنَّا جِئْنا معتمرين. فإنَّ قريشًا قد نَهَكَتْهم الحربُ وأضرَّت بهم. فإنْ شاؤوا مادَدْتُهم مدَّةً ويُخَلُّوا بيني وبيْنَ النَّاسِ: فإنْ ظهَرْنا وشاؤوا أنْ يدخُلوا فيما دخَل فيه النَّاسُ فَعَلُوا وقد جَمُّوا. وإنْ هم أَبَوْا فوالَّذى نفسى بيدِه لأُقاتِلَنَّهم على أمرى هذا حتَّى تنفرِدَ سالفتى أو لَيُنْفِذَنَّ اللهُ أمرَه". فكما ترى كان عليه السلام حريصا على السلم إلى آخر المدى، أما الحرب فعندما لا يكون من الحرب مناص. وقد تجلى ذلك فى المعاهدة التى كتبت بينه وبينهم عقيبئذ، إذ قَبِل الشروط المجحفة التى أملاها المشركون على المسلمين، وساءت كثيرا من الصحابة، ومع هذا ظل الرسول على موقفه.

ثم إذا كانت سياسة القرآن هى العدوان على المخالفين مهما كانوا له من المسالمين فلِمَ كتب النبى عليه السلام صحيفة المدينة إرساءً لأسس التعايش السلمى بين فئات سكانها من أوس وخزرج ومهاجرين ويهود؟ لقد كان الأحرى به أن ينقضَّ على اليهود فور هجرته قبل أن يستفيقوا ويقضى عليهم بكل سهولة وسلاسة. ولماذا لم يقتل مشركى مكة لدن الفتح منتهزا ما كانوا عليه عقب ذلك من ضعف وتهافت بعد الهزيمة النكراء التى حلت بهم؟ لقد كانت كلمته لهم: "اذهبوا، فأنتم الطُّلَقاء"، تلك الكلمة التى سكنت مسامع التاريخ ولم تغادرها منذ ذلك اليوم الخالد. وقد رفض ﷺ ما ردده أحد الصحابة اليثربيين حين قال فى ذلك اليوم العصيب تعبيرا عن نيته فى تطيير رؤوس المكيين عند دخوله المدينة المقدسة: "اليومَ يومُ الملحمة. اليومَ تُسْتَحَلّ الحرمة"، ونهاه عن ذلك، ونحاه عن القيادة فورا. وهذه الأمثلة تبين لنا وجوب الاستعانة على تفسير القرآن بالسياق الحديثى أيضا.

ومن هذا الباب كذلك ما رواه المغيرة بن شعبة فى قوله: "لما قدمتُ نجرانَ سألونى فقالوا: إنكم تقرأونَ: "يَا أُخْتَ هَارُونَ"، وموسى قَبْلَ عيسى بكذا وكذا. فلما قدمتُ على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ سألتُه عن ذلك، فقال: إنهم كانوا يُسَمُّونَ بأنبيائِهم والصالحين قبلهم". يقصد ﷺ أن أم المسيح ليست أختا لهارون على الحقيقة، لكنْ كان من عادة الإسرائيليين أن ينسبوا ناسا منهم إلى المشاهير الماضين من بنى جلدتهم رغم انتفاء صلات الدم بين الطرفين. وهو ما تقوله دوائر المعارف الكتابية من أن كلمات "أب وابن وأخ وأخت" كثيرا ما تستخدم فى الكتاب المقدس على نحو رمزى يدخل تحته بكل أريحيةٍ، وبعدة اعتبارات فى منتهى الوجاهة، مناداةُ الإسرائيليين لمريم أم عيسى عليهما السلام بـ"يا أخت هارون" طبقا لما قاله رسول الله عليه الصلاة والسلام. ثم إن القرآن لم يقل إن مريم أخت هارون، بل ذكر أن بنى إسرائيل هم الذين نادَوْها بذلك.

وهذا فيما يتعلق بالأمور الدينية وما أشبهها، وإلا فتفسير القرآن أَحْرَى أن يستعين بكل ألوان المعارف والعلوم والفنون من تاريخ وجغرافية وطب وفلك وكيمياء وفيزياء ونفس واجتماع وتربية ونحت وتصوير... إلخ. وقد كنت فى صغرى مثلا أمرّ على قوله تعالى فى سورة "الفجر": "إِرَمَ ذاتِ العِمَاد * التى لم يُخْلَقْ مثلُها فى البلاد * وثمودَ الذين جابوا الصخر بالْوَادِ" فلا تستثير منى انفعالا ولا تُحَصِّل منى التفاتا، إذ كنت آنئذ لا أحقق معنى الكلام عن إِرَم ولا أفهم وجه تميز عمادها، كما لم أكن أتصور أن ثمود قد فعلت أكثر من إحداث فتحات بدائية فى الجبال وتحويل باطنها كهوفا ساذجة يسكنونها، إلى أن قرأت منذ بضعة عشر عاما أن إِرَمَ كانت متقدمة فى فن العمارة حتى لقد كانت أعمدة مبانيها أضخم أعمدة فى زمنها. وبالمثل لم تكن ثمود تسكن مغاور وكهوفا وحشية فى جوف الجبال بل نحتت فيها قصورا رائعة مزخرفة بديعة مما لا يستطيعه كثير منا اليوم. وقد رأيت صورا لبعض تلك القصور فشُدِهْتُ لما شاهدتُ. والفضل فى هذا وذاك إنما يرجع إلى تقدم عِلْمَيِ التاريخ والجغرافية واكتشافاتهما المذهلة التى لا تتوقف. ومن هنا صككت شعارا علميا فى كتابى: "مسير التفسير" هو "كل العلوم فى خدمة التفسير".

كذلك فقوله تعالى فى معرض الحديث عن خلق الجنين وأطوار تشكله: "يخلقكم فى بطون أمهاتكم خَلْقًا من بعد خَلْقٍ فى ظُلُماتٍ ثلاث" يمكن تصوره عن طريق علم التشريح. فكما قرأتُ فى بعض المواقع العلمية: "يحاط الجنين فى داخل الرحم بمجموعة من الأغشية هى من الداخل إلى الخارج كما يلى: غشاء السلى أو الرهل (amnion)، والغشاء المَشِيمِىّ (chorion)، والغشاء الساقط (decidua). وهذه الأغشية الثلاثة تحيط بالجنين إحاطة كاملة فتجعله فى ظلمة شاملة هى الظلمة الأولى. ويحيط بأغشية الجنين جدار الرحم، وهو جدار سميك يتكون من ثلاث طبقات تحدث الظلمة الكاملة الثانية حول الجنين وأغشيته. والرحم المحتوى على الجنين وأغشيته فى ظلمتين متتاليتين يقع فى وسط الحوض، ويحاط إحاطة كاملة بالبدن المكون من كلٍّ من البطن والظهر، كلاهما يحدث الظلمة الثالثة تصديقا لقول ربنا تبارك وتعالى".

ويقول بعض المنتسبين إلى الإسلام إنه ينبغى مواجهة القرآن مباشرة دون أن نشغل أنفسنا بما كتبه الفقهاء والمفسرون حوله توضيحا وشرحا. فإذا كان المقصود هو إهمال كلام العلماء حول كتاب الله تماما ودخول كل من هب ودب على الكتاب المجيد دون أدوات تساعد على فهمه فهذا ضلال علمى مبين. أما إذا كان المقصود بهذه الدعوة هو أن الواجب علينا، بعد الاطلاع على ما قاله الفقهاء والمفسرون فى كتاب الله، الاجتهاد فى ألا يقف ما قالوه حائلا بيننا وبين كتاب الله فلا نزيد عن تكرير ما قالوه بعُجَره وبُجَره ولا نأتى بشىء جديد أو صحيح، ويكون ما وصَلْنا إليه هو مجرد اجترار لما قيل من قبل مهما يكن خاطئا أو ضعيفا فأنا حينئذ معه، ولكن بشرط أن يكون الشخص أهلا لهذا الأمر علما وعقلا وإخلاصا.

ويمكننى أن أضرب مثالا على ما أقول. فلقد غبر علىَّ زمان كنت أردد فيه ما درستُه فى الفقه الشافعى وأنا ولد صغير فى الأزهر من أن المسح بالتراب على اليدين ينبغى أن يكون إلى المرفقين

قياسا على التوضؤ مع أن آيَتَيِ التيمم تتكلمان عن مسح اليدين لا غير دون أن تحددا ذلك بكلمة "إلى المرفقين"، التى وردت فى آية الوضوء. كذلك كنت أتصور أن التيمم فى السفر لا يصح إلا إذا عدم الماء مع أن الآية لا تقول ذلك بل تسوق السفر والمرض وعدم الماء أسبابا ثلاثة تجيز التيمم، وإلا لأشارت إلى عدم الماء وحده دون النص على السفر. وقد نبهنى إلى ذلك ما كتبه الشيخ محمد عبده والشيخ شلتوت فى هذه النقطة، وألفيت ما كتباه مقنعا أشد الإقناع، فأخذت به من يومئذ.

ولإعطاء فكرة عن الأخطاء التى يرتكبها بعض مفسرى القرآن نورد الأمثلة التالية: ففى تفسير الصوفية للقرآن نراهم يهتمون بالبحث عما فى آياته من إشارات لا تدل عليها دلالة مباشرة، بل يحتاج الأمر فيها إلى تأويلٍ، وأحيانا إلى لَيٍّ للنص عن ظاهره. وكثيرا ما يُغَشِّى تأويلاتِهم التكلّفُ الثقيل الذى يفسد تذوقنا حتى للبسملة كما صنع القشيرى مثلا عند بداية تفسيره لسورة "الفاتحة"، إذ يقف أمام كل حرف من حروف البسملة قائلا: "وقوم عند ذكر هذه الآية (يقصد آية "البسملة") يتذكرون من الباء بِرَّه (أى بِرّ الله) بأوليائه، ومن السين سِرَّه مع أصفيائه، ومن الميم مِنَّتَه على أهل ولايته، فيعلمون أنهم ببرّه عرفوا سِرّه، وبمنته عليهم حفظوا أمره، وبه سبحانه وتعالى عرفوا قدره. وقوم عند سماع "بسم الله" تذكروا بالباء براءة الله سبحانه وتعالى من كل سوء، وبالسين سلامته سبحانه عن كل عيب، وبالميم مجده سبحانه بعزّ وَصْفه. وآخرون يذكرون عند الباء بهاءه، وعند السين سناءه، وعند الميم ملكه. فلما أعاد الله سبحانه وتعالى هذه الآية، أعنى "بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ"، فى كل سورة وثبت أنها منها أردنا أن نذكر فى كل سورة من إشارات هذه الآية كلمات غير مكررة، وإشارات غير معادة". فالقشيرى، كما ترى، يُبْعِد النُّجْعَة، إذ من غير المتصوَّر أن يقف قارئ القرآن أمام البسملة فى كل مرة يتلوها فيمعن النظر فى كل حرف منها على النحو الذى ذكره القشيرى، فضلا عن أن يستطيع القشيرى أو غيره استقصاء ما يعنّ لجميع فئات القراء من معانٍ عند قراءتهم للبسملة ويسجل كل ذلك على اختلافه. إن هذا لهو التكلف السخيف الباهظ المزهق للأنفاس!

ونفس هذا التكلف نجده فى تناوله للحروف المقطعة التى تبتدئ بها بعض السور، إذ ها هو ذا لدن تفسيرها فى أول "البقرة"، وهى السورة التى تلى "الفاتحة" مباشرة، يقول: "هذه الحروف المقطعة فى أوائل السورة من المتشابِه الذى لا يعلم تأويله إلا الله عند قوم. ويقولون: لكل كتاب سر، وسر الله فى القرآن هذه الحروف المقطعة. وعند قوم أنها مفاتح أسمائه: فالألف من اسم "الله"، واللام يدل على اسمه "اللطيف"، والميم يدل على اسمه: "المجيد" و"الملك". وقيل: أقسم الله بهذه الحروف لشرفها لأنها بسائط أسمائه وخطابه. وقيل إنها أسماء السور. وقيل: الألف تدل على اسم "الله"، واللام تدل على اسم "جبريل"، والميم تدل على اسم "محمَّد" ﷺ. فهذا الكتاب نزل من الله على لسان جبريل إلى محمَّد ﷺ. والألِف من بين سائر الحروف انفردت عن أشكالها بأنها لا تتصل بحرف فى الخط وسائر الحروف يتصل بها إلا حروف يسيرة، فينتبه العبد عند تأمل هذه الصفة إلى احتياج الخلق بجملتهم إليه، واستغنائه عن الجميع. ويقال: يتذكر العبد المخلص مِنْ حالة الألف تَقَدُّسَ الحق سبحانه وتعالى عن التخصص بالمكان، فإن سائر الحروف لها محل من الحَلَقْ أو الشفة أو اللسان إلى غيره من المدارج

غير الألف، فإنها هوائية لا تضاف إلى محل. ويقال: الإشارة منها إلى انفراد العبد لله سبحانه وتعالى فيكون كالألف لا يتصل بحرف، ولا يزول عن حالة الاستقامة والانتصاب بين يديه. ويقال: يطالب العبد فى سره عند مخاطبته بالألف بانفراد القلب إلى الله تعالى، وعند مخاطبته باللام بلين جانبه فى مراعاة حقه، وعند سماع الميم بموافقة أمره فيما يكلفه. ويقال: اختص كل حرف بصيغة مخصوصة: فانفردت الألف باستواء القامة والتميز عن الاتصال بشيء من أضرابها من الحروف، فجُعِل لها صدر الكتاب إشارة إلى أن مَنْ تجرَّد عن الاتصال بالأمثال والأشغال حَظِى بالرتبة العليا، وفاز بالدرجة القصوى، وصلح للتخاطب بالحروف المنفردة التى هى غير مركَّبة، على سُنّة الأحباب فى ستر الحال وإخفاء الأمر على الأجنبى من القصة... ويقال: تكثر العبارات للعموم، والرموز والإشارات للخصوص. أَسْمَعَ موسى كلامَه فى ألْف موطن، وقال لنبيّنا مُحَّد ﷺ: أَلِفْ... وقال عليه السلام: أُوتِيتُ جوامع الكلِم فاختُصِرَ لى الكلامُ اختصارا".

وفى تفسير "الم" الموجودة فى أول سورة "الرعد" يقول: "أَقْسَم بما تدل عليه هذه الحروف من أسمائه إنَّ هذه آيات الكتاب الذى أخبرتُ أَنِّى أُنَزِّلُ عليك. فالألف تشير إلى اسم "الله"، واللام تشير إلى اسم "اللطيف"، والميم تشير إلى "المجيد"، والراء تشير إلى اسم "الرحيم". قال: بسم الله اللطيف المجيد الرحيم إن هذه آياتُ الكتاب الذى أخبرتُ أنى أنزله على مُحَّد ﷺ". وبالله عليك أيها القارئ ما الذى منع أن يقول عز وجلّ: "بسم الله اللطيف المجيد الرحيم" مرة واحدة بدلا من "بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ" ما دام هذا هو مراده سبحانه؟ ومن أين علم القشيرى أو غير القشيرى أن الله قد أراد هذا المعنى الذى ذكره، ما دام لم يَرِد ذلك عن النبى عليه السلام؟ أعنده علم الغيب فهو يرى؟

ومن هذه الأخطاء ما كتبه القشيرى أيضا فى تفسير قوله عز من قائل عن داود عليه السلام: "فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ"، إذ ذكر أن داود "أخذ فى التضرع، وجاء فى التفسير أنه سجد أربعين يومًا لا يرفع رأسَه من السجود إلا (للصلاة) المكتوبة عليه، وأخذ يبكى حتى نَبَتَ العُشبُ من دموعه، ولم يأكل ولم يشرب فى تلك المدة حتى أوحى اللَّهُ إليه بالمغفرة، فقال: يا رب، فكيف بحديث الخَصْم؟ فقال: إنى استوهبْتُك منه". فأنى للقشيرى ذلك الزعم؟ وكيف يمكن تصور عشب فى قصر داود أو محرابه؟ أَوَكانت أرضيته من تراب؟ وهل دموع العين من الغزارة بحيث تنبت عشبا؟ وهل يعقل أن يبقى داود أو غيره أربعين يوما لا يأكل ولا يشرب ولا يحتاج إلى دخول حمام ولا يكلم أحدا أو يكلمه أحد؟ والطريف أن القشيرى عاد فقال: "وقيل: كان لا يشرب الماء إلا ممزوجًا بدموعه". أى أنه كان يشرب، وإن كان الماء الذى يشربه ممزوجا بالدموع. ولقد قال القرآن إنه خَرّ راكعا وأناب، ولم يزد، فلم التزيد إذن؟ أترى القرآن، لو كان عليه السلام ظل ساجدا أربعين يوما، يسكت عن هذا فلا يذكره؟ ثم إن القرآن يقول إنه خر راكعا، ولم يقل: خر ساجدا! وأخيرا أَىُّ ذنب ذلك الذى يثقل على ضمير داود حتى يستمر ساجدا ندما وابتهالا بسببه طيلة تلك المدة؟ أَوَيقصد القشيرى أنه، عليه

السلام، قد فَجَرَ بامرأة أوريا الحثى كما جاء فى العهد القديم؟ إذن تكون كارثة! لكن القشيرى لم يذكر ما فرط منه ﷺ صراحة، بل اكتفى بالإشارة إلى "الفتنة الموعودة"!

ومن هذه القراءات الخاطئة كذلك أن الزمخشرى المعتزلى مثلا يقول بمحاسبة الدوابّ، إذ قال فى تفسير الآية ٣٨ من سورة "الأنعام": "وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ":... يعنى الأمم كلها من الدواب والطير، فيعوضها وينصف بعضها من بعض كما رُوِى أنه يأخذ للجَمّاء من القرناء". ووجه العجب فى ذلك هو أننا، سواء فسرنا الرسول فى قوله سبحانه: "وما كنا معذِّبين حتى نبعث رسولا" بأنه هو العقل الإنسانى أو فسرناه بأنه الرسول البشر، ستظل الدواب بمنجاة من الحساب: فلا الله أرسل لها رسولا بشرا أو حتى رسولا من أبناء جنسها من الدواب أمثالها، ولا هو سبحانه قد زوَّدها بعقل كعقل البشر تفهم به قضايا الوجود والإيمان والخير والشر والعدل والظلم والثواب والعقاب. كما أن الله سبحانه بطول القرآن الكريم وعرضه لم يذكر فى معرض المسؤولية والحساب والدعوة إلى الإيمان والخلق المستقيم والسلوك الكريم إلا الإنس والجن. وليس هناك فيما يخص الحيوانات إلا قوله عز جلاله فى سورة "التكوير": "وإذا الوحوش حُشِرَتْ"، والحشر فيها على معناه العام، وهو السَّوْق والجَمْع، ولا كلام فيها من قريب أو من بعيد عن حساب تلك الوحوش أو تعذيبها. بل لقد تكرر فى القرآن الكريم زرايته سبحانه على الكافرين عن طريق تشبيههم بالأنعام فى أنهم لا يفكرون، بما يدل على أن العجماوات لا عقل لها تفهم به دعوة الإيمان والكلام عن تهذيب الخُلُق والثواب والعقاب.

والمعروف أن الحيوانات لم تزوَّد إلا بغرائز فطرية تحفظ عليها حياتها، ولا عقل لديها كعقلنا، وإلا فلماذا لم تنشئ مثلما أنشأ البشر الحضارات، وتبتكر المخترعات، وتقيم المؤسسات التربوية والقانونية، وتبنى التنظيمات الإدارية؟ ومن هنا كان الناس فى سِبَابهم يصفون من يريدون تحقيره فى عقله وسلوكه وعدم قابليته للترقى والفهم بأنه "حيوان"! أما ما هو منسوب للرسول من أن الله عزّ وجلّ "يقتص للجَمّاء من القَرْناء يوم القيامة" فهو، كما جاء فى موسوعة الحديث فى موقع "الدرر السنية"، حديث منكر. وإذا كان هناك حديث آخر رُوَاته رُوَاة الصحيح، وهو: "عن أبى هريرة فى قوله: "إلا أممٌ أمثالكم ما فرَّطْنا فى الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون"، قال: يحشر الخلق كلهم يوم القيامة: البهائم والدواب والطير وكل شيء، فيبلغ من عدل الله يومئذ أن يأخذ للجَمّاء من القَرْناء. قال: ثم يقول: كونى ترابا. قال: فلذلك يقول الكافر: "يا ليتنى كنت ترابا"..."، فينبغى ملاحظة ما فيه من نص على أنه سبحانه وتعالى يصيِّرها عقب ذلك إلى تراب. ومعنى ذلك، إذا أخذنا هذا الحديث بظاهره، أن كل ما سيفعله الله هو معاقبة الشرير منها فحَسْب، فكيف يكتفى سبحانه بتعذيب الشرير، ثم يترك الخيّر دون ثواب؟ هل الله سبحانه وتعالى رب تعذيب وعقاب فقط؟ فأين عدله وإنصافه ورحمته وكرمه وبره ولطفه؟ وهل نفهم من هذا الحديث أن الحيوانات ليست لها توبة؟ ذلك أنه لم يشر إلى هذا من قريب أو من بعيد، بل إلى العقاب فقط. وبالمثل ما فائدة الحساب والعقاب إذا كانت ستصير ترابا فى الحال؟ ثم إن الوحوش إذا لم تَعْتَدِ على بعضها البعض فكيف تدبر

الثعالب والذئاب والأسود والضباع والنمور مثلا معيشتها؟ أوتقف فى الشوارع تتصدى للناس وقد عصبت عيونها وبكت ورفعت صوتها بعبارات الشحاتين التى تشحتف القلب كى يمن عليها المارة ببعض لقم الخبز؟ لكن هل يمكن أن تأكل هذه الوحوش الخبز، وهى التى تعودت على أكل هُبَر اللحم الغريض المذبوح لتوه والذى لم يدخله غش ثم الحبس بعده ببراد شاى معتبر؟ لهذا كله فإننى أفهم هذا الحديث الشريف فهما مجازيا على أساس أن المقصود تصوير دقة الحساب الإلهى يوم القيامة ليس إلا.

وفى شرح الطبرى لقوله عز شأنه من سورة "الطلاق": "اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ" نراه يورد حديثا غريبا لا أدرى كيف واتته نفسه على السكوت على ما جاء فيه من كلام منسوب للنبى عليه السلام يجرى على النحو التالى: "والذى نفسى بيده لو دلَّى رجل بحبل حتى يبلغ أسفل الأرضين السابعة لهبط على الله" بما يفيد من أنه سبحانه وتعالى متحيز فى مكان. فهل هذا مما يليق بذاته العلية، وهو الذى خلق المكانَ والزمانَ، والأرض جميعا قبضتُه يوم القيامة والسماواتُ مطوياتٌ بيمينه؟ وهل هذا مما يصحّ أن يمرّ به مفسر كبير كالطبرى دون أن يفنّده، ودعنا من أن يورده أصلا فى تفسيره؟

وفى آيات الإفك التى يعرف القاصى والدانى أنها نزلت تبرئةً للسيدة عائشة رضى الله عنها مما بُهِتَتْ به فى قصة ضياع العِقْد الذى فقدته فى الصحراء مَرْجِعَها هى والنبى والمسلمين من غزوة بنى المصطلق، نرى القُمِّيَّ الشيعيَّ مثلا يصرف القصة عن حقيقتها حتى لا يُضْطَرّ هو وأمثاله إلى الإقرار بأى فضل للصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق، إذ زعم أن الآيات المذكورة إنما نزلت لإدانة عائشة بسبب اتهامها لمارية القبطية أم إبراهيم ابن رسول الله فى سمعتها وسلوكها. ولْنقرأ ما كتبه فى تفسير قوله تعالى من سورة "النور": "إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُوا بِٱلإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لاَ تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِىءٍ مِّنْهُمْ مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ". قال: "أما قوله: "إن الذين جاؤا بالإفك عصبةٌ منكم لا تحسبوه شرًّا لكم بل هو خير لكم" فإن العامة رَوَوْا أنها نزلت فى عائشة وما رُمِيَتْ به فى غزوة بنى المصطلق من خزاعة، وأما الخاصة فإنهم رَوَوْا أنها نزلت فى مارية القبطية وما رمتها به عائشة والمنافقات. حدثنا مُحَمَّد بن جعفر قال: حدثنا مُحَمَّد بن عيسى عن الحسن بن على بن فضال قال: حدثنا عبد الله بن بكير عن زرارة، قال: سمعت أبا جعفر عليهما السلام يقول: لما مات إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وآله حزن عليه حزنا شديدا، فقالت عائشة: ما الذى يحزنك عليه؟ فما هو إلا ابن جُرَيْج. فبعث رسول الله صلى الله عليه وآله عليًّا وأمره بقتله، فذهب على عليه السلام إليه ومعه السيف. وكان جريج القبطى فى حائط، وضرب على عليه السلام باب البستان، فأقبل إليه جريج ليفتح له الباب. فلما رأى عليا عليه السلام عرف فى وجهه الغضب فأدبر راجعا ولم يفتح الباب. فوثب على عليه السلام على الحائط ونزل إلى البستان واتبعه وولى جريج مدبرا. فلما خشى أن يرهقه صعد فى نخلة، وصعد على عليه السلام فى أثره. فلما دنا منه رمى بنفسه من فوق النخلة فبدت عورته، فإذا ليس له ما للرجال ولا ما للنساء. فانصرف على عليه السلام إلى

النبى صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله، إذا بعثتنى فى الأمر أكون فيه كالمسمار المحمى فى الوبر أم أتثبت؟ قال: فقال: لا بل تتثبت. فقال: والذى بعثك بالحق ما له ما للرجال ولا ما للنساء. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: الحمد لله الذى يصرف عنا السوء أهل البيت".

وبادئ ذى بدء نلفت النظر إلى كلمتى "العامة" و"الخاصة" فى النص السابق: فالعامة هم أهل السنة، والخاصة هم المتشيعون. ومغزى إطلاقهما واضح لا يحتاج منى إلى أى شرح، فهما تتكلمان من تلقاء نفسيهما. كذلك نلفت النظر إلى وضع الكاتب لعائشة مع المنافقات فى خانة واحدة واتهامهن جميعا بنفس الجرم، ألا وهو قذف مارية فى عرضها. وثالثا لا أتصور أبدا النبى يخرج على مبدإ التثبت قبل إيقاع العقوبة بالمتهم، فلعله برىء، إذ تقول الرواية إنه عليه السلام ما إن سمع التهمة من ضَرّة فى ضَرّتها حتى بادر بإرسال علىّ لقتل جريج دون أن يكلف نفسه أن يسألها ولو عن مصدر الخبر. ورابعا كيف يأمر بقتل جريج ويترك شريكته فى الإثم ما دام قد صدّق أن الأمر وقع كما قالت عائشة فيما نُسِب لها زورا وبهتانا؟ ولقد كان النبى يتريث أشد التريث فى مسائل الزنا وعقوبته حتى إنه إذا أتاه شخص وأقرّ من تلقاء نفسه بمواقعة تلك الفاحشة كان يراجعه مرارا ويفتح له الباب بعد الباب لعله يرجع ويتوب ولا يعود لذلك أبدا. بل إنه كان يستحب الستر فى تلك الأمور ولا يرتاح لمن يأتيه شاهدا على أحد بالزنا قائلا له: لو سترتهما بثوبك لكان أفضل. فكيف يسارع هنا إذن إلى الأمر بتوقيع العقوبة على متهم دون أن يتثبت من التهمة المنسوبة له، بل دون أن يعطيه الفرصة للدفاع عن نفسه؟ ثم إن موقفه من اتهام عائشة فى عِرْضها قد اختلف عن ذلك اختلافا تاما، فلم يسارع بعقابها رغم أن الشائعات التى تلوك سيرتها كانت تتطاير فى أرجاء المدينة. كذلك كيف نسى ملفقو القصة أن عائشة وأباها متَّهمان عند رسول الله حسبما يفترون عليهما؟ فكيف صدّق الرسول عليه الصلاة والسلام بهذه البساطة امرأة يزعم الشيعة أنها منافقة بنت منافق؟ كذلك كيف يرمى جريج نفسه من فوق النخلة دون أن تنكسر أضلاعه؟ بل كيف يفكر فى الرمى بنفسه من فوقها أصلا ويقدم على ذلك الخطر الفظيع؟ وأغرب من هذا أن تمر الرواية على حادثة السقوط من فوق النخلة دون أن تعلق بكلمة واحدة على ما حدث له من جرائه! وأخيرا وليس آخرا كيف نوفق بين ما تقوله الرواية من أنه عليه السلام قد بعث عليا لقتل جريج وما قاله ﷺ هو نفسه لابن أبى طالب بأنه ينبغى أن يتثبت قبل أن يتعرض لجريج؟

وقبل ذلك كله كيف يريدنا هؤلاء أن نتجاهل قصة الإفك الحقيقية التى تورط فيها حسان ومِسْطَح بن أُثَاثة وحَمْنَة بنت جحش وابن أبى سلول وغيرهم وما يتصل بذلك من قصص معروفة فى كتب الحديث والسيرة والتاريخ؟ ليس أمامنا إلا أحد أمرين: إما أن عائشة لم تُتَّهَم أصلا، ومن ثم فمن يا ترى هو صاحب قصة الإفك الأخرى التى اتُّهِمَتْ فيها عائشة؟ ليس أمامنا فى هذه الحالة إلا أن نقول إنه فريق يبجّل عائشة ويريد أن يقول إن الله برأها من فوق سبع سماوات كى يكون ذلك شرفا لها. لكن هل يعقل أن يقدم من يبجّلون عائشة على رميها أولا فى عرضها حتى يتسنى لهم الزعم بأن السماء قد برأتها؟ ذلك أمر لا يدخل العقل. وإما أن عائشة قد اتُّهِمَتْ فعلا فى عرضها. فهل

يعقل، والأمر هذا، أن يتجاهل القرآن المسألة وكأنها لم تقع فلا يتكلم عنها بوصفها موضوعا غير ذى شأن؟ ذلك أيضا أمر لا يمكن أن يتقبله العقل. كما أننا حين ننظر فى آيات سورة "النور" الخاصة بقضية الإفك نرى أن الكلام من أوله إلى آخره إنما يستخدم ضمير جماعة الذكور بما يدل على أن المتهمِين هم رجال أو خليط من رجال ونساء على الأقل، لا جماعة من النساء فقط هن عائشة والمنافقات كما تزعم الرواية الآثمة. وفوق ذلك فالقرآن يشير إلى "زعيمٍ" رجلٍ لا إلى "زعيمةٍ" امرأةٍ لتلك الفرية: "والذى تَوَلَّى كِبْرَه منهم له عذابٌ أليم". ثم لقد أرسى القرآن الحكم الشرعى فى تلك الظروف، وهو الإتيان بأربعة شهداء، فكيف تجاهل النبى هذا كله وبعث عليًّا فى الحال ومعه السيف كى يقتل جريج دون توفر أربعة شهود؟

لهذا نجد رواية أخرى لتلك القصة عند القمى فى تفسير قوله تعالى من سورة "الحجرات": "يا أيها الذين آمنوا إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين"، إذ أضاف الكلام التالى: "فأتى به رسول الله صلّى الله عليه وآله، فقال له: ما شأنك يا جريج؟ فقال: يا رسول الله، إنّ القبط يَجُبّون حشمهم ومن يدخل إلى أهاليهم، والقبطيون لا يأنسون الاّ بالقبطّيين. فبعثنى أبوها لأدخل اليها وأخدمها وأُونِسها". وهو كلام يدابر العقل، إذ معناه أن الرسول لم يكن يعرف كل تلك المدة لم جاء جريج مع مارية من مصر، وأن جريج كان يخدم مارية طوال الوقت ويدخل عليها ويخرج ويقضى لها مطالبها دون علم الرسول. ومعناه قبل ذلك أن القرآن يتهم رسول الله بأنه قد أقدم بجهالة على معاقبة جريج وكاد أن يصبح نادما على ما فعل لولا لطف الله الذى أراد أن يكشف حقيقة أمره وبراءته بوقوعه الدِّرَامِيّ من فوق النخلة. ثم إن الرواية تذكر أن أباها هو الذى أرسل جريج هذا فى رفقة ابنته، مع أننا نعرف أنها لم تكن فتاة حرة، بل جارية أرسلها المقوقس لا أبوها. فهذه ثغرة خطيرة فى الرواية. كذلك هناك صعود جريج النخلة، وهو ليس حَلًّا لأنه لا يستطيع أن يبقى فوقها إلى الأبد، وإن كان صعود علىٍّ كرم الله وجهه النخلة وراءه أبعث على الاستغراب والتعجب، إذ ما الداعى له، وجريج لا يمكن أن يطول مكثه هناك، بل لا بد أن ينزل، وبسرعة. على الأقل حين يقرص بطنه الجوع، أو يحتاج إلى النوم أو قضاء الحاجة. كما أن صعوده النخلة يذكّرنا بما يفعله الشرير عادةً فى الأفلام، إذ يتسلق برجا أو سطح حجرة فوق أعلى المنزل أو صارية سفينة مثلا، مع أن أقل تفكير من جانبه كفيل بأن يباعد بينه وبين اللجوء إلى هذا الحل المضحك لأنه لا يمكنه البقاء هناك إلى آخر العمر. وعادة ما تكون نهايته فوق الموضع المرتفع الذى التجأ إليه نهاية مأساوية كما يعرف مشاهدو الأفلام والمسلسلات.

ومع هذا كله فإن إصرار القمى على تلويث صحيفة عائشة يدفعه إلى المضى فى غَيّه والقول بأن الله إنما أراد أن يظهر براءة جريج على يد علىّ. أى أنه سبحانه قد دبّر اندفاع أبى الحسن بالسيف يريد الإجهاز على جريج فى هوج ودون تبصر بناء على تكليف رسول الله له بذلك دون أية محاكمة لا لشىء إلا لكى يثبت براءة المصرى المسكين! وهو ما يعنى أن الأقدار قد جهزت عليًّا لتصحيح الخطإ الذى كاد أن يقع فيه النبى عليه السلام، أستغفر الله، وإن قال بعضهم إن الرسول

كان يعرف براءة مارية منذ البداية وإنه إنما أمر عليًّا بقتله تظاهرا بذلك ليس إلا، كى يوقظ ضمير عائشة حين ترى رجلا بريئا يوشك أن يُقْتَل ظلمًا وافتراءً. أى أنهم يريدوننا أن نصدق هذا التوجيه السخيف الذى يقول إن النبى قد أقدم على ترويع جريج المسكين على هذا النحو الشنيع الذى كان يمكن أن ينتهى نهاية مأساوية فتَزْهَق روح الرجل جَرّاء سقوطه من فوق النخلة لإيقاظ ضمير عائشة ليس إلا. وهو ما يذكرنا بالمثل الشعبى القائل: جاء يكحّلها فأعماها! وهكذا يتخبط بعض علماء الشيعة لمجرد الرغبة الأثيمة لتشويه أخلاق عائشة ورميها بالفسق طبقا لحكم الآية. كذلك فالآيات تتحدث عن شائعات تجوب أنحاء المدينة من لسان إلى لسان، على حين أن روايتنا هذه لا تتحدث إلا عن عائشة وحدها، وإن ذُكِرَتِ "المنافقات" على سبيل "بَرْو العتب" كما نقول فى مصر ليس غير، وإلا فلماذا لم تظهر فى الصورة أولئك المنافقات اللائى لا أحسب القمى وأضرابه إلا يقصدون بهن بعض زوجات رسول الله الأخريات، وبالذات حفصة كراهيةً منهم للفاروق رضى الله عنه؟

ثم ما موقع الآية التالية (الآية ٢٢ من سورة "النور") من الحكاية على هذا التفسير الغريب: "وَلا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ"؟ إنها، فيما نعرف جميعا، إنما نزلت لتحضّ أبا بكر على الاستمرار فى معاونة بعض أقربائه الفقراء الذين اشتركوا فى نشر الإشاعات ضد ابنته الكريمة الطاهرة العفيفة والذين أقسم فى حُمُوّ غضبه أن يتوقف عن الإنفاق عليهم. أما على رواية "الخاصّة" فكيف نفهمها؟ لقد أورد القمى فى تفسيره لها ما يلى: "فى رواية أبى الجارود عن أبى جعفر عليه السلام فى قوله: "ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى"، وهى قرابة رسول الله صلى الله عليه وآله، "والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا"، يقول: يعفو بعضكم عن بعض ويصفح، فإذا فعلتم كانت رحمة من الله لكم. يقول الله: "ألا تحبون أن يغفر الله لكم، والله غفور رحيم"؟". وهو تكلف بل تنطع، فإن القرآن لا ينزل بتحنين القلوب على قرابة رسول الله، وكأنهم جماعة من الشحاذين، مع أنهم لا تجوز عليهم الصدقات أصلا. كما أن أمر القرآن بالعفو والصفح عن آل رسول الله ليس له من معنى إلا أنهم مشاغبون مستفزون للآخرين وأن على المسلمين الإغضاء والتجاوز عن هذا الشغب والاستفزاز. ترى هل يصح مثل هذا التفسير؟ لكن المفسر الشيعى يمزق الآية كما نرى كى يسلم له ما يريد، وهيهات! وأخيرا وليس آخرا فإن الآية الأخيرة فى آيات الإفك تقول بصريح العبارة: "الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ"، وهو ما لم يلتفت المدلسون المفترون إلى أنه ثناء على عائشة وكل زوجات الرسول، إذ تنفى الآية الكريمة أن تكون أى من أمهات المؤمنين خبيثة من الخبيثات، وتؤكد على العكس من ذلك أنهن جميعا طيبات طاهرات لأنهن زوجات الرسول الطيب الطاهر.

وفى تفسير قوله عز شأنه للآية الثالثة والثلاثين من سورة "الأحزاب": "وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلاَ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَاهِلِيَّةِ ٱلأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلاَةَ وَآتِينَ ٱلزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ

ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا" يقول القمى: "وفى رواية أبى الجارود عن أبى جعفر عليه السلام فى قوله: "إنما يريد الله ليُذْهِبَ عنكم الرِّجْسَ أهل البيت ويُطَهِّرَكم تطهيرًا"، قال: نزلت هذه الآية فى رسول الله صلى الله عليه وآله وعلى بن أبى طالب وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، وذلك فى بيت أم سلمة زوجة النبى صلى الله عليه وآله، فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله عليًّا وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام ثم ألبسهم كساءً خيبريًّا، ودخل معهم فيه ثم قال: "اللهم، هؤلاء أهل بيتى الذين وعدتَنى فيهم ما وعدتنى. اللهم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا". نزلت هذه الآية فقالت أم سلمة: وأنا معهم يا رسول الله؟ قال: أبشرى يا أم سلمة. إنك إلى خير. وقال أبو الجارود: قال زيد بن على بن الحسين عليه السلام: إن جهالا من الناس يزعمون أنما أراد بهذه الآية أزواج النبى، وقد كذبوا وأثموا. لو عَنَى بها أزواجَ النبى لقال: "ليُذْهِب عنكن الرجس ويطهركن تطهيرا"، ولكان الكلام مؤنثا كما قال: "واذكرن ما يُتْلَى فى بيوتكن، ولا تبرَّجْن، ولستنّ كأحد من النساء". وقال على بن ابراهيم: ثم انقطعت مخاطبة نساء النبى، وخاطب أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: "إنما يريد الله ليُذْهِب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرًا"...".

وتفسير الآية على هذا النحو هو استمرار لموقف الشيعة، فهم لا يريدون لأحد من بيت رسول الله أن يحظى بأى شرف أو خير إلا إذا كان من طرف فاطمة رضى الله عنها حتى إنهم ليُدْخِلون عليًّا ختن رسول الله وسبطيه فى مفهوم "أهل البيت" ويخرجون زوجاته ﷺ مع أن "الأهل" بالنسبة إلى الرجل إنما يراد بهم أول ما يراد زوجه أو زوجاته كما هو الاستعمال القرآنى والنبوى. إننا نحب فاطمة وابنيها وزوجها حُبًّا جَمًّا، بيد أننا نؤمن فى ذات الوقت أن شرف الانتساب إلى أهل البيت هو من حق زوجات الرسول أيضا، وأن هذا لا يضر فاطمة وأسرتها الصغيرة ولا يزعجهم فى شىء، وبخاصة أن أهل الرجل، كما قلنا، إنما هن زوجاته فى المقام الأول. ثم إن سياق الآيات إنما هو سياق الحديث عن نسائه ﷺ، ولا ذكر فيه على الإطلاق لعلى أو فاطمة أو ابنيهما. ولهذا نرى علماء الشيعة يقولون إن الكلام عن نساء النبى قد انقطع وابتدأ كلام آخر عن فاطمة وأسرتها، ثم عاد الكلام مرة أخرى إلى النساء فى قوله سبحانه عقب ذلك: "واذكرن ما يُتْلَى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة...".

وهذا تكلف لا معنى له أبدا وتمزيقٌ مفسد لنسيج الآيات، وبخاصة أن الآية الكريمة لا يمكن أن تكون قد نزلت أولا دون عبارة "إنما يريد الله ليُذْهِب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرًا"، وإلا كان معنى هذا أن الآية نزلت وظلت غير مكتملة وعارية عن الفاصلة فترة من الوقت، وهو غريب. أما القول المنسوب إلى زيد بن على رضوان الله عليه بأنه لو كان المقصود زوجات النبى لقالت الآية: إنما يريد الله ليذهب عنكن الرجس أهل البيت..." فليس بشىء، ولا أظنه قاله، فقد أوضحنا أن "الأهل" ليسوا زوجات الرجل فقط، بل لهن فقط المقام الأول. وإذا كان علىٌّ ذاته حين سئل عن سلمان، حسبما يُرْوَى عنه، قد قال: "هو منا أهل البيت"، وفى رواية أخرى: "إنه رجل منا أهل البيت"، وفى رواية ثالثة: "ذاك أميرٌ منا أهل البيت"، مدخلا بذلك هذا الفارسى، الذى لم يكن بينه

وبين الرسول أو أى أحد من أسرة الرسول صلة، ضمن "أهل البيت"، أيضيق نطاق "أهل البيت" عن أن يستوعب عائشة وحفصة وسائر زوجات النبى، وأغلبتيهن الساحقة من العرب ومن قريش؟

وأخيرا إلى القارئ هذا الدليل الحاسم، وهو قوله تعالى على لسان الملائكة خِطَابًا لسارة زوجة الخليل إبراهيم عليه السلام حين تعجبت من بشارتهم لها بأنها ستحمل وتلد رغم كبر سنها: "قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ" (هود/ ٧٣). فها هم أولاء الملائكة يتحدثون إلى سارة زوجة إبراهيم على أنها "أهل البيت" الإبراهيمى، أو على الأقل: فرد من أفراده. فما القول فى هذا؟ لا أظن أن هناك عاقلا يمكن أن يجادل فى أن معنى الآية الكريمة فى سورة "الأحزاب" هو ما قلناه!

ولقد سبق أن حذّر القرآن نساء النبى فى الآيتين السابقتين على آية "الأحزاب" أن يخضعن بالقول حتى لا يطمع الذين فى قلوبهم مرض وأن يلزمن بيوتهن ولا يتبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأن يُقِمْن الصلاة ويُؤْتِين الزكاة ويُطِعْن الله ورسوله تمام الطاعة. ومن قبل قال لهن سبحانه وتعالى إنه من يأت منهن بفاحشة مبينة يضاعَفْ لها العذاب ضعفين، ومن يَقْنُت منهن لله ورسوله يؤتها الله أجرها مرتين. وعلى هذا لا يمكن أن يُفْهَم قوله سبحانه عقب ذلك: "إنما يريد الله ليُذْهِب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا" إلا بمعنى أن هذا الحساب المخصوص لَكُنّ عنده سبحانه وتلك الأوامر والنواهى منه إليكن إنما يراد بها إذهاب الرجس عنكن وتطهيركن تطهيرا مع سائر بيت الرسول. هذا هو وجه الكلام لغةً وعقلًا وذوقًا، أما سوى ذلك فلا.

ولو كان القرآن قد استعمل فى هذه الآية عبارة "يا نساء النبى" بدلا من "أَهْلَ البيت" لكان قد أنّثَ الكلام فقال: "إنما يريد الله ليُذْهِب عنكن الرِّجْس يا نساء النبى ويطهّركن تطهيرا"، لكنه إنما عنى "أهل البيت" كلهم بما فيهم النبى عليه السلام لا "نساءه" فقط، وهو ما لم يفطن له من اعترض بهذا الاعتراض. أما تعقيب الطُّوسّى على قول عِكْرِمَة إنها "فى أزواج النبى خاصة" بأن "هذا غلط لأنه لو كانت الآية فيهن خاصة لكنَّى عنهن بكناية المؤنث كما فعل فى جميع ما تقدم من الآيات نحو قوله: "وقَرْنَ فى بيوتكن ولا تَبَرَّجْنَ، وأطعن الله، وأقمن الصلاة وآتين الزكاة"، فذكَّر جميع ذلك بكناية المؤنث، فكان يجب أن يقول: "إنما يريد الله ليذهب عنكن الرجس أهل البيت ويطهركن"، فلما كنَّى بكناية المذكر دل على أن النساء لا مدخل لهن فيها"، أقول: أما تعقيب الطوسى هذا فهو حجة عليه لا له، لأن استعمال ضمير جماعة المذكرين فى الآية القرآنية كان ينبغى أن يُخْرِج فاطمة هى أيضا من "أهل البيت" طبقا لكلامه، مع أن السيدة الزهراء عند الشيعة هى المحور فى كل هذا. وبالمناسبة فإخراج زوجاته ﷺ من "أهل البيت" هو موقف عام عند جميع المفسرين الشيعة الذين رجعت إليهم فى هذه الدراسة.

هذه كلمتى فى موضوع القرآن والقارئ طبقا لنظرية القراءة. والآن أترك القارئ الكريم مع السطور التالية التى كتبها الباحث محمد بن عمر على المشباك، وهى من بحث له عنوانه "التأويلية الجديدة وقراءة النص القرآني– بحث فى التوجهات والتعثرات". ومن هذه السطور يتضح لنا الفارق

الكبير بين منهجنا فى قراءة النص، أى نص، وبخاصة النص القرآنى الكريم، وبين الطريقة التى يريد بعض الباحثين والنقاد أن يتبعوها فى تفسير القرآن المجيد. ففى الوقت الذى يريد بعض من يُسَمَّوْن بـ"الدارسين" و"النقاد" أن يجعلوا عملية القراءة عملا فوضويا نحرص نحن بكل قوانا وجهدنا على أن نجعل منها عملا منهجيا منضبطا له شروطه وإجراءاته.

قال مُحَّد بن عمر: "لقد برز فى الساحة الثقافية تيار تأويلى يسعى إلى قراءة النص القرآنى قراءة مغايرة ومختلفة عما كان عليه المتقدمون من علماء التفسير. هذا السعى هو ما كان باعثا لكثير من الدارسين والباحثين إلى متابعة هذا الاتجاه قَصْدَ الوقوف على الدعاوى العلنية أو الخفية التى كانت من وراء هذه المشاريع القرائية للنص القرآنى، والتى سعت إلى التقاطع الكلى مع كل الجهود الفكرية المبذولة فى التفسير. ومما زاد من دواعى وأهمية البحثِ التعريفُ بهذا المنهج المتوسَّل به فى هذه المشاريع التأويلية، والذى أدى إلى فوضى فى قراءة النصوص، خاصة الدينية منها، وهو ما يتجسد بشكل ملموس فيما أخذت تعرفه الساحة الثقافية والفكرية من إخلال وإهدار كلى للقواعد التى عليها يتوقف التفسير والقراءة والتأويل، وهو ما أفضى إلى بروز توجُّه منحرف فى التفسير بحيث ظهر اتجاه حداثى فى قراءة الخطاب القرآنى يسعى إلى التحلل من كل الضوابط العلمية والقواعد الحاكمة للتفسير والتأويل، إضافة إلى عدم التقيد بحدود التأويل وشروط التفسير وعدم الخضوع لأية سلطة حاكمة للقراءة والتفسير سوى سلطة القارئ وحريته فى تأويل النص. وهو ما كان مدعاة إلى مجاوزة القواعد وتخطيها وتحطيمها كما هى مؤصَّلة فى كتب علم أصول الفقه وعلوم القرآن.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل نُعِت الموروث التفسيرى القديم بنعوت ومواصفات قادحة استصغرت وقللت من شان هذا التراث التفسيرى. من ذلك أن المفسرين القدماء يَسْعَوْن إلى مناصرة العقل المنغلق، ويقرون ويحتمون بسلطة المعنى الواحد، إضافة إلى اقتدائهم ومناصرتهم للنموذج الواحد فى التفسير الذى أرسى دعائمه الإمام الشافعى فى "الرسالة". وعلى نموذج الشافعى سار أغلب المفسرين للنص القرآنى.

فالاتجاه الحداثى فى القراءة والتفسير يصرح بشكل واضح أن الطريقة القويمة فى قراءة الخطاب القرآنى وتدبر معانيه والوقوف على مقاصده هى القراءة المتحررة من ثقل التقليد والمتجردة من قواعد التهاويل وضوابطه وغير الخاضعة لأية سلطة غير سلطة القارئ المتحكم فى المعنى. فهو له الأمر فى الاختيار، وما القواعد إلا قيود مكبِّلة ومقيِّدة لهذه الحرية بما فى ذلك ضوابط التفسير والتأويل التى أصَّلها علماء التفسير، والعمل على تخطى الموروث الثقافى الذى أنتجه المفسرون والمحدِّثون والإخباريون فى معالجتهم للنص على امتدادات التاريخ...

و هذه المشاريع تسعى إلى إحداث قطيعة معرفية كلية مع كل الجهود التراثية السابقة الخادمة للنص القرآنى، خاصةً ما تعلق بمناهج التفسير التى سادت فى التراث الإسلامى، وهى مناهج كانت تحتكم للضوابط وتستند للشروط وتخضع للأصول والمرجعيات الحاكمة للتفسير...، وإبعاد كل القراءات التى لا تستند أو لا تحتكم إلى شروط وضوابط التفسير... وهذه القواعد والكليات فى

مجملها تدعو بإلحاح إلى المراهنة على المنقول واعتباره هو الأصل والسند فى التفسير، والاهتداء إلى المعقول واعتباره مُعِينا فى التفسير وتابعا للأصل، وهو المنقول، وخادما له، مع التمكن من اللغة العربية لمن قصد التفسير... فعدم المراهنة على اللغة العربية والسعى نحو تحطيم المعايير والقواعد فى التفسير هو ضرب من تحريف النص بصفة عامة، والقرآنى بصفة خاصة.

ومن أبرز الحجج التى استند إليها أصحاب المشاريع الحداثية فى دعوتهم وإلحاحهم ورغبتهم فى تقاطعهم مع الموروث أن هذه التفاسير القديمة كانت تنطلق من... أن النص القرآنى يحمل معنى واحدا مُودَعًا فى النص، وما على المفسر إلا استخراج هذا المعنى من النص واستنباطه منه والانتصار له... إن السند الذى استند إليه الحداثيون فى هذا الرفض لجهود السابقين فى ميدان التفسير ولمدوناتهم هو انتصار هذه التفاسير للمعنى الواحد ورفض التعدد. فهى تفاسير تنتصر للمعنى الواحد وتراهن على الثبات، وتعارض بالمرةِ التعدديةَ فى المعنى. وحتى لو كان هذا التعدد من قبيل الانتقال من المعنى الأصلى إلى التبعى فإنها تُخْضِع هذا التحول لمجموعة من الشروط والضوابط الصارمة...

ومن أسباب هذا الرفض للتفاسير القديمة أن المناهج فى التفسير القديمة فى نظر هؤلاء كانت تعمل على تغييب للقارئ والمتلقى من حيث هو طرف أساسى فى إنتاج النص، وأداة متلقية ومنتجة للخطاب تتفاعل بشكل دائم ومستمر مع النص من أجل إنتاج المعنى الذى يحمله هذا النص. فحياة النص تتوقف على ما يقدمه القارئ للنص من قراءات وانطباعات للنص. والنص بدون قارئ متجدد ومستمر فهو نص جامد وميت... كما أن مناهج المفسرين القدماء لم تضع فى الاعتبار ولا فى الحسبان أن النص القرآنى رغم قداسته قد حملته لغة تتميز بطبيعتها بالتعدد والتنوع فى الدلالة سواء فى التبليغ أو فى التخاطب، وهو ما تشهد له أساليب هذه اللغة التى جرى فيها التخاطب عن طريق المجاز، الذى هو ضرب من الانتقال من المعنى الأصلى إلى المعنى التبعي...

وهذه المشاريع الحداثية التى تستند إلى المناهج الجديدة فى التفسير تحمل من القدرات التفسيرية والإمكانيات التأويلية ما لم تحمله المناهج القديمة فى التفسير والتأويل. فهى تعمل على الحد من سلطة النص، وتوسِّع من سلطة المتلقى. فسلطة النص المتمثلة فى القواعد والضوابط والمعايير الحاكمة للفهم والمنظمة للتلقى تشكل حاجزا فى القراءة بسبب الاحتكام لقواعد الفهم فى اللغة العربية، فى حين تم الرفع من شان سلطة القارئ، الذى منحته هذه المناهج حق التأويل المطلق وحق التلقى الحر للنصوص الدينية. وهدا السعى كان من أجل مطاوعة النص وتوجيهه ليحقق الانسجام والتوافق مع مؤهلات القارئ الفكرية وخلفياته المذهبية ورؤاه الذاتية، الشيء الذى يجعل من النص أداة خادمة ومطاوعة لتوجهاتِ واختياراتِ وقَبْلِيَّاتِ القارئ الفكرية والمذهبية فى تفسره للنص.

لكن هذا السعى يفتقر للشرعية إذا نحن علمنا أن الأصل فى اكتساب المعنى من النص، شرعيا كان هذا النص أو لغويا أو أدبيا أو قانونيا، هو الاحتكام إلى الدلالة الأصلية للنص وعدم العبور إلى المعنى التبعى إلا بقرينة... فإذا نحن قمنا بإبعاد هذه الدلالة الأصلية من النص المراد تفسيره أو قراءته

من أجل تحقيق رغبات المتلقى فانه لن يبقى من النص المراد تفسيره شيء، بل سنجد أنفسنا أمام عدة نصوص تتضارب فى المعنى وتتعارض...

فالقراءة الحداثية أو المعاصرة للنص أو الجديدة... هى فى نهاية الأمر والمطاف قراءة مذهبية لأنها لا تخدم فى أصلها ومقصدها النص ولا تخدم العملية التفسيرية بقدر ما تخدم مذهبية القارئ واختيارات المفسر، التى يعمل على إسقاطها بالقوة فى تفسيره للنص القرآني... إن جنوح المفسر إلى خدمة المذهب على حساب التفسير، والتمكين للمذهب على حساب القرآن، يجعل عمله فاقدا لكل قيمة علمية أو تفسيرية. فعمله يكتسى مجرد قيمة تاريخية لا تأثير له فى واقع الناس ولا فى تلقيهم لمعانى القرآن.

ومما استند إليه أصحاب هذا الاتجاه فى دعوتهم الحاملة لنبذ المناهج القديمة أن النص الدينى بصفة عامة، والقرآنى بصفة خاصة، نصوص مفتوحة وحاملة بطبيعة لغتها للتأويل وقابلة لأكثر من قراءة ومعنى... وأن النص المنفتح والمتعدد غير الخاضع للمعايير والشروط والضوابط اللغوية نص حى يتميز بالحركة وعدم الثبات... وهذه الخاصية، أعنى الانفتاح الدلالى للنص عند المناصرين للقراءات الجديدة، من شانها أن تكفل للنص البقاء والاستمرار عبر الأجيال، والامتداد فى الزمان والمكان: يقرؤه كل جيل حسب إمكانياته الذاتية والموضوعية... فمن مبادئ هذا الاتجاه أن "النص مفتاح لكل من استطاع قراءته"، وأنه لا وجود لمعنى حقيقى للنص، وإنما كل معنى فى النص فهو نسبى. والدليل على ذلك أن الكاتب قد يستعصى عليه الفهم ولا يدرك ما يقوله...

لقد اعترض الاتجاه التأويلى على سلطة النص المطلقة ونَفَى وجود إمكانية قراءة صحيحة أو قريبة للنص بدعوى أن مستويات القراءة والتلقى تتنوع سعة وعمقا من قارئ إلى آخر تبعا لسياقه الفكرى والثقافى وتبعا لمؤهلاته الذاتية... فالمتلقى له شرعية التأويل الحر تبعا لثقافته وتجربته الذاتية، إضافة إلى اعتراف هذا الاتجاه بالغياب الكلى لأى قراءة صحيحة للنص وأن كل قراءة تبقى قراءة نسبية ومحتملة. وهذا ما يجعل كل قراءة مرشحة للتجاوز والتغير تبعا لتغير التاريخ والثقافة والأفكار والقيم... والأكثر من هذا عملت هذه المناهج على مصادرة المُعْطَى الدينى فى النص الدينى عامة، والقرآنى خاصة، لأن هذا المعطى من شأنه أن يقف مانعا فى تمثل الحداثة فى قراءة النصوص...

ومن تجليات الخطورة التى تحملها هذه المناهج فى تعاملها مع القرآن الكريم اقتصارها فى هذا التعامل على ما هو لغوى فى القرآن الكريم، فقد راهنت على كل ما هو لغوى ودلالى فى النص، وابتعدت عن كل ما هو تشريعى ودينى. وجردت القرآن الكريم عن رسالته العقائدية ووظيفته الدينية التى اختص بها. ومن شأن هذا التجريد والإقصاء أن يعطل كثيرا من عناصر القوة والفعالية التى يتميز بها القرآن الكريم وينفرد بها عن غيره من الكتب. فهو رسالة لسانية وعقائدية فى آن واحد. ولا يمكن الفصل بين الرسالتين.

من هنا كان من اللازم والضرورى على المتعامل مع النص القرآنى أن يضع المعنى الدينى فى الاعتبار وألا يقتصر على ما هو لغوى فى النص القرآنى لأن النص القرآنى فى مجمله "ليس مجرد ألفاظ

لغوية، وإنما هو دلالات ومفاهيم تمثل إرادةَ المشرّع فى كل نص ومقصدَه من التشريع. ومن ثم لزم فى التفسير عدم الاكتفاء بما هو لغوى فى النص بل لا بد من مراعاة قداسة النص الدينى التى تتحدد فى كون القرآن وحيا ربانيا تحكمه خصوصيات ومواصفات تمنحه التميز والانفراد عن غيره من الكتب السماوية...".

ولسوف نأخذ السيدة لالة باختيار المسلمة الأمريكية مثالا على هذا الغشم فى التعامل مع القرآن الكريم بغية تفسيره بهذه الطريقة الجديدة. لقد طُلِبَ إليها أن تتصدى لترجمة القرآن الكريم رغم أن بعض من يعرفونها قد اعترضوا عليها بأنها لا تحسن اللغة العربية، فكان جوابها أنها تتقن العربية القديمة، وأنها من ثم تستطيع أن تفسر القرآن. فتعالَوْا إلى ما قالته عن منهجها فى التفسير لنرى هل هى تقول الحق أو لا. لقد ذكرت أن منهجها فى ترجمة القرآن الكريم يتلخص فى الاستعانة بمعجم "مَدّ القاموس" للمستشرق البريطانى إدوارد وليم لين (E. W. Lane) بحثا عن معانى الآيات فى ذلك المعجم كلمة بعد كلمة بغية تقريب النص القرآنى إلى القارئ الإنجليزى المعاصر. فهل هذا يكفى أوّلًا؟ وهل هذا هو السبيل لدَرْك تلك الغاية ثانيا؟ وللجواب عن السؤال الأول أقول بملء فمى إن ما ذكرت السيدة بختيار أنه هو المنهج الذى اعتمدته فى ترجمتها للقرآن المجيد لا يكفى بتاتا. ذلك أن الترجمة ليست نقل ألفاظ سائبة من لغة إلى لغة، بل الترجمة نقل النص كله متماسكا. فالنص ليس كلمات مفردة، بل عبارات وتراكيب وصورا وظلالا وشيات وإيقاعات وتناغمات. إنه كلٌّ متكامل شديد التعقيد. فكيف بالله يكفى أن تضع أمامها معجم لين، مهما كانت عبقرية مؤلفه، وتنظر فيه معانى الكلمات القرآنية كلمة كلمة على انفراد، ثم تقول إنها قد قامت بترجمة النص القرآنى؟

ثم إن لِين ذو أسلوب قديم، ولا يمثل ما يكتبه إغراء للقارئ المعاصر لكى يمضى فى القراءة. وفوق هذا فما من معجم إلا وهو يَعِجّ بالعيوب ونواحى النقص التى لا بد من الاستعانة عليها بأكبر قدر من المعاجم الأخرى. وأنا مثلا، رغم أنى لا أتصدى لمهمةٍ مثل تلك التى أريدَ من السيدة لالة باختيار أن تتصدى لها لغرض فى نفس يعقوب، لأكدّس عندى مئات المعاجم الورقية والضوئية لهذا السبب، إذ كثيرا ما لا أجد طلبتى فى أحد القواميس فأبحث عنه فى قاموس آخر أو أكثر حتى أجد شفاء نفسى. فكيف تظن بختيار أن معجما واحدا يكفى لمهمتها تلك الثقيلة؟ على أن هذا لا يزال غير كافٍ، إذ يجب على المفسر أن يرجع إلى كتب اللغة من نحو وصرف، وإلى الأشعار الجاهلية والإسلامية، وإلى كتب الحديث والتفسير والبلاغة، وإلى كتب أسباب النزول، وإلى كتب السيرة والتاريخ والجغرافيا والجيولوجيا والطب والفيزياء والكيمياء والرياضيات... ولا ينبغى أن ننسى الاستعانة بالتراجم القرآنية السابقة حتى نعرف ماذا قال الآخرون فى هذه الآية أو تلك، وإلا أفتظن بختيار أنها بنت بَجْدَتها أو أنها أول من ترجم القرآن الكريم إلى غير العربية؟

ولنأخذ واحدا مما ضَرَبَتْه من أمثلة على طريقتها فى الترجمة، وهو كلمة "اضربوهن" فى قوله تعالى: "وَاللاَّتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِى الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ"، التى تقول تعليقا عليها إنها لا تتصور أن الله، الذى تحبه كما تقول، يمكن أن يوافق على ضرب الزوجات، وإنها لهذا

أخذت تبحث وتتقصى معانى تلك الكلمة حتى استطاعت، من خلال معجم لين، أن تضع يدها أخيرا على المعنى الصحيح الذى فات جميع المفسرين واللغويين على مدار الأربعة عشر قرنا الماضية، وهو "الذهاب بعيدا"، بمعنى أنه إذا لم يفلح الوعظ ولا الهجر فى المضجع مع الزوجة الناشز فليذهب الزوج بعيدا عنها، وإن لم تحدد بختيار للأسف مدى ذلك البعد، وهو ما من شأنه أن يربكنا نحن الأزواج المؤذين الذين نريد أن نضرب زوجاتنا، وتأكلنا لهذا السبب أيدينا أكلا: أهو يا ترى ترك الزوج للمنزل والبحث عن فندق يقيم فيه أم البيات على الرصيف المجاور أم الذهاب إلى ألاسكا والعيش هناك مع الإسكيمو حتى يضمن أنه سيكون بمنجاة من النكد الذى تسوّد به زوجته عليه حياته والذى لا يستطيع أن يعمل لزوجته شيئا حياله غير أن يأكل بعضه بعضا قهرا وغما وغيظا؟

إننا نقول: ضرب فلان فلانا، ونقصد أنه انهال عليه بالكف أو بالعصا مثلا. ونقول: ضربت مصلحة العملة النقود، أى سَكَّتْها. ونقول: ضرب أخماسا لأسداس، والمعنى: تحير واضطرب. ونقول: ضرب فلان لفلان موعدا، يعنى: حدد وقتا للقائه. ونقول: ضرب الله على أذنيه، فيكون المقصود أنه أنامه نوما عميقا فلم يحس بشيء. ونقول: ضرب له طريقا، بمعنى شقه له. ونقول: ضُرِب فلان على الكَرَم، ومعناه أن الكرم طبيعة فيه وليس شيئا مكتسبا. وضُرِبَتْ على فلان الذلة، والمعنى: أحاطت الذلة به من كل جانب فلا يقدر على التخلص منها. ونقول: ضُرِبَتْ عليه الجزية، أى فُرِضَتْ. ونقول: ضرب الفحل الناقة: لقّحها. ونقول: ضرب فلان الخيمة، بمعنى: نصبها. ونقول: ضرب فلان عن فلان صَفْحًا، والمعنى: انصرف عنه أو أهمله. ونقول: ضرب فلان لفلان سهما فى ثروته، أى خصص له نصيبا منها. ونقول: ضرب فلان فى سبيل الله: جاهد. ونقول: ضرب الدهر بين فلان وفلان: فرّقهما. وكذلك نقول: ضَرَب فلان فى الأرض، والمقصود ارتحل وذهب بعيدا... إلخ. وهذا هو المعنى الذى أخذت به بختيار من بين كل تلك المعانى وغيرها لترجمة قوله تعالى: "واضربوهن". فهل هذه ترجمة صحيحة؟ هل قولنا: "اضرب فلانا يا فلان" معناه: اتركه واذهب بعيدا عنه؟ الحق أن هذا هو الهزل بل الدجل بعينه، إذ إن ذلك المعنى لا يأتى من كلمة "ضرب" وحدها، بل من عبارة "ضرب فى الأرض" كلها. أما "ضرب فلان فلانا" فلا يمكن أن يكون له معنى غير أنه قرعه بيده أو بعصا مثلا. وقد ترجم لين فى معجمه المذكور هذا الفعل مجردا بـ"strike, beat, smite, hit"، وهو نفس ما قلناه. ولو كانت اللغات تؤخذ بتلك الطريقة التى تمشى عليها السيدة بختيار فقُلْ على الترجمة السلام.

ثم كيف يدل قوله: "اضربوهن" على الذهاب بعيدا؟ إن لدينا فى الآية الكريمة فعلا متعديا ومفعولا هو الضمير "هُنَّ" العائد على الزوجات. ومعنى هذا أن الضرب يقع على الزوجات. فكيف يكون المعنى: اذهبوا بعيدا؟ لو كان قد قيل مثلا: "اضربوا عنهن" لأمكن التمحل بل التنطع والقول بأن أصل الكلام: "اضربوا فى الأرض بعيدا عنهن" بعدما حُذِف منه شبه جملة "فى الأرض"، أو أنه "اضربوا عنهن صفحا" بمعنى: لا تبالوا بما يفعلنه واصفحوا عنهن. أمّا وهناك مفعول به مباشر فالمعنى: اضربوهن الضرب المعروف عقابا لهن على نشوزهن وعدم رجوعهن عن أسلوب العناد والتنكيد دون داع بعدما نصحتم وهجرتم فى المضجع وصبرتم وصابرتم، ولم يبق أمامكم إلا أن تطقّوا من أجنابكم

أو تشعلوا النار فى أنفسكم. أما لالة بختيار أو من كتب لها الترجمة فيخلط بين عَيّوشة وأم الخير، وهو ما لا يَصِحُّ ولا يَصْلُح. وإلا فَلْتُرِنا هى أو هو أو هما أو هم أو هن شاهدا من لغة العرب على أن "ضرب فلان فلانا" معناها: "ذهب بعيدا".

كذلك فسبب نزول الآية يدل على أن المعنى الذى رفضته لالة بختيار هو المعنى الصحيح. جاء فى"أسباب النزول" للواحدى: "وَقَدْ رُوِى عَنْ مُقَاتِلٍ فِى سَبَبِ نُزُولِ الآيَةِ فِى سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ بْنِ عَمْرٍو، وَكَانَ مِنَ النُّقَبَاءِ، وَفِى امْرَأَتِهِ حَبِيبَةَ بِنْتِ زَيْدِ بْنِ أَبِى زُهَيْرٍ. وَذَلِكَ أَنَّهَا نَشَزَتْ عَلَيْهِ، فَلَطَمَهَا، فَانْطَلَقَ أَبُوهَا مَعَهَا إِلَى النَّبِى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَقَالَ: أَفْرَشْتُهُ كَرِيمَتِى، فَلَطَمَهَا. فَقَالَ النَّبِى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لِتَقْتَصَّ مِنْ زَوْجِهَا. فَانْصَرَفَتْ مَعَ أَبِيهَا لِتَقْتَصَّ مِنْهُ، فَقَالَ النَّبِى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ارْجِعُوا. هَذَا جِبْرَائِيلُ أَتَانِى، وَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ. فَتَلاهَا النَّبِى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ: أَرَدْنَا أَمْرًا، وَأَرَادَ اللهُ أَمْرًا. وَالَّذِى أَرَادَهُ اللهُ تَعَالَى خَيْرٌ". وفى"أسباب النزول" للسيوطى: "أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال: جاءت المرأة إلى النبى ﷺ تستعدى على زوجها أنه لطمها، فقال رسول الله ﷺ: القِصَاص. فأنزل الله "الرجال قوامون على النساء... الآية". وأخرج ابن جرير مِنْ طُرُقٍ عن الحسن، وفى بعضها أن رجلا من الأنصار لطم امرأته فجاءت تلتمس القِصَاص، فجعل النبى ﷺ بينهما القصاص، فنزلت "ولا تَعْجَلْ بالقرآن من قبل أن يُقْضَى إليك وَحْيُه"، ونزلت "الرجال قوّامون على النساء". وأخرج نحوه عن ابن جريج والسُّدِّى. وأخرج ابن مردويه عن على قال: أتى النبى صلى الله عليه وسلم رجلٌ من الأنصار بامرأة له، فقالت: يا رسول الله، إنه ضربنى فأثر فى وجهى. فقال رسول الله: ليس له ذلك. فأنزل الله "الرجال قوامون على النساء... الآية". فهذه شواهد يقوّى بعضها بعضا".

كذلك من الأدلة على أن هذا المعنى هو وحده التفسير الصحيح ما ورد عن النبى فى هذا الموضوع، إذ نصح المسلمين بقوله: "ألا عسى أحدكم أن يضرب امرأته ضرب الأَمَة؟ ألا خَيْرُكم خَيْرُكم لأهله"، "أَمَا يَسْتَحِى أَحَدُكُمْ أَنْ يَضْرِبَ امْرَأَتَهُ كَمَا يَضْرِبُ الْعَبْدَ: يَضْرِبُهَا أَوَّلَ النَّهَارِ ثُمَّ يُجَامِعُهَا آخِرَهُ؟". وليس هناك تناقض بين القرآن والحديث: فالقرآن إنما جوّز الضرب ولم يوجبه. وفرقٌ بين تجويز الشىء وبين جعله واجبا مفروضا: هذا أولا. وثانيا إن القرآن حين شرع الضرب إنما شرعه بعد استنفاد كل الأساليب الأخرى من وعظ ومخاصمة وما إلى ذلك. فماذا يفعل الرجل بعد هذا كله؟ أما إذا كانت المرأة لا تريد أن تعامَل بهذه الطريقة فهذا حقها، ولكن عليها ألا تنشز على زوجها أو أن تخلع نفسها منه. ومن ناحيته هو فإما أن يقبل التعايش معها على نشوزها وعدم رجوعها عن العصيان الذى لا مسوغ له، وإما أن يطلقها. وإذا آثرت هى الخلع أو الطلاق على أن يؤدبها زوجها فى حالة نشوزها فهى وما اختارت. أما الحديث فيوضح للمسلمين أن تجويز الضرب ليس معناه أنه هو الحل الأمثل، بل عليهم أن يعرفوا أنه لا يُلْجَأ إليه إلا عند الضرورة القصوى وأنه كالطلاق: بغيض رغم مشروعيته.

ومن نفس الزاوية تصدت د. أسما بارلس أو أريد لها أن تتصدى لمعالجة موضوع "النساء فى الإسلام: Believing Women in Islam"، وهو عنوان الكتاب الذى وضعته لهذا الغرض. ومما أحب التريث أمامه من كلام د. بارلس فى كتابها هذا نَفْيُها فى النص التالى أن تكون فى الإسلام أية بطرياركية بالمعنى الذى حددته الباحثة كارول بيتمان. قالت: "To understand this point, it is necessary to recall Carole Pateman's definition of traditional patriarchy as having been symbolized by the 'law of the father, the untrammeled will of one man.' This form, as feminists note, gave the father-husband 'nearly total ownership over wife or wives and children, including the powers of physical abuse and often even those of murder and sale'".

وأنا معها تماما فى خلو الإسلام من البطرياركية بهذا المعنى البشع، إذ الإسلام لا يعرف ولا يرضى أن تكون كلمة الرجل أو سلوكه فى البيت قانونا واجب التنفيذ دون نقاش أو مراجعة مثل القضاء والقدر وكأنه يملك أفراد الأسرة، ويستطيع أن ينزل بهم كل ما يَعِنّ له من ضرب وإهانة واستغلال وقتل وبيع. فالرجل، سواء كان زوجا أو أخا أو ابنا، إنما يخضع للشريعة شأنه شأن المرأة والأولاد سواء بسواء لا يفترق عنهم فى ذلك قيد شعرة. لكن هذا لا ينبغى أبدا أن يحيف على المبدإ الذى أرساه القرآن والذى بمقتضاه تكون للزوج على الزوجة درجة وتكون القِوَامة فى البيت من حقه، وإلا فكيف تمضى سفينة الحياة من غير ربان يشرف عليها ويسوسها ويُسْأَل عنها ويقوم بواجباته نحوها فيحفظها ويرعاها ويتابع شؤونها؟

لكنى فى ذات الوقت لست معها ولا يمكن أن أكون معها فى إنكارها أن يكون القرآن قد جعل للرجل حكم الأسرة أو الإشراف عليها أو حتى مجرد كونه رأسا لها: "the Qur'an not only does not link the rights of fathers and husbands in this way, but it also does not appoint either one a ruler or guardian over his wife (and children), or even as the head of the household". ذلك أنه ما من مؤسسة فى الدنيا إلا ولا بد أن يكون لها رئيس. والقول بوجوب وجود رئيس لأية مؤسسة لا يعنى أبدا أن يتملك الرئيس أفراد تلك المؤسسة أو يكون له الحق فى قتلهم أو بيعهم أو استرقاقهم أو تشويههم مثلا. إن هذا غير ذاك. وقد رأى القراء كيف وافقتُ المؤلفةَ على أنه ليس من حق الأب أن يتحكم فى أفراد أسرته تحكُّم المالك أو المستعبد. إلا أن هذا شىء، وموافقتها على ماتقول من أنه ليس من حق الأب أو الزوج مجرد رئاسة الأسرة شىء مختلف تمام الاختلاف. ولقد قال القرآن الكريم كلمته فى هذا الصدد، وليس بعد قول الله أى قول آخر ما دمنا نقول إننا مسلمون. أما إن قال أحدهم إنه غير مسلم، ومن ثم لا يلزمه ما جاء فى القرآن فهذا شىء آخر، ويكون له عندنا رد مختلف، وهو أن تاريخ البشرية يقول بأجلى بيان إن الرجل هو رأس الأسرة، علاوة على ما يتفوق به الرجل على المرأة، ولو من حيث القوة الجسدية وحدها فيما لو قيل إن المواهب التى أفاضها الله على الرجل لا تفترق فى شىء عن تلك التى أفاضها على المرأة، وهيهات.

وإذا كانت بعض الأنظمة قديما قد أعطت الرجل حقوقا ظالمة فلا يصح أن تُشْهَر هذه الحجة فى وجوهنا، إذ قلنا وكررنا القول بأننا إنما نتكلم عن قوامة الرجل للأسرة ليس إلا. لقد بلغت مكانة الأب فى الإسلام أن ينهى رسول الله المسلمين عن الانتساب إلى غير آبائهم كفارا كانوا أو مؤمنين،

إذ يقول: "لا تَرْغَبوا عن آبائكم، فمَنْ رَغِبَ عن أبيه فإنه كُفْرٌ". وجاء رجل من بنى عامر إلى النبى فقال: "يا رسول الله، إن أبى شيخ كبير لا يستطيع الحج ولا العمرة ولا الظعن". قال: "احْجُجْ عن أبيك واعْتَمِرْ". و"عن جابر بن عبد الله أن رجلا قال: يا رسول الله، إن لى مالا وولدا، وإن أبى يريد أن يجتاح مالى. فقال: أنت ومَالُك لأبيك".

ولقد تكرر من النبى استعماله صيغة "وأبيك" كنوع من التأكيد لما يقوله، وفى هذا من المغزى عن مكانة الأب فى الإسلام ما فيه رغم ما فى الكلمة من عفوية لا علاقة لها بالقسم: "عن أبى العشراء الدارمى عن أبيه أنه قال: يا رسول الله، أما تكون الذكاة إلا فى الحلق واللَّبَّة؟ قال: وأبيك لو طَعَنْتَ فى فخذها لأَجْزَأَ عنك". و"عن أبى هريرة قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله، نَبِّئْنِى بأحقّ الناس منى بحسن الصحبة. فقال: نعم، وأبيك لتُنَبَّأَنَّ! أُمُّك. قال: ثم من؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أبوك". و"عن أبى هريرة قال جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أى الصدقة أعظم أجرا؟ قال: أَمَا وأبيك لتُنَبَّأَنَّه. أن تَصَدَّق وأنت صحيحٌ شحيحٌ تخشى الفقر وتَأْمُل البقاء ولا تَمَهَّل حتى إذا بلغتِ الحلقوم قلت: لفلان كذا، ولفلان كذا، وقد كان لفلان".

ويقول القرآن فى وضوح ما بعده وضوح: "الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللاَّتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِى الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا" (النساء/ ٣٤). وفى حق الرجل على امرأته نقرأ "عن قيس بن سعد قال: أتيتُ الحيرة فرأيتُهم يسجدون لمرزبانٍ لهم، فقلت: رسول الله أحقُّ أن يُسْجَد له. قال: فأتيت النبى صلى الله عليه وسلم فقلت: إنى أتيت الحيرة فرأيتهم يسجدون لمرزبانٍ لهم، فأنت يا رسول الله أحق أن نسجد لك. قال: أرأيتَ لو مررتَ بقبرى أكنتَ تسجد له؟ قال: قلت: لا. قال: فلا تفعلوا. لو كنت آمرًا أحدًا أن يسجد لأحدٍ لأمرتُ النساء أن يسجدن لأزواجهنَّ، لِمَا جعل الله لهم عليهنَّ من الحقِّ". و"عن قيس بن طلق، عن أبيه طلق بن على، قال: قال رسول الله ﷺ: إذا الرجل دعا زوجته لحاجته فلتأته وإن كانت على التنور". و"عن أم سلمة قالت: قال رسول الله ﷺ: "أيما امرأة باتت وزوجها عنها راضٍ دخلت الجنة". ولكن للمرأة على زوجها هى أيضا حقوقا: "عن حكيم بن معاوية القشيرى، عن أبيه قال: قلت: يا رسول الله، ما حقُّ زوجة أحدنا عليه؟ قال: أن تطعمها إذا طَعِمْتَ، وتكسوها إذا اكتسيتَ، ولا تضرب الوجه ولا تقبّح، ولا تهجر إلا فى البيت. قال أبو داود: "ولا تُقَبِّح": أن تقول: قَبَّحَكِ الله". و"عن بهز بن حكيم، حدثنى أبى، عن جدى قال: قلت: يا رسول الله، نساؤنا ما نأتى منهن وما نَذَرُ؟ قال: "ائْتِ حَرْثَك أَنَّى شئتَ، وأطعمها إذا طَعِمْتَ، واكْسُها إذا اكتسيتَ، ولا تُقَبِّح الوجه، ولا تضرب". و"عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسم: "أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا، وخياركم خياركم لنسائهم".

تقول السيدة بارلس إن الآيات التى تتحدث عن قوامة الرجل وأشباهها إنما نزلت للعرب فى عصر المبعث وحدهم، على عكس آيات أخرى نزلت لكل العصور وكل الأمم. ونقول نحن بدورنا:

وكيف عرفت الكاتبة أن هذه الآية الفلانية قد نزلت لعرب ذلك العصر وحدهم من دون البشر جميعا بخلاف الآية العِلَّانِيَّة التى نزلت للبشر فى كل العصور وكل البيئات؟ أين فى القرآن أو فى أحاديث المصطفى ما يدل على هذا؟ ذلك أن الأمر ليس يرجع إلى أهوائنا، بل إلى نص واضح صريح فى هذا السبيل مثلا يزيل الإشكال، إن كان ثمة إشكال. أما أن تظن د. بارلس أنه ليس عليها إلا أن تقول ما يَعِنّ لها فنَخِرّ نحن على ما تقول صُمًّا وبُكْمًا وعُمْيًا فليس من الإنصاف ولا من الحصافة فى شىء.

ومن العجب العاجب أن الأستاذة بارلس تؤكد أن المرأة فى الجاهلية وعصر الرسول كانت تتمتع بوضع اجتماعى راقٍ. إذن فكيف تزعم أن الآيات التى تظن هى أنها لا تلائم المرأة قد نزلت فى ذلك العصر مسايرة له؟ أية مسايرة، وهى تقول بعظمة لسانها إن وضع المرأة كان متقدما كثيرا؟ لقد كان الأولى، لو كان تأديب الرجل لزوجته التى لا تريد أن تفىء إلى صوت العقل فتحرص ألا ينهدم بناء الأسرة مما لا يليق من ناحية المبدإ على الأقل، أن تنزل آية تحرم التعرض للمرأة بأية وسيلة لافتةً النظر إلى ما أحرزته من وضع اجتماعى راق لا يليق معه أن يتعرض الزوج لزوجته بشىء مهما تكن الظروف. على أن الكاتبة لا تكتفى بما قالته عن مسايرة القرآن للأوضاع السائدة وقتذاك، وكأن القرآن إنما أتى لتثبيت الأوضاع المعوجة لا لهدمها، وهو ما يقلب أمره رأسا على عقب كما نرى، بل تزيد على ذلك اتهامها للمفسرين بأنهم هم الذين أنطقوا القرآن بما ليس فيه. وهذا يقودنا إلى التساؤل الخطر: من يا ترى أولئك المفسرون الذين فعلوا ذلك؟ لقد انطلق المفسرون فى فهمهم لهذا النص القرآنى الكريم مما قاله الرسول من أحاديث أوردنا بعضها فيما مر. أى أن الرسول ﷺ بوصفه المفسر الأول قد خضع، بناء على ما تقوله بارلس، لضغوط البيئة التى أتى لتغييرها، وهو ما يعنى أن الآية قد انقلبت معه، وبدلا من أن يغير هو البيئة إلى الأفضل غيرته هى إلى الأسوإ. وهذا كلام لا يقول به مسلم. تقول بارلس فى تلك النقطة:

"Contextualizing the Qur'an's teachings thus is necessary for understanding their rationale. It also is necessary in order to distinguish between the universal and the specific, so as to avoid generating readings that are oppressive for women. This is not to say, however, that oppressive and restrictive readings arise only from ignoring the contexts of the Qur'an's teachings; rather, they arise also from specific epistemologies and methodologies employed to read the text, as I argued in Chapters 2 and 3".

وبعد، فإذا كان المقصود بالدعوة النسوية استخلاص حقوق المرأة فى المجتمعات التى تظلمها فأهلا بها وسهلا، بل هى من أوجب الواجبات. وقد أتى الإسلام فى هذا المجال بروائع وبدائع، لكنه نبه إلى أن الحياة تعاون بين الرجل والمرأة، وأن كلا منهما بحاجة ماسة إلى الآخر، إذ لا يمكن أن تسير أمور الدنيا بقدم واحدة، مثلما لا يمكن اليد الواحدة أن تصفق. أما إن تحولت النسوية إلى معاداة للرجل وتمرُّد عليه لوجه التمرد وتنكُّر لفطرة الله التى فطر النساء عليها فإنها تقود إلى ما لا تحمد عقباه.

وفى الأساطير الإغريقية أن جماعة من النساء قد تمردن على الرجال وأقمن مجتمعا يخلو تماما من جنس الذكور، فانتهى بهن الأمر إلى عوج فى الفكر وشذوذ فى السلوك وخروج على مقتضيات

الإنسانية، ثم إنهن بعد هذا كله لم يستطعن الاستغناء عن الرجال، ولم ينلن إلا الخذلان. وقد انتصر الرجال فى نهاية المطاف، وعادت ريمة لعادتها القديمة. لقد كن حريصات على أن يخلو مجتمعهن من الذكور خلوا تاما، إلا أنه كان من المستحيل عليهن، كما هو متوقع، أن يستغنين عن الرجال، فكن يَلْقَيْنَهم مرة واحدة فى العام من أجل التناسل، ثم ينفينهم عقب ذلك خارجا مرة أخرى. وإذا ما ولدن ذكرا قتلنه أو ألقينه بعيدا عن مجتمعهن. كما بلغ من شذوذهن أنهن كن يستأصلن أثداء صغيراتهن اليمنى كى يستطعن، حين يكبرن ويَصِرْنَ محارباتٍ يفوّقن السهام إلى نحور الأعداء فى الحرب، أن يضعن مكان أثدائهن اليمنى الأقواس ويشددنها على آخرها براحتهن دون عائق منها. وكانت النتيجة أن حاربهن الرجال وهزموهن وأخضعوهن لسيادتهم من جديد.

وفى نساء المسلمين هذه الأيام ورجالهم مَنْ فقد حصافته وشرع يؤرث العداوة والبغضاء بين الرجل والمرأة وكأننا فى حربٍ عَوَانٍ لا بد أن تنتهى بالنساء غالبات ومذلات للرجال، وإلا فلا سلام ولا كلام. وهى دعوة من شأنها أن تفسد على المجتمعات سلامها وتراحمها وتصيِّرها جحيما للرجل والمرأة جميعا، بل للمرأة قبل الرجل.

وبعد فإنى أعرف أن القارئ لا يمكن أن ينعتق تمام الانعتاق من تأثير ظروفه وشخصيته، لكن الفرق بيننا وبين أهل النظرية التى بين أيدينا هو أننا نوجب على القارئ أن يتحرر بكل ما يستطيعه من قوة من تأثير هذه الظروف ومراعاة الشرائط التى وضعناها لمفسر القرآن (أو "قارئه" حسبما تقول نظريتنا) حتى لا يضل فى بيداء الوهم ويشرد بعيدا عما قصده القرآن، فيكون القرآن قد قال كلاما، وفهم هو كلاما آخر أو زيفه تزييفا، فلا يلتقيا. إن القرآن رسالة إلهية، وليس من المعقول أن تأتينا رسالة بهذه الأهمية والقدسية فنذهب نحن القراء فى طريقنا غير مبالين بمضمون هذه الرسالة ونرى فيها أشياء ليس لها وجود، ونقول إن هذا من حقنا لأنه قد غبرت دهور على النصوص الإبداعية لم يكن أحد خلالها يهتم بالقارئ، وهذه فرصتنا نحن الآن، فلا ينبغى أن نفرط فيها، ولا ينبغى أيضا أن نلتزم بما تتضمنه الرسالة، بل سنفهمها بالطريقة التى تحلو لنا. ومعنى هذا أن جهود المؤلفين ضاعت فى الهواء، وكأنهم لم يقولوا أو يكتبوا شيئا. وهو ما لا أوافق عليه تحت أى اعتبار. وأمام القارئ الفرصة ليكتب هو أيضا ما لديه فى كتاب خاص به إن كان لا يحب أن يلتزم بشروط القراءة أو التفسير بدلا من أن يُنْطِق المؤلفَ بما لم يقله. وأنا على يقين من أن القارئ فى هذه الحالة إذا وجد قارئه يضفى على مؤلفاته ما ليس فيها فلسوف يستشيط غضبا وسخطا حين يُلْفِى رسالتَه التى ضَمَّنَها فى مؤلفاته قد تم تجاهُلُها واسْتُبْدِل بها كلام آخر لا صلة بينه وبينها إلا من بعيد، إن كانت هناك تلك الصلة.

القرآن: قراء مختلفون، واستجابات شتى

القرآن كتاب إلهى للعالم كله: "وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين"، "وما أرسلناك إلا كافَّةً للناس بشيرا ونذيرا"، إنْ هو إلا ذِكْرَى للعالمين"، "إنْ هو إلا ذكرٌ للعالمين"، "تبارك الذى نَزَّل الفرقانَ على عبده ليكون للعالمين نذيرا". وقد أنزله الله ليقرأه (أو يسمعه) العالم كله بدءا بالعرب الذين اختار من بينهم رسوله والذين شرعوا قليلا قليلا يتعرفون إليه ويقرأونه منذ أول يوم من أيام نزوله حتى انتشر الإسلام فى بلاد العرب كلها، فصار الكل يقرؤه أو يسمعه. وكانت قراءته أولا باللغة العربية، إذ كان قراؤه الأوائل عربا، وحين انتشر الإسلام خارج الجزيرة العربية تعلم المسلمون الجدد العربية وقرأوا القرآن بها، ثم لا بد أن تكون قد ظهرت ترجمات له لأنه لا بد أن يكون هناك ناس من غير المسلمين على الأقل يريدون أن يطلعوا عليه للتعرف إليه أو لتخطئته والهجوم عليه انتصارا لأديانهم، وإن كنت لا أعرف ترجمة للقرآن قبل العصور الحديثة، أما الآن فقد انتشرت ترجمات الكتاب الكريم فى كل مكان، وبكل اللغات تقريبا. وصارت الكتابات التى تدور حول القرآن إيمانا ودفاعا وهجوما فى حجم الجبال، وبمعظم ألسنة العالم.

والنصوص القرآنية إما أن تكون خطابا لهذا الشخص أو ذاك أو لهذه الطائفة أو تلك وإما أن تكون مطلقة للبشر جميعا غير مقيدة بأحد منهم. فهناك آيات تبدأ بقوله تعالى مثلا: "يا أيها الذين آمنوا، يا أهل الكتاب، يا أيها الكافرون، يا أيها الناس، يا أيها الرسول، يا أيها الإنسان"... أو ما إلى ذلك، لكن لم ألاحظ أن القرآن قد نادى المنافقين فى أى مكان منه قط رغم كثرة حديثه عنهم وحملته العنيفة عليهم وتوعده إياهم بكل مصيبة فى الدنيا والآخرة. وهو سبحانه حين يخاطب نبيه مُحَّدا كثيرا ما يقول له: "قل"، أو "يسألونك عن كذا وكذا فقل:..." أو شيئا من هذا القبيل. وكثيرا ما يخاطب المؤمنين والكافرين والمنافقين دون نداء. وكثيرا ما يكون الكلام عن كل من هذه الفئات باستخدام ضمير الغائبين. كذلك كثيرا ما يسوق القرآن الكلام على لسان هذه الطائفة أو تلك بنحو مباشر. ومعروف أن مضمون القرآن إما كلام فى العقيدة وإما كلام فى العبادات وإما كلام فى التشريعات المختلفة وإما كلام عن النبى مُحَّد عليه السلام وإما كلام عن اليوم الآخر وإما أدعية وابتهالات وإما سؤالات وجواباتها وإما جدال ورَدُّه وإما وعد ووعيد وإما تحدٍّ من القرآن للكافرين به والمشككين فيه وإما قَصَصٌ يدور حول الأمم القديمة ورسلها وإما وصف لحال كل من المؤمنين والكافرين والمنافقين ونفسياتهم... وهلم جرا.

ورغم هذا كله فالقارئ (القارئ بالمعنى الواسع بما فى ذلك المستمع) فى كل النصوص القرآنية واحد، وهو الإنسان فى كل زمان ومكان: أحيانا يقرأ القرآن باللغة العربية، وأحيانا مترجما إلى هذه اللغة أو تلك، وأحيانا يقرؤه فى المصحف مباشرة، وأحيانا يقرأ نصوصا منه فى كتب أو دراسات أو مقالات، وأحيانا يسمعه من هذا الشخص أو ذاك. أما بالنسبة إلى القارئ الضمنى فلست أتصور أن يضع الله تعالى شخصا بعينه أمامه ليضبط ما ينزِّله من الوحى عليه كما نفعل نحن حين نكتب. فأنا

مثلا أثناء تأليفى كتبى أو مقالاتى أتخيل أن أمامى هذا الشخص أو ذلك أو هذه الجماعة أو تلك وأراعيه أو أراعيها فيما أكتب: فحين أكتب على سبيل المثال مقالا أنشره على المشباك آخذ راحتى، وقد أستطرد وأعود إلى الموضوع الأصلى، وأضحك ملء رئتيَّ وأسخر وأتهكم من خصوم الفكرة التى أعرضها وأدافع عنها، ولكن عندما أنشر ذلك المقال فى كتاب فإنى أعيد النظر فيه وأتخفف من الاستطرادات والتهكمات أو أحذفها كلية. كما أننى بوجه عام حين أكتب أهتم كثيرا بضبط الكلمات التى أرى أن كثيرا من القراء لا يستطيعون قراءتها على الوجه السليم، أو الكلمات التى يمكن بدون ضبط أن تربك ذهن القارئ فلا يدرى الفاعل من المفعول مثلا، أو أعيد صياغة الفكرة بحيث ينفضّ الاشتباك ويتضح تماما مرادى مما أقول. ولو رجع القارئ إلى كتبى المبكرة لوجد أنها تخلو تقريبا من الضبط. لماذا؟ لأن المطابع آنذاك لم تكن لديها خاصة التشكيل، أو كانت طريقة الطباعة تصعِّب على الطابع تلك العملية، فكان يوصينا ألا نشكِّل إلا عند الضرورة القصوى. كذلك ما أكثر ما أتراجع عن كلمة أو جملة أو فقرة أو أكثر وأحذفها أو أخففها إذا ما شعرت بأنها يمكن أن تسبب حرجا أو وجع دماغ، وبخاصة حين نتناول مسألة دينية حساسة لا يقدر جمهور القراء على تقبل أى رأى مخالف لما فى أذهانهم مع أن ما فى أذهانهم واضح العُوَار لا يقبله المنطق.

وبطبيعة الحال ليس لدى الله هذه الاعتبارات البتة، فهو الخالق الرازق الذى يحاسِب ولا يحاسَب، ولا يسأله أحد عما يفعل أو يقول. اللهم إلا إذا كان النص يتعلق بأمر فوق مستوى فهم المخاطبين كما هو الحال فى القضايا التى لم تكن البشرية لتفهمها عند نزول الوحى، إذ يكتفى القرآن بالخطوط العامة تاركا للزمن وتقدم العلم فيما يأتى من الزمان أن يوضح مقصد النص القرآنى حتى لا يرهق الأذهان فى ذلك الوقت المبكر أو يثير مزيدا من الخلاف. وقد يستلزم الأمر مراعاة الطبيعة البشرية، التى لا تستطيع تغيير عاداتها دفعة واحدة، فنرى القرآن يتدرج فى التشريع ولا يباده الناس به بغتة، بل ينفِّرهم من العادة المرذولة أوَّلا، ثم يبين لهم أضرارها ثانية، ثم بعد أن يكون قد مهد الطريق تماما للنهى الحاسم عن هذه العادة وتحريم ممارستها تحريما تاما يُنَزِّل تحريمها القاطع وينتهى من أمرها. وهو ما حصل فى تحريم الخمر على ثلاث مراحل كما هو معلوم. لكنه فى كل ذلك لا يضع قارئا بعينه فى الاعتبار بل يخاطب طوال الوقت القارئ العالمى فى كل العصور والبيئات.

أما ما ذهب إليه مثلا الشيخ بو بكر حمزة إمام مسجد باريس سابقا فى الهامش المخصص للآية رقم ٢٢ من سورة "الطور" فى ترجمته الفرنسية للقرآن المجيد من أنه إذا كان القرآن قد تحدث عن الحور العين والفاكهة واللحم فقد كانت عينه على العرب الحسيين الأجلاف المتضورين جوعا والذين كان شعراؤهم كثيرا ما يشتكون الجوع فى قصائدهم، ونادرا ما كانوا يتحدثون عن العطش، فالرد عليه أسهل شىء، إذ العرب لا ينفردون من بين الأمم الأخرى بحب الطعام الشهى والمرأة الجميلة. إن هذه هى دعوى المستشرقين الذين يريدون أن يقولوا إن أممهم أرقى من العرب والمسلمين جميعا. فهل يوجد واحد، واحد فقط، من بين هؤلاء المستشرقين أو أممهم ينفر من أكلة شهية أو يتقزز من امرأة جميلة؟

إن السعار وراء هذه المتع لعلى أشده فى تلك المجتمعات. وأنا أفهم أن يقال مثلا إن هذه اللذات، على حالتها التى هى عليها فى الدنيا، لها جانبها المنفر: فالطعام مثلا قد يسبب لنا مغصا، وهو بعد أن نشبع منه لا تعود له جاذبيته الأولى إلى أن نجوع مرة أخرى. كما أنه إذا ترك فترة طويلة يتعفن. كذلك فنحن بعد هضم الطعام لا بد أن نذهب إلى دورة المياه لنتخلص من فضلاته، وهى عملية على أهميتها ليست مما يسر رغم ما يتبعها من راحة وهدوء بال. فهذه ملاحظة لها وجاهتها. لكن ينبغى أن نعرف أن متع الجنة متع خالصة تخلو من كل شىء ينغصها لأن الكون فى العالم الآخر سيجرى على قوانين أخرى غير تلك القوانين التى نعرفها فى الحياة الدنيا كما يوضح لنا القرآن الكريم وأحاديث النبى عليه السلام. ثم إن متع الجنة لا تقتصر على الطعام والشراب والجنس، بل هناك رضوان الله والسلام الشامل والنظر إلى وجه الله الكريم أيا كان معنى كل هذا. وأكبر دليل على صحة ما نقول أن الإسلام لم يبق منحصرا فى العرب بل انتشر فى العالم كله واعتنقته شعوب كانت أكثر حضارة من العرب، ولم تجد فى كلام القرآن عن متع الجنة ما يُنْكَر أو يُشْمَأَزّ منه. ونحن الآن نرى كثيرا جدا من الغربيين يقبلون على الإسلام هاشِّين باشِّين من كل الطبقات والألوان، ومن بينهم صحفيون ورياضيون وسياسيون وأساتذة جامعات وعلماء وفنانون وكتاب ودبلوماسيون. وهو ما يكذّب ما قاله الشيخ بو بكر حمزة تكذيبا شديدا.

كذلك قد يقال إن القرآن يخاطب وثنيي العرب وحدهم، ومن ثم ذَكَرَ اللات والعزى ومناة، وهى أوثان عربية. والواقع أن هذه الأوثان موجودة حقا فى القرآن، لكن الكتاب الكريم يذكر أيضا البعل ووَدًّا وسُوَاع ويغوث ويَعُوق ونسرا والشمس والقمر، ومعظمها ليس من أوثان العرب. ومع هذا كله فما يورده من أسماء الأوثان إنما هو مجرد أمثلة، وإلا فالوثنية موجودة فى العالم كله قديما وحديثا كما هو معروف، وكثير منها له أسماء مختلفة. بل إن للعالم الحديث وثنياته الخاصة: فالغربيون الآن يعبدون شهواتهم وغرائزهم ولا يبالون بحلال أو بحرام أو عيب أو ذوق، فنرى كثيرا جدا منهم يزنون ويلوطون ويضاجعون الحيوانات ويمارسون الجنس مع الآلات دون أية حساسية أو تحرج، بل إنهم فى كثير من المجتمعات قد قننوا عددا من هذه الشذوذات، والحبل على الجرار. ومن وثنيتهم تصورهم أنهم وحدهم البشر الذين يستحقون أن يعيشوا ويستمتعوا بملذات الحياة، وأن الأمم الأخرى مجرد خدم بل عبيد لهم. ومن ناحية أخرى نراهم يشيعون أنهم هم وحدهم الجنس المتحضر وأن الحياة قد أسندت إليهم (متى؟ وكيف؟ وأين؟ الله أعلم!) مهمة تحضير الأجناس الأخرى رغم أنهم يعملون بكل قواهم لإبقاء تلك الأجناس الأخرى على ما هى فيه من تخلف وانحطاط مع تيئيسها فى ذات الوقت من التحضر حتى يظلوا وحدهم على القمة قوة وغنى وسلطانا وقدرة على استغلال تلك الشعوب المتخلفة الضعيفة. وقد اشتعلت حربان عالميتان بين الغربيين فى القرن الماضى قتل فيهما عشرات الملايين بسبب النزعة القومية التى تخيل لكل شعب منهم أنه هو وحده الذى ينبغى أن يسود وأن يحصل على أكبر قدر ممكن من ثروات العالم الثالث لنفسه، ويا حبذا لو فاز بها كلها وحده دون

منازع. ونحن نعرف ما أنزلوه بتلك الشعوب من سحق واستعمار ونهب وقتل واحتقار وإذلال طوال عشرات السنين إلى أن اضْطُرُّوا اضطرارا إلى الخروج من البلاد التى كانوا يحتلونها، ومع هذا لم يرعووا بل رتبوا الأمور ترتيبا يضمن أن يكون الحكام المحليون الذين يحكمون تلك البلاد من بعدهم فى الغالب تابعين لهم ينفذون سياستهم ولا يخرجون عن طوعهم رغم عبارات الهجوم المشتعلة التى يصبها هؤلاء الحكام على مستعمرى بلادهم السابقين مما يقصد به الاستهلاك المحلى حتى تظل الشعوب المسكينة مخدرة وتظن فى سعادة بلهاء أنها صارت مستقلة وسيدة مصيرها، بينما الأمر على خلاف ذلك. وقد كان العرب بالمناسبة يرون أنفسهم أفضل من غيرهم من الأمم. أما فيما بينهم فقد ألفينا كل قبيلة تَشِيم من نفسها القوة والجبروت تقوم بالإغارة على القبائل الأخرى والاستيلاء على ما فى أيديها من خيرات. ومن هنا وجدنا القرآن يقول موجها كلامه إلى كل البشر فى كل زمان ومكان بكل قوة: "يا أيها الناس، إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوبًا وقبائلَ لتَعَارَفُوا. إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم. إن الله عليم خبير". وكما ترى فالوضع عند العرب فى هذه المسألة هو هو نفسه الوضع عند الغربيين، وإن تغيرت الأسماء والأبعاد.

ومما يمكن أن يدخل فى باب الوثنية، وإن تكن وثنية فنية، ما قرأته من أن بعض المثقفين الغربيين سئل: إذا اندلع حريق فى مبنى ما، وكان فى المبنى لوحة فنية لمصور مشهور وطفل، وكان المستطاع هو إنقاذ اللوحة فقط أو الطفل فقط، فأيهما ترى أنه يجب إنقاذه؟ وكان الرد أنه يجب إنقاذ اللوحة، إذ اللوحة لا يستطاع تعويضها، أما الطفل فهناك أطفال غيره بمئات الملايين. ترى هل هناك فرق بين هذا التصرف الذى قد يرى فيه بعض الموكوسى الفطرة دلالة على الرقى الفنى والحضارى وبين وأد العرب لأطفالهم خشية الفقر والعار؟ وهل هناك فرق بين هذا التعبد للوحة فنية وبين تعبد الجاهليين لأوثانهم الخشبية والحجرية، وأحيانا العَجْوِيَّة؟ وما دمنا تطرقنا إلى كارثة وأد الأطفال عند العرب فقد يرى بعض الجهلاء أو المتسرعين أو سيئى النية أن هذا دليل على أن العربى هو القارئ الافتراضى أو الضمنى عند الله لأن الوأد قضية عربية جاهلية، غير دارين أن الوأد كان ولا يزال موجودا فى مختلف أنحاء العالم بما فى ذلك بلاد الغرب، التى قد يستبعد كثير من الناس مزاولتها لتلك الجريمة. ويمكن القارئ الرجوع إلى المادة الخاصة بذلك فى الموسوعة البريطانية وموسوعة اليونيفرسال الفرنسية وموسوعة الويكيبيديا فى نسخها العربية والإنجليزية والفرنسية. وحتى لو لم يكن الوأد معروفا خارج بلاد العرب فى ذلك الوقت فإن القرآن إنما يخاطب كل من زاوله فيما مضى أو يمكن أن يزاوله فيما يستقبل من الزمان. والعجيب أن كثيرا من الناس التى توقفت عن وأد البنات بعد ولادتهن صارت تمارسه من خلال الإجهاض إذا تبين أن الجنين أنثى.

ونفس الشىء يقال عن كلام القرآن عن عبادة الجن فى سورة "سبأ": "وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ (٤١)". وفى العراق هناك اليزيديون، الذين اشتهر عنهم أنهم

يعبدون الشيطان ويتخذونه إلهًا، وإن كانوا ينكرون ذلك ويقولون إنهم يعبدون الله الواحد الأحد، بيد أنهم فى ذات الوقت يقدسون الشيطان ويرون أنه جدير بالعبادة لأنه حينما أمر الله الملائكة بالسجود لآدم انصاعوا وأطاعوا، أما إبليس فقد أبى واستنكر. ومنطقهم أن رفض إبليس السجود لآدم إنما هو تمسك بعدم السجود إلا لله عز وجل. وفى عصرنا الحديث سمعنا بعبادة الشيطان فى بعض المجتمعات، ومنها ما كان يمارسه ليلا جماعة من الشبان المصريين منذ أعوام فى بعض المبانى القاهرية المهجورة، وأثير الموضوع فى الصحف وأشعل ضجة شديدة فى حينه. وآخره ما قرأناه فى جريدة "المصريون" بتاريخ ٣ أغسطس ٢٠١٩ لعبد القادر وحيد تحت عنوان "رسميًا: الاعتراف بـ"عَبَدة الشيطان" فى هذه الدولة": "أعلنت حكومة السويد الاعتراف رسميا بـ "مجتمع عَبَدة الشياطين" كطائفة دينية جديدة... ومن المقرر رسميًا تعامل كل السلطات القانونية والمالية والإدارية معهم، مع السماح لهم بتنظيم الصلوات وجلسات التأمل وخدمات أخرى باعتبارهم طائفة دينية. وتضم هذه الطائفة ١٠٠ عضو بالسويد بعدما استوحت أفكارها من المعبد الشيطانى بالولايات المتحدة. وبحسب ما أكده خبراء فإن فصل الكنيسة عن الدولة عام ٢٠٠٠ يعد السبب الرئيسى لهذا القرار".

وانطلاقا من القول بأن القرآن يتجه بخطابه إلى البشر جميعا فى كل زمان ومكان ولا يحصر نفسه فى قارئ ضمنى كما نفعل نحن يرانى القراء فى كتاباتى أقف فى صف من يفسرون القرآن مستعينين بالعلوم الطبيعية والرياضية غير مكتفين بعلوم اللغة وعلوم البلاغة وعلوم القرآن المعروفة، وأرد على من يرفضون ذلك تحت حجة أن القرآن إنما نزل يخاطب العرب المعاصرين للرسول عليه السلام بقولى إن القرآن يخاطب البشرية كلها من خلال عرب المبعث منذ عصرهم إلى يوم الدين، فالله سبحانه وتعالى ليس عربيا ولا هو ينتمى إلى عصر صدر الإسلام بل هو سبحانه فوق الزمان والمكان والأجناس والأعراق والثقافات، وكلامه أزلى أبدى، وإن النص القرآنى قد صيغ صياغة تسمح بفهمه فهما متجددا وسليما فى كل عصر ما دام القارئ واسع الثقافة رحب العقل مرن الفكر.

وأما استجابة القراء للقرآن فقد أجملها القرآن نفسه فى أول سورة "البقرة": فعندنا المؤمنون، وعندنا الذين كفروا، وعندنا المنافقون. فأما الأولون فيؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقهم الله ينفقون، ويصدِّقون بما أُنْزِل على مُحَّد وبما أُنْزِل على الرسل والأنبياء السابقين. وأما الذين كفروا فسواء عليهم حينئذ أأنذرهم الرسول أم لا، فهم فى الحالين لا يؤمنون، إذ خُتِم على أسماعهم وأبصارهم وغُشِّيَ على قلوبهم. وأما المنافقون فهم إذا كانوا مع المؤمنين أعلنوا خداعا وكذبا أنهم مؤمنون، وإذا كانوا مع أمثالهم من المنافقين سخروا من المؤمنين واتهموهم بالسفاهة قائلين: أيراد منا أن نؤمن كما آمن هؤلاء السفهاء؟ فرد القرآن عليهم بأنهم هم السفهاء. وهذا هو النص الذى يصف كل هذا ويصوره:

"الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤)

أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٦) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (١٢) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦) مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (١٧) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (١٨) أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠)".

وهناك استجابات أخرى ذكرها القرآن الكريم. ومعروف أن القرآن قد نزل منجَّمًا، أى لم ينزل دفعة واحدة بل أقساطا متتابعة ردا على سؤال وجه للنبى أو تعليقا على حادثة وقعت أو تشريعا اقتضته الظروف المستجدة أو حكاية لما وقع من هذا أو ذاك... إلخ. ومن ثم كانت هناك الفرصة لتسجيل استجابات الطوائف والأفراد: فعلى سبيل المثال يقول سبحانه لرسوله والمؤمنين عن اليهود فى سورة "البقرة": "أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٧٦) أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٧) وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٧٨) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩) وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٠)".

ويقول عن أهل الكتاب من نفس السورة أيضا: "وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٩)". ويدعو القرآن الكريم النصارى فى "آل عمران" إلى الكف عن عبادة عيسى، فهو عبد مخلوق مثل آدم لا فرق بين هذا وذاك. كما يطلب من أهل الكتاب أن يأتوا هم والمسلمون إلى كلمة سواء هى كلمة التوحيد: "إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ

تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٥٩) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٦٠) فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ (٦١) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٢) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ (٦٣) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤)".

ومن الاستجابات التى سجلها القرآن على اليهود قوله فى سورة "النساء": "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ (٤٤) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا (٤٥) مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (٤٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (٤٧) إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا (٤٨) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٤٩) انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا (٥٠) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا (٥١) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا (٥٢) أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا (٥٣)".

ومن تلك الاستجابات أيضا ما قاله القرآن عنهم فى "المائدة": "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٥٧) وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (٥٨) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ (٥٩) قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ (٦٠) وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ (٦١) وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٢) لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (٦٣) وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٦٤)".

وهذا كله فى القرآن المدنى لأن الرسول والمسلمين لم يحتكوا بجماعات اليهود والنصارى إلا فى المدينة: الأولون لأنهم كانوا يساكنونهم المدينة، والآخرون لأنهم كانوا يزورون النبى بوصفه حاكما وزعيما وقائدا صاحب دولة يتبعونها، فكانوا يفدون عليه بين الفينة والفينة لقضاء بعض المصالح والدخول فى محادثات واتفاقات. صحيح أن القرآن الكريم لم ينتظر إلى الوحى المدنى كى يتحدث عنهم بل كثيرا ما فعل ذلك فى الوحى المكى، ولكن حديثه عنهم كان بوجه عام حديثا عن ماضيهم لا عن حاضرهم. ونفس الشىء يقال عن المنافقين، إذ لم يكن ثم منافقون فى مكة، بل كان كل من يدخل الإسلام يدخله مخلصا وفيا للدين الجديد، ومهما تعرض للأذى والعدوان والتعذيب لم يكن يفرّط فى إيمانه.

وفى سورة "الجمعة" المدنية يصف القرآن موقف اليهود من الرسول محمد عليه السلام وصلابة أمخاخهم وكفرهم به لأنه عربى وليس من بنى إسرائيل رغم ما جاء من التبشير بنبوته فى التوراة: "هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢) وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٤) مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥) قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٦) وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٧)".

ويعطينا فكرةً عن موقف اليهود وتصلبهم فى الباطل وتلونهم وكذبهم ووقاحتهم الحديثُ التالى الذى ورد فى "صحيح أسباب النزول" للوادعى، ورواته رجال من قوم عاصم بن عمر: "إنَّ ممَّا دعانا إلى الإسلامِ، معَ رحمةِ اللهِ تعالى وهُدَاهُ لنا، لما كنَّا نسمعُ مِن رجالِ اليهودِ، وكنَّا أهلَ شِرْكٍ أصحابَ أوثانٍ، وكانوا أهلَ كتابٍ عندَهم علمٌ ليسَ لنا. وكانت لا تزالُ بَيْنَنا وبينَهم شرورٌ، فإذا نِلْنا منهم بعضَ ما يكرهونَ قالوا لنا: إنَّهُ قد تقاربَ زمانُ نبى يُبْعَثُ الآنَ نقتلُكم معهُ قتلَ عادٍ وإرَمَ. فكنَّا كثيرًا ما نسمعُ ذلكَ منهم. فلمَّا بعثَ اللهُ رسولَه صلَّى اللهُ عليهِ وعلَى آلِه وسلَّمَ أجبناهُ حينَ دعانا إلى اللهِ تعالى وعَرَفْنا ما كانوا يتوعَّدونَنا بهِ، فبادَرْناهُم إليهِ فآمنَّا بهِ وكفروا بهِ، ففينا وفيهم نزلَت هذه الآياتُ مِن البقرةِ: وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ".

وبالنسبة للكافرين فإلى القارئ بعض النصوص التى تصور طريقة استجابتهم للدعوة الإسلامية. قال تعالى فى أول سورة "الأنعام": "وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤) فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٥) أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِى الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (٦) وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِى قِرْطَاسٍ

فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧) وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ (٨) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ (٩) وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (١٠)".

وكانوا دائما ما يكذبون بالرسالة ويرفضون فى عنادٍ وتمردٍ الإيمانَ بأن يكون الله قد أنزل على أى من البشر وحيا. قال تعالى فى نفس السورة: "وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِى جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (٩١) وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩٢) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِى غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (٩٣)".

وكانوا كلما نبههم الرسول إلى سخف اعتقاداتهم الوثنية ازدادوا عنادا وتمسكا بشركهم حسبما جاء مثلا فى نفس السورة: "وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (١٣٦) وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١٣٧) وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣٨) وَقَالُوا مَا فِى بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٣٩)

ودائما ما كانوا يطلبون من الرسول آية، أى معجزة خارجة على القوانين الكونية، حتى يشهدوا له بالنبوة. لقد كانوا يشركون بالله آلهتهم العاجزة التى يظنونها مع ذلك قادرة على النفع والضر. جاء فى سورة "الأعراف": "وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ (١٩٣) إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٩٤) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ (١٩٥) إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِى نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (١٩٦) وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٧) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (١٩٨) خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩) وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠) إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ (٢٠١) وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى

الْغَى ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ (٢٠٢) وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَى مِنْ رَبِّى هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٠٣)".

وتصور الآيات التالية من سورة "يونس" ما كانوا يفترونه على الرسول والقرآن من أقاويل وأكاذيب عَمًى منهم وصممًا: "وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٣٩) وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ (٤٠) وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِىءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (٤١) وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ (٤٢) وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِى الْعُمْى وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ (٤٣)".

وكانوا، إذا أتاهم الرسول يقرأ عليهم ما أُوحِىَ إليه لعلهم يؤمنون وينجون من عذاب الآخرة، يَثْنُون صدورهم حتى لا يراهم فلا يقرأ عليهم شيئا. قال تعالى فى سورة "هود": "الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١) أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِى لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (٢) وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (٣) إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٤) أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٥)".

وتبين لنا سورة "الإسراء" جوانب أخرى من استجابات الكفار: "وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا (٤٥) وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِى آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا (٤٦) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا (٤٧) انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (٤٨) وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩) قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا (٥١)". فهم لا يسمعون ما يقوله القرآن لهم. لقد أغلقوا كل حواسهم وعقولهم وتصلبوا فى مواقفهم الشركية وكذَّبوا النبى عليه السلام واتهموه بانه ساحر، وسخروا من البعث قائلين: هل يعقل أننا، بعد أن نموت ونصير عظاما ورفاتا، سوف نبعث إلى الحياة من جديد؟

ومن تعنتهم إصرارهم على أن يأتيهم النبى بآية مع أن رسل الأمم السابقة قد أتوها بالآيات المقترحة ثم كفرت أممهم ولم يُجْدِ معها وقوعها. بل لقد اقترحوا على النبى مُحَّد عليه السلام أن يأتى معه بالملائكة بل وبالله أيضا: "وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ

جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا (٩٣) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا (٩٤) قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا (٩٥)". ومن الواضح أنهم لا يفهمون طبيعة الملائكة ولا أن الله سبحانه لا يأتى للبشر لأنه مطلق غير محدود، فكيف يحويه زمان أو مكان؟ لقد كان القرآن يريد منهم أن يستعملوا عقولهم ويفكروا، لكنهم قد ألغوا عقولهم وكانوا يتعنتون.

وفى "الحج" نقرأ ما نصه: "وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (٧١) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٢)". فالعجيب أن يعبدوا الأصنام دون تفكير أو عقل، وإذا ما دُعُوا إلى الله الواحد الأحد رفضوا الإيمان به وحده وهموا بإيذاء من يدعونهم إلى التوحيد ويتلون عليهم آيات القرآن. إن مشكلتهم الدائمة هى عدمُ استعمال عقولهم وكذبُهم فى الكلام عن النبى، إذ يتهمونه بالجنون مع معرفتهم التامة له وإيقانهم بأنه كامل العقل وليس له مأرب فى هذا بتاتا. يقول تعالى فى سورة "المؤمنون": "أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ (٦٨) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (٦٩) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٠) وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ (٧١) أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٧٢) وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٧٣)".

وتقول آيات سورة "الفرقان": "وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا (٣) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا (٤) وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٥) قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (٦) وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا (٧) أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا (٨)". إنهم يكررون ما يقولونه دون عقل أو منطق، ويتهمون النبى بأنه هو مؤلف القرآن: أخذه من كتب الأولين وساعده على ذلك بعض من حوله. يقولون هذا دون أن يقدموا دليلا واحدا على ما يقولون. بل إن من كان الكفار يتهمونه بالاستعانة بهم قد دخلوا الإسلام، ولو كانوا قد علَّموه شيئا كما يزعمون لما اعتنقوا دينه وصاروا من أتباعه، إذ الأستاذ لا يتبع التلميذ ولا يصير حواريا له. كذلك بين الإسلام وغيره من الأديان اختلافات جذرية حادة، فكيف يكون مأخوذا منها؟ ثم هل يعقل أن يكون النبى

مسحورا، وهو هو من يعرفونه كمالَ عقل واستقامةَ سلوك ورصانةَ تصرف؟ وحين لا يجدون شيئا يقولونه يعيبونه بأنه بشر يأكل ويشرب ويمشى فى الأسواق كما يفعل كل البشر. وكانوا دائما ما يطالبونه بمعجزة مع أن زمن المعجزات قد ولى إذ لم تصلح مع الأقوام السابقة، الذين ظلوا يتعنتون مع أنبيائهم ويكفرون بهم رغم وقوع ما اقترحوا من تلك الآيات.

وبعد عدة آيات يرد القرآن على تلك المطالب المتعنتة موضحا لهم أن نبيهم ليس بدعا بين الرسل: "وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا (٢٠) وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا (٢١) يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا (٢٢)". وفى "الزخرف" نقرأ قوله تعالى: "وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ (٣٠) وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْءانُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١)". وهو ما يدل على تشبثهم بأفكارهم البالية السخيفة التى لا تتفق مع عقل أو منطق، إذ ما موجب أن تكون النبوة لرجل غنى مشهور؟ العبرة بأن يكون النبى إنسانا صادقا مخلصا راقيا يستطيع القيام بأعباء الرسالة لا أن تكون النبوة تشريفا يضاف إلى الغنى والشهرة؟ ثم متى كان محمد مسحورا أو ساحرا؟ لقد كان يكلمهم بالعقل والمنطق، فلا سحر ولا ساحر.

ولكن على من تتلو آياتك يا محمد؟ لقد كان من الواضح أنه لا أمل قريب فى إيمانهم ورجوعهم عن غيهم وليونة أمخاخهم. يقول تعالى فى سورة "سبأ": "وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (٤٣) وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ (٤٤) وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٥) قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٤٦) قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٤٧)". فهم لا يزالون يتهمونه بأنه ساحر، ثم أضافوا إلى السحر أنه مجنون. فبالله كيف يكون الساحر مجنونا؟ إن الساحر شخص داهية كذاب يلعب بالبيضة والحجر. فكيف يكون مجنونا، والمجنون لا يفقه ولا يعقل ولا يخطط ولا يطمع فى ما فى يد الآخرين ولا يتلاعب بهم، ولا يعى شيئا مما يدور حوله؟

لكنهم لا يكفون عن اعتقاداتهم وأقاويلهم وترديدها دون تفكير. إنها العادة التى تطمس العقل وتشل القدرة على التفكير الصحيح. يقول سبحانه فى سورة "الزُّمَر": "إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (٢) أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ (٣) لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٤)". فهم

لا يتصورون أن الله قريب من عباده بحيث لا توجد أية مسافة بينه وبينهم تستلزم وجود أصنام تتشفع لهم عنده وتقربهم منه.

وفى سورة "فُصِّلَتْ" لا يزالون هم هم لا يتغيرون. إنهم يصرون على عدم الإنصات أو التفكير، ويعلنون بكل قوة، كأنه أمر يبعث على الافتخار، أن قلوبهم فى أَكِنَّةٍ وأن فى آذانهم وَقْرًا وأن ثمة حِجَابًا يقوم بينهم وبين النبى يمنعهم من السماع والرؤية والتفكير مع أنه يدعوهم إلى كل كريم من الاعتقاد والخلق والسلوك من توحيد واستقامة وعطف على المحتاجين: "حم (١) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٤) وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ (٥) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (٦) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٨)". وفى "فصلت" أيضا نقابل لونا آخر من ألوان الاستجابة: "وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦)".

وفى "الطُّور" نسمعهم يتهمون النبى بالجنون والكهانة والشعر وتقوُّل القرآن من عند نفسه: "فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ (٢٩) أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (٣٠) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ (٣١) أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٣٢) أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (٣٤)". وهو نفسه ما نجده فى "الحاقة": "فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (٣٩) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٤٢) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٣) وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧)".

والعجيب أن ذلك كله قد انتهى إلى دخول المشركين جميعا فى الإسلام، إلا نسبة قليلة منهم ماتت على الكفر. ثم صار معتنقو الإسلام منهم جنودا له يدافعون عنه وينشرونه فى الخافقين ويضحون فى سبيله بالنفس والنفيس بما يعنى أنهم لم يكونوا قبل إسلامهم يقولون الحق بل كانوا يفترون على الرسول الأكاذيب، ثم كتب الله لهم الهداية فعادوا عن غَيِّهم. قال تعالى فى سورة "النصر": "إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣)".

أما المنافقون فهذه بعض النصوص القرآنية التى تسجل استجاباتهم. قال تعالى فى سورة "النساء" يصف تذبذب بعض من يعلنون انتسابهم إلى الإسلام وعدم ثباتهم على مبدإ وجبنهم وحرصهم على الحياة بأى ثمن وإفشاءهم أسرار الدولة وكراهيتهم للخضوع لأحكام الله عز وجل: "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ

وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا (٦١) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (٦٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا (٦٣) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا (٦٤) فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥) وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا (٦٦) وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (٦٧) وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٦٨) وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا (٦٩) ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا (٧٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا (٧١) وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا (٧٢) وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧٣) فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (٧٤) وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا (٧٥) الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (٧٦) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧٧) أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (٧٨) مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (٧٩) مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا (٨٠) وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (٨١) أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (٨٢) وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا (٨٣) فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا (٨٤) مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ

عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا (٨٥) وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا (٨٦) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا (٨٧) فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (٨٨) وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٨٩)".

وفى نفس السورة نقرأ: "بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٣٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (١٣٩) وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (١٤٠) الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا (١٤١) إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا (١٤٢) مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (١٤٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا (١٤٤) إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (١٤٥) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (١٤٦)". وواضح أنهم يمسكون العصا من المنتصف منتظرين نتيجة الصراع، لينضموا إلى المعسكر المنتصر. كما أنهم لا يؤدون الشعائر الإسلامية من قلوبهم بل تَكَرُّهًا وفى بلادة وكسل. وهذا خلق فى غاية الدناءة. وقد جعلهم الله فى الدرك الأسفل من النار، وهو ما لم يقله فى حق الكافرين.

وفى النص التالى من سورة "التوبة" تصويرٌ لبعض مواقفهم الخيانية الأخرى وحملةٌ عنيفةٌ عليهم وعلى أخلاقهم ومواقفهم الدنسة: "لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥) وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦) لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧) لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ (٤٨) وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٤٩) إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ (٥٠) قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ

مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ (٥٢) قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٣) وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ (٥٤) فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٥٥) وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ (٥٦) لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ (٥٧) وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ (٥٨) وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ (٥٩) إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦٠) وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦١) يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٦٢) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ (٦٣) يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ (٦٤) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (٦٥) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٦٦) الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٦٧) وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٦٨) كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٩) أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٧٠) وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١) وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٧٢) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٣) يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٧٤) وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ

سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (٧٨) الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٩) اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٨٠) فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨١) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (٨٣) وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ (٨٤) وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٨٥) وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ (٨٦) رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٨٧)". ومن شدة الحملة عليهم رماهم الله بالكفر بعد الإسلام، وحَرَّم الصلاة عليهم عند موتهم، وأعلن بكل قوة أنه مهما دعا الرسول لهم فلن تقبل دعوته ولا صلاته من أجلهم، وشبههم بالنساء لتخلفهم عن الحرب، إذ النساء لا يجب عليهن الخروج للقتال، وهذا أعنف تقريعٍ للعربى وأشنع تعرية له بين العالمين.

كما يفضحهم القرآن فى الآيات التالية التى تشير إلى بنائهم مسجدا للتآمر على الإسلام والمسلمين. وكانوا قد سألوا الرسول عليه السلام أن يأتى ويباركه بالصلاة فيه، ولم تكن نيتهم بطبيعة الحال الحصول على البركة النبوية بل خداع المسلمين بأن النبى بارك مسجدهم، فلا يلتفتون إلى أنه مسجد تآمر وخيانة. قال سبحانه فى نفس السورة: "وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨) أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩) لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١١٠)".

ليس ذلك فحسب، إذ كان بعضهم كلما نزلت سورة جديدة سخروا منها ومن المؤمنين بها، ففضحهم القرآن وفضح سخريتهم. بل إنهم إذا كانوا حاضرين نزول سورة من السماء نظر بعضهم إلى بعض نظرا خسيسا متفقا عليه ثم قاموا فانصرفوا غير شاعرين بخجل ولا حياء: "وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥) أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ

فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦) وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (١٢٧)".

وهم جبناء يحرصون على الحياة بكل ما عندهم من قوة، ولا يحبون الجهاد فى سبيل الله ويكذبون ويلفقون لذلك الجبن الأعذار المنحطة: "سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١١) بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا (١٢)".

وأما النص القرآنى التالى، وهو من سورة "المنافقون"، فيحكى نفورهم من الإسلام حتى إنهم، حين قيل لهم: تعالَوْا ليستغفر لكم الرسول ويدعو الله من أجلكم فيسامحكم على ما اقترفت أيديكم وتلفظت به أفواهكم، لَوَّوْا رؤوسهم واستكبروا، فضلا عن تحريضهم أهل المدينة على عدم مساعدة المهاجرين، مع التطاول الجبان من زعيمهم الخسيس على النبى عليه السلام، إذ صرح فى غيابه صلى الله عليه وسلم أنه متى عاد إلى المدينة من الغزوة التى كان الجيش عائدا منها آنذاك فلسوف يخرجه هو وأتباعه منها واصفا هذا المنافقُ الكبيرُ نفسَه بـ"الأعزّ"، والرسولَ الكريمَ بـ"الأذلّ": "وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (٥) سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٦) هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ (٧) يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨)".

هذا عن استجابة الطوائف، أما استجابات الأفراد فيمكن أن نمثل لها بما يلى: فحين نزل الوحى لأول مرة على رسول الله لم يصدق عليه السلام ما وقع له وظن بنفسه سوءا، وعاد مسرعا إلى بيته وهو يرتجف طالبا من أهل بيته أن يزمّلوه ويدثّروه. وحين حكى لزوجته خديجة رضى الله عنها ما وقع وما نزل عليه من الوحى طمأنته أنه لا يمكن أن يخزيه الله أبدا لأنه رجل كريم ونبيل، والله سبحانه لا يمكن أن يسوء من كان مثله كرما وفضلا. وكذلك كان موقف ورقة بن نوفل قريبها، إذ حينما أنبأته بما حصل لزوجها فى الغار، واستمع إلى مُحَمَّد وهو يروى له ما قرأه عليه جبريل، أكد له أن هذا هو الناموس الذى كان ينزل على موسى وأن قومه سوف يعادونه ويخرجونه، وأخبره أنه لو امتد به العمر إلى هذه المرحلة لوقف معه. فهذه استجابة النبى، واستجابة زوجته خديجة وقريبها ورقة بن نوفل.

ولدينا الوليد بن المغيرة، "الذى اجتمع إليه نفر من قريش، وكان ذا سن فيهم، وقد حضر الموسمُ، فقال لهم: يا معشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستَقْدَم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأَجْمِعوا فيه رأيا واحدا ولا تختلفوا فيكذِّب بعضكم بعضًا ويردّ قولكم

بعضه بعضًا. قالوا: فأنت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأيا نقول به. قال: بل أنتم فقولوا أسمع. قالوا: نقول: كاهن. قال: لا والله ما هو بكاهن. لقد رأينا الكهان، فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه. قالوا: فنقول: مجنون. قال: ما هو بمجنون. لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو بخنقه ولا تخالجِه ولا وسوسته. قالوا: فنقول: شاعر. قال: ما هو بشاعر. لقد عرفنا الشعر كله رَجَزه وهَزَجه وقَرْضه ومقبوضه ومبسوطه، فما هو بالشعر. قالوا: فنقول: ساحر. قال: ما هو بساحر. لقد رأينا السُّحَّار وسحرهم، فما هو بنَفْثهم ولا عَقْدهم. قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟ قال: والله إن لقوله لحلاوة، وإن أصله لعَذْق، وإن فرعه لجَنَاة... وما أنتم بقائلين من هذا شيئًا إلا عُرِف أنه باطل، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا: ساحر جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وابنه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته. فتفرقوا عنه بذلك، فجعلوا يجلسون بِسُبُل الناس حين قَدِموا الموسم، ولا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه وذكروا لهم أمره، فأنزل الله تعالى فى الوليد بن المغيرة فى ذلك من قوله: "ذَرْنِى ومَنْ خلقتُ وحيدًا * وجعلتُ له مالًا ممدودًا * وبنين شهودًا * ومهَّدتُ له تمهيدًا * ثم يطمع أن أزيدَ * كلا إنه كان لآياتنا عنيدا"، أى خصيما".

ومن الاستجابات الفردية كذلك ما صنعه النضر بن الحارث، الذى كان كلما جلس النبى مجلسا فى مكة ورتل على الحاضرين ما نزل عليه من القرآن أتى هو وفتح كتبه التى أحضرها معه من فارس وقرأ على الموجودين أقاصيص ملوك الفرس وقوادهم وزعمائهم، وقال لهم: إن ما معى أفضل مما مع محمد: "وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (٦) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِى أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٧)".

وكان عمر بن الخطاب فى بداية أمره يكره النبى ويقف منه ومن دينه موقف العداوة. وقد فاض به الكيل ذات يوم فأخذ سَمْتَه إلى دار الأرقم بن أبى الأرقم حيث يجتمع المسلمون بنبيهم سرا يتعلمون منه ويصلون معه، يريد أن يؤذى الرسول أو يقتله. وفى الطريق علم من إحدى النساء أن أخته وزوجها صارا مسلمين وتركا الأوثان، فعَرَّج على بيتهما وضرب أخته وبرك فوق صدر زوجها، فبكت. وبغتة تحول الموقف، وداخلت عمرَ عاطفةُ الشفقة على أخته والخجل مما صنعه بها وبزوجها، وأراد أن يطَّلع على ورقة مصحف كانت معها، فرفضت إلا بعد أن يستحم ويتطهر، ففعل. ولما أخذ الورقة منها وشرع يقرأ فيها وجد لآيات القرآن تأثيرا على نفسه جارفا لا يستطيع أن يملكه. ولم يكذِّب خبرا، فأخذ نفسه ميمما دار الأرقم، وهناك أعلن إسلامه، فسعد المسلمون سعادة كبيرة لما لعمر من شخصية قوية يهابها المشركون.

وعندما نزلت سورة "الروم" وتنبأ القرآن بانتصار الروم على الفرس فى بضع سنين دخل أبو بكر مع الكفار فى رِهَان على أن الله سينصر الروم فى ثلاث سنين، فإن حَدَثَ كَسَبَ هو الرِّهَان، وإن لم يحدث كان الرهان من نصيبهم. وتقول الرواية إن الرسول عليه السلام حين سمع بما وقع نصحه

أن يطيل فى الأجل وأن يزيد فى قيمة الرهن، فأخذ الصِّدِّيق بما نصحه به الرسول، وكسب الرهان على الوضع الجديد.

وفى "أسباب النزول" للواحدى فى قوله تعالى من سورة "يس": "وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَامَ وَهِىَ رَمِيمٌ": "قال المفسرون إن أُبى بن خَلَف أتى النبى ﷺ بعظمٍ حائِلٍ (قد بَلِيَ) فقال: يا مُحَمَّد، أترى الله يحيى هذا بعد ما قد رَمَّ؟ فقال: نعم، ويبعثك ويدخلك النار. فأنزل الله تعالى هذه الآيات: "وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَامَ وَهِىَ رَمِيمٌ". أخبرنا سعيد بن مُحَمَّد بن جعفر، قال: أخبرنا أبو على بن أبى بكر الفقيه، قال: أخبرنا أحمد بن الحسين بن الجنيد، قال: حدَّثنا زياد بن أيوب، قال: حدَّثنا هشيم قال: حدَّثنا حصين عن أبى مالك أن أُبى بن خَلَف الجُمَحِى جاء إلى رسول الله ﷺ بعظمٍ حائلٍ فَفَتَّهُ بين يديه وقال: يا مُحَمَّد، يبعث الله هذا بعد ما أَرَمَّ؟ فقال: نعم يبعث الله هذا ويميتك ثم يحييك ثم يدخلك نار جهنم. فنزلت هذه الآية".

ولدينا سورة "مريم"، التى ورد فى أوائلها ما قاله قوم العذراء الطاهرة لها حين أتتهم بوليدها تحمله، فقرَّعوها ساخرين: "يا أخت هارون، ما كان أبوك امرأ سَوْءٍ، وما كانت أمك بَغِيًّا". لقد أعلن وفد نصارى اليمن أمام الصحابة فى المدينة استنكارهم أن تكون مريم هى أخت هارون، الذى تفصل بينها وبينه قرون طوال، فنقل الصحابة هذا الاستنكار إلى رسول الله، فأخبرهم أن القوم كانوا ينتسبون وينسبون أبناءهم إلى صُلَحَائهم رغم طول المسافة الزمنية بين الطرفين. وهو ما تقوله "دائرة المعارف الكتابية"، إذ فيها أن الكتاب المقدس يستعمل كلمة "أخت" فى معان كثيرة من بينها هذا المعنى ومعان أخرى مشابهة جدا له. وبالإضافة إلى ذلك فإن القرآن ليس هو من قال عنها: "أخت هارون"، بل قومها هم الذين قالوا ذلك، والقرآن مجرد حاكٍ للخبر ليس إلا. كما أن اليهود فى المدينة لم يعترضوا على الآية قط رغم ما هو معروف عن اليهود من سفاهة وسفالة وطول لسان مع الإسلام والمسلمين.

وفى الحديث التالى نتعرف إلى استجابة الحكم بن هشام (أبى جهل) للقرآن الكريم ونبوة مُحَمَّد، وكانت عاتكة أخت العباس قد رأت، قبيل معركة بدر، رؤيا بانتصار ابن أخيها مُحَمَّد بن عبد الله على المكيين فى خلال أيامٍ جِدِّ قلائلَ: "غَدَا العَبَّاسُ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ حتى أَصْبَحَ فَوَجَدَ أَبا جَهْلٍ وعتبةَ بنَ ربيعةَ وشيبةَ بنَ رَبِيعَةَ وأُمَيَّةَ بنَ خلفٍ وزَمْعَةَ بنَ الأَسْوَدِ وأَبا البَخْتَرِى فى نفرٍ يَتَحَدَّثُونَ. فَلمَّا نَظَرُوا إلى عَبَّاسٍ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ نَادَاهُ أَبُو جَهْلِ بنُ هِشَامٍ: يا أَبا الفَضْلِ، إِذَا قَضَيْتَ طَوَافَكَ فَائْتِنَا. فَلمَّا قَضَى طَوَافَهُ أَتَى فَجَلَسَ، فقال أَبُو جَهْلٍ: يا أَبا الفَضْلِ، ما رُؤْيا رَأَتْهَا عَاتِكَةُ؟ قال: ما رَأَتْ من شَيْءٍ. قال: بَلَى. أَمَا رَضِيتُمْ يا بَنِى هَاشِمٍ بِكَذِبِ الرِّجَالِ حتى جِئْتُمُونَا بِكَذِبِ النِّسَاءِ؟ إِنَّا كُنَّا وأَنْتُمْ كَفَرَسَى رِهَان، فَاسْتَبَقْنَا المجْدَ مُنْذُ حِينٍ، فَلمَّا حاذَتِ الرُّكَبُ قُلْتُمْ: مِنَّا نَبِى. فَمَا بَقِى إِلَّا أَنْ تَقُولُوا: مِنَّا نَبِيَّةٌ. ولَا أَعْلَمُ أَهْلَ بَيْتٍ أَكْذَبَ رَجُلًا ولَا أَكْذَبَ امْرَأَةً مِنْكُمْ. فَآذَوْهُ يَوْمَئِذٍ أَشَدَّ الأَذَى. وَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: زَعَمَتْ عَاتِكَةُ أَنَّ الرَّاكِبَ قال: اخْرُجُوا فى لَيْلَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثٍ. فَلَوْ قَدْ مَضَتْ هذه الثَّلَاثُ تَبَيَّنَ لِقُرَيْشٍ

كَذِبُكُمْ وَكَتَبْنَا سِجِلًّا ثمَّ عَلَّقْنَاهُ بِالْكَعْبَةِ أَنَّكُمْ أَكْذَبُ بَيْتٍ فى العَرَبِ رَجُلًا وامْرَأَةً. أَمَا رَضِيتُمْ يا بَنِى قُصَى أَنَّكُمْ ذَهَبْتُمْ بِالْحِجَابَةِ والنَّدْوَةِ والسِّقَايَةِ واللِّوَاءِ حتى جِئْتُمُونا، زَعَمْتُمْ، بِنَبِى مِنْكُمْ؟ فَآذَوْهُ يَوْمَئِذٍ أَشَدَّ الأَذَى، وقَالَ لَهُ العَبَّاسُ: مَهْلًا يا مُصَفِّرَ اسْتِهِ! هل أَنْتَ مُنْتَهٍ؟ فَإِنَّ الكَذِبَ فِيكَ وفِى أَهْلِ بَيْتِكَ. فقال لَهُ مَنْ حَضَرَهُ: يا أَبا الفَضْلِ، ما كُنْتَ بِجَاهِلٍ ولَا خَرِفٍ. ونَالَ عَبَّاسٌ من عَاتِكَةَ أَذًى شَدِيدًا فِيمَا أفشى من حَدِيثِهَا. فَلمَّا كَانَ مَسَاءُ لَيْلَةِ الثَّالِثَةِ من اللَّيالِى الَّتِى رَأَتْ فِيهَا عَاتِكَةُ الرُّؤْيا جَاءَهُمُ الرَّكْبُ الذى بَعَثَ أَبُو سُفْيانَ: ضَمْضَمَ بنَ عَمْرٍو الغِفَارِى فقال: يا آلَ غدرٍ، انْفِرُوا، فَقَدْ خرج مُحَمَّدٌ وأَصْحابُهُ لِيَعْرِضُوا لِأَبِى سُفْيانَ، فَأَحْرِزُوا عِيَرَكُمْ. فَفَزِعَتْ قُرَيْشٌ أَشَدَّ الفَزَعِ وأَشْفَقُوا من قِبَلِ رُؤْيا عَاتِكَةَ ونَفَرُوا على كُلِّ صَعْبٍ وذَلُولٍ".

ولما هاجر النبى ﷺ إلى المدينة "جاء عبد الله بن سلام فقال: أشهد أنك رسول الله، وأنك جئت بحق. وقد علمتْ يهود أنى سيدهم وابن سيدهم، وأعلمهم وابن أعلمهم، فادعهم فَسَلْهُمْ عنى قبل أن يعلموا أنى قد أسلمت. فإنهم إن يعلموا أنى قد أسلمت قالوا فِى ما ليس فِى. فأرسل نبى الله ﷺ إلى اليهود، فدخلوا عليه، فقال لهم: يا معشر اليهود، ويلكم! اتقوا الله! فوالله الذى لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنى رسول الله حقًّا وأنى جئتكم بحق، فأَسْلِمُوا. قالوا: ما نعلمه! قالوا ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم. قالها ثلاث مرار. قال: فأى رجل فيكم عبد الله بن سلام؟ قالوا: ذاك سيدنا وابن سيدنا، وأعلمنا وابن أعلمنا. قال: أفرأيتم إن أسلم؟ قالوا: حاشا لله! ما كان ليسلم. قال: يا ابن سلام، اخرج عليهم. فخرج فقال: يا معشر يهود، اتقوا الله! فوالله الذى لا إله هو إنكم لتعلمون أنه رسول الله وأنه جاء بالحق. فقالوا: كَذَبْتَ. فأخرجهم رسول الله ﷺ".

ولصفية بنت حيي أم المؤمنين رضى الله عنها فى دخولها الإسلام قصة. لقد كان لأبيها وعمها استجابتهما تجاه ما جاء به النبى ﷺ. فقد عرفا أنه نبى حقيقى، لكنهما اتخذا منه موقف الكراهية والحسد والكفر والعداوة إلى الأبد. وقد سمعتْ هذا فى طفولتها من أبيها وعمها وهما لا يدريان، فاستقر فى قلبها ما سمعتْه منهما وعرفتْ أنهما يوقنان أنه رسول الله لكنهما لن يؤمنا به حتى لو انطبقت السماء على الأرض. جاء فى "سيرة ابن هشام" على لسانها رضى الله عنها: "كنت أَحَبَّ ولدِ أبى إليه وإلى عمى أبى ياسر: لم ألقهما قط مع ولد لهما إلا أخذانى دونه. فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة، ونزل قُبَاءَ فى بنى عمرو بن عوف، غَدَا عليه أبى حُيَى بن أَخْطَب وعمى أبو ياسر بن أخطب مُغَلِّسَيْن، فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس، فأتيا كالَّيْن كسلانين ساقطين يمشيان الهوينا، فهشَشْتُ إليهما كما كنت أصنع، فوالله ما التفت إلى واحدٌ منهما مع ما بهما من الغم، وسمعت عمى أبا ياسر وهو يقول لأبى حُيَى بن أخطب: أَهُوَ هُوَ؟ قال: نعم والله. قال: أتعرفه وتُثْبِته؟ قال: نعم. قال: فما فى نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيتُ". فهذه هى استجابتهما لما تبين لهما من صدقه ﷺ. لكن كان لصفية شأن آخر: لقد ظل هذا الموقف مستكنا فى أعماقها إلى أن التقت

بالنبى ﷺ وتزوجها فأعلنت إسلامها، وكانت استجابتها بذلك مخالفة تمام المخالفة لاستجابة أبيها وعمها.

ويروى أن النبى ﷺ قال ذات مرة: لا يدخل الجنةَ عجوزٌ. وكانت ثم عجوز حاضرة، فوَلَّتْ وهى تبكى، فناداها الرسول قائلا لها ما معناه: ألم تقرئى قول الله تعالى عن نساء الجنة: "إنا أنشأناهن إنشاءً * فجعلناهن أبكارا * عُرُبًا أترابًا"؟ والمعنى أن العجائز سوف يصرن شابات نضرات أبكارا، ومن ثم لن تكون هناك عجوز فى الجنة. فعادت تضحك.

وحين استطارت شائعة الإفك وأَلْفَى أبو بكر قريبه مِسْطَح بن أُثَاثَة، الذى كان يعطف عليه ويعطيه ما يعينه على الحياة من مال وبِرٍّ، يَخُبّ فى الشائعة ويَضَع بشماتة عجيبة مصداقا للحكمة القائلة: "اتق شر من أحسنتَ إليه" تألم فوق ما كان يتألم من أجل ابنته العزيزة الشريفة أن تأتيه الطعنة من هذه الناحية التى لم يكن يحتسبها، فأقسم بالله أن يكف يده عن معونة مسطح، فنزل قوله تعالى: "وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِى الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢)"، فما كان من أبى بكر إلا أن سارع إلى العودة لِمَبَرَّة قريبه رغم كل شىء حبا فى أن يكون من أهل الفضل الذين يحبهم الله وأن يغفر الله له مقابل عفوه وصفحه ورجوعه لمساعدة أُولِى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله.

هذا استعراض سريع وعام لكيفيات الاستجابة لدى طوائف الخلق الذين كانوا يعيشون فى الجزيرة العربية وقت نزول القرآن على النبى مُحَمَّد عليه الصلاة والسلام: فأما المؤمنون فأناس اتبعوا الحق لأنهم أبصروه حقا ولم يكذبوا على أنفسهم ولا على الناس، ورأوا أن ما أتى به مُحَمَّد من دين ومبادئ وقيم جدير بالإيمان به واتباعه والتضحية من أجله ونصرة الرسول الذى جاء به. ولا شك أن لمعرفتهم بشخصية النبى وخلوه من المعايب ونقاء صفحته تماما من كل ما يريب دخلا كبيرا فى مسارعتهم لاعتناق الإسلام. كما أنهم هم أنفسهم كانوا من أنقى الأفراد فى بيئتهم وبين قومهم. وعلى رأس المؤمنين خديجة وأبو بكر وعلى وعثمان وعمر وبلال وصهيب ومصعب بن عمير وخباب بن الأرت والأرقم بن أبى الأرقم وحمزة وعمار بن ياسر وسمية وزيد بن ثابت... إلخ.

وأما اليهود فهم يعتقدون بأنهم شعب الله المختار، وأن النبوة منحصرة فيهم. وكانوا مع هذا يشغبون دائما على أنبيائهم ويكفرون بهم، وقتلوا بعضهم. بل كانوا يسرعون فى كل سانحة إلى الارتداد لعبادة الأوثان. وأمامنا عيسى عليه السلام شاهدا على سلوكهم الإجرامى الشرير، إذ تآمروا على قتله، وإن كان الله قد نجاه منهم ورفعه إليه. كما أنهم حين كانوا ينتظرون نبيا قبيل بعثة مُحَمَّد لم يكونوا ينتظرونه من أجل الهداية والسلام وراحة النفس والطمأنينة الروحية بل كانوا ينتظرونه، حسبما قالوا، ليستأصلوا معه اليثربيين، إذ كانوا كثيرا ما يشتبكون معهم، وبدلا من أن يبحثوا عن سبيل للسلام والمعايشة الطيبة كانوا يريدون أن يأتى الرسول المنتظر ليحقق لهم أحقادهم ويمشى فى الحياة طبقا لما

تفيض به قلوبهم من مرارة متقيحة وبغضاء للبشر من حولهم وفى جميع أرجاء المسكونة. فهل يعقل أن يسارع ناس على هذه الشاكلة للإيمان بمحمد ودينه؟

وهذه بعض نصوص الكتاب المقدس التى تتحدث عن التوائهم: ففى سفر "الخروج" مثلا نقرأ ما يقول الله لموسى حين كان فوق الجبل للقاء ربه: "[٧]فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «اذْهَبِ انْزِلْ. لأَنَّهُ قَدْ فَسَدَ شَعْبُكَ الَّذِى أَصْعَدْتَهُ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ. [٨]زَاغُوا سَرِيعًا عَنِ الطَّرِيقِ الَّذِى أَوْصَيْتُهُمْ بِهِ. صَنَعُوا لَهُمْ عِجْلًا مَسْبُوكًا، وَسَجَدُوا لَهُ وَذَبَحُوا لَهُ وَقَالُوا: هذِهِ آلِهَتُكَ يَا إِسْرَائِيلُ الَّتِى أَصْعَدَتْكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ». [٩]وَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «رَأَيْتُ هذَا الشَّعْبَ وَإِذَا هُوَ شَعْبٌ صُلْبُ الرَّقَبَةِ. [١٠]فَالآنَ اتْرُكْنِى لِيَحْمَى غَضَبِى عَلَيْهِمْ وَأُفْنِيَهُمْ، فَأُصَيِّرَكَ شَعْبًا عَظِيمًا»". فانظر كيف نَسُوا سريعا إنقاذ الله لهم من فرعون وجيشه الجبار وإهلاك الله لعدوهم بإغراقه أمامهم فى لج اليم، وصنعوا أوثانا عبدوها على أنها آلهتهم التى أنقذتهم من العبودية فى مصر ومن الهلاك الذى كان ينتظرهم فيها. واللافت للنظر أن كتابهم يصفهم على لسان ربهم دائما بأنهم شعب صلب الرقبة. كما ذكر كتابهم أنهم قتلوا كثيرا من الأنبياء حسبما جاء فى القرآن الكريم أيضا. وقد سلط الله عليهم كثيرا من الأمم فأذلوهم وأهانوهم ومزقوهم فى البلاد.

وكثيرا ما صب لعناته عليهم وصورهم تصويرا شنيعا يدل على مدى ضيقه بهم وبغضه لسلوكهم واعتقاداتهم. ففى الإصحاح السادس عشر من سفر "حزقيال" نقرأ ما يلى: "[١]وَكَانَتْ إِلَىَّ كَلِمَةُ الرَّبِّ قَائِلَةً: [٢]«يَا ابْنَ آدَمَ، عَرِّفْ أُورُشَلِيمَ بِرَجَاسَاتِهَا، [٣]وَقُلْ: هكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ لأُورُشَلِيمَ: مَخْرَجُكِ وَمَوْلِدُكِ مِنْ أَرْضِ كَنْعَانَ. أَبُوكِ أَمُورِى وَأُمُّكِ حِثِّيَّةٌ. [٤]أَمَّا مِيلاَدُكِ يَوْمَ وُلِدْتِ فَلَمْ تُقْطَعْ سُرَّتُكِ، وَلَمْ تُغْسَلِى بِالْمَاءِ لِلتَّنَظُّفِ، وَلَمْ تُمَلَّحِى تَمْلِيحًا، وَلَمْ تُقَمَّطِى تَقْمِيطًا. [٥]لَمْ تَشْفُقْ عَلَيْكِ عَيْنٌ لِتَصْنَعَ لَكِ وَاحِدَةً مِنْ هذِهِ لِتَرِقَّ لَكِ، بَلْ طُرِحْتِ عَلَى وَجْهِ الْحَقْلِ بِكَرَاهَةِ نَفْسِكِ يَوْمَ وُلِدْتِ. [٦]فَمَرَرْتُ بِكِ وَرَأَيْتُكِ مَدُوسَةً بِدَمِكِ، فَقُلْتُ لَكِ: بِدَمِكِ عِيشِى، قُلْتُ لَكِ: بِدَمِكِ عِيشِى. [٧]جَعَلْتُكِ رَبْوَةً كَنَبَاتِ الْحَقْلِ، فَرَبَوْتِ وَكَبُرْتِ، وَبَلَغْتِ زِينَةَ الأَزْيَانِ. نَهَدَ ثَدْيَاكِ، وَنَبَتَ شَعْرُكِ وَقَدْ كُنْتِ عُرْيَانَةً وَعَارِيَةً. [٨]فَمَرَرْتُ بِكِ وَرَأَيْتُكِ، وَإِذَا زَمَنُكِ زَمَنُ الْحُبِّ. فَبَسَطْتُ ذَيْلِى عَلَيْكِ وَسَتَرْتُ عَوْرَتَكِ، وَحَلَفْتُ لَكِ، وَدَخَلْتُ مَعَكِ فِى عَهْدٍ، يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ، فَصِرْتِ لِى. [٩]فَحَمَّمْتُكِ بِالْمَاءِ، وَغَسَلْتُ عَنْكِ دِمَاءَكِ، وَمَسَحْتُكِ بِالزَّيْتِ، [١٠]وَأَلْبَسْتُكِ مُطَرَّزَةً، وَنَعَلْتُكِ بِالتُّخَسِ، وَأَزَّرْتُكِ بِالْكَتَّانِ، وَكَسَوْتُكِ بَزًّا، [١١]وَحَلَّيْتُكِ بِالْحُلِى، فَوَضَعْتُ أَسْوِرَةً فِى يَدَيْكِ وَطَوْقًا فِى عُنُقِكِ. [١٢]وَوَضَعْتُ خِزَامَةً فِى أَنْفِكِ وَأَقْرَاطًا فِى أُذُنَيْكِ وَتَاجَ جَمَال عَلَى رَأْسِكِ. [١٣]فَتَحَلَّيْتِ بِالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَلِبَاسُكِ الْكَتَّانُ وَالْبَزُّ وَالْمُطَرَّزُ. وَأَكَلْتِ السَّمِيذَ وَالْعَسَلَ وَالزَّيْتَ، وَجَمُلْتِ جِدًّا جِدًّا، فَصَلُحْتِ لِمَمْلَكَةٍ. [١٤]وَخَرَجَ لَكِ اسْمٌ فِى الأُمَمِ لِجَمَالِكِ، لأَنَّهُ كَانَ كَامِلًا بِبَهَائِى الَّذِى جَعَلْتُهُ عَلَيْكِ، يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ.

[١٥]«فَاتَّكَلْتِ عَلَى جَمَالِكِ، وَزَنَيْتِ عَلَى اسْمِكِ، وَسَكَبْتِ زِنَاكِ عَلَى كُلِّ عَابِرٍ فَكَانَ لَهُ. [١٦]وَأَخَذْتِ مِنْ ثِيَابِكِ وَصَنَعْتِ لِنَفْسِكِ مُرْتَفَعَاتٍ مُوَشَّاةٍ، وَزَنَيْتِ عَلَيْهَا. أَمْرٌ لَمْ يَأْتِ وَلَمْ يَكُنْ. [١٧]وَأَخَذْتِ أَمْتِعَةَ زِينَتِكِ مِنْ ذَهَبِى وَمِنْ فِضَّتِى الَّتِى أَعْطَيْتُكِ، وَصَنَعْتِ لِنَفْسِكِ صُوَرَ ذُكُورٍ وَزَنَيْتِ بِهَا.

[١٨]وَأَخَذْتِ ثِيَابَكِ الْمُطَرَّزَةَ وَغَطَّيْتِهَا بِهَا، وَوَضَعْتِ أَمَامَهَا زَيْتِي وَبَخُورِي. [١٩]وَخُبْزِي الَّذِي أَعْطَيْتُكِ، السَّمِيذَ وَالزَّيْتَ وَالْعَسَلَ الَّذِي أَطْعَمْتُكِ، وَضَعْتِهَا أَمَامَهَا رَائِحَةَ سُرُورٍ. وَهكَذَا كَانَ، يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ.

[٢٠]«أَخَذْتِ بَنِيكِ وَبَنَاتِكِ الَّذِينَ وَلَدْتِهِمْ لِي، وَذَبَحْتِهِمْ لَهَا طَعَامًا. أَهُوَ قَلِيلٌ مِنْ زِنَاكِ [٢١]أَنَّكِ ذَبَحْتِ بَنِي وَجَعَلْتِهِمْ يَجُوزُونَ فِي النَّارِ لَهَا؟ [٢٢]وَفِي كُلِّ رَجَاسَاتِكِ وَزِنَاكِ لَمْ تَذْكُرِي أَيَّامَ صِبَاكِ، إِذْ كُنْتِ عُرْيَانَةً وَعَارِيَةً وَكُنْتِ مَدُوسَةً بِدَمِكِ. [٢٣]وَكَانَ بَعْدَ كُلِّ شَرِّكِ. وَيْلٌ، وَيْلٌ لَكِ! يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ، [٢٤]أَنَّكِ بَنَيْتِ لِنَفْسِكِ قُبَّةً وَصَنَعْتِ لِنَفْسِكِ مُرْتَفَعَةً فِي كُلِّ شَارِعٍ. [٢٥]فِي رَأْسِ كُلِّ طَرِيقٍ بَنَيْتِ مُرْتَفَعَتَكِ وَرَجَّسْتِ جَمَالَكِ، وَفَرَّجْتِ رِجْلَيْكِ لِكُلِّ عَابِرٍ وَأَكْثَرْتِ زِنَاكِ. [٢٦]وَزَنَيْتِ مَعَ جِيرَانِكِ بَنِي مِصْرَ الْغِلاَظِ اللَّحْمِ، وَزِدْتِ فِي زِنَاكِ لإِغَاظَتِي.

[٢٧]«فَهأَنَذَا قَدْ مَدَدْتُ يَدِي عَلَيْكِ، وَمَنَعْتُ عَنْكِ فَرِيضَتَكِ، وَأَسْلَمْتُكِ لِمَرَامِ مُبْغِضَاتِكِ، بَنَاتِ الْفِلِسْطِينِيِّينَ، اللَّوَاتِي يَخْجَلْنَ مِنْ طَرِيقِكِ الرَّذِيلَةِ. [٢٨]وَزَنَيْتِ مَعَ بَنِي أَشُّورَ، إِذْ كُنْتِ لَمْ تَشْبَعِي فَزَنَيْتِ بِهِمْ، وَلَمْ تَشْبَعِي أَيْضًا. [٢٩]وَكَثَّرْتِ زِنَاكِ فِي أَرْضِ كَنْعَانَ إِلَى أَرْضِ الْكَلْدَانِيِّينَ، وَبِهذَا أَيْضًا لَمْ تَشْبَعِي. [٣٠]مَا أَمْرَضَ قَلْبَكِ، يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ، إِذْ فَعَلْتِ كُلَّ هذَا فِعْلَ امْرَأَةٍ زَانِيَةٍ سَلِيطَةٍ، [٣١]بِبِنَائِكِ قُبَّتَكِ فِي رَأْسِ كُلِّ طَرِيقٍ، وَصُنْعِكِ مُرْتَفَعَتَكِ فِي كُلِّ شَارِعٍ. وَلَمْ تَكُونِي كَزَانِيَةٍ، بَلْ مُحْتَقَرَةً الأُجْرَةَ. [٣٢]أَيَّتُهَا الزَّوْجَةُ الْفَاسِقَةُ، تَأْخُذُ أَجْنَبِيِّينَ مَكَانَ زَوْجِهَا. [٣٣]لِكُلِّ الزَّوَانِي يُعْطُونَ هَدِيَّةً، أَمَّا أَنْتِ فَقَدْ أَعْطَيْتِ كُلَّ مُحِبِّيكِ هَدَايَاكِ، وَرَشَيْتِهِمْ لِيَأْتُوكِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ لِلزِّنَا بِكِ. [٣٤]وَصَارَ فِيكِ عَكْسُ عَادَةِ النِّسَاءِ فِي زِنَاكِ، إِذْ لَمْ يُزْنَ وَرَاءَكِ، بَلْ أَنْتِ تُعْطِينَ أُجْرَةً وَلاَ أُجْرَةَ تُعْطَى لَكِ، فَصِرْتِ بِالْعَكْسِ.

[٣٥]«فَلِذلِكَ يَا زَانِيَةُ اسْمَعِي كَلاَمَ الرَّبِّ: [٣٦]هكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ: مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ قَدْ أُنْفِقَ نُحَاسُكِ وَانْكَشَفَتْ عَوْرَتُكِ بِزِنَاكِ بِمُحِبِّيكِ وَبِكُلِّ أَصْنَامِ رَجَاسَاتِكِ، وَلِدِمَاءِ بَنِيكِ الَّذِينَ بَذَلْتِهِمْ لَهَا، [٣٧]لِذلِكَ هأَنَذَا أَجْمَعُ جَمِيعَ مُحِبِّيكِ الَّذِينَ لَذَذْتِ لَهُمْ، وَكُلَّ الَّذِينَ أَحْبَبْتِهِمْ مَعَ كُلِّ الَّذِينَ أَبْغَضْتِهِمْ، فَأَجْمَعُهُمْ عَلَيْكِ مِنْ حَوْلِكِ، وَأَكْشِفُ عَوْرَتَكِ لَهُمْ لِيَنْظُرُوا كُلَّ عَوْرَتِكِ. [٣٨]وَأَحْكُمُ عَلَيْكِ أَحْكَامَ الْفَاسِقَاتِ السَّافِكَاتِ الدَّمِ، وَأَجْعَلُكِ دَمَ السَّخَطِ وَالْغَيْرَةِ. [٣٩]وَأُسَلِّمُكِ لِيَدِهِمْ فَيَهْدِمُونَ قُبَّتَكِ وَيُهَدِّمُونَ مُرْتَفَعَاتِكِ، وَيَنْزِعُونَ عَنْكِ ثِيَابَكِ، وَيَأْخُذُونَ أَدَوَاتِ زِينَتِكِ، وَيَتْرُكُونَكِ عُرْيَانَةً وَعَارِيَةً. [٤٠]وَيُصْعِدُونَ عَلَيْكِ جَمَاعَةً، وَيَرْجُمُونَكِ بِالْحِجَارَةِ وَيَقْطَعُونَكِ بِسُيُوفِهِمْ، [٤١]وَيُحْرِقُونَ بُيُوتَكِ بِالنَّارِ، وَيُجْرُونَ عَلَيْكِ أَحْكَامًا قُدَّامَ عُيُونِ نِسَاءٍ كَثِيرَةٍ. وَأَكُفُّكِ عَنِ الزِّنَا، وَأَيْضًا لاَ تُعْطِينَ أُجْرَةً بَعْدُ. [٤٢]وَأُحِلُّ غَضَبِي بِكِ فَتَنْصَرِفُ غَيْرَتِي عَنْكِ، فَأَسْكُنُ وَلاَ أَغْضَبُ بَعْدُ. [٤٣]مِنْ أَجْلِ أَنَّكِ لَمْ تَذْكُرِي أَيَّامَ صِبَاكِ، بَلْ أَسْخَطْتِنِي فِي كُلِّ هذِهِ، فَهأَنَذَا أَيْضًا أَجْلِبُ طَرِيقَكِ عَلَى رَأْسِكِ، يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ، فَلاَ تَفْعَلِينَ هذِهِ الرَّذِيلَةَ فَوْقَ رَجَاسَاتِكِ كُلِّهَا.

٤٤«هُوَذَا كُلُّ ضَارِبِ مَثَلٍ يَضْرِبُ مَثَلًا عَلَيْكِ قَائِلًا: مِثْلُ الأُمِّ بِنْتُهَا. ٤٥اِبْنَةُ أُمِّكِ أَنْتِ، الْكَارِهَةُ زَوْجَهَا وَبَنِيهَا. وَأَنْتِ أُخْتُ أَخَوَاتِكِ اللَّوَاتِي كَرِهْنَ أَزْوَاجَهُنَّ وَأَبْنَاءَهُنَّ. أُمُّكُنَّ حِثِّيَّةٌ وَأَبُوكُنَّ أَمُورِي. ٤٦وَأُخْتُكِ الْكُبْرَى السَّامِرَةُ هِيَ وَبَنَاتُهَا السَّاكِنَةُ عَنْ شِمَالِكِ، وَأُخْتُكِ الصُّغْرَى السَّاكِنَةُ عَنْ يَمِينِكِ هِيَ سَدُومُ وَبَنَاتُهَا. ٤٧وَلاَ فِي طَرِيقِهِنَّ سَلَكْتِ، وَلاَ مِثْلَ رَجَاسَاتِهِنَّ فَعَلْتِ، كَأَنَّ ذلِكَ قَلِيلٌ فَقَطْ، فَفَسَدْتِ أَكْثَرَ مِنْهُنَّ فِي كُلِّ طُرُقِكِ. ٤٨حَيٌّ أَنَا، يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ، إِنَّ سَدُومَ أُخْتَكِ لَمْ تَفْعَلْ هِيَ وَلاَ بَنَاتُهَا كَمَا فَعَلْتِ أَنْتِ وَبَنَاتُكِ. ٤٩هذَا كَانَ إِثْمَ أُخْتِكِ سَدُومَ: الْكِبْرِيَاءُ وَالشَّبَعُ مِنَ الْخُبْزِ وَسَلاَمُ الاطْمِئْنَانِ كَانَ لَهَا وَلِبَنَاتِهَا، وَلَمْ تُشَدِّدْ يَدَ الْفَقِيرِ وَالْمِسْكِينِ، ٥٠وَتَكَبَّرْنَ وَعَمِلْنَ الرِّجْسَ أَمَامِي فَنَزَعْتُهُنَّ كَمَا رَأَيْتُ. ٥١وَلَمْ تُخْطِئِ السَّامِرَةُ نِصْفَ خَطَايَاكِ. بَلْ زِدْتِ رَجَاسَاتِكِ أَكْثَرَ مِنْهُنَّ، وَبَرَّرْتِ أَخَوَاتِكِ بِكُلِّ رَجَاسَاتِكِ الَّتِي فَعَلْتِ. ٥٢فَاحْمِلِي أَيْضًا خِزْيَكِ، أَنْتِ الْقَاضِيَةُ عَلَى أَخَوَاتِكِ، بِخَطَايَاكِ الَّتِي بِهَا رَجَسْتِ أَكْثَرَ مِنْهُنَّ. هُنَّ أَبَرُّ مِنْكِ، فَاخْجَلِي أَنْتِ أَيْضًا، وَاحْمِلِي عَارَكِ بِتَبْرِيرِكِ أَخَوَاتِكِ. ٥٣وَأُرَجِّعُ سَبْيَهُنَّ، سَبْيَ سَدُومَ وَبَنَاتِهَا، وَسَبْيَ السَّامِرَةِ وَبَنَاتِهَا، وَسَبْيَ مَسْبِيِّيكِ فِي وَسْطِهَا، ٥٤لِكَيْ تَحْمِلِي عَارَكِ وَتَخْزَيْ مِنْ كُلِّ مَا فَعَلْتِ بِتَعْزِيَتِكِ إِيَّاهُنَّ. ٥٥وَأَخَوَاتُكِ سَدُومُ وَبَنَاتُهَا يَرْجِعْنَ إِلَى حَالَتِهِنَّ الْقَدِيمَةِ، وَالسَّامِرَةُ وَبَنَاتُهَا يَرْجِعْنَ إِلَى حَالَتِهِنَّ الْقَدِيمَةِ، وَأَنْتِ وَبَنَاتُكِ تَرْجِعْنَ إِلَى حَالَتِكُنَّ الْقَدِيمَةِ. ٥٦وَأُخْتُكِ سَدُومُ لَمْ تَكُنْ تُذْكَرْ فِي فَمِكِ يَوْمَ كِبْرِيَائِكِ، ٥٧قَبْلَ مَا انْكَشَفَ شَرُّكِ، كَمَا فِي زَمَانِ تَعْيِيرِ بَنَاتِ أَرَامَ وَكُلِّ مَنْ حَوْلَهَا، بَنَاتِ الْفِلِسْطِينِيِّينَ اللَّوَاتِي يَحْتَقِرْنَكِ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ. ٥٨رَذِيلَتُكِ وَرَجَاسَاتُكِ أَنْتِ تَحْمِلِينَهَا، يَقُولُ الرَّبُّ.

٥٩« لأَنَّهُ هكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ: إِنِّي أَفْعَلُ بِكِ كَمَا فَعَلْتِ، إِذِ ازْدَرَيْتِ بِالْقَسَمِ لِنَكْثِ الْعَهْدِ. ٦٠وَلكِنِّي أَذْكُرُ عَهْدِي مَعَكِ فِي أَيَّامِ صِبَاكِ، وَأُقِيمُ لَكِ عَهْدًا أَبَدِيًّا. ٦١فَتَتَذَكَّرِينَ طُرُقَكِ وَتَخْجَلِينَ إِذْ تَقْبَلِينَ أَخَوَاتِكِ الْكِبَرَ وَالصِّغَرَ، وَأَجْعَلُهُنَّ لَكِ بَنَاتٍ، وَلكِنْ لاَ بِعَهْدِكِ. ٦٢وَأَنَا أُقِيمُ عَهْدِي مَعَكِ، فَتَعْلَمِينَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ، ٦٣لِكَيْ تَتَذَكَّرِي فَتَخْزَيْ وَلاَ تَفْتَحِي فَاكِ بَعْدُ بِسَبَبِ خِزْيِكِ، حِينَ أَغْفِرُ لَكِ كُلَّ مَا فَعَلْتِ، يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ»".

وفي "الإصحاح" الثاني من سفر "عاموس": ٤هكَذَا قَالَ الرَّبُّ: «مِنْ أَجْلِ ذُنُوبِ يَهُوذَا الثَّلاَثَةِ وَالأَرْبَعَةِ لاَ أَرْجِعُ عَنْهُ، لأَنَّهُمْ رَفَضُوا نَامُوسَ اللهِ وَلَمْ يَحْفَظُوا فَرَائِضَهُ، وَأَضَلَّتْهُمْ أَكَاذِيبُهُمُ الَّتِي سَارَ آبَاؤُهُمْ وَرَاءَهَا. ٥فَأُرْسِلُ نَارًا عَلَى يَهُوذَا فَتَأْكُلُ قُصُورَ أُورُشَلِيمَ».

٦هكَذَا قَالَ الرَّبُّ: «مِنْ أَجْلِ ذُنُوبِ إِسْرَائِيلَ الثَّلاَثَةِ وَالأَرْبَعَةِ لاَ أَرْجِعُ عَنْهُ، لأَنَّهُمْ بَاعُوا الْبَارَّ بِالْفِضَّةِ، وَالْبَائِسَ لأَجْلِ نَعْلَيْنِ. ٧الَّذِينَ يَتَهَمَّمُونَ تُرَابَ الأَرْضِ عَلَى رُؤُوسِ الْمَسَاكِينِ، وَيَصُدُّونَ سَبِيلَ الْبَائِسِينَ، وَيَذْهَبُ رَجُلٌ وَأَبُوهُ إِلَى صَبِيَّةٍ وَاحِدَةٍ حَتَّى يُدَنِّسُوا اسْمَ قُدْسِي. ٨وَيَتَمَدَّدُونَ عَلَى ثِيَابٍ مَرْهُونَةٍ بِجَانِبِ كُلِّ مَذْبَحٍ، وَيَشْرَبُونَ خَمْرَ الْمُغَرَّمِينَ فِي بَيْتِ آلِهَتِهِمْ.

[٩] «وَأَنَا قَدْ أَبَدْتُ مِنْ أَمَامِهِمِ الأَمُورِىَّ الَّذِى قَامَتُهُ مِثْلُ قَامَةِ الأَرْزِ، وَهُوَ قَوِىٌّ كَالْبَلُّوطِ. أَبَدْتُ ثَمَرَهُ مِنْ فَوْقُ، وَأُصُولَهُ مِنْ تَحْتُ. [١٠] وَأَنَا أَصْعَدْتُكُمْ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ وَسِرْتُ بِكُمْ فِى الْبَرِّيَّةِ أَرْبَعِينَ سَنَةً لِتَرِثُوا أَرْضَ الأَمُورِىِّ. [١١] وَأَقَمْتُ مِنْ بَنِيكُمْ أَنْبِيَاءَ، وَمِنْ فِتْيَانِكُمْ نَذِيرِينَ.

أَلَيْسَ هكَذَا يَا بَنِى إِسْرَائِيلَ، يَقُولُ الرَّبُّ؟ [١٢] لكِنَّكُمْ سَقَيْتُمُ النَّذِيرِينَ خَمْرًا، وَأَوْصَيْتُمُ الأَنْبِيَاءَ قَائِلِينَ: لاَ تَتَنَبَّأُوا.

[١٣] «هأَنَذَا أَضْغَطُ مَا تَحْتَكُمْ كَمَا تَضْغَطُ الْعَجَلَةُ الْمَلآنَةُ حِزَمًا. [١٤] وَيَبِيدُ الْمَنَاصُ عَنِ السَّرِيعِ، وَالْقَوِىُّ لاَ يُشَدِّدُ قُوَّتَهُ، وَالْبَطَلُ لاَ يُنَجِّى نَفْسَهُ، [١٥] وَمَاسِكُ الْقَوْسِ لاَ يَثْبُتُ، وَسَرِيعُ الرِّجْلَيْنِ لاَ يَنْجُو، وَرَاكِبُ الْخَيْلِ لاَ يُنَجِّى نَفْسَهُ. [١٦] وَالْقَوِىُّ الْقَلْبِ بَيْنَ الأَبْطَالِ يَهْرُبُ عُرْيَانًا فِى ذلِكَ الْيَوْمِ، يَقُولُ الرَّبُّ»".

وفى الإصحاح الثالث والعشرين من إنجيل متى: "[١] هكَذَا أَرَانِى السَّيِّدُ الرَّبُّ وَإِذَا سَلَّةٌ لِلْقِطَافِ. [٢] فَقَالَ: «مَاذَا أَنْتَ رَاءٍ يَا عَامُوسُ؟» فَقُلْتُ: «سَلَّةً لِلْقِطَافِ». فَقَالَ لِى الرَّبُّ: «قَدْ أَتَتِ النِّهَايَةُ عَلَى شَعْبِى إِسْرَائِيلَ. لاَ أَعُودُ أَصْفَحُ لَهُ بَعْدُ. [٣] فَتَصِيرُ أَغَانِى الْقَصْرِ وَلاَوِلَ فِى ذلِكَ الْيَوْمِ، يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ، الْجُثَثُ كَثِيرَةٌ يَطْرَحُونَهَا فِى كُلِّ مَوْضِعٍ بِالسُّكُوتِ».

[٤] اِسْمَعُوا هذَا أَيُّهَا الْمُتَهَمِّمُونَ الْمَسَاكِينَ لِكَىْ تُبِيدُوا بَائِسِى الأَرْضِ، [٥] قَائِلِينَ: «مَتَى يَمْضِى رَأْسُ الشَّهْرِ لِنَبِيعَ قَمْحًا، وَالسَّبْتُ لِنَعْرِضَ حِنْطَةً؟ لِنُصَغِّرَ الإِيفَةَ، وَنُكَبِّرَ الشَّاقِلَ، وَنُعَوِّجَ مَوَازِينَ الْغِشِّ. [٦] لِنَشْتَرِىَ الضُّعَفَاءَ بِفِضَّةٍ، وَالْبَائِسَ بِنَعْلَيْنِ، وَنَبِيعَ نُفَايَةَ الْقَمْحِ».

[٧] قَدْ أَقْسَمَ الرَّبُّ بِفَخْرِ يَعْقُوبَ: «إِنِّى لَنْ أَنْسَى إِلَى الأَبَدِ جَمِيعَ أَعْمَالِهِمْ. [٨] أَلَيْسَ مِنْ أَجْلِ هذَا تَرْتَعِدُ الأَرْضُ، وَيَنُوحُ كُلُّ سَاكِنٍ فِيهَا، وَتَطْمُو كُلُّهَا كَنَهْرٍ، وَتَفِيضُ وَتَنْضُبُ كَنِيلِ مِصْرَ؟ [٩] وَيَكُونُ فِى ذلِكَ الْيَوْمِ، يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ، أَنِّى أُغَيِّبُ الشَّمْسَ فِى الظُّهْرِ، وَأُقْتِمُ الأَرْضَ فِى يَوْمِ نُورٍ، [١٠] وَأُحَوِّلُ أَعْيَادَكُمْ نَوْحًا، وَجَمِيعَ أَغَانِيكُمْ مَرَاثِىَ، وَأُصْعِدُ عَلَى كُلِّ الأَحْقَاءِ مِسْحًا، وَعَلَى كُلِّ رَأْسٍ قَرَعَةً، وَأَجْعَلُهَا كَمَنَاحَةِ الْوَحِيدِ وَآخِرَهَا يَوْمًا مُرًّا!

[١١] «هُوَذَا أَيَّامٌ تَأْتِى، يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ، أُرْسِلُ جُوعًا فِى الأَرْضِ، لاَ جُوعًا لِلْخُبْزِ، وَلاَ عَطَشًا لِلْمَاءِ، بَلْ لاسْتِمَاعِ كَلِمَاتِ الرَّبِّ. [١٢] فَيَجُولُونَ مِنْ بَحْرٍ إِلَى بَحْرٍ، وَمِنَ الشِّمَالِ إِلَى الْمَشْرِقِ، الْعُمْيَانُ! الْقَائِلُونَ: مَنْ حَلَفَ بِالْهَيْكَلِ فَلَيْسَ بِشَيْءٍ، وَلكِنْ مَنْ حَلَفَ بِذَهَبِ الْهَيْكَلِ يَلْتَزِمُ. [١٧] أَيُّهَا الْجُهَّالُ وَالْعُمْيَانُ! أَيُّمَا أَعْظَمُ: أَلذَّهَبُ أَمِ الْهَيْكَلُ الَّذِى يُقَدِّسُ الذَّهَبَ؟ [١٨] وَمَنْ حَلَفَ بِالْمَذْبَحِ فَلَيْسَ بِشَيْءٍ، وَلكِنْ مَنْ حَلَفَ بِالْقُرْبَانِ الَّذِى عَلَيْهِ يَلْتَزِمُ. [١٩] أَيُّهَا الْجُهَّالُ وَالْعُمْيَانُ! أَيُّمَا أَعْظَمُ: أَلْقُرْبَانُ أَمِ الْمَذْبَحُ الَّذِى يُقَدِّسُ الْقُرْبَانَ؟ [٢٠] فَإِنَّ مَنْ حَلَفَ بِالْمَذْبَحِ فَقَدْ حَلَفَ بِهِ وَبِكُلِّ مَا عَلَيْهِ! [٢١] وَمَنْ حَلَفَ بِالْهَيْكَلِ فَقَدْ حَلَفَ بِهِ وَبِالسَّاكِنِ فِيهِ، [٢٢] وَمَنْ حَلَفَ بِالسَّمَاءِ فَقَدْ حَلَفَ بِعَرْشِ اللهِ وَبِالْجَالِسِ عَلَيْهِ. [٢٣] وَيْلٌ لَكُمْ أَيُّهَا الْكَتَبَةُ وَالْفَرِّيسِيُّونَ الْمُرَاؤُونَ! لأَنَّكُمْ تُعَشِّرُونَ النَّعْنَعَ وَالشِّبِثَّ وَالْكَمُّونَ، وَتَرَكْتُمْ أَثْقَلَ

النَّامُوسِ: الْحَقَّ وَالرَّحْمَةَ وَالإِيمَانَ. كَانَ يَنْبَغِي أَنْ تَعْمَلُوا هذِهِ وَلاَ تَتْرُكُوا تِلْكَ. ٢٤أَيُّهَا الْقَادَةُ الْعُمْيَانُ! الَّذِينَ يُصَفُّونَ عَنِ الْبَعُوضَةِ وَيَبْلَعُونَ الْجَمَلَ. ٢٥وَيْلٌ لَكُمْ أَيُّهَا الْكَتَبَةُ وَالْفَرِّيسِيُّونَ الْمُرَاؤُونَ! لأَنَّكُمْ تُنَقُّونَ خَارِجَ الْكَأْسِ وَالصَّحْفَةِ، وَهُمَا مِنْ دَاخِل مَمْلُوآنِ اخْتِطَافًا وَدَعَارَةً. ٢٦أَيُّهَا الْفَرِّيسِيُّ الأَعْمَى! نَقِّ أَوَّلًا دَاخِلَ الْكَأْسِ وَالصَّحْفَةِ لِكَي يَكُونَ خَارِجُهُمَا أَيْضًا نَقِيًّا. ٢٧وَيْلٌ لَكُمْ أَيُّهَا الْكَتَبَةُ وَالْفَرِّيسِيُّونَ الْمُرَاؤُونَ! لأَنَّكُمْ تُشْبِهُونَ قُبُورًا مُبَيَّضَةً تَظْهَرُ مِنْ خَارِجٍ جَمِيلَةً، وَهِيَ مِنْ دَاخِل مَمْلُوءَةٌ عِظَامَ أَمْوَاتٍ وَكُلَّ نَجَاسَةٍ. ٢٨هكَذَا أَنْتُمْ أَيْضًا: مِنْ خَارِجٍ تَظْهَرُونَ لِلنَّاسِ أَبْرَارًا، وَلكِنَّكُمْ مِنْ دَاخِل مَشْحُونُونَ رِيَاءً وَإِثْمًا. ٢٩وَيْلٌ لَكُمْ أَيُّهَا الْكَتَبَةُ وَالْفَرِّيسِيُّونَ الْمُرَاؤُونَ! لأَنَّكُمْ تَبْنُونَ قُبُورَ الأَنْبِيَاءِ وَتُزَيِّنُونَ مَدَافِنَ الصِّدِّيقِينَ، ٣٠وَتَقُولُونَ: لَوْ كُنَّا فِي أَيَّامِ آبَائِنَا لَمَا شَارَكْنَاهُمْ فِي دَمِ الأَنْبِيَاءِ. ٣١فَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنَّكُمْ أَبْنَاءُ قَتَلَةِ الأَنْبِيَاءِ. ٣٢فَامْلأُوا أَنْتُمْ مِكْيَالَ آبَائِكُمْ. ٣٣أَيُّهَا الْحَيَّاتُ أَوْلاَدَ الأَفَاعِي! كَيْفَ تَهْرُبُونَ مِنْ دَيْنُونَةِ جَهَنَّمَ؟ ٣٤لِذلِكَ هَا أَنَا أُرْسِلُ إِلَيْكُمْ أَنْبِيَاءَ وَحُكَمَاءَ وَكَتَبَةً، فَمِنْهُمْ تَقْتُلُونَ وَتَصْلِبُونَ، وَمِنْهُمْ تَجْلِدُونَ فِي مَجَامِعِكُمْ، وَتَطْرُدُونَ مِنْ مَدِينَةٍ إِلَى مَدِينَةٍ، ٣٥لِكَي يَأْتِيَ عَلَيْكُمْ كُلُّ دَمٍ زَكِيٍّ سُفِكَ عَلَى الأَرْضِ، مِنْ دَمِ هَابِيلَ الصِّدِّيقِ إِلَى دَمِ زَكَرِيَّا بْنِ بَرَخِيَّا الَّذِي قَتَلْتُمُوهُ بَيْنَ الْهَيْكَلِ وَالْمَذْبَحِ. ٣٦اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ هذَا كُلَّهُ يَأْتِي عَلَى هذَا الْجِيلِ!

٣٧«يَا أُورُشَلِيمُ، يَا أُورُشَلِيمُ! يَا قَاتِلَةَ الأَنْبِيَاءِ وَرَاجِمَةَ الْمُرْسَلِينَ إِلَيْهَا، كَمْ مَرَّةٍ أَرَدْتُ أَنْ أَجْمَعَ أَوْلاَدَكِ كَمَا تَجْمَعُ الدَّجَاجَةُ فِرَاخَهَا تَحْتَ جَنَاحَيْهَا، وَلَمْ تُرِيدُوا! ٣٨هُوَذَا بَيْتُكُمْ يُتْرَكُ لَكُمْ خَرَابًا. ٣٩لأَنِّي أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّكُمْ لاَ تَرَوْنَنِي مِنَ الآنَ حَتَّى تَقُولُوا: مُبَارَكٌ الآتِي بِاسْمِ الرَّبِّ!»".

وفى الإصحاح الثامن من نفس السفر: "١هكَذَا أَرَانِي السَّيِّدُ الرَّبُّ وَإِذَا سَلَّةٌ لِلْقِطَافِ. ٢فَقَالَ: «مَاذَا أَنْتَ رَاءٍ يَا عَامُوسُ؟» فَقُلْتُ: «سَلَّةً لِلْقِطَافِ». فَقَالَ لِي الرَّبُّ: «قَدْ أَتَتِ النِّهَايَةُ عَلَى شَعْبِي إِسْرَائِيلَ. لاَ أَعُودُ أَصْفَحُ لَهُ بَعْدُ. ٣فَتَصِيرُ أَغَانِي الْقَصْرِ وَلاَوِلَ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ، يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ، الْجُثَثُ كَثِيرَةٌ يَطْرَحُونَهَا فِي كُلِّ مَوْضِعٍ بِالسُّكُوتِ».

٤اِسْمَعُوا هذَا أَيُّهَا الْمُتَهَمِّمُونَ الْمَسَاكِينَ لِكَيْ تُبِيدُوا بَائِسِي الأَرْضِ، ٥قَائِلِينَ: «مَتَى يَمْضِي رَأْسُ الشَّهْرِ لِنَبِيعَ قَمْحًا، وَالسَّبْتُ لِنَعْرِضَ حِنْطَةً؟ لِنُصَغِّرَ الإِيفَةَ، وَنُكَبِّرَ الشَّاقِلَ، وَنُعَوِّجَ مَوَازِينَ الْغِشِّ. ٦لِنَشْتَرِيَ الضُّعَفَاءَ بِفِضَّةٍ، وَالْبَائِسَ بِنَعْلَيْنِ، وَنَبِيعَ نُفَايَةَ الْقَمْحِ».

٧قَدْ أَقْسَمَ الرَّبُّ بِفَخْرِ يَعْقُوبَ: «إِنِّي لَنْ أَنْسَى إِلَى الأَبَدِ جَمِيعَ أَعْمَالِهِمْ. ٨أَلَيْسَ مِنْ أَجْلِ هذَا تَرْتَعِدُ الأَرْضُ، وَيَنُوحُ كُلُّ سَاكِنٍ فِيهَا، وَتَطْمُو كُلُّهَا كَنَهْرٍ، وَتَفِيضُ وَتَنْضُبُ كَنِيلِ مِصْرَ؟ ٩وَيَكُونُ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ، يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ، أَنِّي أُغَيِّبُ الشَّمْسَ فِي الظُّهْرِ، وَأُقْتِمُ الأَرْضَ فِي يَوْمِ نُورٍ، ١٠وَأُحَوِّلُ أَعْيَادَكُمْ نَوْحًا، وَجَمِيعَ أَغَانِيكُمْ مَرَاثِيَ، وَأُصْعِدُ عَلَى كُلِّ الأَحْقَاءِ مِسْحًا، وَعَلَى كُلِّ رَأْسٍ قَرَعَةً، وَأَجْعَلُهَا كَمَنَاحَةِ الْوَحِيدِ وَآخِرَهَا يَوْمًا مُرًّا!

[١١]«هُوَذَا أَيَّامٌ تَأْتِي، يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ، أُرْسِلُ جُوعًا فِي الأَرْضِ، لاَ جُوعًا لِلْخُبْزِ، وَلاَ عَطَشًا لِلْمَاءِ، بَلْ لاسْتِمَاعِ كَلِمَاتِ الرَّبِّ. [١٢]فَيَجُولُونَ مِنْ بَحْرٍ إِلَى بَحْرٍ، وَمِنَ الشِّمَالِ إِلَى الْمَشْرِقِ،

فإذا كانوا يفعلون هذا مع أنبيائهم هم فهل ننتظر منهم أن يسارعوا إلى الإيمان بمحمد، الذى كانوا يحقدون عليه ويحسدونه على أنِ اختاره الله للنبوة رغم أنه ليس من بنى إسرائيل شعب الله المختار؟ الطبيعى أن يكفروا به وأن يتآمروا عليه وأن يبذلوا كل ما فى وسعهم من جهود لنثر العقبات والعراقيل فى طريقه. وإلى حسدهم له ﷺ يشير القرآن الكريم فى سورتى "البقرة" و"النساء" على التوالى: "ودكثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعدما تبيَّن لهم الحق"، "أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله؟". ومع هذا فلكل قاعدة شواذ، لكن الطيبين المستقيمين الخارجين على القاعدة العامة فى اليهود قليلون.

وأما الكفار فهم صورة من البشر الذين لا يحبون التغيير ولا يطيقون أن يكفوا عن شىء يمارسونه. فالعادات والتقاليد والاعتقادات والشعائر التى ورثوها عن أسلافهم وآبائهم مقدسة لا يمكن أحدا الاقتراب منها ثم يرجع سالما. كما أنهم لم يكونوا يهتمون بما يسوقه القرآن لهم من أدلة على وحدانية الله وعلى البعث بعد الموت ولا يستجيبون لدعوته لهم أن ينظروا فى السماوات والأرض قائلا لهم إن مَنْ خَلَقَ هذا أولَ مرة قادر على أن يخلقه من جديد كرة أخرى، وإنه لا يصح أن يتساوى الظالم والمظلوم فيمر الظالم المعتدِى بما اقترفه من جرائم بدون حساب أو عقاب، وإن من خلق السماوات والأرض لا بد أن يكون إلها قادرا عليما، وإن الأوثان مجرد حجارة صماء لا تسمع ولا ترى ولا تستجيب لهم بشىء، بل تحتاج نصرتهم لها. لكنهم كانوا يُصِمُّون آذانهم ويغلقون أبصارهم ويوقفون عقولهم عن التفكُّر والتدبُّر، ويصرون على أن يأتيهم الرسول بمعجزة. وعبثا يفهمهم القرآن أن عصر المعجزات قد وَلَّى وأنها كثيرا ما نزلت على الرسل الماضين دون جدوى، بيد أنهم كانوا يزدادون تعنتا وعنادا. ومن هنا وقفوا فى وجه مُحَمَّد ودينه لأنه سوف يقلب حياتهم كلها رأسا على عقب بحيث يجب عليهم مغادرة كل ما ورثوه عن أولئك الآباء والأجداد تقريبا، وهو ما كان صعبا شديد الصعوبة على نفوسهم.

ففى سورة "البقرة": "وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٧٠)". وفى "المائدة": "وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٠٤)". وفى "الأعراف": "وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا". وفى "لقمان": "وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ (٢١)". وفى "الصافات": "إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ (٦٩) فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ (٧٠)". وفى "الزخرف": "قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ (٢٢)".

وقد بلغ من تعظيمهم لآبائهم أن كانوا يحلفون بهم حتى لقد حرم الرسول على المسلمين أن يحلفوا بآبائهم لأن هذا الحَلِف هو من سنن الجاهلية: "إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم. فمن كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت". كما كان بعضهم يدخل مع بعض فى منافرات لتحديد من ترجح كِفَّتُه من الآباء والجدود، إذ يذكر كل من المتنافرين فَعَال أبيه، ويحكم بين الطرفين المتنافرين حَكَمٌ من حَكَمَتِهم المشهورين. ومن تلك المنافرات ما يروى من أن مياد بن حن بن ربيعة بن حزام العذرى من قضاعة نافر رجلًا من أهل اليمن إلى حَكَم عكاظ فى الشهر الحرام، فأقبل مياد بن حن على فرسه وسلاحه فقال: أنا مياد بن حن، أنا ابن حَبَّاس الظُّعُن. وأقبل اليمانى عليه حلة يمانية، فقال مياد بن حن: احكم بيننا أيها الحَكَم. فقال الحكم: ازْلأَمَّ المعَدِّى ونَفَرَ (نفر: غلب، وازلأم: سبق وأسرع). فذهب قوله مثلًا، وقضى لمياد بن حن على صاحبه.

وفى "خزانة الأدب" للبغدادى: "وكانوا فى الجاهلية إذا تنازع الرجلان فى الشرف تنافرا إلى حكمائهم، فيفضلون الأشرف. وسميت: "منافرة" لأنهم كانوا يقولون عند المفاخرة: "أنا أَعَزُّ نفرًا". وأشهر منافرة فى الجاهلية منافرة عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر بن كلاب مع علقمة بن عُلاثة بن عوف بن الأحوص بن جعفر حين قال له علقمة: الرياسة لجَدِّى الأحوص، وإنما صارت إلى عمك أبى براء من أجله. وقد استسنَّ عمك وقعد عنها، فأنا أولى بها منك، وإن شئتَ نافرتُك. فقال له عامر: قد شئتُ. والله لأنا أشرف منك حسبًا، وأثبت نسبًا، وأطول قصبًا. فقال علقمة: أُنَافِرُك وإنى لَبَرٌّ، وإنك لفاجر، وإنى لولود، وإنك لعاقر، وإنى لوافٍ، وإنك لغادر. فقال عامر: أنافرك. إنى أسمى منك سمة، وأطول قمَّة، وأحسن لِمَّة، وأجعد جُمَّة، وأبعد همة. فقال علقمة: أنا جميل، وأنت قبيح، ولكن أنافرك. إنى أولى بالخيرات منك. فخرجت أم عامر، فقالت: نافِرْه أيكما أولى بالخيرات. ففعلوا على أن جعلوا مائةً من الإبل يعطيها الحكمَ الذى ينفر عليه صاحبه. فخرج علقمة ببنى خالد بن جعفر وبنى الأحوص، ومعهما القباب والجُزُر والقُدُور، ينحرون فى كل منزلٍ ويطعمون. وخرج عامرٌ ببنى مالك وقال: إنها المقارعة عن أحسابكم، فاشخصوا بمثل ما شخصوا به. وقال لعمه أبى براء: أَعِنِّى. فقال: سُبَّنِى. فقال: كيف أسبك وأنت عمى؟ فقال: وأنا لا أسب الأحوص، وهو عمى! ولم ينهض معه.

فجعلا منافرتهما إلى أبى سفيان بن حرب بن أمية، ثم إلى أبى جهل بن هشام، فلم يقولا بينهما شيئًا. ثم رجعا إلى هرم بن قطبة بن سيار الفزارى، فقال: نعم لأحكمن بينكما، فأعطِيانى مَوْثِقًا أطمئنُّ به أن تَرْضَيَا بحكمى، وتُسَلِّما لما قضيتُ بينكما. ففعلا، فأقاما عنده أيامًا. ثم أرسل إلى عامر، فأتاه سرا، فقال: قد كنتً أحسب أن لك رأيًا وأن فيك خيرًا. وما حبستك هذه المدة إلا لتنصرف عن صاحبك. أتنافر رجلًا لا تفخر أنت ولا قومك إلا بآبائه؟ فما الذى أنت به خيرٌ منه؟ فقال عامر: نَشَدْتُك اللهَ والرَّحِم ألا تفضِّل على علقمة، فوالله لئن فعلتَ لا أفلح بعدها أبدًا. هذه ناصيتى فاجْزُزْها واحتكِمْ فى مالى، فإن كنتَ لا بد فاعلًا فسَوِّ بينى وبينه. فقال: انصرف، فسوف

أرى من آرائى. فانصرف عامر وهو لا يشك أنه ينفِّره عليه. ثم أرسل إلى علقمة سرًا فقال له ما قال لعامر: وقال: أتفاخر رجلًا هو ابن عمك فى النسب، وأبوه أبوك، وهو مع ذلك أعظم منك غناءً، وأحمد لقاءً، وأسمح سماحًا؟ فما الذى أنت به خيرٌ منه؟ فرد عليه علقمة ما رَدَّ به عامر، وانصرف، وهو لا يشك أن ينفِّر عامرًا عليه.

فأرسل هرمٌ إلى بنيه وبنى أخيه وقال لهم: إنى قائلٌ فيهم غدًا مقالةً. فإذا فرغت فليطرد بعضكم عشر جزائر فلينحرها عن علقمة، وليطرد بعضكم مثلها فلينحرها عن عامر، وفَرِّقُوا بين الناس لا يكونوا بينهم جماعة. ثم أصبح هرمٌ فجلس مجلسه، وأقبل عامر وعلقمة حتى جلسا، فقال هرم: إنكما، يا ابنَى جعفر، قد تحاكمتما عندى. وأنتما كركبتى البعير الآدَم الفحل تقعان الأرض، وليس فيكما واحدٌ إلا وفيه ما ليس فى صاحبه، وكلاكما سيد كريم. ولم يفضل واحدًا منهما على صاحبه لكيلا يجلب بذلك شرا بين الحيين. ونَحَر الجُزُر وفرق بين الناس".

وكان القرآن يدعوهم إلى استعمال العقل دائما ونبذ الخرافات والانخلاع من عبادة الأوثان، ويحمل عليهم حملات شديدة عنيفة لعلهم يفيقون ويستيقظون، كما هو الحال فى قوله تعالى ب"الأعراف": "وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩)، " وكما فى سورة "الفرقان": "وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِى بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا (٤١) إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا (٤٢) أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا (٤٣) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (٤٤)"، وفى سورة "محمد": "إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ (١٢)".

لكن كان من بينهم مع هذا من يتمتعون بعقول سليمة لا تعرف التصلب على القديم السخيف المتخلف ولا تتمحور حياتهم بغباء حول مصالحهم لا يعرفون سواها، بل يستطيعون أن يفرزوا الحق من الباطل، ويتبعون الحق لمجرد أنه الحق، وهم أولئك الذين سارعوا إلى الإيمان بمحمد. أما الذين لم يسارعوا إلى الإيمان أول ما جاء الإسلام وعادَوْه بل حاربوه وتأخروا فى اعتناقه فقد عمل الزمان عمله جَرَّاء فشلهم الدائم فى محاربة الرسول ودينه رغم تفوقهم فى كل شىء، وانتصار الإسلام باستمرار وفتح المسلمين مكة فى سهولة ما بعدها سهولة وانكسار أصدقائهم اليهود أيضا، وكذلك من خلال معاودتهم النظر فى دين محمد ومحاسنه وما فيه من مبادئ كريمة وقيم نبيلة تخلو منها وثنيتهم المنحطة، فأدرك من لم يكن يدرك منهم قبلا أن الإسلام دين ربانى لا يمكن انكساره بل كُتِب له الظفر عليهم وعلى شِرْكهم كما قال القرآن مرارا فى آياته، إذ توعدهم بأنهم سوف يبوؤون بالخيبة والفشل والخذلان مهما فعلوا ومهما جمَّعوا ومهما تآمروا ومهما وضعوا أيديهم فى أيدى هذه القوة أو

تلك. أما بالنسبة للمنافقين فهم ذوو شخصيات ملتوية منخوبة لا رجولة لديهم ولا استقامة ضمير، بل لف ودوران وكذب وتظاهر بغير ما فى القلوب.

الفجوات والقرآن

يقول أصحاب نظرية التلقى إن فى كل نص مجموعة من الفجوات أو الفراغات يتركها المؤلف للقارئ كى يملأها مستعينًا بمخيلته، وبهذا يساهم القارئ فى إتمام معنى العمل الأدبى. وحينما يعجز القارئ عن ملء هذه الفجوات أو الفراغات فإن النص ينتظر قارئا آخر قادرا على ملئها. وهذه الفجوات هى التى تحقق عملية الاتصال بين النص والقارئ. ويصور بعض القائلين بتلك النظرية النصَّ بوصفه هيكلا عظميا يتعين على القارئ ملؤه باللحم والجلد والأعصاب. وتلك الفجوات، كما يُفْهَم من كلام أصحاب النظرية وتابعيهم، قد تكون حذفا، وقد تكون كلاما محتاجا إلى شرح وتفسير، وقد تكون رمزا يتطلب تحليلا وتوضيحا، وقد تكون مجازا يبحث عمن يبينه، وقد تكون تركيبا أو تعبيرا جديدا على القارئ أن يجتهد فى فهمه، وقد تكون أمرا محرجا للكاتب يتعمد القفز فوقه أو يكتفى بإيماءة واهنة شاحبة إليه، وقد تكون غموضا يقتضى من القارئ أن يفك شفرته، وقد تكون بِنْيَةً تتطلع إلى من يتناولها بالتوضيح...

والواقع أن هناك أدباء يتعمدون الغموض تعمدا وكأنهم يلعبون لعبة الاستخفاء مع القارئ بغية هزيمته وسحقه بدلا من التعاون معه على فهمهم والاستمتاع بإبداعهم. وهو خلل فى الشخصية وفى الموهبة جميعا. وهناك أدباء آخرون لا يتمتعون بموهبة محترمة، لكنهم يصرون على أن يكونوا أدباء، فتراهم يكتبون كلاما غير قابل للفهم بسبب ضعفهم فى قواعد اللغة وفى الأسلوب وفى بناء العمل الأدبى وفقرهم الثقافى وانعدام الموهبة لديهم، إذ لا يقرأون لأحد من الكبار بل يكتفون بقراءة أمثالهم من التافهين.

وإليك، أيها القارئ العزيز، ما وجدته فى أحد المواقع مما كتبه أحدهم فى هذا الموضوع، وهو بالمناسبة يكتب الشعر: "كثيرًا ما أواجه قراءاتٍ لشعرى تنتهى إلى استنتاج يَدِينُ ضبابيّته. وأنا أرجعُ هذه الاستنتاجات إلى سبب واحدٍ وحيد: خصوصيّة التجربة. التجربة الشعوريّة الخاصة عندما تخرج إلى حيّز الشعر لا تستطيع أن تملأ كل الفجوات. أعنى الفجوات التى تواجه القارىء والتى تملؤها أحداث التجربة الخاصة للشاعر المتخفيّة فى واقعه المعيشى. هذه الفجوات تشكّل عائقًا جيّدًا أمام القارىء البعيد كل البعد عن حياة الشاعر. يستطيع الشاعر أن يكتب مقدّمةً نثريّة توجه المعنى عن طريق سدها لمعطيات هامة يحتاجها القارىء فى فهم النصّ. ولكن السؤال الذى يشغلنى فى الآونة الأخيرة: هل الشاعر مجبر على ذلك؟

نحن ننادى إلى دمج القارىء مع النص عبر عملية حوارية عميقة تجعله شريكًا شرعيًّا فى ولادة التذوق الأدبى. وقد كان الطريق إلى ذلك هو تعمّد ترك فجوات متفرقّة فى النص كى تشغل القارىء. فكيف بنا إن نحن كتبنا نصوصًا تتسم بالخصوصيّة ونشرناها على الملإ؟ سيكون أمرًا جميلا يرتكز على خطّين متوازيين: الأول مؤثّر، ويتمثل فى حياء الشاعر أو ضرورة إخفائه لتفاصيل التجربة لأى سبب من الأسباب. وهذا يشكل الفجوات وينشىء الضبابيّة. الثانى ناتج، وهو النصّ الضبابى المليء

بالفجوات والتى يتحتّم على القارىء أن يملأها من خياله أو من معطيات نصية رمزية أو من خلال قراءته لتجارب أخرى والربط بينها. وكل ذلك يختلف من قارىء لآخر مما يؤدى إلى اختلاف النتيجة، وهى فى القراءة الأدبية "عمليّة التذوق الأدبى".

عن طريق هذه النصوص الممعنة فى الخصوصيّة نكون قد وصلنا إلى غايات مرتجاة فى الأدب الحديث بطرقٍ "فطريّةٍ" رسمتها الحاجة الطبيعيّة للشاعر مما قد يخفف من وطأة "لوثة الفكر" التى تنزع صفة "الأدبيّة" عن النص كلما زادت حدّتها. هذا ما خطر لى من خلال تجارب خصوصيّة كثيرة نشرتها هنا فى "الساخر". فما رأى الإخوة المهتمين؟".

هذا ما كتبه الشاعر المشار إليه، وقد رد عليه أحد القراء فى ذات الموقع قائلا: "ليس عليك أن تُحْضِر مقعدا تُجْلِس عليه القارئَ متقدما على القصيدة فقط حتى تشرح له خصوصية التجربة. ما دور القصيدة بعد هذا؟ أن توثق فقط ما سبق وشرحته. تستطيع أن تنهض القصيدة بدورك كاملا، بينما أنت تنعم بالراحة. ولا ضرر من أن "يشتغل" القارئ على النص، وأن يفهم خطأ وأن يخرج بفهم أقرب أو أبعد مما قصدته، ولا ضرر من ألا يفهم شيئًا طالما أنت واثق من المفاتيح التى زرعتها فى نصك وواثق من توظيف "الرمز" لا "الضباب". البحث والتنقيب داخل القصيدة، حتى تلك التى تحوى تجربة شديدة الخصوصية، هى مهمة القارئ بدعم من القصيدة التى سبق ودعمتَها أنت. حسنا هو نمو طبيعى وأدوار بتسلسل طبيعى. لا تحاول كسر نسقه!".

وبدلا من أن يتعلم الشاعر الدرس فيجنح إلى ترك التعمية ويساعد القارئ على فهم ما يقول نراه يصر على البقاء على ما هو عليه من غموض ورغبة حارقة فى تحيير بل تعذيب القارئ وإخفاء كل شىء عنه وكأنه جاسوس أتى ليتعرف إلى أسرار دولته الحربية وينقلها إلى عدوه بل كأنه هو هذا العدو نفسه. كذلك فعوضا عن نصح الشاعر بترك هذا الظلام الذى يراكمه على قصائده حتى يحظى بتفاعل القارئ معه ومع شعره فيستطيع لهذه القصائد فهما وتذوقا، وبها استمتاعا كما ينبغى أن يكون الأمر بين الأديب وجمهوره، نجد الكاتب الثانى يشحّن أذن الكاتب الأول ويغريه بمزيد من الغموض والإبهام وكأن القارئ خصم له بينه وبينه ثأر وانتقام، فهو يريد تعذيبه حتى يكفر بالدنيا وما فيها من أدب وغير أدب.

وبالمناسبة نرى د. مُحَمَّد مندور، فى الجزء الأول من كتابه: "الشعر المصرى بعد شوقى"، يأخذ على العقاد تمهيده لبعض قصائده بمقدمات نثرية، إذ يرى فى تلك المقدمات دليل عجز من الشاعر عن توضيح ما يريد أن يقوله شعرا. ولست معه فى هذا، فقد يتناول الشاعر موضوعا من الموضوعات له جوانب فلسفية أو تاريخية مثلا ولا تتسع القصيدة لتناول هذه الجوانب، فلهذا يرى للقارئ عليه حقا فى أن يوضح تلك الجوانب التى لا تتسق مع الشعر، حتى إذا وضحها شرع فى قصيدته التى تبدأ من حيث انتهى التقديم. ولا ضير عندى فى ذلك. المهم أن ينجح الشاعر فى قصيدته فكرة وعاطفة وخيالا وأسلوبا. وهناك أشعار كثيرة لا مناص من إيراد توضيح لما تناولته وللظروف التى تم فيها ذلك التناول حتى يستطيع القارئ متابعة ما تقوله، وإلا عجز عن تلك المتابعة ككثير من الشعر الجاهلى

مثلا وقصيدة ابن المعتز التاريخية وقصائد ديك الجن فى وَرْدٍ زوجته، التى قتلها انخداعا بما زوَّر أقاربُه عنها من اتهامات حتى شككوه فى أخلاقها وسلوكها بالباطل والتزييف... وهكذا.

ثم إن مقدمات العقاد النثرية ليست شيئا منفصلا عن الشعر الذى يليها، بل هما شىء واحد فى الحقيقة: فهذا النثر العقادى يتناول موضوع الشعر، ولكن من زاوية مختلفة بعض الشىء وعلى نحو ربما لا يصلح للشعر. كما أن نثر عملاق الأدب والفكر فى هذا السياق ينفح بالشاعرية، وليس كلاما جافا فى موضوع القصيدة. ومعروف أن هناك أجناسا أدبية تقوم على المزاوجة بين أكثر من جنس كما فى "ألف ليلة وليلة" والسير الشعبية وكثير من الرسائل الديوانية الخاصة بالانتصارات العسكرية كرسائل القاضى الفاضل مثلا أيام صلاح الدين الأيوبى حيث يتداخل الشعر والنثر. وفى الفترة الأخيرة يقيم بعض النقاد ضجة مصمة حول هذا التداخل مشيدين به ومعتبرين إياه شيئا طارفا مع أنه تليد. فلم لا يراه مندور بهذه العين بدلا من تحذلقه على شعر العقاد ومحاولته الظهور بعُدَّة الأستاذية عبثا؟

وهناك غموض من لون آخر ناشئ عن جهل صاحبه وعدم مبالاته بترقية نفسه ومعارفه وقدراته فى الفهم والكتابة. ويمكن التمثيل لهذا بما قاله أحمد فارس الشدياق فى كتابه: "كشف المخَبّا عن فنون أوربَّا" لدى الكلام عن المستشرقين وما يكتبونه فى الأدب العربى إذ كان، رحمه الله، كثير السَّخَر بالمستشرقين وتعالمهم رغم جهلهم حسب وصفه لهم. ومن ذلك قوله عن المستشرق ريتشاردسون إنه قد "ألف كتابا فى لغته ولُغَتَىِ العرب والفُرْس، فأُقْسِم بالله إنه كان لا يدرى من لغتنا نصف ما أدريه أنا من لغته. بل سوّلت له نفسه أيضا أَنْ ترجم النحو العربى فخلط فيه ولفّق ما شاء، فمثَّل للإضافة بقوله: "قدح فضة" و"ملك كسرى" و"رأس أمان" و"الغالب عجم" و"غالب عجم" و"كتاب سليمان" و"نصرا عقبه"، وفسرها بأنها مُثَنًّى مضافٌ إلى "العقبة"، و"نصروا عقبه" و"النَّصَرا عقبه" و"النَّصَرُوا عقبه". وأورد حكاية من كتاب "ألف ليلة وليلة" عن ذلك الأحمق الذى قَدَّر فى باله أن يتزوج بنت الوزير، فلما وصل إلى قوله: "ولا أخلى روحى إلا فى موضعها" ترجمها: "ولا أعطى الحرية لنفسى، أى لزوجتى، إلا فى حجرتها". ثم علق قائلا: "إن أحدهم لا يبالى بأن يؤدى معنى الترجمة بأى أسلوب خطر له. فلو قرأ أحدهم سَبًّا فى كتبنا نحو "يحرق دينه" ترجمه أن دينه ساطع متلهب من حرارة العبادة والقنوت بحيث إنه يحرق ما عداه من المذاهب، أى يغلب عليها، فهو الدين الحقيقى كما ورد أن الله نار آكلة...".

وقد كان الشدياق فى كتاباته بوجه عام، بعيدا عن المواضع التى كان يتعمد فيها السجع ومغازلة النساء ويعمل على استعراض اتساع معجمه اللغوى فى الغريب فى كتابه: "الساق على الساق فيما هو الفارياق"، حريصا على السهولة والمباشرة فى التعبير عما يريد من أفكار ومشاعر. وقد كتب ذات مرة مبينا أن أحسن الكتابة تتمثل فى أسلوب النثر المرسل البسيط كأن تقول: "ذهبت أمس إلى فلان لأسأله عن شىء فلم أجده إذ كان غائبا، فلما حضر أُخْبِر بزيارتى فتأسف كثيرا، فلم يلبث أن جاء ليعتذر لى عن غيابه فلم يجدنى فزاد تأسفه، وتأسفت أنا أيضا لأن سؤالى إياه كان أمرا مهما.

قصدت زيارته مرة أخرى فلم أجده، ثم زارنى أيضا فلم يجدنى. وهكذا حتى مضى علينا أسابيع عدة ولم نجتمع". ثم يعقّب قائلا: "فهذا الأسلوب سهلٌ بَيِّنٌ واضحٌ حَسَنٌ كلَّ الحسن، إذ ليس فيه تقديم ولا تأخير ولا تعقيد ولا خروج عما تقتضيه البساطة والطبيعية والتناسق الصناعى حتى إن المنصف ليعتقد بأنه لا يمكن تغييره وتبديله". وهذا الكلام منقول من كتاب عماد الصلح عن الشدياق. ولسنا بطبيعة الحال ننادى باتباع هذا الأسلوب فى كل الأحوال، ولكننا أوردناه لنبين أن الكتاب الكبار يحرصون على الوضوح حتى يفهم عنهم القارئ، إذ هو هدفهم فى كل ما يبدعونه، وفهمه لما يكتبون وتجاوبه معه هو بغيتهم. ولا يصح أن يكون الطريق بينهم وبينه مغلقا أو وعرا.

هذا، وبالنسبة للقرآن المجيد فإن قراءه، كما هو معروف، ينتمون إلى كل الأعمار والثقافات والبلاد والظروف: فهناك من يقرأ القرآن بل ويحفظه حفظا ويتغنى به فيُطْرِب ويُبْهِج بينما هو لا يعرف معنى كلمة واحدة من كلماته لأنه لا يعرف العربية أصلا. وهذا موجود فى البلاد الإسلامية غير العربية كما هو الحال فى الباكستان ونيجيريا مثلا. ومن هؤلاء الصغارُ والكبارُ والذكور والإناث. وهناك أطفال عرب يقرأون ويحفظون القرآن الكريم، وقلما يفهمون آياته على وجهها الصحيح. وقد حفظت القرآن مبكرا قبل أن أتم الثامنة، وكنت أعرف معنى كثير من الكلمات والعبارات وبعض الجمل مع الجهل بمعانى كثير من الآيات كاملة. وأذكر مثلا أننى وقفت بجهل شديد أمام قوله تعالى: "وجعلوا لله شركاءَ الجنَّ، وخلقهم، وخرقوا له بنين وبناتٍ بغير علم"، وظننت أن الخرق فى الآية هو نفسه معنى الكلمة ذاتها فى لغة أهل القرية العامية بمعنى الاعتداء على الفتاة العذراء وفض بكارتها. فانظر إلى مدى الجهل الشنيع فى فهم أحد الصبيان "غير الأغبياء" للقرآن الكريم. أما الفقيه فعندما سألته أجابنى بأن "خَرَق" معناها "خَلَق".

والغالبية من المسلمين العرب تقرأ القرآن للعبادة والبركة دون أن تفكر فى الاستعانة بأى كتاب تفسير، وكأن القرآن تحفة فنية تزين الصدور كما تزين اللوحاتُ والصورُ والتماثيلُ مناضدَ بعض البيوت وجدرانَها. بل إن كثيرا من التجار ورجال الأعمال يضعون المصحف فى مدخل الدكان أو الشركة أو على المكتب أو على الرف تبركا به ولحماية المكان ليس إلا. وقد بح صوتى فى نصح الطلاب والطالبات أن يشتروا، بدلا من المصحف العادى الذى لا يحتوى على شىء آخر مع النص القرآنى، مصاحف مفسرة من تلك التى يصاحب النصَّ القرآنى فيها شرحٌ للكلمات الصعبة وذِكْرٌ لسبب نزول الآيات حتى يستطيعوا أن يقتربوا من كتاب الله أكثر، ويتعاملوا معه أفضل، ويفهموه أحسن.

وأمثال هؤلاء القراء جميعا لا يمكن أن يقوموا بهذه المهمة المسماة بـ"ملء فجوات النص" لأن هذه المهمة تقتضى القارئ أن يكون على مستوى عال من فهم النص القرآنى، وهو ما يستلزم أن يكون مهتما أولا بكتاب الله وأن يغوص فى علوم القرآن من المكى والمدنى، وأسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، وترتيب سور القرآن حسب نزولها، ولغة القرآن وبلاغته، وكذلك فى كتب التفسير على اختلاف اتجاهاتها ومناهجها ووظائفها ما بين تفسيرات سنية وشيعية وخارجية وصوفية وفلسفية وتربوية ونفسية واجتماعية واقتصادية ولغوية وفقهية وبلاغية ونقدية وتفسيرات تتناول النص القرآنى

آية بعد آية من أول "فاتحة" الكتاب إلى آخر سورة "الناس"، وأخرى تتناوله مجموعة متصلة من الآيات بعد مجموعة أخرى سورة بعد سورة، وثالثة تتناول السورة كلها مرة واحدة بطريقة أو بأخرى، ورابعة تتناول قضايا القرآن الكلية قضية تتلوها قضية، وخامسة بتلك اللغة الأجنبية أو غيرها. وهذا ما أسميه: "القارئ المثالى". وسوف يظل القرآن بعد ذلك كله يدعونا إلى مزيد من القراءة والتعمق والاستعانة بالتفاسير المختلفة، ولن نصل يوما إلى قراره لأن مصدره إلهى وليس عملا بشريا، واللهُ لا تَنْفَد خزائنه، ولو كان البحر مدادا لكلماته لَنَفِدَ البحر قبل أن تَنْفَد كلماته. بل إن النصوص البشرية تظل دوما تلهم قراءها بأشياء وأشياء لا تنتهى، وبخاصة القراء الكبار.

وتمثل الألفاظ والتراكيب والتعبيرات التى تحتاج إلى شرحٍ "فجواتٍ" فى النص طبقا لما يقوله أهل تلك النظرية. ومثلها الجمل التى لم تتم، والمشاهد التى لم تُصَوَّر، والرموز التى لم تفسَّر... إلخ. وفى كتاب "التصوير الفنى فى القرآن الكريم" يعدّ سيد قطب من خصائص القصة القرآنية وجود الفجوات فيها. وهو يمثل تلك الفجوات بما يحدث فى المسرح من إنزال الستار ثم رفعه لبدء مشهد جديد يفصل بينه وبين المشهد السابق أحداث كثيرة لم يشاهدها الجمهور، وبانتقال آلة التصوير من حلقة فى الفلم إلى حلقة أخرى يصدق عليهما ما يصدق على المشهدين المسرحيين اللذين يفصل بينهما إنزال الستار ورفعه.

لكنى أرى أن النص ليس فيه فجوات بل الفجوات موجودة عند القارئ، وعليه أن يجتهد فى ملئها وسد الثغرات التى يعانى منها جهاز التذكر والتفكر والتخيل لديه. إن ما يحتاج من الألفاظ والعبارات إلى شرح يمثل نقاطا كثيفة الظلال أو معتمة، فكأنها مساحات خالية، أو بتعبير أهل النظرية: فجوات. لكن هذه الفجوات ليست فى النص ولا يتحمل النص مسؤوليتها، بل يتحملها القارئ، الذى ينبغى أن يكون جاهزا مستعدا لتلك المهمة بتوسيع معجمه اللغوى بحيث لا يحتاج إلى استخدام القواميس أو على أقل تقدير تضمحل حاجته إليها. إن تلك الألفاظ والعبارات أجزاء من اللغة، فلها معناها، وهذا المعنى ساكن فيها بكل أبعاده وارتباطاته، وهى هناك تنتظر من يأتى من القراء للتفاعل معها، فليست المشكلة فى الألفاظ والعبارات، بل المشكلة فى أن القارئ لا يعرف تلك المعانى. وعلى هذا فالنقاط الكثيفة الظلال أو المعتمة سببها أن مصباح عقله ينقصه الزيت، وعليه ملؤه حتى يضىء ويرى على نوره ما كان غائبا عن عينيه.

ومن الكلمات والعبارات والصور القرآنية التى تحتاج إلى شرح بالنسبة إلى القارئ العادى المعاصر والتى لم تكن تشكل للقارئ فى عصور الإسلام المبكرة أية صعوبة "صَيِّب، لا تباشروهن، الهَدْى، يُؤْلُون من نسائهم، مُسَوِّمين، تُصْعِدون، لا تَعْضُلوهنّ، الموقوذة، أُبْسِلوا بما كسبوا، يَقْدُم قومَه، يَسْبِتُون، أَوْضَعُوا خلالكم، نخيلٌ صِنْوانٌ، مُعَقِّباتٌ، مُهْطِعين مُقْنِعى رؤوسِهم، عِضِين، سَكَرًا، أن تكون أُمَّةٌ هى أَرْبَى من أمة، تَصِفُ ألسنتُكم الكذِبَ، بِوَرِقِكُمْ، ساوَى بين الصَّدَفَيْن، نَفَشَتْ فيه غَنَمُ القوم، وذا النون إذ ذهب مغاضِبًا فظنَّ أن لن نَقْدِر عليه، ثم لْيَقْضُوا تَفَثَهم، سَبْع طرائق، بُعُولَتُهن، ونخلٍ طَلْعُها هضيم، وَيْكَأَنَّه، وإن الدار الآخرة لهى الحيوان، الأرض الجُرُز، ناظرين إناه،

خَمْط، أَنَّى لهم التناوشُ من مكانٍ بعيد؟، ويقذفون بالغيب من مكان بعيد، ما لها من فَوَاق، عَجِّل لنا قِطَّنا، الصافنات، ولقد فتنّا سليمانَ وألقينا على كرسيه جسدا، وآخرُ مِنْ شَكْلِه أزواجٌ، يُسْجَرون، نضرب عنكم الذِّكْرَ صَفْحًا، عَلِمْنا ما تَنْقُصُ الأرضُ منهم، لُغُوب، نَقَّبُوا فى البلاد، فى ضلال وسُعُر، يُظَاهِرون من نسائهم، التغابن، تُدْهِن، عِزِين، قَسْوَرَة، أَوْلَى لك، من نطفةٍ أمشاجٍ، كأنه جِمَالَةٌ صُفْرٌ، غَسَّاقًا، والنازعاتِ غَرْقًا، وإذا النفوس زُوِّجَتْ، وما هو على الغيب بِضَنِينٍ، أَحْوَى، التراث، مسكينًا ذا مَتْرَبَةٍ، والعادياتِ ضَبْحًا، العِهْن".

أما التراكيب القرآنية التى تبدو لنا غريبة بعض الشىء فمنها على سبيل التمثيل قوله تعالى فى سورة "البقرة" "مَثَلُهم كمَثَل الذى استوقد نارا، فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلماتٍ لا يبصرون". فالظاهر من النص أن التشبيه قائم بين المنافقين وبين مستوقد النار. ولكن الأمر على هذا النحو لا يستقيم. فالمستوقد يناظر الرسول عليه السلام، الذى يعمل على إضاءة طريق الحياة المستقيم لهم، لكنهم لا ينتفعون بجهده النبيل ﷺ، إذ سرعان ما ذهب الله بنورهم، أيا كان معنى النور هنا: هل هو النور الذى قدحه المستوقد أو نور أعينهم؟ فالتشبيه موجز، وتمامه كالآتى: مثلهم مع الرسول كمثل الذى استوقد نارا مع رفقائه... إلخ، لكن حصل حذف فى كل من طرفى التشبيه. والعرب فى ذلك الوقت تعرف هذا، أما نحن فنقف أمام التشبية حيارى بعض الشىء.

ومثله قوله تعالى فى نفس السورة: "ومَثَلُ الذين كفروا كمَثَل الذى يَنْعِق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً". فالظاهر هنا أيضا أن التشبيه قائم بين الذين كفروا وصاحب البهائم الذى يناديها فلا تفهم معنى الكلام إلا بوصفه مجرد أصوات يناديها بها، لكنها لا تفهم معانى الألفاظ والعبارات. أما الحقيقة فهى أن التشبيه قائم بين الكفار والرسول من جهة، وبين البهائم وصاحبها من الجهة الأخرى، لكن تم حذف الرسول من طرف التشبيه الأول وحذف البهائم من الطرف الثانى. ونحن الآن غير متعودين على هذا فنستشكل التركيب ومعناه. والمشكلة فى هذين التركيبين راجعة إلى أننا يجب أن ندرس البلاغة وعلم البيان جيدا وغير ذلك من علوم القرآن حتى نعرف أنواع التشبيه وندرك أن الآيتين ليستا على ما تبدوان بل على ما شرحتهما به هنا.

ومن التراكيب التى لم نعد نستعملها الآن، ويمكن أن تمثل للمُحْدَثين نوعا من الصعوبة فى فهم معناها، اللهم إلا إذا أخذناها أخذا كليا دون التوقف أمام تفصيلاتها، ما جاء فى قوله جَلَّ شأنُه من سورة "هود" "وإنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهم ربُّكَ أعمالَهم". وتكمن المشكلة لا فى النص بل فى أن القارئ ينبغى أن يكون على علم باللغة واسع ولا يكتفى بالمقررات المدرسية التى قد تكفى من يتعامل مع النصوص العصرية مثلا، لكنها لا تنجده مع أمثال تلك التراكيب العربية الصميمة التى لم تكن تمثل أية وعورة للمسلم الأول على عكسنا نحن الآن. وكما قلنا آنفا ها نحن أولاء نعيد القول بأن هذه ليست مساحة خالية فى النص على القارئ أن يملأها، بل المساحة الخالية، أو "الفجوة" كما يقولون، إنما تكمن فى ثقافة القارئ. فلكل نص نواجهه متطلباته، وما لم نستوف هذه المتطلبات كانت تلك

فجوة فى عقولنا ومعارفنا. النص كامل، وتراكيبه عربية صميمة، والقارئ لم يأخذ عدته التى تساعده على مواجهة النص فى أمان وسلام. هنا تكمن المشكلة لا فى النص.

وفى التركيب الأول أصابنى شىء كبير من الدوار وأنا أقرأ توجيهات العلماء له كما ورد فى تفسير الطبرى على النحو التالى "وَإِنَّ كُـلًا لَّمَّـا لَيُـوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّـكَ أَعْمَـالَهُمْ إِنَّـهُ بِمَـا يَعْمَلُـونَ خَبِـيرٌ": اختلفت القرّاء فى قراءة ذلك، فقرأته جماعة من قرّاء أهل المدينة والكوفة "وَإِنَّ" مشددة "كُلًا لـمَّا" مشدّدة. واختلفت أهل العربية فى معنى ذلك، فقال بعض نحويى الكوفيين معناه إذا قرئ كذلك: "وإن كلًا لَمِمَّا ليوفِّيهم ربك أعمالهم"، ولكن لما اجتمعت الميمات حذفت واحدة فبقيت ثنتان، فأدغمت واحدة فى الأخرى، كما قال الشاعر

وإنّـى لَـمَّا أُصْـدِرُ الأمْـرَ وَجْهَـهُ   إذَا هُـوَ أعْيـا بالنَّبِيـلِ مَـصَادِرُه

ثم تخفف، كما قرأ بعض القرّاء: "والبَغْى يَعِظُكُمْ" يخفف الياء مع الياء، وذكر أن الكسائى أنشده:

وأشْمَـتَّ العُـدَاةَ بِنَـا فَأَضْـحَوْا   لَـدَى يَتَبَـاشَرُونَ بِـمَا لَقِـيْنَا

وقال: يريد "لدى يتباشرون" بما لقينا، فحذف "ياء" لحركتهن واجتماعهن. قال: ومثله:

كَـانَ مِـنْ آخرَهـا إلقـادِمِ   مَخْـرِمَ نَـجْدٍ فـارِعِ الـمَحارِمِ

وقال: أراد "إلى القادم"، فحذف اللام عند اللام. وقال آخرون: معنى ذلك إذا قرئ كذلك: "وإنَّ كُلًا شديدًا وحقًّا ليوفيهم ربك أعمالهم". قال: وإنما يراد إذا قرئ ذلك كذلك: "وإنَّ كُلًّا لَمًّا" بالتشديد والتنوين، ولكن قارىء ذلك كذلك حذف منه التنوين، فأخرجه على لفظ "فَعْلَى": "لَمَّا" كما فعل ذلك فى قوله: "ثُمَّ أرْسَلْنا رُسُلَنا تَتْرَى"، فقرأ "تَتْرًى" بعضهم بالتنوين كما قرأ من قرأ "لَمًّا" بالتنوين، وقرأ آخرون بغير تنوين كما قرأ "لَمَّا" بغير تنوين من قرأه، وقالوا: أصله من "اللمّ" من قول الله تعالى: "وتَأْكُلُونَ التُّراثَ أكْلًا لَمًّا". يعنى أكلًا شديدًا. وقال آخرون: معنى ذلك إذا قرئ كذلك "وإن كلًا إلا ليوفيهم" كما يقول القائل: لقد قمت عنا، وبالله إلا قمت عنا. ووجدتُ عامة أهل العلم بالعربية ينكرون هذا القول، ويأبَوْن أن يكون جائزًا توجيه "لما" إلى معنى "إلا" فى اليمين خاصة. وقالوا: لو جاز أن يكون ذلك بمعنى "إلا" جاز أن يقال: "قام القوم لَمَّا أخاك" بمعنى "إلا أخاك"، ودخولها فى كل موضع صلح دخول "إلا" فيه. وأنا أرى أن ذلك فاسد من وجهٍ هو أبين مما قاله الذين حكينا قولهم من أهل العربية فى "إنّ" فى فساده، وهو أنّ "إنّ" إثباتٌ للشيء وتحقيقٌ له، و"إلا" أيضًا تحقيق أيضًا، وإنما تدخل نقضًا لجَحْدٍ قد تقدمها. فإذا كان ذلك معناها فواجب أن تكون عند متأوّلها التأويلَ الذى ذكرنا عنه أن تكون بمعنى الجَحْد عنده حتى تكون "إلا" نقضًا لها. وذلك، إن قاله قائل، قولٌ لا يخفى جهل قائله، اللهمّ إلا أن يخفف قارئٌ "إنّ" فيجعلها بمعنى "إنْ" التى تكون بمعنى الجحد. وإن فعل ذلك فسدت قراءته ذلك كذلك أيضًا من وجه آخر، وهو أنه يصير حينئذ ناصبًا لـ"كلّ" بقوله: "ليوفيهم"، وليس فى العربية أن

ينصب ما بعد "إلا" من الفعل الاسم الذى قبلها. لا تقول العرب: "ما زيدًا إلا ضربت"، فيفسد ذلك إذا قرئ كذلك من هذا الوجه إلا أن يرفع رافعٌ الكلّ، فيخالف بقراءته ذلك كذلك قراءة القرّاء وخطّ مصاحف المسلمين، ولا يخرج بذلك من العيب بخروجه من معروف كلام العرب.

وقد قرأ ذلك بعض قراء الكوفيين: "وإنْ كُلًّا" بتخفيف "إن" ونصب "كلًا لَمَّا" مشددة. وزعم بعض أهل العربية أن قارىء ذلك كذلك أراد "إنّ" الثقيلة فخففها. وذُكِر عن أبى زيد البصرى أنه سمع "كأنْ ثدييه حُقَّانِ"، فنصب بـ"كأنْ، والنون مخففة من "كأنَّ". ومنه قول الشاعر

وَوَجْـــهٌ مُـــشْرِقُ النَّـــحْرِ كَـــأنْ ثَدْيَـــيْهِ حُقَّـــانِ

وقرأ ذلك بعض المدنيين بتخفيف "إنّ" ونصْب "كُلًا" وتخفيف "لَمَا". وقد يحتمل أن يكون قارىء ذلك كذلك قصد المعنى الذى حكيناه عن قارىء الكوفة من تخفيفه نون "إن" وهو يريد تشديدها، ويريد بـ"ما" التى فى "لَمَا" التى تدخل فى الكلام صلة، وأن يكون قَصَدَ إلى تحميل الكلام معنى "وإن كلًّا ليوفينهم". ويجوز أن يكون معناه كان فى قراءته ذلك كذلك "وإنْ كُلًّا ليوفينهم" أى "لَيُوفِّينّ كُلًّا"، فيكون نيته فى نصب "كلّ" كانت بقوله: "ليوفينهم"، فإن كان ذلك أراد ففيه من القبح ما ذكرتُ من خلافه كلام العرب، وذلك أنها لا تنصب بفعل بعد لام اليمين اسمًا قبلها. وقرأ ذلك بعض أهل الحجاز والبصرة: "وإنَّ (مشددة) كُلًّا لَمَا (مخففة) لَيُوفِّيَنَّهُمْ". ولهذه القراءة وجهان من المعنى أحدهما أن يكون قارئها أراد "وإنَّ كُلًّا لمَنْ ليوفيهم ربك أعمالهم"، فيوجه "ما" التى فى "لما" إلى معنى "مَنْ" كما قال جلّ ثناؤه "فانْكِحُوا ما طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّساءِ"، وإن كان أكثر استعمال العرب لها فى غير بنى آدم، وينوى باللام التى فى "لما" اللام التى يتلقى بها "وإن" جوابًا لها، وباللام التى فى قوله "لَيُوفِّيَنَّهُمْ" لام اليمين دخلت فيما بين "ما" وصلتها كما قال جلّ ثناؤه: "وإنْ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ". وكما يقال: هذا ما لغيره أفضل منه. والوجه الآخر أن يجعل "ما" التى فى "لما" بمعنى "ما" التى تدخل صلة فى الكلام، واللام التى فيها اللام التى يجاب بها، واللام التى فى "لَيُوَفِّيَنَّهُمْ" هى أيضا اللام التى يجاب بها "إنَّ" كُرِّرَتْ وأُعِيدَتْ إذا كان ذلك موضعها، وكانت الأولى مما تدخلها العرب فى غير موضعها ثم تعيدها بعدُ فى موضعها كما قال الشاعر:

فَلَوْ أنَّ قَوْمى لَمْ يَكُونُوا أعِزَّةً لِبَعْدٍ لَقَدْ لا قَيْتُ لا بُدَّ مَصْرَعا

وقرأ ذلك الزهرى فيما ذكر عنه "وَإنَّ كُلًا" بتشديد "إنَّ" و"لَمًّا" بتنوينها بمعنى "شديدًا وحقًّا وجميعًا". وأصح هذه القراءات مخرجًا على كلام العرب المستفيض فيهم قراءة من قرأ "وإنَّ (بتشديد نونها) كُلّا لَمَا (بتخفيف "ما") لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ" بمعنى "وإن كلّ هؤلاء الذين قصصنا عليك يا محمد قصصهم فى هذه السور لمن ليوفينهم ربك أعمالهم بالصالح منها بالجزيل من الثواب، وبالطالح منها بالشديد من العقاب"، فتكون "ما" بمعنى "من"، واللام التى فيها جوابًا لـ"أن"، واللام فى قوله "لَيُوفِّيَنَّهُمْ" لام قسم".

ولو أتبعتَ كلام الطبرى بأن قرأتَ "إعراب القرآن" لابن سيده مثلا لطارت ثلاثة أبراج من عقلك، ولم يتبق منها شىء لأن المعروف أنها ثلاثة ليس إلا. أما أنا، الذى ليس لى فى العير ولا فى النفير، فأرى بكل بساطة أنها أداة توكيد، فيكون عندنا فى الجملة أربعة توكيدات: "إنَّ، لما، اللام، نون التوكيد". وقد وردت "لما" فى القرآن فى عدة مواضع أخرى (لذات الغرض)، ولكن مع تخفيف نون "إنّ": "إنْ كلُّ نفسٍ لمَّا عليها حافظ"، "وإنْ كلُّ ذلك لما متاعُ الحياةِ الدنيا"، "وإنْ كلٌّ لما جميعٌ لدينا مُحْضَرون". وفى ضوء هذا نقرأ قولهم مثلا: "بالله لما قمتَ عنّا"، أى بالله لتقومنَّ عنا.

كما وردت الواو فى قوله تعالى "وسِيقَ الذين اتَّقَوْا ربَّهم إلى الجنة زُمَرًا. حتى إذا جاؤوها وفتُحِتْ أبوابُها وقال لهم خَزَنَتُها سلامٌ عليكم، طِبْتُم، فادخلوها خالدين * وقالوا: الحمد لله الذى صدَقَنَا وعدَه وأورثَنَا الأرضَ نتبوَّأ من الجنة حيث نشاء. فنعم أجرُ العاملين" قبل "قالوا: الحمد لله" حيث يتوقع القارئ عدم وجودها، وإلا فأين جواب "حتى إذا جاؤوها"؟ وجوابى على هذا السؤال هو أن الجواب مقدر على النحو التالى "حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها: "سلام عليكم! طبتم! فادخلوها خالدين" دخلوا فشاهدوا أشياء وأمورا وأحوالا عجيبة عظيمة وحورا عينا وولدانا مخلدين وغرفا مفروشة بأحسن الطنافس والمتكآت ومآكل ومشارب وألوانا من النعيم لا تخطر على بال أحد من فرط جمالها وروعتها وكثرتها وديمومتها ومن فرط السعادة التى غمرتهم مما لم يكونوا يحلمون بشىء منه، وقالوا الحمد لله... إلخ". والتقدير كثير فى القرآن، وهو سمة بارزة من سمات أسلوبه لا تخطئها العين. وهو يفجؤنا بين الحين والحين بالجديد الطارف من الأساليب إدهاشا وإنعاشا لعقولنا، وإنعاما وإكراما لأذواقنا.

فليست هناك فجوة فى النص لأن النص مكتوب على قواعد الأسلوب العربى، وفى الأسلوب العربى أشياء من هذه كثيرة. ومن تمرس بذلك الأسلوب عرف هذا واتجه ذهنه إلى ما قلناه. فالقارئ لم يأت بشىء من لدنه، وإنما أعمل عقله جريا على سنة الأسلوب العربى فبلغ المراد. فالفجوة ألا يكون هناك شىء موجود بل فراغ وبياض، أما هنا فالشىء موجود، لكنه مغطى بغشاء يرفعه القارئ اللبيق فيجد بغيته هناك. إنه القارئ المثالى كما سميته آنفا، أما من يأتى بعد مرتبته من القراء فقد يفهمون المراد دون أن يُعَنُّوا أنفسهم بتلك الدقائق والرقائق.

وفى سورة "يونس" يقابلنا مثال آخر من التقدير فى قوله عز شأنه: "هو الذى يُسَيِّرُكم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك وجَرَيْنَ بهم بريحٍ طيبةٍ وفرحوا بها جاءتها ريحٌ عاصفٌ وجاءهم الموجُ من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دَعَوُا الله مخلصين له الدينَ: لَإِنْ أنجيتَنا من هذه لَنَكُونَنَّ من الشاكرين"، إذ يتوقع الذهن أن يكون الفعل "دَعَوُا اللهَ مخلصين له الدين:..." هو جواب "حتى إذا كنتم فى الفلك..." وأن يجرى الكلام كالتالى "حتى إذا كنتم فى الفلك وجَرَيْنَ بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أُحِيطَ بهم فدَعَوُا الله مخلصين له الدين:..." أو "حتى إذا كنتم فى الفلك وجَرَيْنَ بهم بريح طيبة وفرحوا بها فجاءتها ريح عاصف وظنوا أنهم أُحِيطَ بهم دَعَوُا اللهَ مخلصين له الدين:..."، لكن القرآن الكريم لم يقل هذا ولا ذاك، وإنما قال ما

قرأناه. وتوجيه ذلك عندى أنه أراد أن يصور مجىء الريح العاصف مباغتا، فلم يستعمل له حرف عطف كما كنا نتوقع، بل أورده مجردا للتعبير عن مجيئه دون أى إنذار مسبق يمكن أن ينبهنا إلى اتخاذ الأهبة للتصدى له أو لتجنبه، فلهذا كانوا فرحين مطمئنين. لقد كان يمكن استخدام "إذا" الفجائية مثلا، لكن القرآن أراد أن يباغت أهل الفُلْك مباشرة دون أداةٍ مباغتةٍ حتى يكون الأخذ مرعبا. فكما نرى ليس فى النص فجوات بل إمكانات، وما على القارئ إلا أن يمد يده ويقتطف من تلك الإمكانات ما يراه أليق بالسياق. إن هذه إمكانات اللغة، وهى كامنة فى النص القرآنى، وما على القارئ الفاهم إلا أن يتقدم فيزيح عنها النقاب ويراها.

وتؤدى الواو أيضا دورا مهما فى قوله ﷻ من سورة "آل عِمْران": "هو الذى أنزل عليك الكتابَ منه آياتٌ مُحْكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الكتاب وأُخَرُ متشابهاتٌ. فأما الذين فى قلوبهم زيغٌ فيتَّبِعون ما تشابه منه ابتغاءَ الفتنةِ وابتغاء تأويله. وما يعلم تأويلَه إلا اللهُ والراسخون فى العلم يقولون: آمنّا به، كلٌّ من عند ربنا..."، وهى الواو التى تتوسط بين لفظتى "الله" و"الراسخون فى العلم". فهل يا ترى هذه الواو واو عطف؟ أم هل هى واو استئناف؟ ولكلٍّ توجيهٍ إعرابيٍّ من هذين التوجيهين معنًى يختلف عن معنى التوجيه الآخر. فلو قلنا إن الواو عاطفة كان معنى هذا أن تأويل المتشابه من القرآن يعلمه الله والراسخون فى العلم. أى أن الراسخين فى العلم يعلمون تأويله أيضا. وأما إن قلنا إن الواو استئنافية كان علينا أن نضع نقطة بعد كلمة "الله"، ويكون المعنى أنه لا يعلم تأويله إلا الله وحده. أما الراسخون فى العلم فيقولون: "آمنا به، كلٌّ من عند ربنا...".

ولعل الآية تشير بـ"المتشابهات" إلى صفات الله وطبيعة النعيم والعذاب الأخروى والملائكة والجن وما أشبه مما لا ينتمى إلى عالم الحس والمادة. فإن كان الأمر كذلك فإن العلماء الراسخين فى العلم انقسموا فى صفات الله فريقين: فريق يقول بأنه عز وجل له عين وسمع ويد ووجه لكن ليست كوجوهنا ولا أيدينا ولا أسماعنا ولا أعيننا. إنما هى أمور إلهية لا ينبغى أن نحاول فهمها لأنها تنتمى إلى عالم الغيب مما لا تستطيع حواسنا ولا عقولنا الوصول إليه. والفريق الآخر يقول بأن هذا كله مجاز: فاليد مثلا تدل على القدرة، والعين على العناية، والوجه على الوجود الإلهى كله، والسمع على الإدراك الكامل لكل ما يقع فى الكون من أصوات، مع التنبه إلى أننا هنا إنما نتحدث عن عالم المطلق. وأنا، وإن كنت أميل إلى الفريق الثانى، لا أرى الفريق الأول قد أخطأ، فهو فى النهاية يقول كلاما مشابها لكلام الفريق الأول لكن بطريقة غير مباشرة. وعلى كل حال، وهذا هو المهم، فإن أيا من الفريقين لا يقول بما يعتقده طائفة من الأغبياء من أن الله سبحانه وتعالى جسم مثلنا، وله عين وسمع ويد ووجه مثل عيوننا وأسماعنا وأيدينا وأوجهنا. فهذا الاعتقاد يخالف تماما قوله سبحانه: "ليس كمِثْلِه شىءٌ". كما أنه يتناقض مع مفهوم الألوهية، التى تعنى المطلق، أى اللامحدود، وهو ما ليس له أول ولا آخر، بخلافنا نحن، فكل شىء فينا نسبى: وجودنا له بداية ونهاية، وقدراتنا محدودة جدا، وإراداتنا كذلك... إلخ. أما الله فقدرته مطلقة، ومشيئته مطلقة، وإدراكه مطلق، وعلمه مطلق، ورحمته مطلقة، ووجوده قبل ذلك كله مطلق.

ويحتاج فهم معنى حرف الواو فى عبارة "وما أُنْزِل" من قوله عز شأنه من سورة "البقرة": "وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ" جهدا أكبر: فهل هذه الواو عاطفة، ويكون المعنى أن اليهود فى عصر النبى كانوا يتبعون ما تتلو الشياطين الكفار الذين كانوا يعلّمون الناس السحر، وكذلك ما أُنْزِل على الملكين ببابل: هاروت وماروت؟ أم المعنى أنهم كانوا يتبعون ما تتلو الشياطين على مُلْك سليمان، تلك الشياطين التى كانت تعلِّم السحر، ولكن هذا السحر لم ينزل على الملكين المذكورين، وتكون الواو استئنافية؟

على أن هذه ليست المسألة الوحيدة التى تثيرها الآية، فهناك السحر، الذى يؤكد القرآن أن الله يبطله ولا يصلحه أبدا، وأنه تخييل: "قال موسى (لسحرة فرعون): ما جئتم به السحرُ. إن الله سيُبْطِله. إن الله لا يُصْلِح عملَ المفسدين"، "سَحَروا (أى سحرةُ فرعون) أعين الناس واسترهبوهم"، "فإذا حبالُهم وعِصِيُّهم (حبال سحرة فرعون وعصيهم) يخيَّل إليه من سحرهم أنها تسعى" مما يدل على أن الأمر لا يزيد عن أن يكون حيلا وتمويهاتٍ وخُدَعًا توهم الحاضرين أنه حق، وليس حقا أبدا كما توضح الآيات الكريمات. لكن كثيرا جدا من المسلمين يعتقدون أن للسحر تأثيرا فى المستهدَف به، ومنه الأعمال التى تُعْمَل للزوج والزوجة كى يكره كلاهما الآخر وينفصلا ويتفرقا مما يشيع الاعتقاد به بين العوام وأمثالهم، فيقصدون الجهلة والأميين وأشباه الأميين يستعينون بهم على فك العمل، فيرهقهم هؤلاء المجرمون بالمطالب والأمور التى لا تعقل مقابل أموال يأخذونها منهم سحتا حراما ويعطونهم أوراقا فيها رموز لا معنى لها يوهمونهم أنها من عند الجن وأنها كفيلة بحل مشاكلهم دون أن يكون هناك شىء من ذلك. إنما هو لعب على وتر الجهل والخوف العامى عندهم.

وهؤلاء الذين يعتقدون أن للسحر تأثيرا فى المستهدَف منه يعتمدون على قوله تعالى فى هذا النص: "فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه" أى من الملكين اللذين كانا يعلمان الناس ما أُنْزِل عليهما حسب أحد الوجهين كما شرحنا سلفا. لكن كيف يعلمان الناس شيئا شريرا ويقولان لهما: نحن فتنة، فلا تكفر. ترى لماذا نزل عليهما ما يؤدى إلى الفتنة أصلا؟ وهذا التفريق بين المرء وزوجه ما طبيعته؟ هل هو التعازيم والرُّقَى؟ أم هل هو الإيقاع بينهما وإشعال نار الشك فى نفسيهما؟ وهل يمكن أن يكلَّف مَلَكان بمثل ذلك الأمر؟ ولماذا نزل عليهما هذا أصلا ما داما يحذران الناس ممارسته؟

ليس ذلك فقط، إذ الملائكة لا يَنْزِل عليها شىء بل يكلفها الله سبحانه بالنزول بالشىء على من يشاء من البشر. قال تعالى فى الآية السابعة والتسعين من سورة "البقرة": "قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا

لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ". وقال سبحانه فى أول سورة "النحل": "يُنَزِّل الملائكةَ بالرُّوح من أمره على من يشاء من عباده"، وقال فى الآيتين ١٠١– ١٠٢ من ذات السورة: "وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ". وقال ﷻ فى أواخر سورة "الشعراء": "نَزَل به الروحُ الأمين * على قلبك لتكونَ من المنذِرين * بلسانٍ عربيٍّ مُبِينٍ". وقال فى الآية الثلاثين من سورة "فُصِّلَتْ": "إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ". وقال تعالى جَدُّه فى مفتتح سورة "النجم" دفاعا عن رسوله عليه السلام ونزول جبريل عليه بأوائل الوحى: "وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى * وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى * فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى". وقال فى سورة "القدر" عن ليلة القدر: "تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ".

أى أن الوضع قد انقلب، وعوضا عن تنزيل الله الملائكةَ على البشر بشيء نراهم هنا ينزل عليهم هم أنفسهم شيء. وأى شيء؟ السحر نفسه ولا شيء غير السحر. ليس ذلك فحسب بل إذا أخذنا الكلام فى الآية على ظاهره كما يريدنا معتقدو السحر بالمعنى العامى له كان معنى هذا أن الملكين كانا يعيشان فى بابل كما يعيش البشر ويخالطان الناس هناك ويعلمانهم، ولعله كانت لهما مدرسة يقصدها البابليون فيها ليتعلموا على أيديهما السحر. وهذا من أعجب العجب! وبذلك يتحول الإسلام من دين حضارى عظيم يدعو أتباعه إلى طلب العلم بل يفرض السعى لتحصيله عليهم فرضا ويأمرهم أمرا بنبذ الخرافات وتشغيل العقل واحترام المنطق العلمى والاجتهاد فى اكتشاف قوانين الكون واتباعها من أجل إحراز القوة والتقدم والرخاء والتمتع بنعم الله عز وجل وخيراته ويكفّر من يؤمن بالسحر والساحرين إلى دين يرى كثير من معتنقيه من العوام الجهال وأشباههم من كل الطبقات والبيئات أنه يرسخ الإيمان بالسحر ويؤكد أنه له تأثيرا فى النفوس.

وهناك حديث عن هاروت وماروت فى "صحيح ابن حبان" يجرى على النحو التالى: "إنَّ آدَمَ لَمَّا أُهبِط إلى الأرضِ قالتِ الملائكةُ: أى ربِّ، أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ" (البقرة/ ٣٠). قالوا: ربَّنا، نحنُ أطوعُ لك مِن بنى آدَمَ. قال اللهُ لملائكتِه: هلُمُّوا ملَكَيْنِ مِن الملائكةِ، فننظُرَ كيف يعمَلانِ. قالوا: ربَّنا، هاروتُ وماروتُ. قال: فاهبِطا إلى الأرضِ. قال: فمُثِّلتْ لهم الزُّهَرةُ امرأةً مِن أحسَنِ البشَرِ، فجاءاها فسأَلاها نفسَها، فقالت: لا واللهِ حتَّى تَكَلَّما بهذه الكلمةِ مِن الإشراكِ. قالا: واللهِ لا نُشرِكُ باللهِ أبدًا. فذهَبَتْ عنهما ثمَّ رجَعَتْ بصبى تحمِلُه، فسأَلاها نفسَها، فقالت: لا واللهِ حتَّى تقتُلا هذا الصبى. فقالا: لا واللهِ لا نقتُلُه أبدًا. فذهَبَتْ ثمَّ رجَعَتْ بقَدَحٍ مِن خمرٍ تحمِلُه، فسأَلاها نفسَها، فقالت: لا واللهِ حتَّى تشرَبا هذا

الخمرَ. فشربا فسَكِرا فوقَعا عليها وقتَلا الصَّبي. فلمَّا أفاقا قالتِ المرأةُ: واللهِ ما ترَكْتُما مِن شيءٍ أثيمًا إلَّا فعَلْتُماه حينَ سكِرْتُما. فخُيِّرا عندَ ذلك بيْنَ عذابِ الدُّنيا وعذابِ الآخرةِ، فاختارا عذابَ الدُّنيا".

وواضح أن حكايتهما فى الحديث تختلف تماما عن حكايتهما فى النص القرآنى المذكور أعلاه، إذ لا علاقة لها بالسحر ولا بالتفريق بين المرء وزوجه أيا كان معنى هذا التفريق وأيا كانت وسائله. بل إنها لتختلف أيضا عما تقوله آيات سورة "البقرة" فى نفس الموضوع اختلافا شاملا. ذلك أن انتقاد الملائكة فى القرآن لآدم بأنه سيفسد فى الأرض ويسفك الدماء بينما هم يسبِّحون دائما بحمد ربهم ويقدسون له، هذا الانتقاد قد انتهى بأن بين الله لهم أن آدم مزود بموهبة الاستعداد للتعلم واختراع اللغة، التى يَعْرَوْن هم عنها، ثم أراهم سبحانه وتعالى تلك الموهبة، فرجعوا عن انتقادهم لآدم فى الحال وأقروا بأنهم لم يكونوا يعرفون عن ذلك الجانب فى شخصيته شيئا، وتغيَّر موقفهم منه تغيرا جذريا حتى إنهم بعد ذلك حين أمرهم ربهم بالسجود له سارعوا إلى السجود دون إبطاء. وانتهت المسألة عند هذا الحد فى السماء فلا نزول إلى الأرض ولا بابل ولا امرأة تدعو إلى المعصية ولا شرك ولا زنا ولا خمر ولا قتل ولا يحزنون، علاوة على أن قصة الملائكة وآدم فى القرآن كانت فى بداية خلق الإنسان يوم لم يكن هناك سوى آدم أو آدم وحواء على أكثر تقدير، أما فى الحديث فهناك بشر على الأرض، وزنا يمارَس، وخمر تُشْرَب، وأطفال يُقْتَلون، وشِرْك يُرْتَكَب. فكيف نقبل حديثا يتناقض مع القرآن المجيد هذا التناقض الذى لا تمكن إزالته؟

ثم أين باب التوبة، الذى لا يغلقه الله أبدا فى وجه عباده، وبخاصة أن هاروت وماروت حاولا مرارا تجنب الوقوع فى الشرك والقتل إلى أن شربا الخمر بعد إلحاح من الزهرة، فاجترحا الفاحشة والقتل وهما غائبان عن الوعى، فلا ذنب لهما فى ذلك، إذ لم تكن الخمر قد حرمت فى ذلك الوقت المبكر فى فجر التاريخ الإنسانى. وحتى لو حرمت فكيف كان بمستطاعهما معرفة أنها حرام وأنها تسكر وأنهما عند السُّكْر يمكن أن يرتكبا ما تجنبا الوقوع فيه؟ كما يبدو غريبا أشد الغرابة أن يعاقَب المسكينان وتُتْرَك المحرِّضة على الفحش والإجرام فلا تؤدَّب ولو بكلمة تقريع. وقبل ذلك من يا ترى اللذان عوقبا من هاروت وماروت؟ أهما الملاكان؟ لا طبعا لأنهما لم يعودا ملاكين. أم هما الإنسانان؟ فما ذنب الملاكين إذن حتى يختفيا من صفحة الوجود حين ظل هاروت وماروت الإنسانان على الأرض ولم يرجعا إلى السماء مَلَكين مع الملائكة من جديد؟

لا بل كيف يعاقَب هاروت وماروت، ولم ينزلهما الله إلى الأرض لكى يتحملا المسؤولية ويعاقبا إن أخطآ، بل أنزلهما ليقتنعا بأن الإنسان معذور فى ارتكابه الأخطاء؟ وعلى هذا كان المتوقع والمفهوم أنهما، بعدما يقتنعان بذلك نتيجة لمرورهما بالتجربة الإنسانية، سوف يعودان من حيث أتيا وقد تعلما الدرس الذى كانا يجهلانه ويبلغانه لسائر الملائكة. لكن ما حدث فى الواقع أمر غير مفهوم. ويزيد الأمر غرابة أنهما لم يقررا من تلقائهما النزول إلى الأرض بل إن زملاءهما من الملائكة هم الذين اختاروهما للقيام به نيابة عنهم، فانصاعا وأطاعا، فكان ما كان. كذلك فالعقوبة التى نالاها عقوبة غريبة من كل الوجوه: فأولا لم نسمع باستمرار عقوبة أى شخص من لحظة ارتكابه الجريمة حتى يوم

القيامة لأنه لا يعقل أن يعيش أى شخص إلى قيام الساعة. بل إن هناك حديثا آخر أورده ابن كثير فى تفسيره مُفَادُه أن هاروت وماروت قد عوقبا بالتعليق من قدميهما وتنكيس رأسيهما فى فوهة بئر من النار حتى يوم البعث، مما كان ينبغى أن يكون حديث الناس جميعا ومثارا للفضول والدهشة ومزارا للفرجة والتسلية وفرصة لأن يكسب إخواننا فى العراق المليارات من ورائه بما فى ذلك الصور التى سوف يحرص السياح على التقاطها "سيلفى" مع ذينك المسكينين فى وضعهما العجيب وحالهما الذى يصعب على الكافر. لكننا لم نسمع شيئا من ذلك. بل إن بقاء الشخص المعاقب على هذا الوضع لا يمكن أن يستمر أكثر من ساعات بعدها يموت كما هو معروف، بالإضافة إلى أنه لا يمكن أن يعيش طويلا بدون طعام وشراب.

وهذا هو الحديث الذى أورده ابن كثير، وهو من رواية مجاهد بن جبر المكى: "كُنْتُ نازِلا على عَبْدِ اللهِ بنِ عمرَ فى سفرٍ، فلمَّا كان ذاتَ ليلةٍ قال لِغُلامِهِ: انْظُرْ. طَلَعَتِ الحَمْرَاءُ. لا مرحبًا بِها ولا أَهْلا ولا حَيَّاها اللهُ! هى صاحِبَةُ الملَكَيْنِ. قالتِ الملائكةُ: يا رَبِّ كَيْفَ تَدَعُ عُصاةَ بَنِي آدمَ وهُمْ يَسْفِكُونَ الدَّمَ الحَرَامَ ويَنْتَهِكُونَ مَحارِمَكَ ويُفْسِدُونَ فى الأرضِ؟ قال: إنِّي قَدِ ابْتَلَيْتُهُمْ. فَلَعَلِّى إِنِ ابْتَلَيْتُكُمُ بِمِثْلِ الذى ابْتَلَيْتُهُمْ بهِ فَعَلْتُمْ كالذى يفعلونَ. قالوا: لا. قال: فَاخْتَارُوا من خِيارِكُمُ اثْنَيْنِ. فَاخْتَارُوا هارُوتَ وماروتَ، فقال لهُما: إنِّي مُهْبِطُكُما إلى الأرضِ وعاهِدٌ إِلَيْكُما أنْ لا تُشْرِكَا ولا تَزْنِيا ولا تَخُونا. فَأُهْبِطَا إلى الأرضِ، وألقى عليهما الشَّبَقَ، وأُهْبِطَتْ لهُما الزُّهرَةُ فى أَحْسَنِ صُورَةِ امرأةٍ، فَتَعَرَّضَتْ لهُما، فراودَاها عن نفسِها، فقالتْ: إنِّي على دِينٍ لا يَصِحُّ لأَحَدٍ أنْ يأتِيَنِي إلَّا مَنْ كان على مِثْلِه. قالا: وما دِينُكِ؟ قالتِ: المجوسِيَّةُ. قالا: الشركُ هذا شيءٌ لا نُقِرُّ بِهِ. فَمَكَثَتْ عنهُما ما شاءَ اللهُ ثُمَّ تَعَرَّضَتْ لهُما، فأرادَاها عن نفسِها، فقالتْ: ما شئتُما. غيرَ أنَّ لِي زَوْجًا، وأنا أَكْرَهُ أنْ يَطَّلِعَ على هذا مِنِّي فَأَفْتَضِحَ. فإنْ أَقْرَرْتُمَا لى بِدِينِي وشَرَطْتما لى أنْ تَصْعَدَا بى إلى السَّماءِ فَعَلْتُ. فَأَقَرَّا لها بِدِينِها وأَتَياها فيما يَرَيانِ ثُمَّ صَعِدَا بِها إلى السَّماءِ، فلمَّا انْتَهَيا بِها إلى السَّماءِ اخْتُطِفَتْ مِنْهُما وقُطِعَتْ أَجْنِحَتُهما، فَوَقَعَا خَائِفَيْنِ نادِمَيْنِ يَبكيانِ، وفى الأرضِ نَبِي يَدْعُو بين الجُمُعَتَيْنِ، فإذا كان يومُ الجمعةِ أُجِيبَ، فَقَالا: لَوْ أَتَيْنا فُلانًا فَسَأَلْناهُ يَطْلُبُ لَنا التَّوْبَةَ. فَأَتَياهُ، فقال: رحِمَكُما اللهُ! كَيْفَ يَطْلُبُ أهلُ الأَرضِ لأهلِ السَّماءِ؟ قالا: إنَّا قد ابْتُلِينا. قال: ائْتِيانِي فى يومِ الجمعةِ. فَأَتَياهُ، فقال: ما أُجِبْتُ فيكُما بِشيءٍ. ائْتِيانِي فى الجمعةِ الثانيةِ. فَأَتَياهُ، فقال: اخْتَارَا، فقد خُيِّرْتُمَا: إنْ أَحْبَبْتُما فمعافاةُ الدنيا وعَذَابَ الآخرةِ. وإنْ أَحْبَبْتُما فَعَذَابُ الدنيا وأنْتُما يومَ القيامةِ على حُكْمِ اللهِ. فقال أحدُهُما: الدنيا لمْ يَمْضِ مِنْها إلَّا القَلِيل. وقال الآخَر: ويْحَكَ! إنِّي قد أَطَعْتُكَ فى الأمرِ الأولِ، فَأَطِعْنِي الآنَ. إنَّ عَذَابًا يَفْنَى ليس كَعَذَابٍ يَبْقَى، وإنَّنا يومَ القيامةِ على حُكْمِ اللهِ، فَأَخَافُ أنْ يُعَذِّبَنا. قال: لا. إنِّي لأرْجو إنْ عَلِمَ اللهُ أنَّا قَدِ اخترْنا عَذَابَ الدنيا مَخَافَةَ عذابِ الآخرةِ ألا يَجْمَعَهُما عَلَيْنا. قال: فَاخْتَارَا عَذَابَ الدنيا، فَجُعِلا فى بَكَرَاتٍ من حَدِيدٍ فى قَلِيبٍ مَمْلوءَةٍ من نارٍ، عَالِيهِما سافِلُهُما".

وحتى لو ضربنا صفحا عن هذا كله، وليس من السهل أبدا ضرب الصفح عنه، أيصح أن يكون الجزاء الذى يتلقيانه على ما يعملان هو العقاب فقط؟ ألم يكن هناك ثواب أيضا كما ينبغى أن

يكون الأمر فى موضوع الجزاء؟ ألم يعمل الاثنان أية حسنة قط؟ ألا يستحق تمنعهما مرارا ولوقت طويل عن التلفظ بكلمة الشرك وعن قتل الطفل فى البداية أن يثابا عليه؟ كما نرى فالقصة مملوءة بالثغرات والثقوب ولا تثبت على النقد والتمحيص. من هنا فإنى لا أفهم الآية هذا الفهم، ولعل المراد منها، كما فى تفسير "المنار"، أنه كان هناك فى بابل شخصان يتصور الناس المنقوعون فى الخرافات أنهما ملكان وأن لديهما سحرا يمكن تعلمه، وكانا يتظاهران بالحرص على مصالح قصادهم، فيؤكدون لهم أنهم سوف يعلمونهم السحر ولكن يريدون منهم ألا يستعملوه فى الشر. والنتيجة مفهومة طبعا، وهى أن الناس ستستخدمه وفى نيتها الإيذاء توهما منهم أن هذا السحر يمكن التفريق به بين المرء وزوجه. والملاحظ أن البشر مغرمون بالفضول وعمل ما يحذّرهم الآخرون إياه. وكلما كان التحذير شديدا كان الفضول أشد، والرغبة فى مزاولة المحذور أعنف. أقول هذا لأنه كان هناك فى فارس اعتقاد فى ملكين اسمهما هاروفَتات وأميريتات على حسب ما نقرأ فى مادة "Harut and Marut" بـ"Encyclopaedia Britannica" و"Enclopaedia Iranica"، وهذان الاسمان قريبان جدا من اسْمَىْ "هاروت وماروت" ببابل المجاورة لفارس والمتأثرة بها فى الغالب. وهذا نص ما جاء فى الموسوعتين المذكورتين على الترتيب: "The names Hārūt and Mārūt appear to be etymologically related to those of Haruvatāt and Ameretāt, Zoroastrian archangels."، "Muslim philologists recognized that Hārut and Mārut were not of Arabic origin (see Jeffery, p. 283 with references), but it was left to Paul Lagarde (pp. 15, 169) to discover that they represented the Avestan Haurvatāt (q.v.)/Ḵordād and Amərətāt/Amurdād (q.v.), two of the Aməša Spəntas (q.v.) who were the guardians of waters and plants respectively". ويكون القرآن قد حكى لنا ما كان يعتقده الناس فى بلاد الرافدين الملاصقة لفارس لا ما يقع فعلا.

وهناك حديث صحيح الإسناد عن هاروت وماروت والزهرة يختلف عن الحديث الذى نحن بصدده جذريا بحيث لا يمكن التوفيق بينهما، وهذا نصه: "عنِ ابنِ عُمرَ، رضى اللَّهُ عنهُما، أنَّهُ كانَ يقولُ: أطلَعَتِ الحمراءُ بَعدُ؟ فإذا رَآها قالَ: لا مَرحبًا، ثمَّ قالَ: إنَّ ملَكَينِ منَ الملائِكَةِ هاروتَ وماروتَ سألَا اللَّهَ تَعالى أن يَهْبطا إلى الأرضِ، فأُهْبِطا إلى الأرضِ، فَكانا يَقضيانِ بينَ النَّاسِ، فإذا أمسَيا تَكَلَّما بِكَلماتٍ وعرَجا بِها إلى السَّماءِ، فقيَّضَ لَهُما بامرأةٍ من أحسَنِ النَّاسِ وأُلْقيَت عليهِما الشَّهوةُ، فجعلا يؤخِّرانِها وأُلْقيَت فى أنفسِهما، فلم يزالا يفعلانِ حتَّى وعدَتْهما ميعادًا فأتَتهُما للميعادِ، فقالَت: علِّماني الكَلِمةَ الَّتى تَعرُجانِ بِها. فعلَّماها الكلمةَ، فتَكَلَّمت بِها فعرَجت بِها إلى السَّماءِ فمُسِخَت، فجُعِلَت كما تَرَوْنَ، فلمَّا أمسَيا تَكَلَّما بالكَلِمةِ الَّتى كانا يَعْرُجانِ بِها إلى السَّماءِ، فلَم يعرُجا فبُعِثَ إليهِما: إن شِئتُما فعَذابُ الآخرةِ، وإن شئتُما فعَذابُ الدُّنيا إلى أَن تقومَ السَّاعةُ علَى أن تَلتَقِيا اللَّهَ. فإن شاءَ عذَّبَكُما، وإن شاءَ رحِمَكُما. فنظرَ أحدُهُما إلى صاحبِهِ، فقالَ أحدُهُما لِصاحبِهِ: بل نَختارُ عذابَ الدُّنيا ألفَ ألفَ ضِعفٍ. فَهُما يعذَّبانِ إلى أن تَقومَ السَّاعةُ". وواضح كذلك ما فى الموضوع من أساطير، إذ الزهرة هى الكوكب المعروف. ثم إن الكلام فيه عن الزهرة يناقض ما جاء فى

حديث ابن حبان تناقضا أبلق، فالزهرة فى ذلك الحديث كانت فى الأصل كوكبا ثم تحولت امرأة، أما هنا فامرأة مسخت كوكبا. فالكلامان متعاكسان. كما أن العقوبة التى طالتها، وهى مسخها كوكبا، ليست فى الواقع بعقوبة، إذ الجمادات لا تشعر بأى ألم. أى أنها عوضا عن تلقيها عقابا قد استراحت منه تماما بصيرورتها جمادا. ولدينا كذلك هنا كلمة سر، وكأننا فى عالم المشباك (الإنترنت). وهذا كله عجيب غريب!

وعلى كل حال فإن من يفهمون السحر المذكور فى آية هاروت وماروت بسورة "البقرة" على أنه السحر الذى تفهمه العامة يشيرون أيضا إلى ما روته لنا بعض الأحاديث من أن النبى عليه السلام قد سحرته يهود، فصار يتوهم أنه أتى الأمر مع أنه لم يفعله. لقد فَنَّدْتُ قبلا فى بعض كتبى هذا الحديث تماما وبينت أنه لا يمكن أن يكون صحيحا. لكنى أحب هنا أن أشير إلى أن الحديث لا يتكلم عن أى تفريق بين النبى وأية زوجة من زوجاته فضلا عن أن يكون التفريق بينه وبين زوجاته جمعاوات، بل لا يشير إلى أن أية منهن اشتكت أو تضررت أو فكرت فى الأمر مجرد تفكير. معنى هذا أن هؤلاء القراء لم يحسنوا قراءة آية سورة "البقرة" التى نحن بصددها فخلعوا على النص ما ليس فيه مما يسكن أدمغتهم من الإيمان بهذه الاعتقادات على النحو الشائع بين الجماهير. أما كيف أفهم أنا السحر فسوف أشرحه فيما يلى.

لقد كنت وأنا صغير أسمع فى المذياع حلقات "ألف ليلة وليلة"، وبخاصة فى رمضان، وكان مما سمعته أن الساحرة الشريرة العجوز قد سحرت الأمير بدر باسم وصيرته حصانا، فكان كلما ركبه راكب أخذ فى الصهيل يريد أن يقول إنه إنسان بل أمير، وليس حصانا. ولكن على من تتلو صهيلك يا حصان؟ ذلك أنه من المستحيل أن يفهم أى إنسان من ذلك الصهيل أنه يركب الأمير ذات نفسه. فالأمراء لا يُرَكَّبون. وكان عندنا فى البيت نسخة ممزقة من "ألف ليلة"، فكنت أقرأ فيها وأنا طفل بالكتاب لا أزال، فوجدت إنسانا فد انقلب برغوثا، وصار يتنطط ويلدغ النائمين لعله يوقظهم ويفهمهم أنه ليس برغوثا بل إنسانا. ولكن ما من فائدة. وبطبيعة الحال ليس هناك سحر بهذا المعنى البتة، بل هى مجرد حكايات وخرافات لذيذة.

وحضرت، وأنا ولد صغير فى السابعة، حفلة زار ليلية فى بيتٍ قريبٍ من بيتنا لم أدخله طوال حياتى فيما أظن إلا تلك المرة، وكان النساء يلبسن ملابس غريبة بعض الشىء ويَدُرْنَ حول شىء لا أذكر طبيعته الآن وهن يتطوحن غير شاعرات، فيما يبدو، بما حولهن. وكانت بينهن امرأة قريبة جدا لنا. ولم أكن سعيدا بما شاهدته، إذ لم يقع شىء غريب يثير الانتباه ويخرجنى عن مشاعرى الاعتيادية. وهذه السيدة القريبة جدا لنا كانت تعتقد أن هناك من يعمل أعمالا لها وأسحارا، ورأيتها ذات مرة تمسك بورقة وإبرة وتشكشك الورقة باعتبار أن الورقة تمثل صاحبة السحر المعمول لها. وقد انتهى بها الأمر أن ألقت نفسها من ترسينة البيت الريفى الذى كانت تسكنه مع زوجها وطفليها، وهو ما تسبب لها فى عدة رضوض بجسمها، وبالذات فى قدميها اللتين تلقتا الاصطدام بالأرض. وواضح ان الزار والشبة والفاسوخة والورقة التى كانت تشكشكها بالإبرة لم تأت بأية ثمرة.

وكنا يوم السوق الأسبوعى، وهو يوم الأحد، نتحلق آخر اليوم، بعد انفضاض معظم البائعين وخلو ساحة بيع الخضراوات من الشارين، حول الساحر الذى كان يبهرنا ببعض أعمال السحر من مثل إحضار إناء زجاجى يضع فيه ماء ثم يقول لنا إن هذا الماء سوف يتلون أصفر فأحمر فأزرق مثلا: هكذا بالترتيب، ثم يعزّم عليه وهو يشير نحوه بيده فيكون الأمر كما قال. وطبعا تفسير الأمر سهل عند أى شخص عنده إلمام ببعض المعلومات الكيمائية، إذ كان يضع فى الماء مادة ما دون أن نلحظه لخفة يده، وهذه المادة هى المسؤولة عن اتخاذ الماء تلك الألوان. لكننا لجهلنا كنا نراها سحرا عظيما فى ذلك الحين.

وأذكر أيضا أننى شاهدت ساحرا ضحى يوم صيفى عند الجامع الكبير فى وسط القرية وتحت شجرة ذقن الباشا هناك يمسك بشىء يشبه الحصالة المعدنية الكبيرة ويصب فيها الماء ثم يميلها فلا ينزل الماء: بالضبط كما قال لنا. ثم يعود فيعلن أن الماء سوف ينزل الآن، وبالفعل يميل الحصالة فينزل الماء هذه المرة. ولا أدرى هل كنت أفهم سر اللعبة فى ذلك العمر أم هل خمنته فيما بعد حين فهمت شيئا عن الميكانيكا وأن فى جانب الحصالة من الخارج زرا يضغط عليه فيغلق الطريق على الماء ثم يضغط عليه مرة أخرى فينفتح الطريق وينزل السائل. لكن الناس وقتذاك كانوا يحسبون هذا سحرا مبينا.

وفى طنطا أيام الاحتفال بمولد السيد البدوى حيث تجرى الموبقات التى تتخيلها والتى لا تتخيلها، ووسط الزحام والقاذورات فى كل مكان، كنت أشاهد مع المشاهدين الرجل الذى يقف على منصة عالية ويطلب من شخص ما من الواقفين أمامه متزاحمين أن يخرج بطاقته الشخصية وينظر فيها، وبعد قليل يخبره باسمه وعنوان بيته وما إلى هذا مما هو مثبت فى البطاقة. وأتصور أننى كنت أخمن أن هناك من يتلصص على البطاقة فى يد صاحبها ويوصل بطريقة ما لا نعرفها ما فيها من معلومات إلى رجل المنصة، أو ربما كان صاحب البطاقة موالسا معه. ولا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك. ومع هذا فقد كان الناس يعجبون أشد العجب من هذا الساحر المذهل.

ومما ينبغى ذكره هنا أيضا أن بعض زملائى من القرية، وأنا ولد صغير بالأزهر، كانوا يلعبون بعض اللعب السحرية بالكوتشينة. ومنها أن يمسك أحدهم بورق الكوتشينة أمامك بحيث ترى وجه الورقة الأولى، ثم يسألك: هل تريد ورقة فيها صورة ولد شكله كذا وكذا أو ورقة آس صفتها كيت وزيت. فتقول له: ماشٍ. فيأخذ الكوتشينة خلف ظهره ثم يخرجها لك دون أن ينظر فيها فترى الورقة التى قال لك إنه سوف يريك إياها. وظللت أتحرق شوقا إلى معرفة السر فى ذلك الأمر حتى كدت أصاب بالهوس فالجنون وجافانى المنام (منهم لله)، وهم يزدادون قسوة وإصرارا على عدم إطلاعى على الأمر. وأخيرا لان كبيرهم، وهو أستاذ جامعى، وأخبرنى بالسر الخطير والسحر العظيم، وهو أن شَدّة الكوتشينة تُقْسَم قسمين: قسما يواجه الشخص الذى تريد أن تبرجل عقله، وقسما يواجهك أنت. وكلما شهرت فى وجهه الكوتشينة كنت ترى من جهتك الورقة الأولى التى تقترح عليه أن تريه إياها، وهو من خيبته الثقيلة لا يفكر فى أن يطلب ورقة من اختياره هو. وكيف يطلب وقد ضاع عقله

وانسحر تماما؟ المهم أنه عندما يوافق على ما تقول تأخذ أنت شدة الكوتشينة إلى خلف ظهرك وتنقل الورقة التى كانت تواجهك إلى أول النصف المواجه للطرف الثانى. فهذا لون آخر من ألوان السحر.

وثم لون مختلف أخبرنى به أبو أحد أصدقائى فى الحلمية الجديدة سنة ١٩٧١، وهو أن أحد مشايخ الطرق الصوفية كان يبهر مريديه حين يتحلقون حوله بأن ينادى بالقهوة، فتجيئه فى غاية المرارة، فيمررها على الحاضرين، الذين يكادون يعبدونه من دون الله، فيجدها كل منهم مُرَّة زاعقة، ثم يأخذها هو عندئذ ويضعها على فمه القدسى، ويرشف منها رشفة، ثم يعيد تمريرها على الحاضرين، فإذا بها عسل. يا له من ساحر! لكنهم طبعا لم يكونوا يرون ذلك سحرا بل كرامات. الله أكبر! والحكاية وما فيها أن الثعلب المكار يضع فى فمه بعض قطع السكرين التى يدفعها بلسانه حين يرشف رشفته، فتنزل إلى الفنجان، ومتى ما دارت القهوه على البلهاء المتخلفين وجدوها قد استحالت عسلا.

وذهبت إلى بريطانيا فكنت أشاهد فى التلفاز هناك بعض الأعمال السحرية التى تمارَس على مسرح عال بعيدا عن النظارة بعض الشىء وفى ضوء شاحب. ومن هذه الأعمال نمرة البنت التى يضعونها فى صندوق وقد أخرجت رأسها ويديها من جهة وحَرَّكَتْها وحَيَّتْنا، ومن الجهة الأخرى أخرجت قدميها الفاتنتين ورقصتهما لنا وكأن قلوبنا ناقصة ترقيصًا وهَبَلا، ثم يقوم الساحرون بإحضار منشار ينشرون به الصندوق الحديدى (تصور يا مؤمن!)، وطبعا جسم البنت الحلوة الأمورة الذى يشبه لهطة القشدة قد انقسم نصفين وراحت فى ستين داهية، لكنهم لا يكتفون بهذا، بل يعيدون نصفى الصندوق أحدهما لصق الآخر بدون أن يستخدموا أية مادة للإلصاق، ثم يفتحون الصندوق فتقوم بنت الفرطوس تتقافز من قلب الصندوق دون أن يكون قد سالت منها نقطة دم.

بطبيعة الحال كنت أعرف أن ما أشاهده خداع فى خداع، لكن لم أكن أستطيع شرح ما يحدث. ولعلى خمنت بعد ذلك أن تكون هناك فتاتان: فتاة فى كل صندوق. فهذه تبرز رأسها ويديها من صندوقها، وتلك تبرز قدميها المتراقصتين، وقد قرفصت كل منهما فى صندوقها بحيث لا تكون أطول من نصف فتاة. ثم شاهدت منذ سنوات شرحا للنمرة على اليوتيوب لا يختلف كثيرا عن هذا.

وبالمناسبة حين كنت أقيم آخر عام لى فى بريطانيا بلندن زرت وزوجتى وابنتى وابنى، وكانا طفلين صغيرين، محلا مشهورا فى أكسفورد ستريت متخصصا فى بيع الأدوات السحرية، أى الأدوات التى يمكنك أن تخدع بها المتخلفين من أبناء العالم الثالث، ومع كل لعبة كتالوج يشرح كيفية استعمال اللعبة لاستغفال الآخرين وممارسة "المِعْلَمَة" عليهم. كما أننى ذات مرة قد نشرت، فى صفحتى على الفيس بوك، فيديو يشرح كيفية خداع الناس وإيهامها أنها تشاهد سحرا مبينا. طيب، وماذا عن أعمال الربط؟ الشيخ الغزالى كان يقول دائما: لماذا كان المسلمون وحدهم هم الذين يُرْبَطون؟ والجواب عندى أن كثيرا جدا منهم لا يفقهون الحياة وأسرارها ولا يحبون العلم فينسبون كل شىء إلى غير سببه كما كان الجاهليون العرب وغير العرب يعملون. وقد حضرت أكثر من مرة تحديا من بعض المتدينين

المتنورين الذين يكرهون الخرافات ويحاربونها لمن يقول الناس عنهم: "سحرة" أن يستطيعوا ربطهم وإيذاءهم، فكانوا يلفون ويدورون ولا يقبلون التحدى. وكثيرا ما تحديتهم أنا نفسى، فلم أظفر من هؤلاء الكذابين الضلالية بشىء. ذلك أنهم يعرفون حقيقة أنفسهم وأنه ليس عندهم شىء بالمرة، ولكن يلعبون على أوتار الجهل عند المتخلفين فيوهمونهم أن لهم اتصالا بالجن وأن باستطاعتهم إيذاءهم بالأعمال السحرية إن لم يستجيبوا لما يطلبون منهم، وشفاءهم منها إن أعطوهم ما يريدون. ورزق البُلْه على المجانين!

وقبل ذلك، وأنا مدرس مساعد قبل ذلك بعدة أعوام، كنت فى بيت أختى بالقرية فأتت سيرة الفنجان والمندل بوصفهما الطريقة التى يعرف بها الساحر الشعبى شخصية السارق. وكنت أسمع كلاما كثيرا فى هذا الموضوع لا أصدقه. وفى هذه المرة جاء ذكر فلان الفلانى بوصفه من الذين يقرأون الفنجان ويفتحون المندل، وكان معنا فى الكتاب حين كنا صغارا، بل كان بيتهم القديم لصق بيت خالى على مبعدة أمتار من بيت أبى. وقال لى زوج أختى إنه الآن يبيع الملح على عربة يشدها حمار. وكانت المصادفة فى ذلك اليوم كريمة، فقد أتت به رجلاه يبيع الملح هناك، إذ كان يتنقل فى شوارع القرية شارعا بعد شارع إلى أن يتمها جميعا. فأحضرناه وأخذت أسأله عن الأمر، وهو يشرح لى، ولكنى حين قلت له إننى قد ضاع منى شىء وأريد أن أعرف مَنْ سرقه أحذ يتهرب، ولم أستطع قط أن أخرج منه بشىء. وعبثا قلت له إننى سوف أعطيه من المال ما يرضيه. لكن على من تريد أن تضحك يا إبراهيم؟

والآن لماذا يرانى القارئ مستميتا فى نفى السحر؟ الواقع أن هناك أسبابا متعددة نقتصر منها هنا على بعضها: فأولا لا يشيع الإيمان بالسحر إلا فى البيئات المتخلفة، وهذا من الوضوح بمكان بحيث لا يحتاج الأمر إلى تفصيل. أما الشعوب المتقدمة فلا تشغل أنفسها ولا تستعين به فى أى أمر من أمورها. وهذا دليل قاطع على سخف هذا الاعتقاد. سيقول معظم المسلمين: لكن السحر موجود فى القرآن. وجوابى هو: نعم السحر موجود فى القرآن، لكن بمعنى غير المعنى الذى يعتقده العوام وأشباههم من المتعلمين الذين لم ينجّرهم التعليم فظلوا بالجلخ الذى أتوا به من بيئاتهم المتخلفة لم يتصنفروا. وسوف أوضح هذا بعد قليل. الشىء الثانى هو أنه لو كان السحر، على النحو الذى تفهمه العامة وأشباه العامة، صحيحا لعاش الناس جميعا فى بلهنية من العيش ونغنغة لم يحلم بها إنسان قط. كيف؟ كلما أراد الواحد منا شيئا فما عليه إلا إخراج التعزيمة الخاصة بذلك الشىء ويرددها مستعينا بشمهورش وأقاربه وذريته، فيأتونه فى الحال ويحققون له ما يريد أيا كان هذا الذى يريد: طعاما أو لباسا أو مسكنا أو شفاء من مرض أو حصول على سلطان... إلخ إن كان لذلك من آخر. لكننا ننظر فنجد السحرة لا يعيشون بالتعازيم بل بالضحك على ذقون المتخلفين، وما أكثرهم بحمد الله فى بلاد العالم الثالث، ومنها بلاد العرب والمسلمين. وبطبيعة الحال سوف يتقدم لى فلحاس من الفلاحيس قائلا فى تحدٍّ: طيب، وماذا يفعل المعزِّم، حين تصير الحياة سهلة إلى هذا الحد، فيمن يريد إيذاءه بالسحر؟ والرد من أيسر ما يمكن، إذ ما عليه إلا أن يستخرج من عُبِّه تعزيمة إيقاف

السحر وإبطال أذاه ويستخدمها فلا يقع به شيء من الضرر. وهذا مثل القبة الحديدية التى تتصدى للصواريخ المصوبة على بلد ما فتعترضها فى الجو وتسقطها قبل وصولها إلى هدفها. وكما أن هناك ردعا نوويا فبحمد لله سيكون عندنا ردع سحرى، وتتعادل الكفتان: كفة الآذى وكفة المأذىّ، فلا معتدٍ ولا معتدًى عليه، ويعيش الطرفان فى وئام وسلام لا عن حب بل عن ردع.

وثالثا إذا فتشنا القرآن الكريم من أوله إلى آخره، ومن آخره إلى أوله فلن نجد دعوة إلى الاستعانة بالسحر بتاتا بل بالعلم. وفوق هذا فالقرآن، على العكس، إنما يحقر من شأن السحر ويؤكد أنه باطل وأنه لا قيمة له وأنه لا يضر بشىء، وأن القيمة كلها للعلم والعلماء. لكن المسلمين قلبوا الآية وصاروا يكرهون العلم ويتمسكون بالسحر، وحجتهم أن السحر قد ورد فى القرآن، ولا يريدون أن يفهموا أن القرآن لا يمكن أن ينزل إلى مستواهم المتخلف، ومن ثم لا يمكن أن يكون معنى السحر فى القرآن هو معناه فى أذهانهم الخربة. أى أنهم فى الوقت الذى يتوهمون أنهم متمسكون بدينهم يكونون فى الواقع مهملين له واقفين منه موقفا عدائيا، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، وهيهات ثم هيهات! والعجيب المريب فى الأمر أن من يرددون دائما أن السحر مذكور فى القرآن لا يخطئون قط فيقولون إن العلم مذكور فى القرآن مرارا وتكرارا وإن الله قد رفع أهله فوق غيرهم درجات. ورابعا فالأمم التى تقدمت وصارت تعيش فى رفاهية ونظافة وملابس لائقة جميلة ونظام حياتى مريح وتعليم متقدم الشَّأْو ومصانع وشركات تنتج حاجات البلاد والعباد ومستوى من المعيشة راقٍ وحرية وشورية وتعاون وتفاهم واحترام للقانون وتأمين صحى شامل وارتفاع فى متوسط العمر وشوارع ممهدة وأرصفة سليمة واسعة عريضة وغير ذلك مما نراه ونسمع عنه، هذه الأمم إنما صارت إلى ما صارت إليه جراء اعتمادها فى كل أمورها على العلم واتخاذها له منهج حياة لا تعرف غيره من أمور الهلس والتخريف التى تعيش عليها شعوب العالم المتخلف فتشقى فى كل أحوالها وتعانى الأمرين على نحو لا يبشر بأى أمل وتقاسى عذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة ولا ترى النور أبدا ولا فى الأحلام. وخامسا فإن الله قد أقام كونه على نظام وقوانين مطردة، ولا يستطيع اكتشاف هذه القوانين واكتشاف طرق استغلالها فى خدمة البشرية إلا العلماء، وهو ما تفعله الدول المتقدمة كما أشرنا فى البند السابق. أما الساحر فيزعم أنه يصل إلى مبتغاه بالقفز فوق القوانين الكونية، وهذا أمر مستحيل، وإلا لكانت البشرية تعيش فى نغنغة لا يمكن تخيلها، وبدون أدنى تعب أو جهد. نعم ليس من المعقول أن يجرى الله سبحانه كونه على قوانين منضبطة، ثم يأتى الساحر فيفسد كل هذا وينجح فى نيل مبتغاه على عكس ما يريد الله منا، إذ يأمرنا دائما بالعمل ثم العمل ثم العمل مع مراعاة الميزان، أى القانون، ونبذ السحر، وإلا كفرنا به وبأوامره وقوانينه وموازينه. فلنغلق إذن المدارس والجامعات والمعامل ونسرح العلماء ونستبدل بهم السحرة ونجعلهم مرشدينا وهداتنا فى جميع أمور حياتنا حتى نوغل أكثر مما قد أوغلنا حتى الآن فى التخلف والجهل الغليظ والفقر الأكيد والغضب الإلهى المبير.

إن العوام يظنون بجهل أن السحر قادر على تحقيق العجائب مع أننا لم نر ولا رأى غيرنا ساحرا يصنع أية عجيبة. نعم هناك كلام فى "ألف ليلة وليلة" وما يشبهها من القصص عن "البنورة المسحورة"

وعن "بساط الريح" وما إلى ذلك، لكن هذه مجرد أوهام وتطلعات لم تكن لها حقيقة فى الواقع، أما الآن فقد اخترع العلمُ المرناءَ، الذى نرى فيه كل ما يقع فى العالم فى التو واللحظة على تنائى المسافات والأبعاد حتى لو كان الحدث يقع فوق سطح القمر، واخترع المنطاد ثم الطائرة ثم سفينة الفضاء، واخترع الغواصات والمشباك والكاتوب وجعل الأصم يسمع، وسوف يجعل الأعمى يبصر، وكله بفضل الله سبحانه خالق العقل، الذى يستطيع ذلك كله وأكثر من ذلك كله. أما السحرة فناس جهلة أغبياء متخلفون كذابون لا يخدعون إلا الأغرار الساذجين الذين يستحقون الخداع والتضليل لأنهم لا يريدون أن يخرجوا من الظلام والجو العفن إلى النور والهواء الطلق النقىّ. وأعجب من هذا كله أن المؤمنين بالسحر بمعناه عند العامة يؤكدون أن الإيمان به جزء من العقيدة وأن إنكاره إنكار لمعلوم من الدين بالضرورة. ترى أَوَلَوْ أنكرتُ أن يكون الناس يسكنون فى بيوت أأكون قد أنكرت معلوما من الدين بالضرورة ما دام القرآن قد ذكر أن الناس تسكن فى بيوت؟ إن مثل تلك الأمور إنما تدخل فى باب الصواب والخطإ المعرفى ليس إلا، ولا صلة بينها وبين الإيمان. ذلك أن الإيمان هو أن نؤمن بالله وملائكته ورسله وكتبه واليوم الآخر، ولا يدخل فى ذلك السحر حتى لو كان السحر يغير طبيعة الأشياء كما يتوهم العامة وأشباه العامة.

وعودا إلى آيتى سورة "البقرة" أقول إن الواو المشار إليها فى الآية الثانية منهما هى واو استئناف، والكلام بعدها يؤكد أن السحر الذى كانت الشياطين تعلمه الناس ليس مما أنزل على هاروت وماروت، وأن هاروت وماروت لم يكونا ملكين، فليست هذه وظيفة الملائكة، بل كما قال بعض المفسرين إنها كلمة مدح مثلما نقول الآن عن شخص كريم الأخلاق يحب الخير للناس ولا يفكر فى أذاهم ويسارع دائما إلى معونتهم: إنه ملاك. وهما لم يكونا يعلمان الناس السحر الذى كانت تمارسه تلك الشياطين بل كانا يشرحان للناس حقيقة ذلك السحر وما ينطوى عليه من خداع وأوهام ورُقًى وعزائم توهم الأغرار أنها لغة الاتصال بالجن والشياطين، ويحذرانهم الافتتان بمعرفة ألاعيب السحرة، وبدلا من اجتنابها يمارسونها. هذا ما أفهمه من الآية فى ضوء حكم القرآن على السحر بأنه باطل ولا حقيقة له وأنه مجرد تخييل وإيهام للعيون. ولا ريب أن اليهود وصحابة النبى كانوا يفهمون هاتين الآيتين على وجههما الدقيق لأنهما تتحدثان عن أمر رأَوْه وعايشوه، وكانوا يعرفون كثيرا جدا مما يتصل باليهود وأنشطتهم وألاعيبهم. وبالمناسبة فلم نسمع أن اليهود فى عصر النبى قد فرقوا بين مسلم وزوجته قط. بل حتى فى رواية سحر النبى لم يفعلوا ذلك.

ونبلغ قصة سحر النبى عليه الصلاة والسلام. وبادئ ذى بدء أسوق الحديث الذى يروى هذه القصة، وهو فى "صحيح البخارى": "كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم سُحِرَ حتى كان يَرَى أنه يأتى النساءَ ولايأتيهِنَّ. قال سفيانُ: وهذا أشدُّ ما يكونُ من السِّحْرِ إذا كان كذا. فقال: يا عائشةُ، أعَلِمْتِ أن اللهَ قد أفتانى فيما استفتَيْتُه فيه؟ أتانى رجلانِ، فقعَد أحدُهما عند رأسى، والآخَرُ عند رِجْلى، فقال الذى عند رأسى للآخَرِ: ما بالُ الرجلِ؟ قال: مَطْبوبٌ. قال: ومَنْ طَبَّه؟ قال: لَبِيدُ بن أعْصَمَ (رجلٌ من بنى زُرَيْقٍ حَلِيفٌ ليَهُودَ كان منافقًا). قال: وفيمَ؟ قال: فى مُشْطٍ ومُشَاقَةٍ. قال:

وأينَ؟ قال: فى جُفِّ طلعةٍ ذكَرٍ تحت رَعُوفَةٍ فى بئرِ ذَرْوانَ. قالتْ: فأتى النبى صلَّى اللهُ عليه وسلَّم البئرَ حتى استخرجه، فقال: هذه البئرُ التى أُرِيتُها، وكأن ماءَها نُقَاعَةُ الحِنَّاءِ، وكأن نخلَها رُؤوسُ الشياطين. قال: فاستُخْرِجَ. قالتْ: فقلتُ: أفَلا (أى تنَشَّرَتْ)؟ فقال: أمَا واللهِ فقد شفانى اللهُ، وأكرَهُ أن أُثِيرَ على أحدٍ من الناسِ شَرًّا".

وهناك من العلماء، كما هو معروف، من ينكر وقوع السحر للنبى لأنه يناقض رد القرآن على متهميه بأنه رجل مسحور. وأنا معهم فى هذا، وأرى أيضا أنه لا يليق بنبوته أن يكون أعداؤه قد تسلطوا عليه بالسحر حتى وصل إلى تلك الحالة التى تثير الشفقة والرثاء من جانب محبيه، والشماتة والابتهاج من جانب شانئيه، ويظهر فيها عاجزا لا يمكنه هو أو غيره أن يصنع إزاءها شيئا. بل إنه ليبدو وكأنه غير واع بالأمر أصلا. وهذه معضلة أخرى أنكى وأشد. وفوق هذا ففى النص أشياء جديرة بالملاحظة: فمثلا تقول القصة إن عليه السلام بعد أن سُحِرَ كان يرى أنه يأتى نساءه ولا يأتيهن. ولا أدرى كيف يكون ذلك. لو قيل إنه كان يريد إتيانهن لكنه لا يستطيع لكان الكلام مفهوما بغض النظر عن موافقتنا على صحته أو لا. أما القول بأنه كان يرى أنه يأتيهن لكنه لا يأتيهن فأمر لا يقبل التصور أساسا، إذ معنى ذلك أنه أصيب، والعياذ بالله، فى إدراكه ولم تعد أحواله تسير على نظام.

ثم تمضى القصة قائلة إن مَلَكَيْن قد أتياه وهو نائم، فسأل أحدهما الآخر: ما بال الرجل؟ وكأن ملكين قد أرسلهما الله لمعالجة رسوله يمكن أن يجهلاه إلى هذا الحد فلا يعرفا أنه رسول الله بل مجرد رجل من ملايين نكرات الرجال. إن ذلك لا يمكن أن يحدث إلا إذا تخيلنا أن الملكين كانا مُدْلِجَيْن ذات ليلة على غير هدى فصادفا رجلا مجهولا نائما تحت شجرة، فقالا ما قالا. كذلك نفهم من القصة أن أحدهما لم يكن يعرف ماذا أصاب الرسول، إذ يسأل زميله: ما بال الرجل؟ فلماذا إذن كان مجيئهما إليه ﷺ؟

كذلك لم وضع الساحر سحره فى بئر ولم يضعه فى بيته مثلا حتى يطمئن إلى أن أحدا لن يمكنه الوصول إليه، فضلا عن أنه سوف يكون أسهل عليه من تكلف الذهاب إلى البئر المذكورة والنزول فى الماء والطين لإخفاء العمل السحرى الذى جهزه واحتمال رؤية أحد من الناس له وهو يفعل ذلك؟ ولماذا لم تشف السماء النبى مباشرة بدلا من هذا السبيل المعقد الذى قرأناه؟ وتقول القصة إن النبى، بعد استخراجه السحر، لم يشأ أن يثير على أحد من الناس شرا. وهى عبارة غامضة: فهل المقصود بالناس هنا هم المسلمون؟ لكن أى شر يمكن أن يصيبهم جراء ذلك؟ هل هو الخوف من الفتنة؟ لكن الفتنة وقعت وانتهى الأمر، إذ علم المسلمون أنه ﷺ مسحور وعاجز عن فعل أى شىء ينقذه من الحالة السيئة التى كان عليها. بل إن الروايات الأخرى فى البخارى ومسلم وابن حبان تقول إنه ﷺ، حين قصد البئر ليستخرج منها السحر، قصدها فى جماعة من أصحابه، بالإضافة إلى أنهم لا بد أن يكون قد ثار فى أذهانهم السؤال التالى: كيف ينفى القرآن عن الرسول السحر، وهو ذا أمامنا مسحور بلا أى جدال؟ أم هل المقصود بـ"أحد من الناس" هو الساحر؟ لكن ألم يأت فى

الأحاديث أن الساحر يجب أن يُقْتَل؟ فلماذا لم يطبَّق هذا الحكم عليه؟ ثم من استخرج السحر من الماء؟ أهو الرسول؟ فهل يليق به ﷺ، وهو النبى والحاكم والقائد والمشرع والقاضى، أن ينزل بئرا ليبحث فيها عن عمل من أعمال السحر؟ أم هو واحد من الصحابة؟ فمن هو يا ترى؟ ولماذا لم يقدم لنا تقريرا عما رأى وسمع؟ وهل اكتفى الساحر بسحره مرة واحدة فقط؟ وأين تفاصيل معاناة الرسول عليه السلام؟

وفى الرواية الموجودة فى "لباب النقول" للسيوطى يأمر الرسول صحابته بأن يذهبوا إلى البئر المذكورة فينزحوا ماءها حتى تظهر الصخرة التى وُضِع السحر تحتها فيستخرجوه ويحرقوه. وهو عمل مرهق يأخذ وقتا ويلفت الأنظار، ولا يتسق مع قول الرسول إنه لا يريد أن يثير بين الناس فتنة، إذ لا بد أن يعلم به القاصى والدانى من أهل المدينة على الأقل. وهذا نص رواية "لباب النقول: "مَرِض رسول الله ﷺ مرضا شديدا، فأتاه ملَكان، فقعد أحدهما عند رأسه، والآخر عند رجليه، فقال الذى عند رجليه للذى عند رأسه: ما ترى؟ قال: طُبَّ. قال: وما طُبّ؟ قال: سُحِر. قال: ومن سحره؟ قال: لبيد بن الأعصم اليهودى. قال: أين هو؟ قال: فى بئر آل فلان تحت صخرة فى كرية. فأْتُوا الركية فانزحوا ماءها وارفعوا الصخرة ثم خذوا الكرية وأحرقوها. فلما أصبح رسول الله ﷺ بعث عمار بن ياسر فى نفر، فأَتَوُا الركية فإذا ماؤها مثل ماء الحناء، فنزحوا الماء ثم رفعوا الصخرة، وأخرجوا الكرية وأحرقوها، فإذا فيها وتر فيه إحدى عشرة عقدة. وأنزلت عليه هاتان السورتان، فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة: قل أعوذ برب الفلق، قل أعوذ برب الناس". ولنلاحظ أن أحد الرجلين اللذين أتيا النبى فى الرؤيا، والمفروض أنهما ملكان، لا يعرف معنى "طُبّ" كما هو واضح. فهل يعقل هذا؟ ثم إن هذه الرواية تتحدث عن إحراق السحر، بينما فى رواية أخرى للبخارى غير الرواية السابقة لا إحراق للسحر ولا حتى استخراج له، علاوة على أن لبيد بن الأعصم فيها يهودى وليس من الموالسين معهم.

وفى رواية أخرى فى "فتح البارى" لابن حجر نقرأ ما يلى: "فقالت أختُ لبيدِ بنِ الأعصمِ: إن يكن نبيًّا فسيُخْبَرُ، وإلا فسيُذْهِلُهُ هذا السِّحْرُ حتَّى يُذْهِبَ عقلَه". وها هو ذا قد أخبر الله نبيه بالسحر وشفاه منه وأبطل كيد ابن الأعصم، فماذا فعلت أخته؟ ولماذا لم يحاجّها المسلمون بشفاء رسول الله ويطالبوها هى وأخاها باعتناق الإسلام؟ لكننا ننظر فنجد أن الأمر قد أُكْفِئَ عليه ماجور وأُهْمِل تماما بعد ذلك، وكأنه لم يكن. بل إن لبيد بن الأعصم، فيما لاحظتُ، لا يأتى له ذكر فى غير هذا الحديث. أفلم يكن للرجل أى دور فى الحياة غير سحر النبى عليه السلام؟ لكأنه ممثل من من ممثلى الكومبارس ممن يظهرون فى المسرحية أو الفلم فى لقطة خاطفة يقولون فيها جملة سريعة ثم يختفون تماما حتى نهاية القصة، وهم مع ذلك سعداء أن قُدِّر لهم الظهور فى عمل فنى جماهيرى مع الممثلين الكبار. كذلك من الصعب جدا أن نتصور نازحى البئر من الصحابة الكرام وقد سكتوا تماما بعد الحادثة فلم يتعرضوا هم ولا غيرهم من المسلمين للبيد بن الأعصم هذا ولو بتقريع.

إن أمرا كهذا لا يمكن أن يكون قد مر مرور الكرام على النحو الذى رأينا وكأننا قبالة موضوع نظرى بارد لا موضوع حياة يومية فيها معاناة وحيرة وألم ومؤامرات وصراعات؟ ألم يكن للصحابة رد فعل على ما يَرَوْنَه فى رسولهم الكريم؟ أين عمر مثلا فلم يهتم بتمحيص المسألة حتى يضع يده على الفاعل الشرير ويعاقبه العقاب اللازم؟ لقد رأينا فى حادثة الإفك وغيرها عالما موارا من الوقائع والمشاعر والاتهامات والردود والتقصى والتمحيص، أما هنا فكلمتان سريعتان أقرب إلى عالم التنظير والتجريد البارد لا تشفيان غليل الباحث. هل يعقل أن يحدث هذا لزعيم دولة وحاكمها وقائدها العسكرى وقاضيها وموجهها، وقبل ذلك كله رسولها، ثم لا نسمع شيئا عن موقف أهل المدينة تجاه هذا الأمر سواء من المسلمين المؤمنين أو خصومه من اليهود والمنافقين والكافرين؟ وقبل ذلك كله كيف يرضى الله سبحانه وتعالى تعريض نبيه لهذا الاضطراب القبيح المُذْهِب للوعى فى مثل هذا الأمر الحساس على يد واحد من أعدائه؟ ثم إن الرواية تتحدث عن نسائه جميعا رضوان الله عليهن، فلماذا لم نر فى الصورة ونسمع غير عائشة؟ أين رد فعل حفصة؟ أين رد فعل زينب؟ أين رد فعل أم سلمة؟ أين رد فعل ميمونة؟ وأين رد فعل بقية أمهات المؤمنين؟ بل أين رد فعل صفية بالذات، وهى يهودية الأصل، وكان ينبغى أن يكون لها تعليق على ما صنعه الساحر الموالس لقومها أو الذى هو منهم؟

هذا عن حرف "الواو". وهناك أيضا الحرف "أو"، الذى يلعب فى الآية التالية الخاصة بالتيمم من سورة "النساء" دورا هاما. قال تعالى: "وإن كنتم مرضى، أو على سفر، أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا..."، فهيا لنرى ماذا فعلت هذه الـ"أو". لقد درج الفقهاء والمفسرون طول العصور الماضية على أن السفر وحده لا يجيز التيمم بل لا بد معه من عدم وجدان الماء أيضا. أى أنهم جعلوا السفر وما بعده فى الآية شيئا واحدا، حتى جاء مُحَمَّد عبده فقال إن هذا خطأ فى الفهم، إذ لو كان السفر وحده لا يبيح لصاحبه أن يتيمم فلم ذكره القرآن، وهو داخل فى عدم وجود الماء فى العبارة التالية له؟ إن هذا تزيد فى الكلام لا معنى ولا داعى له، وهو ما لا يليق بالأسلوب القرآنى، إذ مجرد انعدام الماء فى الحَضَر يبيح التيم، فلا لزوم إذن لذكر انعدامه فى السفر. وعند الشيخ مُحَمَّد عبده أن المسلم يحق له التيمم إذا كان مريضا، وإذا كان مسافرا، وإذا كان مقيما فى بلده واحتاج إلى الوضوء (جاء أحد منكم من الغائط، أى قضى حاجته) أو الغُسْل (لامستم النساء) فلم يجد ماء. ومن ينظرْ جيدا فى الطريقة التى رَقَّمْتُ بها الآية يَرَ أنى قد استعملت فاصلة بين كل حالة من هذه الحالات الثلاث لأبين أن المرض فى حد ذاته يبيح التييم، وأن السفر وحده يبيح التيمم دون اشتراط انعدام الماء، وأن المقيم من حقه التيمم متى عدم الماء لأنه لو انتظر الماء لضاع الوقت ولم يصلِّ الصلاة فى حينها.

وهناك جمل قرآنية مثل الجمل التالية: "أفمَنْ هو قائم على كل نفسٍ بما كسبت؟" (الرعد)، "لو يعلم الذين كفروا حين لا يكُفّون عن وجوههم النارَ ولا عن ظهورهم ولا هم يُنْصَرون" (الأنبياء)، "ولولا فضلُ الله عليكم ورحمتُه وأن الله تواب حكيم" (النور)، "أَمْ مَنْ هو قانِتٌ آناءَ الليلِ ساجدا وقائما يحذَر الآخرةَ ويرجو رحمةَ ربه؟" (الزُّمَر)، "ولولا رجالٌ مؤمنون ونساءٌ مؤمناتٌ لم تَعْلَموهم أن

تَطَأُوهم فتُصِيبَكم منهم مَعَرَّةٌ بغير علم" (الفتح)، "لا يستوى منكم مَنْ أنفق من قبل الفتحِ وقاتَل" (الحديد) لا يظهر منها سوى جزئها الأول، أما الجزء الثانى فموجود قريبا من السطح على النحو التالى: "أفمَنْ هو قائمٌ على كل نفسٍ بما كسبت كأوثانكم التى لا تساعدكم فى شىء؟"، "لو يعلم الذين كفروا حين لا يكُفّون عن وجوههم النارَ ولا عن ظهورهم ولا هم يُنْصَرون لما عاندوا وكفروا"، "ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطأوهم فتصيبَكم منهم مَعَرَّةٌ بغير علم لَسَلَّطَكم على أهل مكة"، "لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ومن لم يفعل ذلك إلا بعد الفتح"... إلخ. والأمر، كما ترى، سهل لأن الجزء الظاهر يتضمن الجزء المقدَّر ويمكن معرفته دون صعوبة.

فهذا فيما لا يظهر على السطح من ألفاظ القرآن وعباراته وصوره وتراكيبه. وقد خصص السيوطى فى كتابه "الإتقان فى علوم القرآن" فصلا كبيرا للحذف فى الكتاب الكريم ذكر فيه أسباب الحذف وأنواعه ومواضع جماله. ولما كان ما يكتبه الكاتبون يجرى على قواعد اللغة فإن ما يسمى: "محذوفا" يكون موجودا فى النص لكن تحت نقاب، ومن السهل على القارئ، وبخاصة القارئ البارع، أن يكتشفه ويكشفه. ولهذا فضلت أن أسميه بدلا من ذلك: "مقدَّرًا".

وقد يكون المقدر لفظا أو عبارة أو جزءا من تركيب أو صورة، وقد يكون المقدر شيئا أكبر من ذلك كثيرا كما فى القصص القرآنى الخاص بالأمم والأفراد السابقين: فمثلا أين كان جيش سليمان يزحف حين سمع النملة تحذر بنات جنسها؟ القرآن يذكر وادى النمل، لكن أين يقع ذلك الوادى؟ وما الذى حدث بين سماعه كلام النملة لأخواتها وبين تفقده للطير؟ وما السبب الذى دعاه لهذا التفقد؟ أكان تفقدا دوريا يحدث فى ذلك الوقت من كل يوم أو كل أسبوع أو كل شهر مثلا؟ أم هل كان تفقدا ابن ساعته لم يخطط له سليمان بل خطر له فجأة؟ وقبل ذلك كيف كان سليمان يتخاطب والطير والنمل مثلا؟ ومتى اكتشف من نفسه القدرة على التحدث إليهما والفهم عنهما؟ ثم من ذلك العفريت الجنى صاحب اقتراح الإتيان بعرش ملكة سبإ قبل أن يقوم سليمان من مكانه؟ ومن ذلك الذى كان عنده علم من الكتاب؟ وأى كتاب هذا يا ترى؟ وكيف تم إحضار عرش بلقيس من اليمن حتى فلسطين؟ وماذا كان رد فعل الطرفين: حاشية سليمان والملكة اليمنية حين أُحْضِرَتْ أمامهم فى أقل من طرفة العين؟

وبالنسبة لرحلة الإسراء والمعراج كيف تمت؟ وفى أى تاريخ بالضبط تمت؟ وما الذى استغرقته من وقتٍ منذ ترك رسول الله مكة حتى عاد إليها كرة ثانية؟ وأهل الكهف ماذا كانت أسماؤهم؟ وماذا كان عددهم على وجه التحديد؟ ولماذا لم يحسم القرآن هذه المسألة ما دام قد تعرض لها وذكر اختلافات الناس حولها؟ وأين يقع الكهف الذى كانوا نائمين فيه؟ وعلى أى دين كانوا؟ وما البلد الذى كانوا ينتمون إليه؟ وماذا حدث لهم حين ذهب أحدهم ليشترى لزملائه طعاما؟ وماذا وقع لموسى الطفل فى قصر فرعون عندما انتُشِل من الماء وتبنته زوجة العاهل المصرى؟ وماذا وقع له فى

مدين بعد اقترانه بابنة الشيخ والد البنتين (اللتين سقى لهما من البئر) طوال السنوات التى اشتغل لديه فيها أجيرا؟

وكان المسلمون الأوائل يلجأون إلى مُسْلِمة أهل الكتاب فيخبرونهم بتلك التفاصيل اعتمادا على ما فى العهد القديم والتلمود بالنسبة لليهود، وما فى العهد الجديد والأناجيل غير المعتمدة بالنسبة للنصارى. وبطبيعة الحال قد تكون تلك المعلومات صحيحة، وقد تكون خاطئة. وهو ما يسمى بـ"الإسرائيليات" و"النصرانيات". وعلى قارئ القرآن أن يرجع إلى المصادر والمراجع التى يرى أنها يمكن أن تعينه على ما يسميه أصحاب نظريتنا هذه بـ"ملء الفجوات"، وأسميه أنا بـ"قراءة النص: ما ظهر منه وما بطن" وما يتطلبه ذلك، مع معرفة أن القرآن لايعبأ عادة بتلك التفصيلات التى لا تفيد فى الغرض المنشود، ألا وهو التربية العقيدية والخلقية. ومعنى ذلك أن القارئ حين يبحث عن تلك التفاصيل فإنه يبحث عنها لحسابه الخاص بغية إرواء فضوله لا لحساب النص، الذى لو كان ناقصا لأكمله القرآن الكريم. لكن القرآن قد أورد منه ما يفيد، وأهمل ما ليس بذى فائدة.

وهناك النصوص التى لم يكن يمكن فهمهما حق فهمها فى البداية، ثم مع مرور الزمن اتضح معناها. ولم يكن النص ناقصا أو يحتوى على فجوات أو مساحات خالية، بل السبب هو أن ثقافة تلك العصور لم تكن تستطيع إدراك معانيها الصحيحة رغم وجود تلك المعانى بداخلها. ومن ذلك مثلا الكلام عن إِرَمَ ذات العِماد وثمود الذين جابوا الصخر بالواد. فقد كنت حتى وقت قريب أقرأ الآيات التى تتحدث عن مساكن عاد وثمود فأظن أن المقصود بـ"جابوا الصخر بالواد" هو إحداثهم فتحات بدائية فى الجبال دخلوا منها إلى المغارات والكهوف التى هناك وسكنوها. وقد أرانى الزميل الكريم د. عبد الرحيم الكردى أشياء مثل هذه فى الجبال التى مررنا بها بالسيارة ونحن فى الطريق ما بين سوهاج وقريته التى تبعد نحو ستين كيلومترا إلى الجنوب حين كنا نناقش معا رسالة دكتوراه فى آداب سوهاج منذ عدة سنين. ولكن تبين لى أن ثمود قد أنشأت أبنية رائعة فائقة الجمال رأيتها مرارا على المشباك (الإنترنت)، وأن عادا قد بنت مساكن فخمة ذات أعمدة هائلة ضخمة لم يسبق لها مثيل. ولست أنا وحدى الذى كان يظن ذلك ثم تغير نظره وفهمه للنص القرآنى مع توافر المعلومات الصحيحة. ونحن، حين توصلنا إلى الفهم السليم لتلك النصوص، لم نأت بشىء من عندنا نملأ به الفجوات أو المساحات الخالية المزعومة بل توصلنا إلى الفهم السليم الذى كان موجودا طوال الوقت فى النصوص المذكورة، ولم تكن ثقافتنا التاريخية قبلا تعيننا على الوصول إليه.

ومثل ذلك الآيات التى تتماسُّ والعلوم الطبيعية والرياضية ولم يصل القدماء إلى تفسيرها تفسيرا صحيحا. مثال ذلك أن المفسرين القدامى، رغم علمهم الواسع العميق واجتهاداتهم الشامخة العبقرية، لم يكونوا يعرفون أن الحلىّ تستخرج أيضا من الأنهار العذبة كما تستخرج من البحار المِلْحَة، فكانوا يفسرون قوله تعالى فى سورة "فاطر": "وما يستوى البحران: هذا عذبٌ فراتٌ سائغٌ شرابُه، وهذا مِلْحٌ أُجاجٌ. ومن كلٍّ تأكلون لحما طريا وتستخرجون حِلْيَةً تلبسونها" بأن الحلية لا تستخرج إلا من البحر الملح الأجاج، أما إيراد البحر العذب الفرات فى الكلام فهو على التعميم. وظل المفسرون يرددون هذا

الكلام حتى العصر الحديث. وأنا نفسى كنت لوقت طويل أجهل وجود الحلى فى الأنهار حتى قرأت فى بعض المراجع الأجنبية والعربية أن هناك أنهارا فى أماكن متفرقة على سطح الأرض يستخرج منها الذهب والألماس والزيركون والياقوت واللؤلؤ... إلخ. واللافت للنظر أن تلك الأنهار تقع كلها خارج منطقة الشرق الأوسط. فالنص القرآنى إذن يخلو من الفجوات، ودور القارئ هنا يكمن فى أنه توصل إلى التفسير الصحيح للآية، ولم يملأ مساحة خالية. لقد كانت المساحة مملوءة طوال الوقت، لكنه لم يتنبه لهذا فأخطأ الطريق ثم كتب الله له الهداية بعد ذلك.

وفى الحَمْل نقرأ قوله تعالى فى سورة "الرعد": "اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ"، الذى كان القدماء يفهمونه على أنه من المستحيل على البشر أن يعرفوا شيئا عن الجنين قبل أن يهلّ على الوجود. ونحن المسلمين نؤمن إيمانا جازما لا مثنوية فيه أن الله سبحانه قد استأثر بعلم الغيب. ذلك أن علمه سبحانه لا حد له، فهو خالق كل شيء من عدم. وكيف يغيب عن علمه شيءٌ خَلَقَه؟ أمَّا نحن البشر فعلمنا قاصر ومحدود، ولا تعلُّق له بأمر من أشياء الغيب. والغيب قد يكون غيبا زمانيا، وقد يكون غيبا مكانيا، إلى جانب الغيب الروحى (كالملائكة والجن)، ولسنا بصدده الآن. فالأمر الذى لم يحدث بعد هو من النوع الأول، أما الأمر الذى يحدث الآن ولكن يحول بيننا وبين الاطلاع عليه حائل مادى فهو من النوع الثاني.

"وما فى الأرحام" هو من الغيب المكانى. ذلك أن حواس البشر لا تصل إليه لوجود حاجز يمنع من ذلك. ولكن إذا زال الحجاب الذى يمنع البشر معرفة ما فى الأرحام فعندئذ لن يظل من الغيب. ذلك أن العلم والطب قد تقدما وأصبح مستطاعا رؤية الجنين على شاشة المرناء وهو لا يزال فى بطن أمه. فهل يعد هذا من باب العلم بالغيب؟ لا طبعا، لأن الحاجز الذى يفصل بيننا وبين الجنين قد زال. وهذا مِثْلُ ما لو جئنا إلى جدار يفصل بيننا وبين غرفة مجاورة ويمنعنا أن نرى أو نسمع أو نعرف أى شيء يدور فيها فهدمناه، فعندئذ نسمع ونرى ونعرف ما يجرى بداخلها، لأن الحاجز قد زال. إن ما كان غيبا أصبح بهذا من علم الشهادة.

ولماذا نذهب بعيدا، وعندنا المناظير الطبية التى يطلع بها الطبيب على المعدة والمثانة من الداخل ويعرف ما فيهما ويعالج ما أصابهما من القرح؟ كذلك كلنا نعرف المرناء، الذى ينقل لنا لا ما يدور داخل الجسم البشرى الموجود أمامنا، بل ما يدور فى البلاد الأخرى، وقد يكون بيننا وبينها عشرات الآلاف من الكيلومترات، وتفصلنا عنها صحارى وجبال وبحار ومحيطات، وكذلك ما يدور فى سفن الفضاء وعلى سطح القمر. لقد تقدم العلم بفضل الله ونعمته، ولولا الله سبحانه ما استطاع الإنسان أن يحرك إصبعه ولا أن يُكْمِل نَفَسه. المهم أن هذا كله لا يدخل فى باب معرفة الغيب، إذ ما دامت هناك آلات تكشف لنا ما كان مغيَّبا فإنه لا يظل غيبا، بل يصبح أمرا من أمور عالم الشهادة.

إن بعض المتعجلين يظنون أن معرفة هذه الأشياء حول الجنين تُصَادِم ما ورد فى هذه الآية وفى آخر سورة "لقمان" وكذلك ما ورد فى أحد الأحاديث النبوية من أن هناك خمسا لا يعلمهن إلا الله منها "ما فى الأرحام"، مع أنه لا مصادمة ولا يحزنون. ذلك أن أحدا لا يعلم فعلا ما فى الأرحام إذا

ظل الحجاب الذى يفصل ما فى الأرحام عما هو خارج الأرحام قائما لأن ما فى الأرحام سوف يظل عندئذ غيبا من الغيب، وحينئذ لا يعرفه إلا الله، الذى يعلم السر وأخفى.

وبالمناسبة فقد جاء فى بعض كتب التفسير، كتفسيرى الزمخشرى والآلوسى، أن الشافعى يقول إن أقصى مدة للحمل أربع سنين، أما مالك فكان يذهب إلى أنها خمس، على خلاف أبى حنيفة، الذى جعلها سنتين. كما جاء فى بعض الروايات التى أوردها الزمخشرى فى تفسيره أن هَرِم بن حيان قد بقى فى بطن أمه أربع سنوات، ولذلك سمى: هَرِمًا. وأشار القرطبى إلى أن مدة الحمل تصل إلى عشرة أعوام بل قد تزيد عن ذلك. بيد أن محمد أسد، فى ترجمته للقرآن إلى الإنجليزية: " The Message of the Qur'an"، قد ذكر أن مدة الحمل قد تتجاوز ٢٨٠ يوما إلى ٣٠٥، ونقل عن بعض المتخصصين أنها قد تبلغ ٣٠٧ أيام، لكنها لا تزيد عن ذلك. أما دائرة المعارف البريطانية، فى مادة "Pregnancy" من طبعتها الخامسة عشرة، فقد ذكرت أن مدة الحمل تقع بين ٢٥٠ إلى ٢٨٥ يوما، وأن المحاكم مع ذلك قد تأخذ بأقل أو أكثر من ذلك: فمثلا أخذت محكمة بولاية نيويورك ذات مرة بـ٣٥٥ يوما (أى سنة شمسية تقريبا) على حين أن المحاكم البريطانية، بناء على استشارة أهل الاختصاص فى الطب، قد اعترفت فى بعض الحالات بـ٣٣١ يوما. كما ذكرت أن طفلا قد ولد تاما بعد ٢٢١ يوما محسوبة من اليوم التالى لا نقطاع آخر حيض لأمه.

ويوافق د. محمد على البار فى كتابه: "خلق الإنسان بين الطب والقرآن" ابنَ القيّم على أن الشريعة والطبيعة قد تظاهرتا على أن أقل مدة للحمل هى ستة أشهر، ولكن بالنسبة لأقصى مدة للحمل يقول إنه لا يزيد عند الأطباء عن شهر بعد موعده، وإلا مات الجنين فى بطن أمه، وإنهم يعدون ما زاد عن ذلك خطأ فى الحساب. وهو لهذا يرفض ما جاء فى كتب الفقه من حكايات عن مولودِين ذوى أسنان، وعن مولودِين لثلاث سنين أو أربع، مؤكدا أنها حكايات خرافية، ويسوق رأى ابن حزم، الذى يستنبط من قوله تعالى: "وحَمْله وفِصَاله ثلاثون شهرا" وقوله: "والوالداتُ يُرْضِعْن أولادَهن حَوْلَيْن كامِلَيْن لمن أراد أن يُتِمّ الرَّضَاعة" أنه لا يمكن أن تقل مدة الحمل عن ستة أشهر أو تزيد عن تسعة، ويكذّب من يقول بغير هذا.

فهذا هو النص، وهذه هى القراءة السليمة له: إنها بكل تأكيد لم تأت بشىء من خارج النص، بل تعمقته ففهمته جيدا. أى أن النص يخلو من الفجوات، بل معارف علمائنا القدامى هى التى كانت تعانى من بعض الفجوات. وهم معذورون، إذ الناس بوجه عام أبناء بيئتهم، ولم يكن فى بيئة العلماء فى ذلك الوقت ما تيسَّر لنا فى العصر الحالى. فلهم الشكر على ما كتبوا، ولهم كل العذر على ما أخطأوا فيه الصواب. بل إنهم أحيانا ما يخطئون معنى النص رغم وضوحه التام. ففى قوله تعالى فى سورة "الرعد" أيضا: "وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاء لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ"، نجد أن عددا من المفسرين، رغم وضوح التشبيه فى قوله سبحانه: "كباسط كفيه إلى الماء"، قد رَأَوْا أن ذلك تشبيه بالقابض على الماء فى أنه لا يحصل على شئ، وأن العرب تضرب بذلك المثل للساعى فيما لا يدركه، واستشهدوا ببيتين من الشعر على ذلك يتكلمان

عن قبض الكف على الماء، وهو ما يختلف عما تقوله الآية من أن المقصود بسط الشخص يده نحو الماء وهو واقف بعيدا عنه وليس نزول الشخص إلى الماء ومحاولة القبض على شيء منه: ففى الحالة الأولى لا يصعد الماء إلى يدك أبدا ولو بَقِيتَ باسطها إلى يوم القيامة، أما فى الحالة الأخرى فإن الماء، وإن تسرب من بين أصابعك حين تقبض كفك عليه، تَعْلَق بكفك بعض قطراته.

كذلك فمن قوله تعالى فى سورة "السجدة": "وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تَعُدُّون" وقوله سبحانه فى سورة "المعارج": "تَعْرُج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة" نستخلص أن اليوم ليس دائما أربعا وعشرين ساعة. وقد بين لنا العلم الحديث أنه حتى بالنسبة للكواكب التى تدور حول الأرض تتفاوت أطوال الأيام حسب مدى اقتراب الكوكب أو ابتعاده عنها: فكلما اقترب الكوكب من أُمِّه كان اليوم أقصر، وكلما ابتعد عنها كان اليوم أطول. وكنا ونحن نؤدى العمرة نأخذ وقتا مختلف الطول فى كل مرة نطوف فيها بالكعبة: فإذا لم يكن هناك زحام كدنا، ونحن نطوف حول الكعبة، أن نلتصق بها، وننتهى من الطواف فى ثلاث دقائق، أما إذا كان هناك زحام ابتعدنا عن الكعبة وطالت دورتنا حولها كثيرا جدا. بل لقد كنا فى بعض الأحيان نطوف من الطابق الثانى أو الثالث حسب الظروف فيكون الطواف أطول شيء. وهو ما عملناه فى الحج خوفا من الزحام ووقوع أحد منا تحت الأقدام أو ضياع الأطفال من أيدينا. وهذا يرينا كيف أن الأيام تتفاوت طولا حسب الكوكب الذى يكون فيه الكائن. وعلى هذا كنت وما زلت أستغرب ما يقوله الكتاب المقدس وبعض الأحاديث الباطلة لدينا من أن الله خلق الكون فى ستة أيام كأيامنا هذه التى يتكون الواحد منها من صباح ومساء مع أن الشمس والقمر والنجوم والأرض لم تكن قد خُلِقَتْ بعد. كما أن الكلام على هذا النحو يصور الله سبحانه وكأنه يعيش على الأرض داخل الكون مثلما نعيش نحن الآن، ويومه أربع وعشرون ساعة، مع أنه تعالى جَدُّه هو خالق الكون كله، والأرضُ جميعا قبضتُه يوم القيامة، والسماواتُ مطويّاتٌ بيمينِه.

فكما نرى فإن القارئ لا يأتى بشيء من عنده بل يكشف ما هو مغطى فى النص، فكل شيء موجود فى النص إما واقعا وإما حكما، أو إما وجوبا وإما إمكانا. نعم، القارئ لا يأتى بشيء من عنده، اللهم إلا الاستعداد للفهم ومحاولة ذلك الفهم. أما الإبداع فهو من عند الكاتب. ومع هذا فقد زعم أصحاب نظرية التلقى بأن الكاتب لم يأت بشيء من عنده، إذ هو حسب هذا الزعم إنما أخذ كل ما كتب عن الآخرين، أما القارئ فهو كل شيء. وأول ما نكشفه من هذا التساخف أن القارئ هو أيضا لم يأت بشيء من عنده، إذ هو تغذى على كتابات الكُتَّاب أيضا. بيد أن هذا التغذى لا يرقى إلى غذاء المبدع، الذى تعب وجرب وسار حياته كلها يكتب ويبدع ويتعب، ثم إنه لم يكتف بهذا بل راجع ما كتب بعين الناقد الفاحص، فحذف واستدرك وزاد وأضاف وغير وبدل وحور. نعم إنه يعتمد على كتابات الآخرين، لكنه لم يأخذها ويضعها بعضها بجوار بعض كيفما اتفق، بل يدخل هذا كله عقله وخياله وحساسيته حيث ينصهر ويصبح جزءا من شخصيته وتفرده ثم يأتى قبل هذا كله موهبته، وما أدراك ما موهبته؟ إننا نقول عن الطبيخ إن فيه نَفَسَ من طبخته.

نقصد أن شخصيتها وذوقها وخبرتها وبراعتها قد طبعت الطبيخ بطابعها، فصار يُنْسَب إليها، ويُحَبّ ويفضَّل على غيره من الطبائخ. فإذا كان هذا يقال فى الطبيخ، الذى لا يمكن أن يرقى إلى مرتبة الإبداع الأدبى، فما بالنا بذلك الإبداع العجيب المذهل؟ إن هؤلاء السطحيين المتنطعين يتجاهلون الموهبة التى أغدقها الله على المبدع قصاصا كان أو شاعرا أو رحالة أو مترجما لنفسه أو لغيره... إلخ. فهل تلك الموهبة الإلهية التى تميزه عن غيره وترفعه فوق الرؤوس جميعا لا قيمة لها كما يدعى أصحاب تلك النظرية العجيبة؟ إنك لو أزحت الكاتب من الصورة فقد أزحت كل شىء وأزحت ما كتب وأبدع مما يزعم أصحاب النظرية أن القارئ هو الذى يضفى عليه معانيه وجماله وروعته، وما هو فى الواقع والحقيقة إلا مستكشف لكل ذلك. تَخَلَّصْ من الكاتب، ولسوف تجد نتاجه الإبداعى قد ذهب مع الريح. فهذا النتاج هو من صنعه وإبداعه ويحمل اسمه ورسمه، وعليه بصمته التى أعطاها الله إياه. وأى كلام غير هذا هو الحمق بعينه أو التحامق. كذلك فلو تنطعنا تنطع أولئك المتساخفين وقلنا إن المبدع لم يأت بشىء من عنده بل نقل ما قرأه عند الكتاب الآخرين لصدق هذا الكلام على أولئك الكتاب الآخرين، الذين ينبغى أن نقول عنهم إنهم لم يأتوا بشىء من لدنهم بل أخذوا كل شىء عن الكتاب السابقين... وهكذا دواليك فلا نعترف لأى أحد بأية قيمة ذاتية. وهذا من أعجب العجب وأسخف السخف.

أفق التوقع والنص القرآنى

أفق التوقع عند القارئ هو ما يتصور، أثناء القراءة، أنه سوف يجده فى النص. وقد يكون أفق توقعه هذا قائما على معرفته بقواعد اللغة مثلا، وقد يستند إلى ما يتمسك به من منهج نقدى، وقد يتكئ على لون إلمامه بالموضوعات التى يتناولها النص، وقد يقوم على موقفه من القضايا التى يعالجها النص، أو يكون نابعا من معتقده السياسى أو الدينى، وقد يعتمد على ما هو شائع بين أفراد المجتمع من مقولات، أو ما إلى ذلك... الخلاصة أن أفق التوقع الخاص بكل إنسان لا ينفصل عما فى ذهنه وعقله وأفكاره وثقافته واقتناعاته.

ويقول أصحاب نظرية القراءة إنه كلما أكثر النص من كسر أفق التوقع لدى القارئ كان نصا متميزا، بخلاف ما لو كان يتسق مع ما فى ذهنه أو اقتناعه أو معارفه، إذ يكون فى هذه الحالة نصا سيئا. وهو ما نخالفهم فى جانب كبير منه، فليست العبرة فى أن يكسر النص أفق توقعنا دائما، إذ قد يكون النص فى حالة كسره لأفق التوقع هو المخطئ ونحن المصيبون، أو يكون تأكيده لما نؤمن به سببا لشعورنا بالرضا والبهجة، وإلا لقد كان ينبغى أن يغير القارئ أفكاره كلما قرأ كتابا جديدا لا يتفق مع أفق توقعه كى يتسق مع الآفاق الجديدة فى الكتب التى يقرؤها، ويصير بذلك إِمَّعًا لأصحابها.

ليست العبرة إذن بكسر النصِّ أفقَ توقُّعِ القارئ أو لا، بل العبرة بصوابية ما يشتمل عليه النص وبالأسلوب الذى يقدم ذلك به. وهذه نقطة مهمة جدا فى هذا البحث الذى لن أتردد لحظة فى الإشارة إلى ما أرى أنه خطأ أو تكلف أو تنطع أو مغالاة فى تلك النظرية، إذ لا ينبغى أن نقرأ ما يقوله الغربيون ونقبله كما هو بل يجب أن نعرضه على عقولنا ونرى رأينا فيه ونجتهد فى تعديل ما فيه من أخطاء وتقديم البديل لتلك الأخطاء.

وعلى هذا الأساس سوف نقوم بجولة فى القرآن سريعة نقف خلالها إزاء بعض النصوص القرآنية التى كان للقارئ، مسلما كان أو غير مسلم، بإزائها أفق توقع معين لنرى مدى انسجام هذا الأفق مع النص أو عدم انسجامه، وإلى أى حد كان هذا التوقع مصيبا أو خاطئا، وما أسبابه. ونبدأ بما وقع للرسول فى غار حراء حين ظهر له جبريل أول مرة وقرأ عليه أول آيات من القرآن الكريم. تقول الرواية حسبما جاء فى "صحيح البخارى": "أولُ مَا بُدِئَ به رسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم من الوَحْى الرؤيا الصادِقَةُ فى النَّوْمِ، فكان لا يَرَى رؤيا إلا جاءتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، فكان يأتِى حِرَاءً فيَتَحَنَّثُ فيه، وهو التَّعَبُّدُ، الليالِى ذواتِ العَدَدِ، ويَتَزَوَّدُ لذلك، ثم يَرْجِعُ إلى خديجَةَ فتُزَوِّدُهُ لِمِثْلِها، حتى فَجِئَهُ الحقُّ وهو فى غارِ حِرَاءٍ، فجاءه المَلَكُ فيه، فقال: اقْرَأْ. فقال له النبى صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: فقُلْتُ: ما أنا بِقَارِئٍ. فأَخَذَنِى فَغَطَّنِى حتى بَلَغَ مِنِّى الجَهْدُ، ثم أَرْسَلَنِى فقال: اقْرَأْ. فقُلْتُ: ما أنا بِقَارِئٍ. فأَخَذَنِى فغَطَّنِى الثانيةَ حتى بَلَغَ مِنِّى الجَهْدُ، ثم أَرْسَلَنِى فقال: اقْرَأْ. فقُلْتُ: ما أنا بِقَارِئٍ. فأَخَذَنِى فَغَطَّنِى الثالثةَ حتى بَلَغَ مِنِّى الجَهْدُ، ثم أَرْسَلَنِى فقال: "اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ" حتى بَلَغَ

"عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ". فرَجَعَ بِهَا تَرْجُفُ بَوادِرُهُ حتى دَخَل على خَدِيجَةَ فَقَالَ: زَمِّلونى زَمِّلونى. فزَمَّلوه حتى ذهب عنه الرَّوْعُ، فقال: يا خَدِيجَةُ، ما لى؟ وأَخْبَرَها الخبرَ وقال: قد خَشِيتُ عَلَى نفسى. فقالَتْ له: كَلَّا. أَبْشِرْ، فواللّهِ لا يُخْزِيك اللّهُ أبدًا. إنك لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الحديثَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَقْرِى الضيفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوائبِ الحَقّ. ثم انطَلَقَتْ به خَديجةُ حتى أَتَتْ به وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ العُزَّى بْنِ قُصَى، وهو ابْنُ عَمّ خَدِيجَةَ أخو أبيها، وكان امْرَءًا تَنَصَّرَ فى الجاهليةِ، وكان يكْتُبُ الكتابَ العربى، فَيَكتُبُ بالعربيةِ من الإنجيلِ ماشاء اللّهُ أن يَكتُبَ، وكان شَيْخًا كبيرًا قد عَمِى، فقالتْ له خديجةُ: أَى ابْنَ عَمّ، اسْمَعْ من ابنِ أخيكَ. فقال ورقةُ: ابنَ أخى، ماذا تَرَى؟ فأَخبَرَهُ النبى صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما رَأَى، فقال ورقةُ: هذا النَّاموسُ الذى أُنزِلَ على موسى. يا لَيْتَنى فيها جَذَعًا أكونُ حَيًّا حينَ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ. فقال رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أَوَمُخْرِجِى هم؟ فقال ورقةُ: نعم. لم يَأْتِ رجلٌ قَطُّ بِمِثْلِ ما جِئْتَ به إلا عُودِى. وإن يُدْرِكْنى يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نصرًا مُؤَزَّرًا. ثم لم يَنْشَبْ ورقةُ أن تُوُفِّىَ".

إن مُحَّدا لم يكن يتوقع أن يكون نبيا، ولهذا فحين ظهر له جبريل خاف واضطرب، ثم ازداد الخوف والاضطراب عندما كان يضمه إليه ويغطه غطا شديدا. ولما طلب منه أن يقرأ ظن أنه يريده أن يقرأ من صحيفة الوحى التى كانت فى يده، فكان جوابه: ما أنا بقارئ. أى أنا رجل أمى لا يقرأ ولا يكتب. وكان هذا جوابه فى المرتين الأُخْرَيَيْن. لقد كان هذا توقعه، ومن ثم أتى رد فعله على ما رأينا. ولو كان يتوقع أن يختاره الله نبيا لما كانت استجابته لظهور جبريل هى الخوف والرعب، اللذين ظلا يسيطران عليه حتى بعد عودته إلى بيته وزوجته المحبة المحبوبة، إذ طلب منها تزميله، أى تغطيته طلبا لدفء الأمان. كما أنه ما كان ليقول إنه لا يقرأ لو كان يعرف أن المقصود هو القراءة وراء جبريل وليست القراءة ابتداءً من الصحيفة.

أما خديجة فقد كانت هادئة رابطة الجأش لأنها كانت فى بيتها لم تَرَ ما رأى من منظر وكلام عجيب غريب، ومن ثم لم يخالجها خوف، وبخاصة أنه لم يدر فى خاطرها أن يؤذى الله زوجها الكريم النبيل ذا الخلق الرفيع والنفس السمحة العظيمة، وكان كل همها أن تعرف حقيقة ما حدث بلا خوف أو توتر، فأخذته إلى ورقة، الذى سرعان ما طمأنهما بأنه سيكون نبيا مثلما كان موسى نبيا. باختصار، لقد كسر ما وقع لمحمد أفق توقعه لأنه لم يكن يتوقع أن يكون نبيا وأن ينزل عليه الوحى وأن يكون الوحى على هذا النحو الذى رآه وسمعه وخاض تجربته، فكان خوفه وارتعاد جسده، إلى أن هَدَّأَتْ زوجتُه روعَه، وطمأنه ورقة، فعاد إليه الشعور بالأمان.

وبالمناسبة فقد انكسر أفق توقعى أنا أيضا أكثر من مرة وأنا أَقرأ النص الماضى، إذ وجدت الراوى يستخدم صيغة "فَجِئ" لا "فَجَأَ"، التى نعرفها، مما دفعنى إلى استشارة المعاجم فألفيت "لسان العرب" فى أول مادة "ف ج ء" يقول إن فعل الفجأة يأتى بفتح الجيم وكسرها معا، وكلا الاستعمالين صواب. وهناك كَسْرُ أفقِ توقعٍ آخر حدث لى وأنا أقرأ النص المذكور أيضا، ألا وهو أن الراوى يقول عن ورقة: "وهو ابن عمها أخو أبيها". فهل هو ابن عمها؟ أم هل هو أخو أبيها؟ لو

كانت العبارة: "وهو ابن عمها أخى أبيها" لما كانت هناك مشكلة، إذ الكلام حينئذ عن عمها أبى ورقة أخى أبيها. وقد وجدت شارح الحديث فى موقع "الدرر السنية" يعدِّل العبارة لتكون: "وهو ابنُ عَمِّ خديجةَ أخى أبيها"، ثم يمضى دون أن يعلق على الأمر مع احتياج الأمر إلى تعليق موضح، وبخاصة أن الرواية تقول إن خديجة قد نادت ورقة بـ"يا عم". إلا أننى ألفيت رواية مسلم تورد كلامها على النحو التالى: "وهو ابنُ عَمِّ خَدِيجَةَ أخِى أبِيها". ومع هذا فإننا نسمع خديجة تقول لورقة فى هذه الرواية أيضا: "أَىْ عَمِّ"، وهو ما يعيدنا إلى المربع الأول، لنعود فنسمعها تقول له بعد ذلك فى آخر الحديث: "أى ابن عم، اسمع من ابن أخيك". على أن الأمر لا يقف هنا، إذ نجد رواية أخرى من الحديث فى "صحيح البخارى" تقول أيضا: "وهو ابنُ عَمِّ خَدِيجَةَ أخِى أبِيها"، وهو ما نجده فى "صحيح ابن حبان" كذلك: "وكان أخا أبيها". بيد أن خديجة فى كلا الصحيحين تنادى ورقة على أنه عمها. كذلك انكسر أفق التوقع للمرة الثالثة حين سمعنا ورقة يقول: "يا ليتنى فيها جَذَعًا" بنصب خبر "ليت" مع اسمها خلافا لما تقوله كتب النحو من أن الخبر يأتى مرفوعا بعد ذلك الحرف وزملائه. إلا أننى فى هذه المرة كنت أعرف أن من العرب القدماء من ينصب فى هذه الحالة الاسم والخبر جميعا. لقد انكسر أفق توقعى هنا أيضا، لكنى سرعان ما استعدت توازنى لمعرفتى السابقة بالاستعمال الآخر غير الشائع، ذلك الاستعمال الذى لم أتوقع أن يقابلنى هنا لقلة من كانوا يأخذون به بين العرب القدماء. وقد استفدت من قراءة هذا النص: إما بمعرفتى شيئا جديدا، وإما بتأكدى من استعمالٍ نحويٍّ غير مشهور، وإما بحيرة لم تنفك بعد، وهى الخاصة بكون ورقة ابن عم خديجة وأخا أبيها فى ذات الوقت. لكن من الممكن القول بأن ورقة عم خديجة فعلا، أما عبارة "ابن عم" فهى عبارة كان العرب يطلقونها على كل فرد من أفراد قبيلتهم، وليس شرطا أن يكون ابن عم الشخص حقا بالمعنى الذى نفهمه الآن من كلمة "ابن العم". بيد أن المشكلة تكمن فى أن خديجة كانت تناديه على أنه عمها فعلا فى نفس الرواية التى تقول إنه كان ابن أخى أبيها. وقد يكون فى تقاليد العرب ما يشفع لمثل هذه الاستعمالات التى تبدو لنا الآن غريبة.

ومن بداية النبوة ننتقل إلى وفاة النبى عليه السلام وما وقع من عمر عندئذ. ففى صحيح ابن حبان عن أنس بن مالك "أنَّه لما تُوفِّىَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قام عمرُ بنُ الخطَّابِ فى النَّاسِ خطيبًا فقال: لا أسمَعَنَّ أحَدًا يقولُ إنَّ مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قد مات. إنَّ مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لم يَمُتْ، ولكِنْ أرسَل إليه ربُّه كما أرسَل إلى موسى، فلبِث عن قومِه أربعينَ ليلةً. قال الزُّهْرِى: وأخبَرنى سعيدُ بنُ المسيَّبِ أنَّ عُمَرَ بنَ الخطَّابِ قال فى خُطبتِه: إنِّى لَأرجو أنْ يَقْطَعَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أيدى رجالٍ وأرجُلَهم يزعُمونَ أنَّه مات. قال الزُّهْرِى: أخبرَنى أبو سلَمةَ بنُ عبدِ الرَّحمنِ بنِ عوفٍ أنَّ عائشةَ زوجَ النَّبى صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أخبَرَتْه أنَّ أبا بكرٍ أقبَل على فرَسٍ مِن مَسْكنِه بالسُّنُحِ حتَّى نزَل فدخَل المسجِدَ فلَمْ يُكلِّمِ النَّاسَ حتَّى دخَل على عائشةَ فتيمَّم رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهو مُسَجًّى ببُرْدَةٍ حِبَرةٍ فكشَف عن وجهِه فأكَبَّ عليه فقبَّله وبكى ثمَّ قال: بأبى أنتَ! واللهِ لا يجمَعُ اللهُ عليكَ موتتَيْنِ أبدًا. أمَّا المَوْتةُ الَّتى كُتِبَتْ عليك فقد مُتَّها. قال الزُّهْرِى: قال أبو

سلَمةَ: أخبَرنى ابنُ عبَّاسٍ أنَّ أبا بكرٍ خرَج، وعُمَرُ يُكلِّمُ النَّاسَ، فقال: اجلِسْ. فأبى عُمَرُ أنْ يجلِسَ فقال: اجلِسْ. فأبى أنْ يجلِسَ، فتشهَّد أبو بكرٍ، فمال النَّاسُ إليه وترَكوا عُمَرَ، فقال: أيُّها النَّاسُ، مَن كان منكم يعبُدُ مُحمَّدًا فإنَّ مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قد مات، ومَن كان يعبُدُ اللهَ فإنَّ اللهَ حَى لا يموتُ. قال اللهُ تبارَك وتعالى: "وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِى اللَّهُ الشَّاكِرِينَ" (آل عمران/ ١٤٤). قال: واللهِ لَكأنَّ النَّاسَ لم يكونوا يعلَمونَ أنَّ اللهَ جلَّ وعلا أنزَل هذه الآيةَ إلَّا حينَ تلاها أبو بكرٍ، فتلقَّاها منه النَّاسُ كلُّهم، فلَمْ تسمَعْ بشَرًا إلَّا يتلوها. قال الزُّهْرِى: وأخبَرنى سعيدُ بنُ المسيَّبِ أنَّ عُمَرَ بنَ الخطَّابِ قال: واللهِ ما هو إلَّا أنْ سمِعْتُ أبا بكرٍ تلاها عُقِرْتُ حتَّى ما تُقِلُّنى رِجْلاى وأهوَيْتُ إلى الأرضِ وعرَفْتُ حينَ سمِعْتُه تلاها أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قد مات. قال الزُّهْرِى: وأخبَرنى أنسُ بنُ مالكٍ أنَّه سمِع عُمَرَ بنَ الخطَّابِ مِن الغدِ حينَ بُويِع أبو بكرٍ فى مسجدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم واستوى أبو بكرٍ على مِنْبَرِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قام عُمَرُ فتشهَّد قبْلَ أبى بكرٍ ثمَّ قال: أمَّا بعدُ فإنِّى قد قُلْتُ لكم أمسِ مقالةً لم تكُنْ كما قُلْتُ. وإنِّى واللهِ ما وجَدْتُها فى كتابٍ أنزَله اللهُ ولا فى عهدٍ عهِده إلى رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. ولكنِّى كُنْتُ أرجو أنْ يعيشَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حتَّى يَدْبُرَنا (يقولُ: حتَّى يكونَ آخِرَنا)، فاختار اللهُ جلَّ وعلا لرسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الَّذى عندَه على الَّذى عندَكم. وهذا كتابُ اللهِ هدَى اللهُ به رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فخُذوا به تهتَدوا بما هدى اللهُ به رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم".

وواضح أن كثيرا من المسلمين، وعلى رأسهم عمر، لم يكونوا يتوقعون أن يموت الرسول قبلهم أو لم يكونوا يتوقعون أن يموت الرسول آنئذ، ومن هنا كان استغرابهم لوفاته. لقد كانوا يظنون، من فرط حبهم له واحتياجهم إليه ومن تتابع نزول الوحى عليه ومسارعته إلى مساعدتهم فى كل أمر يحل بهم، أنه باق معهم إلى أن يموتوا على الأقل. وعلى هذا لم يتنبهوا إلى قوله تعالى، الذى نزل على رسوله فى مكة منذ سنوات طويلة: "إنك ميت، وإنهم ميتون"، وكأنه لم يكن آية من آيات القرآن. وهذا يحدث كثيرا لنا، إذ نقرأ شيئا لكننا لا نقف أمامه ولا نتفكر فيه. إننا نقرؤه وكفى. ولِمَ نذهب بعيدا؟ ألا نعرف أن الموت حق وأن أحدا لن يفلت منه وأن كل إنسان عاجلا أو آجلا ميت وذاهب إلى ربه؟ بلى نعرف ذلك، ومع هذا فحين يموت عزيز علينا نبكى ولا نصدق فى البداية أنه مات ولا نتقبل فكرة موته وأنه مفارقنا وأننا لن نراه أو نسمعه بعد ذلك أبدا. ولكل هذه الأسباب لم يتصور عمر أن يموت الرسول بهذه السرعة وبهذه البساطة، فلم يتذكر آية "إنك ميت، وإنهم ميتون" ولا قوله تعالى جَدُّه: "وما محمَّد إلا رسول قد خَلَتْ مِنْ قبلِه الرسل. أفإن مات أو قُتِل انقلبتم على أعقابكم؟". والسبب فى هذا أنه لم يتوقع موته ﷺ، فلم يتنبه إلى الآيتين أو كأنه لم يفهمهما. وهذا ليس جهلا بل مسألة نفسية.

والآن إذا ما وقفنا أمام معانى بعض كلمات القرآن لنرى مكانها من أفق التوقع الذى يلح عليه أصحاب نظرية القراءة قفزت إلى الذهن مثلا كلمة "أَبٌّ" فى سورة "عَبَسَ". ولو صحت الرواية

القائلة بأن كلمة "أَبّ"، الواردة فى قوله تعالى من السورة المذكورة: "ثم شققنا الأرض شَقًّا * فأنبتنا فيها حَبًّا * وعنبا وقَضْبًا * وزيتونا ونخلا * وحدائق غُلْبًا * وفاكهةً وأَبًّا"، لم يكن يعرفها عمر لدخلت هذه الكلمة فى نطاق الألفاظ التى انكسر معها أفق التوقع، فقد كانت الكلمات التى سبقتها كلها معروفة له رضى الله عنه: "الحَبّ، العنب، القضب، الزيتون، النخل، الحدائق الغُلْب، الفاكهة". والإنسان فى هذه الحالة يتوقع أن تكون الكلمة الأخيرة فى مثل هذا السياق مفهومة دون حاجة إلى شرح، شأنها شأن ما تقدمها من الكلمات، وبخاصة أنها أسماء لأشياء معروفة فى البيئة التى ينتمى إليها، ثم فوجئ بورود كلمة فى نهاية تلك الألفاظ لا يعرفها. وثم رواية أوردها الطبرى عند تفسيره لهذه الآية تقول: "قرأ عمر "وَفاكِهَةً وأَبًّا" ومعه عصا فى يده، فقال ما الأبّ؟ ثم قال: بحسبنا ما قد علمنا. وألقى العصا من يده... إن هذا هو التكلف"، وإن كنت أستبعد لامبالاة عمر بمعرفة معنى الكلمة ورضاه بأن يبقى على جهله بها، إذ ليس هذا هو عمر الذى نعرفه، عمر الطُّلَعَة الكثير التساؤل والراغب دوما فى المعرفة. وفى تفسير الطبرى أيضا "عن ابن عباس قال: الأبُّ نبتُ الأرضِ مما تأكله الدوابّ، ولا يأكله الناس... (و)عن سعيد بن جُبَيْر قال: عدّ ابن عباس وقال: الأبُّ ما أنبتت الأرض للأنعام... وقال أبو السائب فى حديثه: قال: ما أنبتت الأرض مما يأكل الناس وتأكل الأنعام". ومعروف أن للمفسرين فيها أقوالا شتى، وإن كانت بوجه عام لا تبعد عن هذا المعنى.

ومن الكلمات التى كَسَرَ استعمالُها فى القرآن أفقَ التوقع عند معاصرى نزوله كلماتُ "الصلاة" و"الزكاة" و"الصيام" و"النفاق" وما إلى ذلك. لقد كانت "الصلاة" تعنى عند الجاهلى مجرد الدعاء، إلا أنها فى الإسلام قد صارت عبادة معينة تشتمل على أقوال وأفعال مخصوصة تفتتح بالتكبير وتختتم بالتسليم، وبين ذلك قيام وركوع وسجود وجلوس على هيئة مخصوصة، وفى كل فعل من هذه الأفعال يردد المصلى نصوصا قرآنية أو عبارات تمجيدية لله سبحانه، وكل تكرير لهذه الأفعال يسمى: "ركعة"، وكل صلاة تتكون من عدد معين من تلك الركعات... وهكذا. وهذا كله جديد بالنسبة للعربى. وقس عليها "الزكاة"، التى لم تكن تعنى عند العرب سوى التطهير ليس إلا، فجاء الإسلام وعنى بها شيئا لم يكن يتوقعه العربى، وهو إخراج مال فى سبيل رضا الله كى يحصل الإنسان على مقابل ذلك فى الآخرة، التى كانت هى أيضا لا تعنى عند العرب شيئا مما تعنيه فى الإسلام، إذ ما الأولى وما الآخرة عند الجاهلى؟ الأولى هى أول الأشياء، والآخرة عكسها. وقل مثل ذلك فى الصيام، وهو الامتناع عن أى شىء، أما فى الإسلام فهو الامتناع عن الأكل والشرب ومعاشرة الزوجة طوال النهار من الفجر إلى المغرب. وهذا أيضا مما لم يكن العربى الجاهلى يعرفه. ولا شك أن ذلك كله كان كسرا لأفق التوقع الذى ينتظره الجاهلى، إذ فوجئ بأنه يعنى شيئا آخر لم يكن يدور بخاطره.

وهنا يأتى دور الرسول الذى كان يشرح لأتباعه وغير أتباعه معانى تلك الكلمات فى الدين الجديد وكتابه المجيد. ولا شك أن ذلك قد أخذ وقتا حتى استقر المعنى الجديد فى العقول والنفوس، وإن لم يأخذ المسلم الذى آمن بنبوة مُحَمَّد وقتا طويلا كالذى أخذه الكافر، الذى كان يستغرب كل ذلك ويستنكره. ولنأخذ الإيمان بالآخرة مثالا على ما نقول، فقد ظل الكفار ينكرون أن يكون هناك

آخرةٌ، أىْ بعثٌ بعد الموت. والقرآن مفعم بذلك الإنكار وتلك الاعتراضات وما كان المشركون يتحدَّوْن به النبىَّ وقرآنه، فيسجله القرآن عليهم. ومنهم من مات، ولم يؤمن بالآخرة ولا بالعبادات التى أتى بها الإسلام والقرآن، ومنهم من آمن بعد ذلك. وهؤلاء الذين آمنوا إما آمنوا فى مكة، وهم قلة، وإما آمنوا فى المدينة، وكانت أعدادهم تتكاثر باستمرار.

ويدلك على هذا الذى نقول الأمثلةُ التاليةُ: ففى "سيرة ابن هشام" أن عليا أسلم وهو "يومئذ ابن عشر سنين. وكان مما أنعم الله به على على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه كان فى حجر رسول الله ﷺ قبل الإسلام... وذكر بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ كان إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكة، وخرج معه على بن أبى طالب مستخفيًا من أبيه أبى طالب ومن جميع أعمامه وسائر قومه، فيصليان الصلوات فيها، فإذا أمسيا رجعا. فمكثا كذلك ما شاء الله أن يمكثا، ثم إن أبا طالب عثر عليهما يومًا وهما يصليان فقال لرسول الله ﷺ: يا ابن أخى، ما هذا الدين الذى أراك تدين به؟ قال: أَى عَمِّ، هذا دين الله ودين ملائكته ودين رسله ودين أبينا إبراهيم (أو كما قال ﷺ) بعثنى الله به رسولًا إلى العباد. وأنت، أى عم، أحقُّ من بذلتُ له النصيحة ودعوتُه إلى الهدى، وأحق من أجابنى إليه وأعاننى عليه (أو كما قال). قال أبو طالب: أى ابن أخى، إنى لا أستطيع أن أفارق دين آبائى وما كانوا عليه، ولكنْ والله لا يُخْلَصُ إليك بشيء تكرهه ما بَقِيتُ. وذكروا أنه قال لعلى: أى بُنَىَ، ما هذا الدين الذى أنت عليه؟ فقال: يا أَبَتِ، آمنتُ بالله وبرسول الله وصدقتُه بما جاء به وصليت معه لله واتبعته. فزعموا أنه قال له: أمَا إنه لم يدعُك إلا إلى خير، فالزمه".

وإذا كانت الصلاة فى تلك المرة قد مرت بسلام فإن الأمر لم يمر على نفس المنوال فى الواقعة التالية. جاء فى "سيرة ابن هشام" عن الصلاة فى مكة أيضا: "وكان أصحاب رسول الله ﷺ إذا صَلَّوْا ذهبوا فى الشِّعَاب فاسْتَخْفَوْا بصلاتهم من قومهم. فبيْنَا سعد بن أبى وقاص فى نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فى شعب من شعاب مكة إذ ظهر عليهم نفر من المشركين وهم يصلون، فناكروهم وعابوا عليهم ما يصنعون حتى قاتلوهم، فضرب سعد بن أبى وقاص يومئذ رجلًا من المشركين بلَحْى بعيرٍ فشَجَّه، فكان أول دمٍ هُرِيقَ فى الإسلام". وما هذا كله إلا لأن الصلاة بهذا الشكل كانت شيئا جديدا لا يعرفه المشركون. فالصلاة على ذلك النحو قد مثلت للمسلمين أولا كسرا للتوقع سرعان ما اجتازوه لأنهم مؤمنون بالدين الجديد وكتابه المجيد وكل ما أتى به ويؤدون شعائره دون تذمر أو استغراب، بخلاف الكفار، الذين ظلوا مستغربين أن يكون للصلاة هذا المعنى وأن تؤدَّى على هذا الشكل الغريب المنكَر فى نظرهم. ولهذا كان الاشتباك.

أما الصيام فقد امتنعتْ مثلا أم سعد بن أبى وقاص عن الطعام حين علمت أنه أسلم. فعلت ذلك كنوع من الضغط عليه كى يعود عن الدين الجديد إلى وثنية آبائه وأجداده. قال ابن كثير فى "البداية والنهاية" عن سعد: "أنزل الله فِى: "وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ...". وذلك أنه لما أسلم امتنعت أمه من الطعام والشراب أيامًا، فقال لها: تعلمين والله لو كانت لك مائة نَفْسٍ فخرجتْ نفسًا نفسًا ما تركتُ دينى هذا لشيء. إن شئتِ فكلى، وإن شئتِ فلا تأكلى. فنزلت هذه

الآية". ولم يُسَمِّ أحدٌ ذلك صياما. ذلك أن الكلمة بالمعنى الذى نعرفه الآن كانت مجهولة عند الجاهليين. وأم سعد كانت مشركة، فلم يكن لِيُوصَف امتناعها عن الطعام بـ"الصيام"، إذ لم تكن تعرف شيئا اسمه "الصيام" ولا كانت تؤمن به لو عرفتْه ولا كانت تصف به توقفها عن الأكل ولا كان مَنْ حولها يصفونه بذلك.

لقد كانت العرب فى الجاهلية تستعمل "الصيام" بمعنى "الإمساك"، وللخيل بمعنى "الوقوف"، والوقوف إمساك عن الحركة. جاء فى "أخبار أبى القاسم الزجاجى" مثلا: "وأصل الصوم فى كلام العرب: الإمساك. ويقال: "صام النهار" إذا قام قائم الظهيرة، و"صامت الخيل" إذا وقفت. قال النابغة:

خيلٌ صِيامٌ، وخيلٌ غيرُ صائمةٍ   تحتَ العَجَاجِ، وخيلٌ تَعْلِكُ اللُّجُما"

ويقول أبو داود الإيادى:

فارسٌ طارِدٌ وَمُلتَقِطٌ بَيْـ   ـضًا، وَخَيْلٌ تَعْدُو، وَأُخرى صِيامُ

ويقول بشر بن أبى خازم:

وَما تَسْعَى رِجالُهُمُو، وَلَكِنْ   فُضُولُ الخَيْلِ مُلْجَمَةٌ صِيامُ

* * *

إذا صامَ حِرْباءُ العَشِى رَأَيْتَها   مَناسِمُها بِالجَنْدَلِ الصُّمِّ تَرْتَمِي

ويقول امرؤ القيس:

فَدَعْ ذا، وَسَلِّ الهَمَّ عنكَ بِجَسْرَةٍ   ذَمُولٍ إذا صامَ النهارُ وَهَجَّرا

ويقول امرؤ القيس أيضا عن قيام أحد الرهبان وتطلعه إلى السماء عند الابتهال لربه:

لَهَا مُقْلَةٌ لو أَنَّها نَظَرَتْ بِهَا   إلى رَاهِبٍ قد صَامَ لِلّهِ وابْتَهَلْ

ويقول زهير بن أبى سُلْمَى:

عَلى حَدِّ مَتْنَيْها مِنَ الخَلْقِ جُدَّةٌ   تَصِيرُ إذا صامَ النهارُ لِدَوْلَجِ

وفى الصيام نقرأ فى "صحيح البخارى" الحديث التالى الذى يصف لنا ما فهمه بعض المسلمين المعاصرين لنزول الوحى من تحديد القرآن لبدء الصوم بتبيُّن الخيط الأبيض من الخيط الأسود: "عن سهْلِ بنِ سعدٍ قال: أُنْزِلت "وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُم الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِن الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ" ولم ينزلْ "مِنْ الْفَجْرِ"، فكانَ رجالٌ إذا أرادوا الصومَ ربطَ أحدُهُم فى رِجْلِهِ الخيطَ الأبيضَ والخيطَ الأسوَدَ، ولم يزَلْ يأكُلُ حتى يتبينَ لهُ رُؤْيَتُهما، فأنزلَ اللهُ بعدُ "مِنْ الْفَجْرِ"، فعلِموا أنَّهُ إنَّما يعنى الليلَ والنهارَ".وواضح أن الصورة البيانية القرآنية كانت شيئا جديدا غير متوقع، ولهذا لم يتبين لبعض المسلمين الجدد معناها، وبخاصة أن الصيام نفسه كان شيئا جديدا عليهم، فضلا عن أن عبارة "من

الفجر" لم تكن موجودة فى الصورة أولا، ومن ثم حسبوا أن الخيط المقصود هو خيط الشعر أو الصوف أو الكتان وما إلى هذا لا خيط الظلام وخيط الضياء. وهذا ما يسميه أصحاب نظرية التلقى بانكسار أفق التوقع. وقد ترتب على هذا الانكسار هنا شيء من الاضطراب فى الفهم والتصرف عند بعض المسلمين.

وثَمَّ حديث آخر أشد خصوصية، إذ المخطئ فيه هو عَدِىّ بن حاتم تحديدا حسبما ورد فى "صحيح مسلم": "لما نزلتْ "حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ" (البقرة/ ١٨٧) قال له عدى بنُ حاتمٍ: يا رسولَ اللهِ، إنى أجعلُ تحت وسادتى عِقالَين: عقالًا أبيضَ وعقالًا أسودَ، أعرفُ الليلَ من النهارِ. فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: إنَّ وسادَك لعريضٌ. إنما هو سوادُ الليلِ وبياضُ النهار".وهى مداعبة من الرسول قصد بها أنه أساء فهم الصورة البيانية الجديدة فى الآية.

وهناك حديث برواية عديٍّ أيضا فى "إتحاف الخيرة المهرة" يبين لنا الدور الذى كان يقوم به الرسول عليه الصلاة والسلام فى تفهيم المسلمين أوضاع الدين الجديد ومساعدتهم على مواجهة كسر التوقع المذكور حتى لا يرتبكوا ويرتكبوا الأخطاء فى الفهم وفى السلوك: "علَّمَنى رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الصَّلاةَ والصِّيامَ، فقال: صَلِّ كذا، وصَلِّ كذا، وصُمْ كذا، فإذا غابتِ الشَّمسُ فكُلْ واشْرَبْ حتَّى يَتبيَّنَ لك الخيطُ الأبيضُ مِن الخَيطِ الأسودِ، وصُمْ ثلاثينَ يومًا، إلَّا أنْ تَرى الهِلالَ قبْلَ ذلك. فأخذْتُ خيطًا مِن شَعْرٍ أسودَ وخيطًا أبيضَ، فكُنتُ أنْظُرُ فيهما فلا يَتبيَّنُ لى، فذَكَرْتُ ذلك لرسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فضَحِكَ وقال: يا ابنَ حاتمٍ، إنَّما ذلك بَياضُ النَّهارِ مِن سوادِ اللَّيلِ".

وفى القصة التالية لون من التوقع كان فى خاطر الصحابى الذى تمرغ بجسمه كله فى التراب على سبيل التيمم حتى أُفْهِم أن الأمر بخلاف ذلك، فانكسر أفق توقعه: "كنتُ جالسًا مع عبدِ اللهِ وأبى موسى، فقال أبو موسى: يا أبا عبدِ الرحمنِ، أَرَأَيْتَ لو أن رجلًا أَجْنَبَ فلم يَجِدْ الماءَ شهرًا كيف يَصْنَعُ بالصلاةِ؟ فقال عبدُ الله: لا يَتَيَمَّمُ، وإن لم يَجِدْ الماءَ شهرًا. فقال أبو موسى: فكيف بهذه الآيةِ فى سورةِ المائدةِ: "فلم تجدوا ماء فتيمَّموا صعيدا طيبا" (المائدة/ ٦)"؟ فقال عبدُ اللهِ: لو رُخِّصَ لهم فى هذه الآيةِ لأَوْشَكَ إذا بَرَدَ عليهم الماءُ أن يَتَيَمَّمُوا بالصعيدِ. فقال أبو موسى لعبدِ الله: ألم تَسْمَعْ قولَ عمارٍ: بعثَنى رسولُ اللهِ ﷺ فى حاجةٍ، فأَجْنَبْتُ، فلم أَجِدْ الماءَ، فتَمَرَّغْتُ فى الصعيدِ كما تَمَرَّغُ الدابةُ، ثم أَتَيْتُ النبى ﷺ، فذَكَرْتُ ذلك له، فقال: إنما كان يَكْفيك أن تقولَ بيديْك هكذا. ثم ضربَ بيديه الأرضَ ضربةً واحدةً، ثم مَسَحَ الشِّمالَ على اليمينِ وظاهرَ كفَيْه ووجهَه. فقال عبدُ اللهِ: أَوَلَمْ ترَ عمرَ لم يَقْنَعْ بقولِ عمارٍ؟".

والسبب فى هذا أن عمار بن ياسر فهم، فيما يبدو، أمر التيمم بالنسبة للجُنُب على النحو التالى: إذا كان التيمم لمن يريد أن يتوضأ ولم يجد ماء هو أن يمسح على وجهه ويديه، وهو أمر قريب مما يصنعه المتوضئون، فإذن يجب على الجنب أن يتمرغ فى التراب بجسده كله مثلما يصنع فى وجود الماء إذ يغسل حينئذ جسده كله. هذا هو ما كان يفهمه ويتوقعه فيما أتخيل، لكن رسول الله أفهمه

الصواب، وعرّفه أن التيمم بالنسبة للمتوضئ والمغتسل الفاقدَيْن للماء كليهما شيء واحد، كاسرا بهذا أفق التوقع عند عمار. لقد كان وجود رسول الله بين الصحابة صمام الأمان، إذ كان كل شيء فى الدين الذى جاء به تقريبا جديدا عليهم لم يتوقعوه، فكان بمثابة كسر لكثير من آفاق توقعاتهم.

ومما يدخل فى هذا الباب، باب انكسار أفق التوقع، ما جاء فى تفسير سيد أمير على الكاتب الهندى لرواية "الغرانيق"، التى تقول إن النبى ﷺ حين نزلت سورة "النجم" وبلغ قولَه تعالى: "أفرأيتم اللاتَ والعُزَّى * ومَنَاةَ الثالثةَ الأخرى؟" سمع الحاضرون عقب ذلك: "إنهن الغرانيقُ العُلَا * وإن شفاعتَهن لتُرْتَجَى". وقد اختلف الرواة فى تفسير الأمر: فمن قائل إن الشيطان قد أجرى هاتين الجملتين على لسان الرسول دون أن يدرى، ولما أتاه جبريل فى المساء ونبهه إلى ما حدث شعر بالحزن لما وقع. وبعضهم يشرح الأمر بأن الشيطان قد انبرى فقال هذا على مسمع من الموجودين دون أن يروه، فظُنَّ أن الرسول هو الذى قال ذلك. أما تفسير سيد أمير على فى كتابه: " The Spirit of Islam" فهو أن أحد المشركين حين وصل الرسول فى قراءته للسورة إلى "أفرأيتم اللات والعزى * ومناة الثالثة الأخرى؟" توقع أن يهاجم الرسول هذه الأوثان الثلاثة، فسارع إلى تمجيدها بالجملتين المذكورتين، وهما جملتان كان المشركون فى الجاهلية يرددونهما فى مديح تلك الأوثان.

أما كيف عرف ذاك المشرك أن النص القرآنى سوف يهاجم اللات والعزى ومناة فلأن موقف القرآن والرسول من الأوثان معروف، وهو موقف الرفض التام والإنكار والذم. كما أن السورة من أولها حتى تينك الآيتين تحمل بقوة على الوثنية والوثنيين، فضلا عن أن الأسلوب الذى أتى ذكر الأوثان الثلاثة فيه إنما هو أسلوب عيب وتثريب. كيف؟ لقد تتبعت هذا الأسلوب، وهو أسلوب "أفرأيتم...؟"، فى كتاب الله فألفيته قد ورد إحدى وعشرين مرة كلها فى التحقير من شأن الأوثان وعُبَّادها وتقريعهم. وكان العرب شديدى الحساسية للغتهم: يعرفون أساليبها، ويميزون جيدا النكهة الأسلوبية القرآنية رغم كفرهم بالقرآن، ففهموا من السياق الأسلوبى أن التقريع والرفض والتحقير آتٍ آتٍ، فسارع ذلك المشرك إلى الصياح بهاتين الجملتين كى يسد الطريق على مُحَمَّد وقرآنه أو على الأقل: يلغو فيه، فيَشِيع الاضطراب وتتبلبل الأذهان ويضيع أثر التثريب القرآنى فى زحمة الاختلاف والقيل والقال. وهذا تفسيرى لتفسير سيد أمير على. والذى يهمنا من هذا كله هو أن المشرك صاحب الجملتين اللتين تُثْنِيان على الأوثان الثلاثة قد عمل على كسر أفق التوقع بنفسه تشتيتا للانتباه كما وضحتُ لتوى.

أما فى المثال التالى فكان المستمسك بأفق التوقع شخصا مسلما، وكان السبب فى ذلك أنه أخذ النص كما هو حرفيا متجاهلا أو جاهلا وجود نص آخر يتعارض مع هذا الفهم الحرفى. وقام بكسر أفق التوقع فيه شخص آخر غيره هو عمر بن الخطاب أمير المؤمنين أوانذاك، وأمر بمعاقبته. ففى "أسباب النزول" للواحدى نقرأ فى الظروف التى واكبت نزول قوله تعالى: "لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَآمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَواْ وَآمَنُواْ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ" (المائدة/ ٩٣): "عن أنس قال: كنت ساقِى القوم يوم حُرِّمَتْ الخمر

فى بيت أبى طلحة، وما شرابهم إلا الفَضِيخ والبُسْرُ والتمر، وإذا منادٍ ينادى: ألا إن الخمر قد حرمت. قال: فَجَرَتْ فى سكك المدينة. فقال أبو طلحة: اخرج فأَرِقْها. قال: فأَرَقْتُها. فقال بعضهم: قُتِلَ فلان وقُتِل فلان وهى فى بطونهم. قال: فأنزل الله تعالى: لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُواْ... الآية".

لكن القصة لم تنته عند هذا الحد، فقد ضُبِط مسلم فى عهد عمر يشرب الخمر، فلما جىء به إلى عمر قال إنه فهم أنها حلال من قوله تعالى: "ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتَّقَوْا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقَوْا وآمنوا ثم اتقَوْا وأحسنوا"، إذ هو من المؤمنين المحسنين الذين يتقون الله ويعملون الصالحات، ومن ثم لا حرج عليه فى أن يأكل ما يشاء ويشرب ما يشاء كما تقول الآية حسب فهمه. فأمر عمر بمعاقبته كاسرا أفق توقعه بحِلِّيَّة الخمر أو أُفُق تظاهُره بتوقُّع ذلك، إذ من الصعب جدا تصور أن أحدا من المسلمين بعد كل هذاك الزمن منذ نزل تحريم الخمر تحريما قاطعا فى عصر النبى إلى خلافة عمر لم يكن يعلم أن شرب الخمر حرام فى القرآن.

ولدينا مثال آخر يمكننا أن نقول إن فيه أُفُقَىْ توقُّعٍ لا أفق توقع واحد: أحدهما قد تحقق، والآخر قد انكسر: التوقع الأول من الرسول، والتوقع الثانى من هلال بن أمية. وإليكم البيان: فعن عبد الله بن العباس "أنَّ هلالَ بنَ أميةَ قذف امرأتَه عند النبى صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بشريكِ بنِ سحماءَ، فقال النبى صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: البيّنةُ أو حدٌّ فى ظهرِك. فقال: يا رسولَ اللهِ، إذا رأى أحدُنا على امرأتِه رجلًا ينطلقُ يلتمسُ البيّنةَ؟ فجعل النبى صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقول: البينةُ، وإلا حدٌّ فى ظهرِك. فقال هلالٌ: والذى بعثك بالحقِّ إنى لصادقٌ، فلينزلنَّ اللهُ ما يبرِّىءُ ظهرى من الحدِّ. فنزل جبريل وأنزل عليه: "وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ * وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ * وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ". فانصرف النبى صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فأرسل إليها، فجاء هلالٌ فشهد، والنبى صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقول: إنَّ اللهَ يعلم أنَّ أحدَكما كاذبٌ، فهل منكما تائبٌ؟ ثم قامت فشهدتْ، فلما كانت عند الخامسةِ وقفوها وقالوا: إنها مُوجِبَةٌ. قال ابنُ عباسٍ: فتلكأَتْ ونكصتْ حتى ظننَّا أنها ترجعُ، ثم قالت: لا أفضحُ قومى سائرَ اليومِ. فمضت، فقال النبى صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: أبصِروها، فإن جاءت به أكحلَ العينَيْن، سابغَ الأَلْيَتَيْنِ، خدَلَّجَ الساقينِ، فهو لشريكِ بنِ سحماءَ. فجاءت به كذلك، فقال النبى صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: لولا ما مضى من كتابِ اللهِ لكان لى ولها شأن".

لقد كان هناك اتهام من هلال بن أمية لزوجته، وهذا قذف، والقذف فى سورة "النور" عقوبته ثمانون جلدة. ولهذا ظل الرسول يقول له: البينةُ أو حَدٌّ فى ظهرك. فهذا أفق التوقع النبوى، وسببه القياس، إذ لم يكن يعلم أن هناك فرقا بين قذف الرجل لزوجته وقذفه لأية امرأة أخرى. أما هلال فقد رأى بعينيه وسمع بأذنيه خيانة زوجته له، ولم يكن يتوقع أن يأمر النبى بجلده ولا توقع أن يتخلى الله عنه وبدلا من أن ينصفه بإظهار الحقيقة وإنزال حد الزنا بزوجته الخائنة يتركه ليُضْرَب على ظهره

ثمانين جلدة. فأنزل الله سبحانه آيات اللعان، وفى سورة "النور" ذاتها. وبهذا يكون القرآن قد كسر أفق التوقع النبوى، وحافظ على أفق توقع هلال بألا يتركه الله يُحَدّ حد القذف، وهو المظلوم المخُون.

ومثل ذلك ما يقوله الحديث التالى عن عمر، وهو بلسان عمر نفسه: "قال عُمَرُ بنُ الخطَّابِ: وافَقْتُ ربِّى فى ثلاثٍ أو وافَقنى ربِّى فى ثلاثٍ. قُلْتُ: يا رسولَ اللهِ، لوِ اتَّخَذْتَ مِن مَقامِ إبراهيمَ مُصَلًّى. فأنزَل اللهُ: "وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى" (البقرة/ ١٢٥). وقُلْتُ: يدخُلُ عليكَ البَرُّ والفاجرُ، فلو حَجَبْتَ أمَّهاتِ المؤمِنينَ. فأُنزِلَتْ آيةُ الحجابِ. وبلَغنى شيءٌ مِن معامَلةِ أمَّهاتِ المؤمِنينَ، فقُلْتُ: "لَتَكُفُّنَّ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أو لَيُبَدِلَنَّه اللهُ أزواجًا خيرًا منكنَّ" حتَّى انتهَيْتُ إلى إحدى أمَّهاتِ المؤمِنينَ، فقالت: يا عُمَرُ، أمَا فى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما يعِظُ نساءَه حتَّى تَعِظَهنَّ أنتَ؟ فكفَفْتُ، فأنزَل اللهُ: "عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ" (التحريم/ ٥)".

فعمر قد دخل الإسلام فى وقت مبكر، وكان متحمسا أشد التحمس للدين الجديد وقيمه ومبادئه، وكان ينفذ دائما إلى الجوهر ولا يقف عند السطوح. لقد تشرب روح الإسلام، وكان ينظر دائما إلى الأمام وإلى الأعالى، ويتطلع إلى استكمال الأمور والوصول بها إلى آخر مداها. ومن هنا رغب رغباته الثلاث التى مر ذكرها بناء على ما قرأه من القرآن ورآه من تصرفات الرسول وسمعه من أحاديثه. لقد كان هذا أفق تطلعه وتوقعه، وسرعان ما نزل القرآن بما كان يتوقع ويتطلع إليه محتفظا أيضا ببعض ألفاظه التى استعملها فى اقتراحاته، إذا كانت الرواية دقيقة فحكت ما قيل بالضبط دون أن تخرم منه لفظا.

وقد وقف أعداء الإسلام عند هذا الحديث متهمين الرسول بأنه كان يؤلف القرآن بنفسه ويستعين بكل ما يتاح له ويقع تحت يده، ومنه اقتراحات عمر تلك. ولكن كيف يعتمد الرسول على عمر فى تأليف بعض آيات القرآن، وعمرُ مجردُ تابعٍ من تابعى محمد على دينه الجديد: ترك دين قومه وتحداهم وهجرهم وهاجر من بلده وتغرَّب تاركا الجمل بما حمل ومضحيا بكل شىء نزولا على إيمانه بمحمد؟ كما كان يستحى أن يبادر الرسولَ بكلام إلا أن يطلب هو منه ذلك. وكان على استعداد دائم لتنفيذ أى شىء يرى أنه يخدم الإسلام. ولولا أن الرسول كان يكفكف من تحمسه لمضى فى أمور كثيرة كالعَضْب القاطع لا يَلْوِى على شىء. إن هؤلاء الخصوم غير الشرفاء يريدون أن يقلبوا الأوضاع رأسا على عقب لا لشىء سوى اتهام الرسول بأنه أتى بالقرآن من عنده.

وقد سبق لى أن تناولت حديثا مثل هذا الحديث فى كتابى: "مصدر القرآن" حين كنت أناقش الزعم بأن رسول الله هو مؤلف القرآن، وكان فى ذلك الحديث الآخر أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يقرأ صدر سورة "المؤمنون"، الذى كان نزل لتوه، وكان عمر حاضرا يسمع ما يتلو الرسول من آيات كريمات تصف خَلْق الإنسان: "وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤)"، فسبق لسانُه رسولَ الله إلى

النطق بعبارة "فتبارك الله أحسن الخالقين" والرسول يتهيأ للتلفظ بها، فأكمل الرسول الآية الأخيرة على هذا النحو. وتفسير الأمر هو أن عمر كان منقوعا فى القرآن الكريم نقعا حتى لقد تشرب روحَ الكتاب الكريم، فوجد لسانه ينطق بالتعبير إعجابا بقدرة الله العظيمة وخَلْقه البديع، فصادفت عبارتُه العبارةَ القرآنية. وهناك، كما نعرف، مواضع يحكى فيها القرآن العبارات الحوارية لهذا الشخص أو ذاك، أما فى حالتنا هذه فقد انعكس الوضع، إذ حكى عمر عبارة القرآن فى اللحظة التى كان النبى يوشك أن ينطق بها.

وقد كان نقاد العرب القدامى كابن طباطبا فى "عيار الشعر" مثلا يرون أن الشاعر المطبوع هو "من سمح بالشعر واقتدر على القوافى، وأراك فى صدر بيته عَجُزَه، وفى فاتحته قافيتَه". وهو شىء قريب جدا مما نحن بصدده هنا، إذ إن الآيات التى كان يقرؤها رسول الله قد حركت ذهن عمر إلى توقع نهايتها. فجاء قوله عز شأنه فى ختامها: "فتبارك الله أحسن الخالقين" موافقا لأفق التوقع عند عمر، الذى قال فيه رسول الله عليه السلام: "لم أر عبقريا يَفْرِى فَرِيَّه". وبالمناسبة فهناك من يقول إن مكمل الجملة هو معاذ بن جبل ساعة كان يكتبها من فم رسول الله زيد بن ثابت، إلا أن سورة "المؤمنون" مكية لم ينتظر نزولها إلى ما بعد الهجرة بزمن، على حين كان زيد ومعاذ أنصاريين من يثرب لم يشهدا نزول السورة.

وفى "الأغانى" لأبى الفرج قصة أدبية طريفة يحسن إيرادها هنا لمناسبتها للسياق: "قال ابن سلام: وسمعت سلمة بن عياش قال: حُبِسْتُ فى السجن، فإذا فيه الفرزدق قد حبسه مالك بن المنذر بن الجارود، فكان يريد أن يقول البيت، فيقول صدره، وأسبقه إلى القافية، ويجىء إلى القافية، فأسبقه إلى الصدر، فقال لى: ممن أنت؟ قلت: من قريش. قال: كُلُّ أَيْرِ حمارٍ من قريش. من أَيِّهم أنت؟ قلت: من بنى عامر بن لؤى. قال: لئام والله أذلة. جاورتُهم، فكانوا شر جيران. قلت: ألا أخبرك بأذلَّ منهم وألأم؟ قال: من؟ قلت: بنو مجاشع. قال: ولِمَ وَيْلُك؟ قلت: أنت سيدهم وشاعرهم وابن سيدهم. جاءك شرطى مالك حتى أدخلك السجن، لم يمنعوك. قال: قاتلك الله". ووجه المناسبة أن سلمة بن عياش كان يسبق الفرزدق إلى إتمام البيت قبل أن يتمه هو، وتكرر ذلك منه.

ولتوضيح الصورة أود أن أشير إلى أن البلاغيين يستحسنون، ضمن ما يستحسنون من صنعة الشعر، ما يسمى بـ"التسهيم". وهو، حسبما نقرأ فى "البديع فى نقد الشعر" لأسامة بن منقذ، "أن تُعْلَم القافية لما يدل عليه الكلام فى أول البيت، مثل قول أبى حية النمرى:

إذا ما تقاضى المرءَ يومٌ وليلةٌ　　تقاضاهُ شىءٌ لا يملُّ التقاضيا

ومثله:

أحَلَّتْ دمى من غير جرمٍ وحَرَّمَتْ　　بلا سببٍ يوم اللقاء كلامى

فليس الذى حَلَّلْتِهِ بمحلَّلٍ　　وليس الذى حَرَّمْتِهِ بحرامِ

ومثله:

هـــى الـــدرُّ منثـــورًا إذا مـــا تكلمـــتْ وكالـــــدرِّ منظومًـــــا إذا لمْ تَكَلَّـــــمِ

ومثله:

فمـــنْ يـــك لم يَغْـــرَضْ فـــإني وناقـــتي بنجـــدٍ إلى أهـــل الحِمَـــى غَرِضـــانِ

تنـــوحُ فتُبْـــدِى مـــا بهـــا مـــن صـــبابةٍ وأُخْفِـــى الـــذى لـــولا الأســـى لقـــضانى

ومثله:

ســـاروا ومـــا عـــاجوا عليـــكَ بنظـــرةٍ واللهُ يحفـــظُ مَـــنْ جفـــاكَ ويـــصحبُ

لـــيس التعجـــبُ مـــن بكـــاك عليهمُـــو لكـــنْ بَقَـــاكَ مـــع التفـــرقِ أعجـــبُ

ومنه:

صـــــبٌّ يحـــــنُّ إليـــــه صَـــــبُّ قلباهمـــــا فى الحـــــبّ قلـــــبُ

الـــــذنبُ لـــــلأيام لـــــيس لمـــــنْ تجـــــورُ عليـــــهِ ذنـــــبُ

ومنه:

شـــغلتْكَ وهـــى لكـــلّ ذى بـــصرٍ لاقـــى محاســـنَ وجههـــا شـــغلُ

وإذا نظـــــــرتَ إلى محاســـــــنها فلكـــــلّ موقـــــعِ نظـــــرةٍ نَبْـــــلُ

وتنـــــالُ منـــــكَ بحـــــدّ مقلتهـــــا مـــــا لا ينـــــالُ بحـــــده النـــــصلُ

فلِقلبهـــــا حِلْـــــمٌ يباعـــــدها عـــن ذى الهـــوى، ولِطَرْفهـــا جهـــلُ"

وهناك ضرب آخر من البديع يقترب من التسهيم يسمونه: "التوشيح". قال ابن معصوم فى "أنوار الربيع فى أنواع البديع": "التوشيح هو أن يكون فى أول الكلام ما يستلزم القافية ويدل على لفظها. ولذلك سمى: "توشيحًا"، لأن الكلام لما دل أوله على آخره نزل المعنى منزلة الوشاح، ونزل أول الكلام وآخره منزلة العاتق والكشح اللذين يجول عليهما الوشاح. والفرق بينه وبين رد العَجُز على الصدر، أن هذا دلالته معنوية، وذاك لفظية.

ومن أعظم الشواهد على هذا النوع قوله تعالى: "إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين"، فإن "اصطفى" يدل على أن الفاصلة "العالمين" لا باللفظ لأن لفظ "العالمين" غير لفظ "اصطفى"، ولكن بالمعنى لأنه يعلم من لوازم اصطفاء شيء أن يكون مختارا على جنسه، وجنس هؤلاء "المصطَفَيْن" العالمون. وقوله تعالى: "وآيةٌ لهم الليلُ نسلَخ منه النهارَ، فإذا هم مظلمون". قال ابن أبى الإصبع: فإن من كان حافظا لهذه السورة متفطنا إلى أن مقاطع آيها "النون"، وسمع فى صدر الآية انسلاخ النهار من الليل علم أن الفاصلة "مظلمون" لأن من انسلخ النهار عن ليله أظلم، أى دخل فى الظلمة...".

ومن أمثلته الشعرية قول الراعي:

وإنْ وُزِنَ الحــــصى فوَزَنْـــتُ قـــومي وجـــدتُ حَـــصَى ضـــريبتهم رزينـــا

قال قدامة فى كتابه نقد الشعر: إن الإنسان إذا سمع هذا البيت، وقد عرف قافية القصيدة، علم أن وزن الحصى سيأتى بعده "رزين" لأمرين: أحدهما أن قافية القصيدة نونية، والثانى أن نظام البيت يقتضيه، لأن الذى يفاخر برجاحة الحصى، وهو العقل، يلزمه أن يقول فى حصاه إنه رزين. انتهى.

ونحوه قول الفرزدق من قصيدته التى أجاب بها جريرا:

وأغلـــقَ مـــن وراء بـــنى كليـــبٍ عطيـــةُ مـــن مخـــازى اللـــؤم بابا

فإن السامع إذا تحقق أن القافية مجردة منطلقة رَوِيُّها الباء، وحرف إطلاقها الألف، ورأى فى صدر البيت ذِكْر الإغلاق، لم يَعْتَرِه شك فى أن القافية "بابا"...

ومما وقع لى أنا فى هذا النوع أنى أنشدت مرة شيخنا العلامة جعفر بن كمال الدين البحرانى، سقى الله غيث الرحمة ثراه، أبياتا من شعرى أولها:

ســـقى الله أيامَنـــا بالحجـــاز ولا جازهـــا الغَيْـــدَقُ الهاطـــلُ

فمـــا كـــان أطيـــبَ عيـــشى بهـــا إذ المنـــزلُ القفـــرُ بى آهـــلُ!

إلى أن وصلتُ إلى قولى فيها:

أتعـــذلنى جـــاهلا حالـــه؟ لـــك الويـــل يا أيهـــا العـــاذلُ!

فلما بلغتُ "حاله" لإنشاد قولى: "لك الويل" سبقنى هو فقال: يا أيها العاذل".

ومن "عيار الشعر" لابن طباطبا نلتقط هذا النص: "وأحسن الشعر ما ينتظم القول فيه انتظامًا يتسق به أوله مع آخره على ما ينسقه قائله، فإن قُدِّم بيت على بيت دخله الخلل كما يدخل الرسائلَ والخطب إذا نُقِض تأليفها. فإن الشعر إذا أُسِّس تأسيسَ فصول الرسائل القائمة بأنفسها، وكلمات الحكمة المستقلة بذاتها، والأمثال السائرة الموسومة باختصارها، لم يحسن نظمه، بل يجب أن تكون القصيدة كلها ككلمة واحدة فى اشتباه أولها بآخرها، نسجًا وحسنًا وفصاحةً وجزالةَ ألفاظٍ ودقةَ معانٍ وصوابَ تأليفٍ، ويكون خروج الشاعر من كل معنى يصنعه إلى غيره من المعانى خروجًا لطيفًا على ما شرطناه فى أول الكتاب، حتى تخرج القصيدة كأنها مفرغة إفراغًا، كالأشعار التى استشهدنا بها فى الجودة والحسن واستواء النظم: لا تناقض فى معانيها، ولا وَهْى فى مبانيها، ولا تكلُّف فى نسجها، تقتضى كلُّ كلمة ما بعدها، ويكون ما بعدها متعلقًا بها مفتقرًا إليها. فإذا كان الشعر على هذا المثال سبق السامعُ إلى قوافيه قبل أن ينتهى إليها راويه، وربما سبق إلى إتمام مصراع منه إصرارًا يوجبه تأسيس الشعر كقول البحتري:

ســـلَبوا أَبْـــيَضَ بَزّهـــا فَأَقـــاموا بِظُبَاهـــا التَأويـــلَ وَالتَنـــزيلا

تَحْـــسِبُ الـــشِّيبَ فى الوَقِيعَـــةِ شُـــبّا نًا إذا صـــافَحَ الـــصَّقِيلُ الـــصقيلا

فَـــإذا حـــارَبوا أَذَلّـــوا عَزيـــزًا   وَإِذا ســـالَموا أَعَـــزُّوا ذَلـــيلا

فيقتضى هذا المصراع أن يكون تمامه: "وإذا سالموا أعزوا ذليلا". وكقوله:

أحَلَّـتْ دمـى مـن غـير جـرم وحَرَّمَـتْ   بـلا سـببٍ يـوم اللقـاء كلامـي

فِـدَاؤُكِ مـا أبقيـتِ مـنى، فإنـه   حـشاشة صَـبٍّ فى نحـول عظـامي

صِـلِى مغرمًـا قـد واتـر الـشوقُ دمعَـهُ   سِـجَامًا علـى الخـدين بعـد سـجامِ

"فليس الذى حللته بمحلل" يقتضى أن يكون تمامه: وليس الذى حرمته بحرام".

وهذا فى الشعر قريب مما يطلقون عليه فى نظرية التلقى: "موافقة أفق التوقع" أو شيئا من هذا الرِّطَان، الذى يفرح به كثير من نقادنا هذه الأيام كأنهم فتحوا عكا، وهم لا فتحوا ولا قفلوا، بل مجرد ناقلين يرددون غالبا ما ينقلون دون أى حس نقدى، إذ يَرَوْن فى مجرد النقل شرفا ما بعده شرف.

وقد يتسبب كسر أفق التوقع أحيانا فى حدوث مشاكل لأن الكسر المدَّعَى ليس كسرا حقيقيا بل كسرا موهوما جراء جهل المدَّعِى. فقد خَطَّأَ بعضُ النصارى أسلوبَ القرآن الكريم فى الآية ١٢٤ من سورة البقرة: "قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ"، إذ قالوا: كان يجب أن يُرْفَع الفاعل فيقال: "الظالمون". وهذه التخطئة تقوم على أن المتوقَّع هو أن يقال: "لا ينال عهدى الظالمون"، إذ النائل هو الإنسان، والمنِيل هو الشىء لا العكس. وقائل هذا يظن أن النَّيْل هو أن يحصل الشخص على الشىء، فلا يعقل فى نظره من ثم أن ينال الشىءُ الشخصَ، فالشىء لا يمكن أن يحصل على الإنسان. وفات هذا المتوقع الجاهل أن "النَّيْل" معناه الإدراك وما فى معناه. فإذا أدرك الشخصُ الشىءَ قيل: حصل عليه. وإذا حصل العكس وأدرك الشىءُ الشخصَ قيل: أصابه. ولهذا يسمى ما يحصل عليه الشخص من عطاء: "نائل" على اسم الفاعل لأن العطاء يناله. يقول زهير بن أبى سُلْمَى:

وَلَـــولا أَن يَنـــالَ أَبا طَريـــفٍ   إِســـارٌ مِـــنْ مَليـــكٍ أَو لِحـــاءُ

لَقَـــد زارَتْ بُيـــوتَ بـــنى عُلَـــيْمٍ   مِـــنَ الكَلِمـــاتِ آنِيَـــةٌ مِـــلاءُ

ويقول مهلهل بن ربيعة:

فَـإِن يَطْلُـعِ الـصُبْحُ المنـيرُ فَـإِنَّني   سَـأَغْدو الهُـوَيْنَى غَيْـرَ وانٍ مُفَـرَّدِ

وَأَصْـبَحُ بَكـرًا غـارَةً صَـيْلَمِيَّةً   يَنـالُ لَظَاهـا كُـلَّ شَـيْخٍ وَأَمْـرَدِ

ويقول رُؤْبَة بن العجّاج:

حَـــتَّى يَنَـــالَ آدَمَ انْتِـــسابُها   يَهْـــوِى حِيَـــال أَوْبِـــهِ مَآبُهـــا

ويقول كُثَيِّر عَزَّة:

يَنـالُ رِجـالًا نَفْعُـهُ، وَهْـوَ مِنهُمُـو   بعيـدٌ كَعَيّـوقِ الثُـرَيّا المعلَّـقِ

ويقول الفرزدق:

قَــومٌ أَبَــوْا أَن يَنَــالَ الفُحْــشُ جــارَتَهُم   وَالجـــاعِلونَ مِـــنَ الآفـــاتِ أَركـــانا

ويقول أبو العتاهية عما يناله الدهر من البشر:

اِصْـــــبِر لِـــــدَهْرٍ نالَ مِنْـــــ   ـــكَ، فَهَكَـــذا مَـــضَتِ الـــدُهورُ

ويقول البحترى:

وَحَــتّى يَنَــال الــسيفُ موسـى فَيَخْتَلِـي   جُـــزَازَةَ عِلْـــجٍ بِالتُّخـــومِ سَمـــينِ

ويقول أبو العلاء المعرى:

إِن نالَ مِـــن مِـــصْرٍ قَـــضاءٌ نازِلٌ   فَمَـــصيرُ هَـــذا الخَلْـــقِ شَـــرُّ مَـــصيرِ

ويقول الشريف الرضى:

فَاصْـفَحْ، فَـسَوفَ يَنـالُ صَـفحُكَ منهُـمو   مـــا لا يَنـــالُ العَـــضْبُ وَهْـــوَ حَديـــدُ

ويقول ابن الرومى الشاعر العباسى المشهور:

مـــا نال منـــه منالَـــه مـــن نفـــسه   وِتـــــــرُ الأُلَى وَتَـــــــرُوه بالأوتارِ

ويقول ابن الخياط، وهو من أهل القرنين الخامس والسادس الهجريين عن صَرْف خطوب الدهر، أى حوادثه ومصائبه، وكذلك عن الظُّبَا، وهى السيوف:

قَـــدْ نَالَ مِـــنِّي صَـــرْفُهَا مَـــا لَمْ تَنَـــلْ   يَـــوْم التُّلَيْـــلِ مِـــنَ الْعُـــدَاةِ ظُبَاكـــا

فجعل صرف الخطوب يناله، وكذلك السيوف. فما المشكلة؟ وقال ابن الساعاتى من أهل القرن السادس:

نال مـــنى الجـــوى، فأحـــسنتُ صـــبرًا   وبـــرانى الأســـى، فمـــا قلـــتَ: مَهْـــلا

وقد تكرر هذا الاستعمال فى القرآن فى قوله تعالى من سورة "الحج": "لن ينالَ اللهَ لحومُها ولا دماؤها، ولكن يناله التقوى منكم". ومثل هؤلاء المنتقدين لا يصلحون مقياسا لموافقة أفق التوقع أو كسره، فهم جهلاء. ولو فتحنا الباب لكل جاهل لرأينا العجب العجاب. والمفروض أن يتعلم الجاهل لا أن يشمخ بأنفه ويظن نفسه معيارا للصواب. ولو كان فى الأسلوب خطأ لما سكت المشركون ولا اليهود والنصارى آنذاك عن الرسول وقرآنه ولشنعوا عليه واتهموه بالوقوع فى الأخطاء اللغوية المزرية، وهم عرب يعرفون لغتهم حق المعرفة لا كجهلاء وقتنا الحالى. ونحن كثيرا ما نقول: نال فلانًا من فلان خيرٌ كثيرٌ، وناله منى أذى شديدٌ، ونالنى من وراء هذا التصرف وجعُ الدماغ، ونالها منه معروف لا يُنْسَى.

كما خَطَّأ أولئك الجهلةُ اللغةَ القرآنيةَ فى قوله ﷺ من سورة "الكهف": "ولبثوا فى كهفهم ثلاثَمائةٍ سنين وازدادوا تسعا". لقد كان أفق التوقع عندهم، بناء على سطحية معلوماتهم النحوية

واتخاذهم ما تعلموه بالمدارس العصرية من قواعد لغوية معيارا لتصويب القرآن أو تغليطه، أن يكون الكلام على النحو التالى: "ثلاثَمائةِ سنةٍ"، جاهلين أو متجاهلين أن القرآن أكبر من تلك القواعد المدرسية، بل أكبر من كل قواعد لأنه هو والشعر الجاهلى أساس كل القواعد النحوية والصرفية، التى تجيز بكل أريحية ذلك الاستخدام الكريم. ولو كان فى هذا الاستعمال خطأ لعده أعداء الرسول فور نزول الآية فضيحة ومخزاة لا يمكنه التملص منها. لكنهم لم يجدوا فى ذلك أدنى عيب، ولهذا سكتوا تماما. إن مخطِّئى هذا التركيب الآن يظنون أنه كان ينبغى أن يكون "ثلاثَمِائةِ سنةٍ" بإضافة العدد إلى "سنة" المفردة لا "ثلاثَمائةٍ سنين" بفك الإضافة بين العدد والسنين.

ومن هؤلاء الذين خطأوا ذلك التركيب المستشرق الفرنسى ريجى بلاشير وتابعه مُحَمَّد أركون. إن بلاشير، وأركون من ورائه يقلده كالقرد والببغاء، يتصوران أن اللغة العربية لا تعرف إلا وضعا واحدا لكل حالة من حالات التمييز، ومن هنا فإنهم لا يتخيلون من الممكن مجىء تركيب الكلام فى تمييز "ثلاثمائة" وأمثالها إلا هكذا: "ثلاثمائة سنةٍ، ستمائة امرأةٍ، تسعمائة كتابٍ" بإفراد التمييز وخفضه على الإضافة كما ترى. لكن هذا، وإن كان هو ما يعرفه التلاميذ، ليس كل شىء، إذ كان العرب أيضا يجمعون المعدود فى هذه الحالة مع الإضافة أو قطعها، وإن لم يشتهر الجمعُ اشتهار الإفراد. وما دام هذا الاستعمال قد ورد فى القرآن فمعنى ذلك أنه صحيح. إن القول بغير هذا هو العَتَه بعينه لأنه لا يحدث فى أية لغة فى العالم، إلا أن الحقد المجنون يريد أن يلغى لنا عقولنا فنردد حماقاته دون تبصر، والعياذ بالله!

وفى المثال الذى نحن بصدده من سورة "الكهف" يمكننا أن نركِّب الكلام على أكثر من وضع فنقول: "ثلاثَمائةِ سنةٍ، ثلاثَمائةٍ من السنين، سنين ثلاثَمائةٍ، ثلاثَمائةٍ سنين، ثلاثَ مئاتٍ من السنين"، ولكلٍّ نكهتها وظلالها الإيحائية، وأحب أن أقف عند التركيب الذى ظن بلاشير ومقلّده أركون أنه هو وحده لا سواه التركيب الصحيح، ثم أُقَفِّىَ بالكلام عن التركيب الذى اعترضا عليه. فأما التركيب المعتاد فهو يشير إلى "عدد الثلاثمائة" وأنه "سنون"، والخطاب فيه موجَّه إلى من لا يرى فى العدد ولا فى تمييزه ما يدعو إلى الاستغراب أو الاستنكار. ولذلك فنحن نستخدم هذا التركيب عادة عندما لا نريد أن نعبر عن أى شىء آخر غير هذا المعنى العام. أما إن كان المخاطَب متشككا فيما نقوله له أو يستهوله، كأن يستبعد أن يكون العدد ثلاثمائة أو أن يكون التمييز سنوات لا أياما مثلا، فعندئذ يكون هناك موضع للتركيب القرآنى، فكأن المتكلم يريد أن يقول: نعم، العدد ثلاثمائة، وهذه الثلاثمائة هى سنوات لا أيام ولا أسابيع ولا حتى شهور. إنها سنوات "كلّ سنةٍ تنطح الأخرى" بالتعبير المصرى الدارج. فـ"سنين" فى هذا التركيب الأخير هى بدل من "الثلاثمائة"، أى أن السنين ليست مجرد تمييز لها، بل هى الثلاثمائة نفسها عدًّا وإحصاءً.

إن المفسرين ومُعْرِبِى القرآن لا يتوقفون طويلا أمام هذا التركيب لأنهم ببساطة لا يجدون فيه شيئا، بخلاف الذين لا علم لديهم ويعترضون على ما يجهلون، فهم يصنعون قبة من لاشىء! أما أنا فلم أشأ أن أردد فقط ما قاله النحويون فى إعراب الآية، بل أردت أن أضيف لما يقولون ما لعله

يكشف شيئا مما وراء ظاهر التعبير من أسرار النفس وأغراض البلاغة. ومثل هذا القلب الذى يقابلنا فى هذه الجملة (إذ هى فى الواقع محولة عن "سنين ثلاثمائة" لا عن "ثلاثمائة سنة") له نظائر فى اللغة كثيرة، فنحن نقول مثلا: "ضُرُوبًا من المنى، وأفانينَ من اللذات" على حين يقول ابن زيدون فى نونيته العبقرية: "مُنًى ضُروبًا ولذّاتٍ أفانينا" فيضفى على العبارة العادية حيوية مدهشة لم تكن لها. كما أننا نقول: "عدةَ سنوات" و"سنواتٍ عدة"، وفى هذه ما ليس فى تلك: فالأولى تعنى "عددا من السنوات"، أما الأخرى فتعنى "عددا كبيرا من هذه السنين"...وهكذا.

ثم إننى قد أخذت أنقّب بحثًا عن شواهد من خارج القرآن توضح ما أقول، لا لأنى أرى القرآن يحتاج لما يعضده، بل لمزيد من التوضيح ونزولا إلى مستوى من نناقشهم. وعلى ذلك فإننى أسوق الشواهد الشعرية التالية التى جاء فيها المعدود مجموعا لا مفردا، أو مقطوعا لا متصلا، أو الاثنين كليهما، فمن ذلك قول علقمة الفحل:

فكان فيها ما أتاك، وفى ... تسعين أسرى مقرنين وصفد

وقول عمرو بن كلثوم:

رددت على عمرو بن قيس قلادةً ... ثمانين سُودًا من ذُرَى جبل الهضبِ

وقول ربيعة بن ضبع الفزارى:

إذا عاش الفتى مائتين عامًا ... فقد ذهب اللذاذة والفتاءُ

وقول عمر بن أبى ربيعة:

أَبْرَزُوها مثلَ المهاة تَهَادَى ... بين خمسٍ كواعبٍ أترابِ

وقول السيد الحِمْيَرى:

ثلاثة آلافٍ ملائك سلّموا ... عليه فأدناهم وحَيّا ورحَّبا

وقول الوليد بن يزيد:

بَينَ خَمْسٍ كَواعِبٍ ... أَكْرَمُ الجِنْسِ جِنْسُها

وقول أبان اللاحقى:

يُجْرِى على أولاده خمسةً ... أرغفةً كالريش طيارة

وقول ابن المعتز:

وأجّلونى خمسةً أيامًا ... وطوّقونى مثلكم إنعاما

وقول ابن أبى الحديد:

عام ثلاث ثم أربعينا ... من بعد ستمائةٍ سنينا

وقول إبراهيم الحضرمى:

وخمـــــــس مئـــــــــينٍ بعـــــــــد خمـــــــــسين درهمـــــــــا

وقول أحمد بن مأمون البلغشى:

مـــــن عـــــام خمـــــسة وأربعينـــــا بعــــد ثـــــلاث عــــشرةٍ مئينـــــا

وقول أحمد بن على بن مشرف:

إلى ثلاثمائــــــــــــةٍ ســــــــــنينا يخـــــــــــادعون الله والــــــــــذينا

ومضِيًّا فى سياسة النزول إلى عقلية الخصم التى أَتَّبِعها دائما أُضِيفُ، إلى ما سبق، الشواهد التالية من "الكتاب المقدس". وقد رأيت أن أستشهد بالكتاب المقدس، فهو كتاب نصرانى كتبه نصارى، ومن ثم لا يمكن أن يقال إنهم يقلدون أسلوب القرآن أو يريدون الدفاع عنه. جاء فى الترجمة الكاثوليكية التى راجعها ونقّح أسلوبها الأديب والعالم اللغوى الشهير الشيخ إبراهيم اليازجى، الذى كان يتشدد فى مسألة السلامة اللغوية تشددا مرهقا: "هذه عشائر القهاتيين بإحصاء كل ذكرٍ من ابن شهر فصاعدا: ثمانية آلافٍ وستمائةٍ قائمون بحراسة القدس" (العدد/ ٤/ ٢٨)، "وإخوتهم ورؤوس بيوت آبائهم ألفٌ وسبعمائةٍ وستون جبابرةُ بأسٍ لعمل خدمة بيت الله" (أخبار الأيام الأول/ ٩/ ١٣)، "ومن الحبرونيين حَشَبْيا وإخوتُه ألفٌ وسبعمائةٍ ذوو بأس" (أخبار الأيام الأول/ ٢٦/ ٣٠)، "وإخوته ألفان وسبعمائةٍ ذوو بأس" (أخبار الأيام الأول/ ٣٢/٢٦)، وفى الترجمة اليسوعية: "فجعل منهم سبعين ألف حمّالٍ وثمانين ألف قطّاعٍ على الجبل وثلاثة آلافٍ وكلاءَ لتشغيل الشعب" (أخبار الأيام الثانى/ ٢/ ١٨).

وفى المثال التالى لون آخر من كسر أفق التوقع. وهو أيضا قائم على عدم المعرفة، لكن مُتَصَوِّرِى انكسار أفق التوقع لم يتصايحوا بتخطئة النص القرآنى، إذ إنهم مسلمون، بل وجهوا الكلام فيه بحيث يختفى منه ما يمكن أن يُظَنّ خطًا فيه. وعلة ذلك هو ثقافة عصرهم الناقصة. والمقصود هو الآية الثانية عشرة من سورة "فاطر"، التى تقول: "وما يستوى البحران: هذا عذبٌ فراتٌ سائغٌ شرابُه، وهذا ملحٌ أُجاجٌ. ومن كلٍّ تأكلون لحما طريا وتستخرجون حليةً تلبَسونها...". وقد مضى المفسرون طوال تلك القرون على توجيه الآية فيما يخص الحلىّ على أن ثم مجازا هنا، إذ الحلىّ لا تستخرج من البحر العذب بل من الملح فقط طبقا لمدى معرفتهم فى ذلك المجال وفهمهم للنص. وعلى هذا قالوا: إن الكلام هنا على التعميم، ناسين أنه لو كان الكلام على التعميم لما استعمل القرآن عبارة "من كُلٍّ"، التى تعنى بصريح القول أن الحلى تستخرج من البحر الملح ومن البحر العذب كليهما. وقد أصابنى شىء من الحيرة قبل أكثر من ثلاثين عاما حين كنت أؤلف كتابى: "مصدر القرآن"، إذ كنت أنا أيضا أظن أن الحلى لا تستخلص إلا من البحار الملحة، وظللت أبحث حتى عرفت أنها تستخلص كذلك من البحار العذبة، أى الأنهار. وواضح أن سبب وهم مفسرينا رضى الله عنهم هو أن معارف

عصرهم لم تكن كافية ليعلموا أن الحلى تستخرج فعلا من الأنهار، وأن توجيههم للكلام على أنه مجاز هو خطأ علمى وخطأ نحوى معا. أى أن الآية كسرت أفق التوقع عند القدماء، لكنهم هم المخطئون، أما هى فلا تحتاج إلى أى توجيه.

وهذا تفسير الآية فى بعض التفاسير والترجمات القرآنية. ففى الطبرى: "يقول تعالى ذكره: وما يعتدل البحران فيستويان، أحدهما عَذْبٌ فُرَاتٌ، والفرات هو أعذب العذب، "وهذا مِلْحٌ أُجَاجٌ". يقول: والآخر منهما ملح أجاج، وذلك هو ماء البحر الأخضر. والأُجَاج: المُرّ، وهو أشدّ المياه مُلوحة... وقوله: "وَمِنْ كُلٍ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا" يقول: ومن كلّ البحار تأكلون لحمًا طَرِيًّا، وذلك السمك: من عذبهما الفرات، وملحهما الأجاج. "وتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا": يعنى الدرّ والمرجان تستخرجونها من الملح الأجاج... وإنما يستخرج من الملح". وفى تفسير أبى السعود (القرن العاشر الهجرى) نقرأ ما يلى: "قوله تعالى: "وَمِن كُلّ" أى من كلٍ واحدٍ منهما "تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا، وَتَسْتَخْرِجُونَ"، أى من المالحِ خاصَّةً، "حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا"...". ويقول الشوكانى (القرن الثالث عشر الهجرى): "وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا: الظاهر أن المعنى: وتستخرجون منهما حلية تلبسونها. وقال المبرّد: إنما تستخرج الحلية من المالح. وروى عن الزجاج: أنه قال: إنما تستخرج الحلية منهما إذا اختلطا، لا من كل واحد منهما على انفراده، ورجَّح النحاس قول المبرّد".

ويقول الطباطبائى (وهو مفسر شيعى معاصر) فى "الميزان": "قوله: "ومن كلٍ تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها": اللحم الطرى: الغض الجديد، والمراد لحم السمك أو السمك والطير البحرى. والحلية المستخرجة من البحر اللؤلؤ والمرجان والأصداف... فظاهر الآية أن الحلية المستخرجة مشتركة بين البحر العذب والبحر المالح، لكن جمعا من المفسرين استشكلوا ذلك بأن اللؤلؤ والمرجان إنما يستخرجان من البحر المالح دون العذب. وقد أجابوا عنه بأجوبة مختلفة: منها أن الآية مَسُوقَةٌ لبيان اشتراك البحرين فى مطلق الفائدة، وإنِ اختصّ ببعضها، كأنه قيل: ومِنْ كُلٍّ تنتفعون وتستفيدون كما تأكلون منهما لحما طريا، وتستخرجون من البحر المالح حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر. ومنها أنه شبه المؤمن والكافر بالعذب والأُجَاج، ثم فضَّل الأجاج على الكافر بأن فى الأجاج بعض النفع، والكافر لا نفع فى وجوده. ومنها أن قوله: "وتستخرجون حلية تلبسونها" من تتمة التمثيل على معنى أن البحرين، وإن اشتركا فى بعض المنافع، تفاوَتَا فيما هو المقصود بالذات لأن أحدهما خالطه ما خرج به عن صفاء فطرته. والمؤمن والكافر، وإن اتفقا أحيانا فى بعض المكارم كالشجاعة والسخاوة، متفاوتان فيما هو الأصل لبقاء أحدهما على صفاء الفطرة الأصلية دون الآخر".

كما استبعد بعض المترجمين الأوربيين فى العصر الحديث أن تكون الأنهار مصدرا من مصادر الحُلِىّ. وقد تجلى هذا فى ترجمتهم لهذه الآية: فمثلا نرى رودويل الإنجليزى يترجم الجزء الخاص بالحلى منها هكذا: " Yet from both ye eat fresh fish, and take forth for you ornaments to wear". فعبارة "from both" تصلح لترجمة آية سورة "الرحمن": "يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان"، لكنها

لا تصلح لترجمة هذه الآية. كذلك ينقل رودى باريت هذه العبارة إلى الألمانية على النحو التالى" "Und (aus dem Salzmeer) geurnnt ihr schmuck… um ihm euch anzulegen."، وترجمته: "وتستخرجون (من البحر المالح) حلية تلبسونها". ويرى القارئ أن المترجم قد أضاف من عنده بين قوسين عبارة: "من البحر المالح: aus dem Salzmeer"، وهو ما يشير إلى استبعاده أن تكون الأنهار مصدرا من مصادر الحلى على ما تقول الآية الكريمة. أما ترجمة سيل وبالمر (الإنجليزيتان)، وترجمتا كازيمريسكى وماسُّون (الفرنسيتان)، وكذلك ترجمتا ماكس هِنِنْج ومولانا صدر الدين (الألمانيتان) على سبيل المثال فقد ترجمت كلها النص القرآنى كما هو، ولكنها لزمت الصمت فلم تعلق بشيء.

لكن عبد الله يوسف على يذكر، فى تعليقه على هذه الآية فى ترجمته الإنجليزية للقرآن المجيد، من الحلىِّ البحرى اللؤلؤ والمرجان، ومن الحلى النهرى العقيق وبرادة الذهب وغيرهما. وفى مادة "Pearl" من "Encyclopaedia Britannica" أن اللؤلؤ يوجد أيضا فى المياه العذبة. كما يقول "المنتخب فى تفسير القرآن الكريم" فى الهامش المخصص لتلك الآية: "قد يستبعد بعض الناس أن تكون المياه العذبة مصدرا للحلى، ولكن العلم والواقع أثبتا غير ذلك. أما اللؤلؤ فإنه، كما يستخرج من أنواع معينة من البحر، يستخرج أيضا من أنواع معينة أخرى من الأنهار، فتوجد اللآلئ فى المياه العذبة فى إنجلترا وأسكتلندا وويلز وتشيكوسلوفاكيا واليابان... إلخ، بالإضافة إلى مصايد اللؤلؤ البحرية المشهورة، ويدخل فى ذلك ما تحمله المياه العذبة من المعادن العالية الصلادة كالماس، الذى يستخرج من رواسب الأنهار الجافة المعروفة باليرقة. ويوجد الياقوت كذلك فى الرواسب النهرية فى موجوك بالقرب من باندالاس فى بورما العليا. أما فى سيام وفى سيلان فيوجد الياقوت غالبا فى الرواسب النهرية. ومن الأحجار شبه الكريمة التى تستعمل فى الزينة حجر التوباز، ويوجد فى الرواسب النهرية فى مواقع كثيرة منتشرة فى البرازيل وروسيا (الأورال وسيبيريا)، وهو فلورسيليكات الألمونيوم، ويغلب أن يكون أصفر أو بنيا. والزيركون (CIRCON) حجر كريم جذاب تتقارب خواصه من خواص الماس، ومعظم أنواعه الكريمة تستخرج من الرواسب النهرية".

فمن الواضح أن الاستعانة بالعلوم الطبيعية يمدّنا بالتفسير الصحيح لكثير من آيات القرآن الكريم. والسبب فى كل هذا أن القرآن كتاب لكل العصور ولكل البيئات وأنه كتاب إلهى، وليس من تأليف مُحَّد، وإلا لكان انعكاسا لمستوى بيئته وعصره ثقافيا وحضاريا ولامتلأ بالأخطاء كما تمتلئ كتبنا بها مهما تحرَّزْنا ودَقَّقْنا ومَحَّصْنا.

النص والقراءات المتعددة

يرى بعض أصحاب نظرية القراءة أنه لا ينبغى البحث فى النّص عن معنى مخبوء، بل استطلاع ما يعتمل فى نفس القارئ عندما يقرأ. وهم يلحون على أهمّيّة التّلقى، ويؤكدون أنّ النّص وحده بعيدًا عن المتلقى وعن ردود فعله لا ينتج عنه شيء ويظلّ عملًا جامدًا يبقى فى حاجة إلى فعل يخرج به إلى الوجود، ولا يتأتى ذلك إلا بعنصر القراءة.

وهذا غير صحيح، فالمبدع قد أبدع ما أبدعه ووضع فيه كل ما يريد. وهذا الإبداع موجود وجودا حقيقيا سواء قرأه أحد أو لم يقرأه. ترى هل يعقل أن ننكر كل جهد المبدع وموهبته والوقت الذى أنفقه فى إبداع عمله والتعب الذى تعبه فى القراءة طول عمره حتى لحظات إبداعه، وما بذله من عناية لتطوير موهبته طوال حياته وصقل النص الذى ألفه؟ إن هذا يذكرنا بالمثل القائل: "يترك الحمار ويعض فى البرذعة"! وحتى لو جارينا أصحاب هذا الكلام وقلنا إن العمل لا بد له من قارئ حتى يخرج من حيز الإمكان إلى حيز الوجود الفعلى فالجواب حاضر، وهو أن المبدع نفسه قد قرأ عمله قبل أى قارئ. وهو حين يقرؤه فإنه يقرؤه بعين غير عين المبدع. ودليلنا على ذلك أنه دائما ما يعيد النظر فيه ويغير كثيرا من عناصره بل قد يهدمه كلية ويعمله من جديد. فهل نهمل هذا كله انتظارا لقارئ آخر غير المبدع ونزعم ببرود أعصاب نحسد عليه أنه ليس له وجود وسيظل معدوما ما دام لم يقرأه قارئ آخر سوى صاحبه؟ بل دعونا مما كتب الكاتب وتعالَوْا إلى ما فى ذهنه من أفكار وما فى قلبه من مشاعر، وقولوا لنا: هل يصح أن يأتى ملحوس العقل فيزعم أن هذه الأفكار والمشاعر لا وجود لها إلا إذا أتى قارئ وثقب جمجمته وفتح بالسكين قلبه واطلع على ما يحويه كل منهما؟

وهناك قبل ذلك الله سبحانه، الذى خلق المبدع وأفاض عليه موهبته وأحاط بكل شىء فى النص وحول النص وخلق القراء وجبل عقولهم وأعطاهم القدرة على القراءة والفهم والاستمتاع وأحاط بكل استجاباتهم على مدى العصور منذ ظهور الإبداع إلى يوم القيامة فهما وانفعالا. فكيف ندعى أن النص غير موجود وأن القارئ هو الذى يعطيه وجوده، وكأن الوجود فى غياب الإنسان هو وجود أعمى أصم بليد لا يحس ولا يشعر ولا يدرك ولا يعى؟ طبعا من الممكن أن يقول لى بعض أولئك النقاد الذين أفند آراءهم الآن: ولكننا لا نؤمن بالله، ومن ثم فكلامك لا يلزمنا. وردى بسيط ومباشر، وهو أن المبدع، كما سبق قولى قبل قليل، هو أول قُرَّاء إبداعه. أما وجود الله وما يترتب عليه بالنسبة للنص فلا ألزمهم به، ولكنى أنا نفسى أوقن بوجوده سبحانه وإدراكه للنص من كل جوانبه وفى كل لحظات تخلقه وما بعد ذلك إلى الأبد، وهذا يكفينى.

ثم ماذا يفعل القارئ حين يقبل على العمل الإبداعى؟ أليس هو قراءة ما أبدعه المبدع؟ أليس معنى هذا أن ثم عملا إبداعيا موجودا هناك وأن القارئ حين يكتشف وجوده يقبل عليه ويشرع فى قراءته بشغف وشوق بغية الوصول إلى ما ضمَّنه إياه المؤلف من أفكار ومشاعر ومبادئ وقيم وفن؟ أم تراه يمسك بالكتاب مثلا وينظر فى صفحاته فيجدها بيضاء، ثم كلما فر ورقة منه ظهرت الكتابة فى

الصفحات الخالية صفحة بعد صفحة بل سطرا بعد سطر بل كلمة بعد كلمة بل حرفا بعد حرف؟ إن هذا لكلام عجيب مضحك.

ثم إن القارئ حين يصعب عليه فهم شيء فى النص فإنه يشعر بالإحباط لأنه لم يستطع أن يصل إلى غرض المؤلف من وراء إبداعه. ولو كان ما يقوله أصحاب النظرية فى هذا السياق صحيحا لكان يكفى أن يبادر القارئ عندئذ فيقول فى حق النص أى شيء يخطر له فى ويمضى ما دامت العبرة لا بما فى النص بل بما يضيفه هو إليه. بل كثيرا ما يعيد القارئ قراءة النص بغية فهمه فهما أفضل لأنه غير راض عن القراءة السابقة. ومعنى هذا أن القارئ يعرف أن المؤلف قد عبأ نصه بمضامين معينة وأن واجبه هو التوصل إلى تلك المضامين.

النص إذن موجود، أما دور القارئ فليس إيجاده بل فهمه بما يترتب على هذا الفهم من انفعال وعاطفة واستمتاع إن كان النص ممتازا، أو الضيق والسخط إن كان نصا رديئا. وفهم النص والانفعال به لا يوجِدان النصَّ من عدم بل هما نتيجة إقبال القارئ على النص الموجود قبلا وجودا كاملا بكل عناصره التى أبدعها به المؤلف. وأخيرا وليس آخرا فإننا بنفس المنطق ينبغى أن نصف قراءة القارئ بأنها ليست شيئا، أى لا وجود لها، إلا إذا قرأها قارئ آخر، وهذه القراءة الجديدة بدورها ينطبق عليها نفس الكلام. وهكذا دواليك إلى آخر الأبد. أليس هذا المنطق منطقا مضحكا؟

ليس هذا فحسب، فإن أصحاب هذه النظرية يقولون إن كل قراءة تختلف عن الأخرى، وكلها شرعية مهما كان وضعها، مؤكدين أنّ النّص وحده بعيدًا عن المتلقى وعن ردود فعله لا ينتج عنه شيء ويظلّ عملًا جامدًا يبقى فى حاجة إلى فعل يخرج به إلى الوجود، ولا يتأتى ذلك إلا بعنصر القراءة. وعلى هذا فإن النص، بناء على كلامهم، سيظل عملا جامدا إلى الأبد لأنه ليست له قراءة واحدة، بل سيظل يُقْرَأ إلى يوم الدين، ولا يمكن أن يكتمل ويصير موجودا حقا إلا إذا اكتملت قراءاته، وهو ما لا يمكن حدوثه فى الحياة الدنيا إلا عند النفخ فى الصور. ولو شئتُ الفكاهة لقلتُ: ولا حتى عند النفخ فى الصور، إذ لو لم يقع النفخ فى الصور لبرزت أجيال أخرى من القراء إلى الوجود وقرأت الكتاب وأضافت إلى قراءاته ما لم يكن موجودا... وهكذا دواليك.

وحتى لو تركنا الفكاهة جانبا فلن يكتمل وجود الكتاب أبدا لأنه لدى النفخ فى الصور لن يكون هناك أى معنى لأى شيء من أمور الدنيا، إذ الدنيا قد انطوت صفحتها بما فيها الكتاب وقراءاته، وسوف تبدأ حياة جديدة تجرى على نظام جديد وقوانين مختلفة عن قوانينها الآن، وسوف ينشغل الناس الذين فى الجنة بالحور العين وأطايب الطعام والنظر إلى وجه الله الكريم، وينشغل أهل النار بالعذاب الشديد، فيصرخون ويجأرون بالتوبة والتنصل مما عملوه فى الدنيا دون طائل. ولا أظن أحدا عاقلا يمكن أن يظن أن أهل النار سوف يكون عندهم بال للكتب والقراءة. أليس كذلك؟ بل إنى، على سبيل الفكاهة، أتخيل أصحاب النظرية وهم يقاسون الضرب بمقامع من حديد جراء سخافة منطقهم هذا وشَغْل الناس بتطرفهم الفكرى فى النقد الأدبى وتصديع أمخاخهم بهذا الذى يقولون مما لا يمكن أن يصح لأنه يخالف سنن الأشياء.

ومما يقول أصحاب هذه النظرية أيضا أن كل قراءة للنص إنما تقدم شيئا جديدا بحيث لا يمكن أن تتطابق قراءتان لنصٍّ واحدٍ، فنحن أثناء قراءتنا نضيف إلى النّص المقروء أو نحذف ما نريد أو ما لا نريد أن نجد فيه. فما إن يوجد قارئ حتى تبتعد القراءة عن النّص، إذ القارئ دائما ما يقول شيئا لا يقوله النّص أو يقوله النّص بصورة ملتبسة خاطفة. هذا ما يقوله أصحاب تلك النظرية أو فريق منهم على الأقل. لكن من قال إن البحث عن المعنى الذى أراده المبدع والتدقيق فى هذا البحث أمر معيب؟ ومن قال إن القارئ لا بد أن يجد فى النص أشياء لم يقلها ولم يقصدها المؤلف وأنه لا بد أن يحذف من النص أشياء أخرى؟ إن هذا لو حدث فمعناه أن القارئ قارئ ضعيف الفهم أو فاشل أو غير جاد فى القراءة أو يقصد الإفساد وتقويل النص ما لم يقله لغرض فى نفس يعقوب. ثم لماذا يعمل هؤلاء النقاد على تغييب المبدع تَوَّ الانتهاء من إبداعه؟ هل يصح أن يكون القارئ أهم من المبدع، المبدع الذى يتعلم القارئ من إبداعاته والذى لولا هو ما قرأ ولا استمتع بل ولا كان أصلا قارئا؟ إن هذا قلب للموازين. ومن هنا فإنى أدعو أن نرجع دائما للكاتب ليقول لنا رأيه فيما يكتبه القارئ عنه وعن إبداعه ومدى اتفاقه أو عدم اتفاقه معه فى ذلك. فالكاتب هو حجر الزاوية، وهو محور الأمر كله. أما القارئ فكوكب يدور حول ذلك النجم. وإلا فهل تقبلون مثلا، يا أصحاب نظرية القراءة، أن نضرب عُرْض الحائط بما تكتبون توضيحا وشرحا لنظريتكم فى القراءة ودفاعا عنها ونَهتمّ فقط بما يقوله قراؤها حتى لو حادوا عن المعنى الذى تقصدون بحيث تجدون نظريتكم بعد فترة وقد صارت شيئا آخر؟

وفى كتابىَّ: "المرايا المشوهة" و"مناهج النقد العربى الحديث" وضحت مثلا كيف يخطئ د. كمال أبو ديب، فى كتابه: "الرؤى المقنعة– نحو منهج بنيوى فى دراسة الشعر الجاهلى"، فهم الشعر الجاهلى إخطاء شنيعا يدل على أنه ليس أهلا لمقاربة النقد الأدبى، فهو لا يحسن قراءة الأبيات، بل يخلع عليها ما ليس فيها، وتفوته المعانى الصحيحة للمفردات والعبارات. وكنت، وأنا أقرأ كلامه فى هذا الكتاب وأرى انتفاشه وتصوره أنه قد أتى بالذئب من ذيله وأنجز ما لم ينجز عُشْرَ معشارِه الأوائلُ ولا الأواخر ولا الأواسط، أستغرب ثم أضحك ثم أقهقه من الضحك جراء ما أقاسيه فى كتابات الرجل من شر البَلِيَّة.

ومثله فى هذا العُوَار المخزى أدونيس. وعلى سبيل المثال نراه فى كتابه: "مقدمة للشعر العربى" يعيث فى النصوص فسادا ويتناقض من سطر إلى سطر ويستنتج من النصوص أشياء لا وجود لها فيها البتة. ولو كان النقد الأدبى هو هذا فلعنة الله على الضالين. وقد وسمتُ كلام أدونيس فى هذا الكتيب بأنه "إسهال لفظى". وليس فى الأمر مبالغة ولا قصد للإهانة، بل قصدت بكل بساطة أن أصفه بما فيه فعلا، وهو أن كلامه إسهال لفظى بما يمثله الإسهال غير اللفظى من عجز الشخص عن التحكم فى فضلات أمعائه، فكذلك الأمر هنا، إذ من الجلى الساطع أن الرجل قد راح فى نوبة إسهال كلامى وكتابى، فكان ما كان مما ذكرته ومما لا يمكن أن نظن به خيرا أبدا. وهذا الكلام متاح للقراء الكرام فى كتابى: "دراسات فى اللغة والأدب والدين".

أما د. عبد الله الغذامى، فى كتابه: "الخطيئة والتكفير"، وهو عنوان له ما وراءه، فقد دخل النصوص الشعرية لحمزة شحاتة الشاعر والكاتب السعودى المشهور، وفى ذهنه أن ينسب إليه الاعتقاد بأنه قد أتى إلى العالم ليفديه من خطيئته الأولى مع أن أشعار شحاتة لا تقول هذا ولا تومئ إليه من قريب أو من بعيد ولا لها أية صلة بهذه العقيدة النصرانية التى أراد الغذامى بكل سبيل أن يخلعها على شحاتة رحمه الله مع أن شحاتة لو كان حيا يرزق لكان له معه حساب عسير يوقفه به عند حده ويفضح ما اقترفه فى حقه بهذا الكلام من أهوال ومصائب. وقد أطاح الغذامى بكل متطلبات النقد السليم وانطلق يحطم فى ميدان النقد السليم كل شىء فلا يبقى ولا يذر، وقد رفع شعار "نحن نحطم كل شىء ثمين تحطيما". يفعل ذلك وهو سعيد كأنه يؤدى مهمة مقدسة رغم أن سخف ما يقول واضح بل بارز للعيان بل للعميان فى غلس الظلام. وقد فضحتُ هذا السخف كله فى كتابىَّ: "أدباء سعوديون" و"المرايا المشوِّهة".

وفى القرآن الكريم وصف لما فعل اليهود بالتوراة، إذ "كان فريقٌ منهم يسمعون كلامَ الله ثم يحرِّفونه من بعد ما عَقَلوه وهم يعلمون"، فهم "يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون: "هذا من عند الله" ليشتروا به ثمنا قليلا". وهذا أيضا لون من القراءة التحريفية المتعمدة، وقد توعد الله أصحابها بالويل والثبور: "فويلٌ لهم مما كتبت أيديهم، وويل لهم مما يكسِبون"، ولم يُثْنِ عليهم باعتبارها قراءة متحررة وشرعية وتتساوى مع القراءة السليمة التى راعى أصحابها متطلبات الفهم والتفسير المستقيمين كما جاء فى الآيتين ٧٥، ٧٩ من سورة "البقرة". ليس هذا فحسب، بل "لما جاءهم رسولٌ من عند الله مُصَدِّقٌ لما معهم نَبَذَ فريقٌ من الذين أُوتُوا الكتابَ كتابَ الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون". وهذه قراءة إهمالية تنبذ ما لا تحب من النص لأنه يتعارض مع مصالحها. أى أنهم قد فهموا النص لكنهم تجاهلوه كأنه ليس موجودا، ناسين أن النص، قرأوه أو لم يقرأوه، موجود رغم أنوفهم ورغم أنوف من ينكرون هذا الوجود. بل لقد أضافوا إلى النص ما ليس فيه. يقول تعالى عن أولئك الذين يضيفون إلى النص ما ليس فى النص: "وقالوا: "لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى" تلك أمانِيُّهم. قل: هاتوا برهانَكم إن كنتم صادقين". وفى الحالتين كَذَّبهم الله وتحداهم ووصف تلك القراءة بالأمانى الباطلة، مسفها بهذه الطريقة الاعتبار السخيف المتهافت الذى يردده بعض أصحاب نظرية القراءة على الأقل، وهو أن من حق القارئ الإضافة إلى النص أو الحذف منه أو فهمه بأية طريقة يراها، إذ كلها قراءات شرعية متساوية.

وفى القرآن أيضا ذِكْرٌ لما صنعه اليهود فى المدينة بالنص القرآنى من قراءة ملتوية الفهم تتعمد التهكم والسَّخَر تحطيما لروح المسلمين المعنوية، إذ لما قال الله سبحانه وتعالى حاثًّا المسلمين على الإنفاق فى سبيل الله مستعملا صورة استعارية، فقال: "من ذا الذى يُقْرِض الله قرضا حسنا فيضاعِفَه له أضعافا كثيرة؟" ردوا فى وقاحة وبجاحة: "إن الله فقيرٌ، ونحن أغنياء". وعلى حسب ما يقوله بعض أصحاب نظرية القراءة هذه قراءة شرعية كأية قراءة أخرى صحيحة، ومن شأنها إغناء النص، بينما

هى فى الواقع قراءة إجرامية مقصودة. ومثل تلك القراءة لا تُقْبَل أبدا بوصفها قراءة شرعية وَضْعُها كوَضْع أية قراءة صحيحة، بل مكانها مقلب الزبالة.

وفى القرآن كذلك إشارة إلى لون آخر مختلف من القراءة، مما يمكن أن نسميه بالقراءة اللسانية، وهى تلك القراءة التى يردد فيها الشخص ما يقال دون أن يمر هذا المقُول لا بعقله ولا حتى بأذنه، بل بلسانه، ولسانه فقط. فكأن الأمر لا يعدو أن يكون كرة مِضْرَب يتلقاها اللسان ولكنه لا يحتفظ بها ليفحصها بل يمررها إلى لسانٍ آخرَ للتو واللحظة. وقد ذُكِرَتْ هذه القراءة فى سورة "النور" خلال تعرض القرآن لواقعة الإفك، إذ أخذ الله سبحانه على فريق من المسلمين أنهم يرددون التهمة التى قُرِفَتْ بها عائشةُ ظلما وبطلانا وعدوانا دون أن يقفوا إزاءها ويحققوا أمرها بل دون أن يفكروا فيها أصلا، واقتصر دورهم على تلقيها باللسان ثم تمريرها باللسان... وهكذا دواليك دون أن يضع أحد من هؤلاء فى ذهنه أن هذه فرية شنيعة على عِرْض سيدة نبيلة كريمة شريفة كان يمكن أن تدمرها وتدمر زوجها وأهلها لولا لطف الله وكرمه: "إذ تَلَقَّوْنه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم، وتحسبونه هينا، وهو عند الله عظيم"، ودون أن يكون هناك دليل على صحة تلك التهمة ودون أن يكون هناك أى التفات إلى أن المتهمة إنسانة شريفة من بيت شريف وزوجة نبى من الأنبياء لا يرضى الله له أن تتدهدى زوجته إلى هذا المستوى المخزى.

وبالمثل يشير القرآن إلى ضرب آخر من القراءة تقوم، ويا للمفارقة، على رفض الاستماع إلى النص أصلا، فقد كان بعض المشركين إذا نزل القرآن وتلاه الرسول ﷺ عليهم ردوا قائلين: "قلوبُنا فى أَكِنَّةٍ مما تدعونا إليه، وفى آذاننا وَقْرٌ، ومن بيننا وبينك حجابٌ. فاعمل، إننا عاملون" حسبما جاء فى سورة "فُصِّلَتْ". وفى "الأعراف" نجد نفس الموقف، إذ نقرأ قوله جل شأنه مخاطبا النبى عليه السلام: "وإن تَدْعُوهم إلى الهُدَى لا يسمعوا، وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون". وهناك أيضا قراءة التحدى. قال تعالى فى سورة "الأنفال": "وإذا تُتْلَى عليهم آياتنا بيناتٍ قالوا: قد سمعنا. لو نشاء لقلنا مثلَ هذا. إن هذا إلا أساطير الأولين". وهو تحدٍّ لفظىٌّ فقط، إذ لم يقولوا مثل القرآن قط. فتحديهم هو مجرد شقشقة باللسان ليس غير. وهذه القراءة لا تفيد صاحبها بشىء بل تحرمه الخير كله.

ولدينا كذلك قراءة الاقتراح العنادى المضاد: "وإذا تتلى عليهم آياتنا بيناتٍ قال الذين لا يرجون لقاءنا: ائْتِ بقرآنٍ غير هذا أو بَدِّلْه". وهناك قراءة طلب المعجزات، وهى القراءة التى لا يعمل أصحابها عقولهم فى فهم آيات القرآن العقلية، بل يطالبون الرسول بالإتيان بدلا منها بآيات حسية. قال سبحانه فى سورة "الإسراء": "وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآَنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (٨٩) وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا". وثم قراءة التفاخر بالغنى والعصبية ورُفَهْنِيَة الحياة الدنيا وإهمال ما يقوله النص والانحراف بالأمر فى اتجاه مخالف تماما كما فى سورة

"مريم": "وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَى الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا". كذلك هناك قراءة التنمر والتفكير فى الاعتداء على الرسول لدن تلاوته نصوص الوحى عليهم: "وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا".

وهناك من يثير لغطا يريد به طمس النص المطلوب قراءته وفهمه من خلال الإتيان بنص بشرى يتلوه على الناس زاعما أن نصه أفضل وأحرى بالاستماع والاهتمام من النص القرآنى. فقد كان النضر بن الحارث، وهو من مشركى مكة، يأتى إلى المواضع التى يجلس فيها الرسول بغية تلاوة نصوص القرآن على قومه ودعوتهم إلى الهدى، ومعه الكتب التى جلبها من فارس وفيها أخبار ملوكهم وزعمائهم وقوادهم، فيقرؤها عليهم زاعما أن القصص التى فى كتبه أفضل من القرآن، وهو ما يشير إليه كتابنا الكريم بـ"لهو الحديث". قال عز شأنه فى سورة "لقمان": "وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (٦) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِى أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٧)". وقريبة من تلك القراءة قراءة أخرى يشير إليها سبحانه وتعالى فى سورة "الجاثية": "تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَى حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (٦) وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٧) يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٨) وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (٩)". وفى "الزخرف" نرى المشركين يرفضون النص لا لشيء إلا لأن الذى جاءهم به وتلاه عليهم لا يروق لهم ولا يملأ أعينهم، إذ هم يريدون أن يكون النبى رجلا غنيا مشهورا له حيثية. فهم لم يحاولوا قراءة النص ولا فهمه للوصول إلى مراميه والإلمام بقيمه الكريمة، بل رفضوه ابتداء لأنهم يريدون البهرج والزخرف لا الفهم والتعمق: "وقالوا: لولا نُزِّل هذا القرآنُ على رجلٍ من القريتين عظيم؟". فهل تعد مثل تلك القراءات قراءات شرعية جديرة بالاحترام والقبول؟

هذه قراءات خاطئة فاسدة يتحمل وزرها القارئ نفسه. وعلى الناحية المقابلة قد يكون السبب فى خطإ القراءة وفسادها ضعف الكاتب أو عجزه عن الإبانة. ومن الكتاب من لم يصلوا فى موهبة الكتابة واستعمال اللغة إلى مستوى يساعد القارئ على الفهم والانفعال بما يقرأ. بل إن كثيرا جدا من هؤلاء الضعفاء والعجزة ليحسبون أنفسهم عباقرة لم تلدهم ولادة وأنه لا يوجد لهم شبيه ولا مثيل ولا حتى قريب. وهذا النوع من الكتاب يسببون للقراء، وللقراء المخلصين بالذات، إزعاجا ما بعده إزعاج، بل من غير المستبعد أن يدفعوهم دفعا إلى مناطحة الجدران فَشًّا لغليلهم، فلا يعودون من هذه العملية إلا بانفلاق أدمغتهم مع بقاء الغموض كما هو. بل إن من الكتاب لَمَنْ ينتهجون الغموض انتهاجا: مذهبا متبعا أو ميلا شخصيا. والنتيجة هنا هى نفسها هناك، ألا وهى عجز القارئ عن الفهم، ومن ثم عن الاستمتاع بالنص.

ومع ما قلناه ونقوله وسنظل نقوله فإن تصور البعض بأنّ دراسة النّص بوصفه شيئا موضوعيا يمكن وصفه بصورة محايثة وبوفاء تام دونما تدخّل من ذات القارئ أو المؤوِّل حيث لا يحصل الوفاء

الكامل للنص إلاّ على حساب امحاء القارئ بصورة تامة، هو تصور فى غير محله. فمن المفهوم أن القارئ، مهما كانت عبقريته ومهما كان إخلاصه فى محاولة فهم النص، لا يمكنه أن يلتقط مقصود المبدع بالضبط كما هو. وهذا أمر مفهوم، لكن المشكلة فى الأغبياء ذوى الفهم الضعيف أو العاجز أو الذين يتعمدون تشويه المعنى وتزييفه لغرض فى نفس يعقوب ويقوّلون النص ما لم ولا يمكن أن يقوله. فكل ما نريده هو ألا يبتعد القارئ عن النص بحيث يكون ما قاله المبدع فى واد، وما قاله هو فى واد آخر. وعلى الناحية الأخرى فإن ما يصنعه بعض النقاد الجدد الذين يعدّون تدخل تأثيرات النص فى نفس القارئ محذورًا يجب تجنبه، ومن ثم يلزمنا نقد موضوعى لا يصف الناقد فيه تأثيرات العمل فى نفسه، بل يركز على تحليل أدوات العمل وسماته المميزة، إن ما يصنعه هؤلاء البعض هو أمر غير مقبول أيضا لأن الإبداع إنما كان من أجل إمتاع القارئ. أما تحليل النص دون أية مشاعر البتة فيحوله إلى لوح ثلجى، اللهم إلا إذا كنا نحلله بهذه الطريقة لنعرف ملامح أسلوب المبدع مثلا لحسم قضية سرقة أو نحل أو ما إلى ذلك بسبيل.

والنّص عند بعض أصحاب هذه النظرية التى نحن بصددها لا يتضمن معانى مطلقة ونهائية. والتاريخ الأدبى عندهم هو بالأحرى تاريخ جماهير القراء المتعاقبة لا تاريخ العمل الأدبى نفسه. إن ما يهمهم فى الأعمال الأدبيّة هو مجموع التلقيات (أو القراءات) فى آفاقها التاريخية وسياقاتها الثقافية. فأهمية النّص وقيمته ليست موجودة فى النّص ومقتصرة عليه، بل إنّها تعتمد بدرجة كبيرة على القارئ والأفق التاريخى الذى يقرأ النّص من خلاله. وهكذا فالنّص هو حصيلة ذلك التّفاعل النَّشِط بينه وبين القارئ، كما أنّه حصيلة هذا التفاعل النّشط بين المتلّقين (أو القراء) أنفسهم. فمعرفة النّص هى معرفةُ كيف قُرِئ، وتاريخ النّص هو تاريخ قراءاته وتحققاته المتلاحقة عبر التّاريخ، إذ النّص عندهم لا يُفْهَم دون أخذ تحققاته بعين الاعتبار.

إن هذا يذكِّر بما قاله محمد أركون، فى كتابه: "الإسلام، أوربا، الغرب"، عند تناوله لسورة "الفاتحة". لقد اشترط قراءة كل ما كُتِب فى تفسير سورة "الفاتحة" من تفاسير منذ بداية التفسير القرآنى حتى اليوم ثم التقفية بما يحتاجه ذلك من جرد وفرز. إلا أنه سرعان ما يحيص قائلا إن هذا العمل "لا يمكن أن يقوم به شخص واحد، وإنما فريق كامل من فرق البحوث". ثم ترك الجمل بما حمل وفر هاربا بعدما صدعنا بما سوف يقوم به مما لم يصنعه أحد من قبل.

وبالمناسبة فما "الفاتحة" إلا مجرد مثال لأية سورة أخرى يراد تحليلها طبقًا لبروتوكول أركون الألسنى النقدى. وهذا لون جديد من الهوس، فإننا لو رُمْنا ذلك فلن ننتهى أبدا من تحليل القرآن. ثم فلنفترض أننا قد استطعناه، فمن ذا الذى يا ترى يمكنه الزعم بأنه سيكون التحليلَ المثالىَّ الذى لا يخرّ منه الماء؟ إن هذا أيضا بدوره مستحيل. وقد انتهى أركون إلى أنْ طامَنَ من غُلَوائه المتنطعة الفارغة وقنع من الغنيمة بالإياب، فأخبرنا أنه سيكتفى بتفسير الرازى، الذى زعم أنه "قد جمع فى تفسيره أهم ما أنتجه الجهد التفسيرى خلال القرون الهجرية الستة الأولى السابقة له". لكنه، ككل فشَّار، قد عزَّ

عليه أن ينهزم هكذا على الملإ أمام أول تجربة، فأخذ يؤكد لنا أنه يزمع أن يقدم لتفسير الرازى طبعة محققة مصحوبة بقراءة تهدف للإجابة عما لا أدرى ماذا.

ثم إنه بعد ذلك كله لم يرجع إلى الرازى إلا مرتين اثنتين لا غير نَقَلَ فى الأولى منهما ثلاثة أسطر ونصفا، وفى الثانية فقرةً لا تزيد على ثلاثة عشر سطرا، ولشديد الأسى والأسف لم يحسن الاستفادة من أىٍّ من النصين. كذلك فإن تفسير الرازى، الذى تغلب عليه الصبغة الفلسفية، هو مجرد لون واحد من التفاسير لا يغنى عن غيره ولا يغنى غيره عنه: فهناك التفسير بالمأثور والتفسير الاعتزالى والتفسير الصوفى والتفسير الخوارجى والتفسير الشيعى والتفسير اللغوى والتفسير البلاغى والتفسير الفقهى والتفسير العلمى... وهلم جرا. وحتى لو وافقْنا أركون على ما يقوله عن قيمة تفسير الرازى وأنه يغنى عن التفاسير السابقة عليه، فماذا نحن فاعلون فى التفاسير التى جاءت بعده؟ وعلى أية حال فلو تحوَّلنا بعد ذلك كله لنرى ماذا أنجز أركون فى التحليل الفعلى لسورة "الفاتحة" راعَنا كثرة العناوين وتعمد الكاتب انتقاء الكلمات الضخمة التى تسبب الدوار للرأس دون أن يكون وراءها شىء بالمرة، أو على الأقل دون أن تقدِّم لنا ثمرة تستحق كل هذه الطنطنات والفرقعات. وإنى لأتوقع بكل يقين أن ينتهى اقتراح أصحاب نظرية التلقى القائلين بجمع كل قراءات النص بالغا ما بلغ عددها والانشغال بها عن النص إلى ما انتهت إليه شطحات أركون من عدم إنجاز شىء مما تشدق بأنه ينوى صنعه.

ونعود إلى موضوعنا الذى خصصنا له هذا الفصل لنقول: لقد كتب الكاتب ما كتب ليبلغنا رسالة معينة، فهل يكون جزاؤه منا إهمال هذا الذى كتب والاهتمام بدلا من ذلك بمن قرأ؟ إذن فليرح الكاتب نفسه ويريحنا معه ولا يكتب ولا يبدع شيئا ويقضى حياته بدلا من ذلك فى نوم واسترخاء ما دمنا لا نهتم به بل بمن قرأه. ويزيد الطين بِلَّةً بل بلاتٍ حين يتعلق الأمر بالقرآن. ذلك أننا سوف نهمل القرآن وننتبه إلى قراءة من قرأوه، أى المفسرين. إننا بذلك ندعو إلى خلق قرآنات أخرى غير النص السماوى الذى نؤمن بأنه نزل من عند الله على نبيه مُحَّد، ونهمل القرآن الذى نعرفه وننشغل عنه بالقراءات التى يقرؤها قراؤه، أى التفسيرات التى يكتبها مفسروه. وما دام الأمر كذلك فلا داعى للنبوة ولا للقرآن. ولسوف نجد أنفسنا وقد ابتعدنا عن القرآن كل يوم حتى نصير أغرابا عنه تمام الغربة ونصبح يوما من الأيام أمام نصوص لا علاقة بينها وبينه بتاتا. والعجيب أن هناك، على الضفة الأخرى، من المحدَثين من ينادون بالدخول على القرآن مباشرة وإهمال ما كتبه المفسرون ابتعادا عن تشويشاتهم وتأثيراتهم، أى إهمال القراءات السابقة التى قُرِئَها القرآن!

صحيح أن القارئ لن يصل إلى المضامين التى يحويها النص كاملة وكما هى بالضبط، لكن ما لا يدرك كله لا يترك كله. وقد وصانا الرسول أن "سدِّدوا وقارِبوا". المهم أن نظل دائرين فى فلك القرآن الكريم لا نترك مدارنا حوله وننطلق فى الفضاء دون ضابط ولا رابط حتى ينتهى أمرنا إلى الضياع فى السماء الواسعة. وكل المفسرين المخلصين يعملون دائما على عدم مغادرة النص القرآنى أو خلع ما فى نفوسهم من أهواء وآراء شخصية عليه، ثم يأتى مفسر جديد فيجتهد أن يكون أكثر

اقترابا منه وأعظم إخلاصا ووفاء، فينص على ما اجترحه المفسرون السابقون من أخطاء أو نقصان تدقيق أو يصحح ما وجده من انحرافات بسبب قلة الثقافة عند المفسر أو لأن فى النص أشياء لم يكن باستطاعة السابقين التوصل إليها لارتباطها ببعض فروع العلوم الطبيعية والإنسانية والرياضية التى لم تكن أوانذاك قد تقدمت التقدم الذى يساعد على فهم النص فهما سليما... وهكذا دواليك. فنحن نقرأ القراءات السابقة للقرآن لا على أساس الخرور عليها وتقبُّلها كما هى بل على أساس النظر فيها والاستعانة بها إذا وجدناها مستقيمة، والاستدراك عليها أو تصحيحها إذا ألفيناها خاطئة. أما إذا أراد الكاتب أن يكتب شيئا من عنده حتى لو كان ما يكتبه منطلقا من النص فليفعل كما يحب لكن على أن يقول لنا إن هذا ليس قراءة للنص بل إبداعا من عنده انطلق فيه من النص دون التزام بما فيه. وبذلك نفرق بين قراءة النص القرآنى قراءة مخلصة يتغيا صاحبها الوصول إلى أغوار النص وبين القراءات المنطلقة فى الفضاء لا تهتم بمضمون النص ولا تضع فى ذهنها تفسيره تفسيرا وفيا. أما التفرقة بين قراءة مخلصة وفية وقراءة منطلقة غير منضبطة فتقوم على معرفة شروط التفسير الصحيح مما بيناه فى موضع آخر من هذا الكتاب. ولسوف يتبين لنا أيضا من خلال الأمثلة الكثيرة التى سأوردها الآن كيف نستطيع التفرقة بين القراءتين.

فمثلا لدينا قوله تعالى فى سورة "البقرة": "وإذ قلنا للملائكة: اسجدوا لآدم، فسجدوا إلا إبليس. أبى واستكبر وكان من الكافرين"، وهى الآية التى يستخلص منها بعض العلماء أن إبليس كان من الملائكة بدليل أنه استُثْنِىَ منهم، وهم يفهمون أن الاستثناء هو فقط إخراج الفرد أو الجماعة ممن ينتسب إليهم. لكن فات هؤلاء أن الله قد نص فى موضع آخر من القرآن على أن إبليس كان من الجن، وفى موضع ثالث أن الجن مخلوقون من نار السموم. فإذا كان الأمر كذلك فهو ليس من الملائكة لأن الملائكة شىء، والجن شىء آخر، كما أن الجن مخلوقون من نار، والملائكة من نور. وثالثا فالملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، بينما إبليس عصى ربه، ثم لم يكتف بهذا بل أغرى آدم وزوجته بالعصيان ونجح فى ذلك. ومن هذا نرى أن القول، بناء على آية "البقرة" وأشباهها فى القرآن، بأن إبليس من الملائكة هو قول خاطئ. وقد عرفنا ذلك عن طريق تحرى الشروط المطلوب مراعاتها عند تفسير القرآن الكريم حسبما بيناها فى أحد فصول هذا الكتاب.

لكن هناك أمرا لا بد أن نوضحه حتى لا يجد ضمير البعض فى هذا التفسير تحرجا، وهو استثناء آدم من الملائكة. وهذا أمر ليس من العَوَص بأى مكان، إذ المعروف أن هناك ضربا من الاستثناء لا ينتمى فيه المستثنَى إلى جنس المستثنَى منهم. والنحاة يضربون عليه مثالا ضاحكا هو "قام القوم إلا حمارا"، ويسمونه: "الاستثناء المنقطع"، بمعنى أن المستثنى منقطع الصلة بالمستثنى منهم، فالحمار ليس من القوم، ولا القوم من الحمار. ومنه فى القرآن العزيز قوله تعالى فى سورة "طه" مخاطبا نبيه محمدا عليه الصلاة والسلام: "طه * ما أنزلنا عليك القرآنَ لتشقى * إلا تَذْكِرَةً لمن يخشى". فتذكرة من يخشى لا تدخل فى الشقاء الذى ينفى الله سبحانه أنه قد أنزل القرآن على نبيه من أجله. ومن ذلك أيضا قوله عز شأنه على لسان إبراهيم عليه السلام عن الأوثان: "فإنهم عدوٌّ لى إلا ربَّ

العالمين". ورب العالمين لا يجمعه مع الأوثان جامع، بل هو الرب الخالق الضار النافع السميع البصير، والأوثان حجارة مخلوقة ومصنوعة لا تضر ولا تنفع ولا تسمع ولا تبصر ولا تغنى شيئا. ومنه قوله ﷻ: "لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما * إلا قِيلا: سلاما سلاما". فقِيلُ السلام لا يدخل فى اللغو والتاثيم رغم أنه مستثنًى منهما. ومثل ذلك قوله تعالى: "قال: فما خَطْبُكم أيها المرسلون * قالوا: إنا أُرْسِلْنا إلى قومٍ مجرمين * إلا آلَ لوط. إنا لَمُنَجُّوهم أجمعين". وآل لوط لا يدخلون تحت مسمى "القوم المجرمين" بأى حال رغم استثنائهم منهم... إلخ.

وفى سورة "النساء" نقرأ قوله تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا"، الذى يختلف المفسرون (أو فلنقل: "القراء" ما دمنا فى سياق الكلام عن نظرية القراءة) بشأنه فى فهم حدود الأيدى التى ينبغى أن تمسح فى التيمم ما بين "الكفين" كما يتبادر إلى الذهن بكل قوة، إذ اليدان حينما تُطْلَقان دون تحديدٍ ينصرف الذهن عادة إلى "الكفين" فقط، وهذا ما يقول به بعض الفقهاء، أو إلى "الذراعين" كلهما قياسا على الوضوء كما يرى كثير منهم. وأنا، وإن كنت فى الواقع أراه اختلافا غير ذى بال، لا أرافئ الفقهاء الأخيرين لأكثر من سبب: أولا لأن الله سبحانه لم يقل فى التيمم: "إلى المرافق" كما قال فى الوضوء، وثانيا لأن التيمم لا يقاس على الوضوء، إذ فى الوضوء نغسل الوجه واليدين والأرجل ونمسح بالماء على الرؤوس، علاوة على ما نغسله أيضا من باب السنة: اليدين فى البداية، والفم والأنف والأذنين خلال الوضوء، بينما فى التيمم لا نمسح سوى الوجه واليدين ليس إلا. ومع هذا فإن هذا الاختلاف، كما وضحت، غير ذى بال لأنه لا يترتب عليه شىء من أذى أو ضرر أو حرج.

وفى سورة "المائدة" نرى بعضا من القراء يفهمون النص التالى: "لتَجِدَنَّ أشدَّ الناس عداوةً للذين آمنوا اليهودَ والذين أشركوا. ولتجدنَّ أقربَهم مَوَدَّةً للذين آمنوا الذين قالوا: إنا نصارى. ذلك بأن منهم قِسِّيسِين ورهبانًا وأنهم لا يستكبرون * وإذا سمعوا ما أُنْزِل إلى الرسول ترى أعينَهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون: ربنا، آمنّا فاكتبنا مع الشاهدين * وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يُدْخِلَنا ربُّنا مع القوم الصالحين؟ * فأثابهم الله بما قالوا جناتٍ تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها. وذلك جزاء المحسنين" على أن الثناء فيه يخص القساوسة والرهبان والنصارى بإطلاق مع أن النص يشير إلى أن هؤلاء القساوسة والرهبان حين سمعوا القرآن يتلى عليهم فاضت أعينهم من الدمع وآمنوا بمحمد وبالإسلام طمعا فى أن يكونوا من القوم الصالحين وأن الله تعالى قد استجاب لهم وأدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها. كما أن القرآن قد كفَّر قبل ذلك بقليل فى نفس السورة من يقول إن الله ثالث ثلاثة، أو إن الله هو المسيح بن مريم، وقساوسة النصارى ورهبانهم هم أول من يؤمنون بالتثليث وألوهية المسيح بطبيعة الحال. كل ذلك لا يتسق أبدا مع قراءة النص على أن المقصودين بالثناء فيه هم النصارى وقساوستهم ورهبانهم بإطلاق.

لقد وضحنا فى فصل آخر من هذا الكتاب أنه لا ينبغى لقارئ النص القرآنى إهمال السياق الذى ورد فيه: السياق القرآنى والسياق الحديثى وسياق الآية نفسها... إذ إن ما فى هذه الآية نفسها لا ينطبق على النصارى بإطلاق ولا على القساوسة والرهبان الذين نعرفهم. وهذا لا يطعن فى الأديان الأخرى بحال. إنما نحن نفسر كتابنا فحسب. ومعروف أن كل أصحاب دين يرونه أعظم الأديان، ويرون أصحاب الأديان الأخرى مخطئين. إذن فما الصواب فى تفسير (أو "قراءة") الآية؟ الصواب هو أن النص القرآنى السابق لا يتحدث عن النصارى ورجال دينهم على وجه الإطلاق بل على طائفة من قساوسة الحبشة ورهبانها زاروا النبى فى المدينة واستمعوا إلى القرآن يُتْلَى، فجاشت نفوسهم وفاضت عيونهم وأعلنوا إيمانهم وابتهلوا إلى ربهم أن يكتبهم مع القوم الصالحين، فاستجاب الله لهم وأدخلهم الجنة.

عن سعيد بن جبير: "بعَث النَّجاشى إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وقد آمن أصحابه، فقرَأَ عليهِم رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الْقُرْآنَ، فَأَقَرُّوا وَأَسْلَمُوا. وفيهِم نزلتْ هذه الآيةُ: "لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ"، ثم رجَعوا إلى النَّجاشى وأسْلَم. ثم إنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بلَغتْه وفاتُه، فصلَّى عليهِ كما يُصلِّى على الميِّتِ".

وفى "الأعراف" يحكى الله سبحانه أن موسى حين سأل ربه أن يمكِّنه من النظر إليه أجابه ربه أنِ "انظرْ إلى الجبل. فإن استقر مكانه فسوف ترانى". ولما تجلى ربه للجبل اندك الجبل وسقط موسى صعقا... فيأتى بعض القصاصين، طبقا لما نجده فى تفاسير الطبرى والزمخشرى والبغوى والآلوسى مثلا، ليقولوا إن الملائكة كانت تلكز موسى حينئذ بأرجلها وتقول له: يا ابن النساء الحُيَّض، أطمعتَ فى رؤية رب العزة؟ والسؤال: من أين أتى هؤلاء القصاصون السخفاء الحقراء بهذا الكلام؟ إن هذا لا يوجد لا فى قرآن ولا فى سنة. ثم هل تجرؤ الملائكة أن تصنع هذا بنبى من أنبياء الله عز وجل وتقوله له؟ وهل يسكت الله سبحانه فلا يدافع عن نبيه ولا يعنفهم على ما فعلوا وقالوا مما لم يأمرهم به أو يَرْضَه منهم؟ إن القرآن الكريم يقول إن موسى، حينما أفاق مسبحا ربه ومعتذرا عما كان قد طلبه من رؤيته تعالى، قال له رب العزة جل وعلا: "يا موسى، إنى اصطفيتُك على الناس برسالاتى وبكلامى. فخُذْ ما آتيتُك وكن من الشاكرين...". فهل يتسق هذا الخطاب التكريمى مع ما وضعه السخفاء الحقراء على ألسنة الملائكة تقليلا من شأن موسى وشماتة به؟ ألا إن هذا لهو الهوس بعينه. والغريب أن القشيرى قد أورد هذه الرواية إيراد المسلِّم بها عند تفسيره الآية ٣٠ من سورة "القصص": "خرَّ موسى صَعِقا، وكان يفيق والملائكة تقول له: يا ابن الحَيْض، أمِثْلُك مَنْ يسأل الرؤية؟". وأغرب من ذلك وأعجب أن الصوفية يزعمون أنهم يشاهدون الحضرة الإلهية. فكأنهم أفضل من الأنبياء، أيا كان معنى مشاهدتهم للحضرة. فهذه قراءة خاطئة لا تصلح أبدا.

وفى سورة "التوبة" نحب أن نقف أمام الآية ٥٣، فقد لاحظت أن الشيخ الشعراوى فى أثناء تفسيره (أو قراءته) رحمه الله لها قد تطرق إلى قصةٍ كثيرا ما كنا نسمعها فى خطبة الجمعة ونحن صغار

فيمصمص المصلون شفاههم ساخطين على بطلها إن لم يلعنوه، وبخاصة أن اسمه "ثعلبة"، والثعلب، ذكرا كان أو أنثى، مشهور بالمكر والخداع والأذى. قال الشيخ المبجل إن "الحق سبحانه وتعالى يقول: "قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ". أى لن يقبل الله منكم ما تنفقونه. ولكن ما الفرق؟ لقد كان المنافقون يدفعون الزكاة ويقبلها الرسول منهم ولم يرفضها أدبا منه ﷺ. فكل عمل يؤدَّى ثم يذهب إلى الرقيب الأعلى، وهو الحق سبحانه وتعالى. ولكن حدث أن واحدا من هؤلاء هو ثعلبةُ، طَلَبَ من رسول الله ﷺ أن يدعو له بالغنى، فلما دعا له ورزقه الله الرزق الوفير بَخِل عن الزكاة، وحاول أن يتهرب من دفعها، فنزل القول الكريم: "وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ * فَلَمَّآ آتَاهُمْ مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَآ أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ" (التوبة/ ٧٥- ٧٧).

وعندما نزلت هذه الآيات جاء ثعلبة ليدفع الزكاة لرسول الله ﷺ، فلم يقبلها منه. وعندما تُوُفِّىَ رسول الله ﷺ جاء ثعلبةُ إلى أبى بكر رضى الله عنه، فلم يقبل منه الزكاة. وبعد أبى بكر جاء إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فلم يقبلها منه. ومات ثعلبة فى عهد عثمان. هذا هو عدم القبول. ولكن هناك فى عهد الرسول ﷺ من دفع الزكاة من المنافقين وقُبِلَتْ منه، ولكن الله لم يتقبلها منه. إذن فكل عمل قد يُقْبَل من فاعله، ولكن الله سبحانه وتعالى قد يتقبله أو قد لا يتقبله. إذن فالآية معناها أن الله لن يتقبل من هؤلاء المنافقين إنفاقهم فى الخير ولو تقبله البشر. ثم يعطينا الحق سبحانه وتعالى السبب فى ذلك فيقول: "إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ"...".

وقد كنا نتلقى منذ صغرنا هذه القصة بالقبول والتصديق، فهكذا يرويها الخطباء من فوق المنبر يوم الجمعة، ولم يحدث أنْ سمعنا أحدا يعترض عليها أو يتشكك فيها إلى أن كنت فى الطائف فى النصف الأول من تسعينات القرن الماضى معارا إلى كلية التربية هناك، وهى تابعة لجامعة أم القرى بمكة المكرمة، وعلمت أن لأحد زملائنا العرب كتيبا يدافع فيه عن ثعلبة وينفى تماما ما يقال عنه، مؤكدا أنه لم يَكُ من المنافقين، ولا صلة له بآيات سورة "التوبة". ثم انطوى الأمر كله فى ركن من أركان الذاكرة لم يتعرض من يومها للنور إلى أن قرأت ما قاله الشيخ الشعراوى فى تفسيره عن ثعلبة منذ أشهر، فأحببت أن أتناول الموضوع بدورى لأهميته.

وقبل مناقشة هذه القصة ينبغى أن نوردها بتمامها حسبما رواها صاحب "أُسْد الغابة فى معرفة الصحابة": "ثعلبة بن حاطب بن عمرو بن عبيد بن أمية بن زيد بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس الأنصارى، شهد بدرا. قاله مُحَمّد بن إسحاق وموسى بن عقبة. وهو الذى سأل النبى ﷺ أن يدعو الله أن يرزقه مالا... عن أبى أمامة الباهلى قال: جاء ثعلبة بن حاطب الأنصارى إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يرزقنى مالا. فقال: "ويحك يا ثعلبة! قليلٌ تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه". ثم أتاه بعد ذلك فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يرزقنى مالا. قال: "أمَا لك فِى أسوة حسنة؟ والذى نفسى بيده لو أردتُ أن تَسِير الجبال معى ذهبا وفضة لسارت". ثم أتاه بعد ذلك فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يرزقنى مالا. والذى بعثك بالحق لَإِنْ رزقنى

الله مالا لأُعْطِيَنَّ كلَّ ذى حقٍّ حَقَّه. فقال رسول الله ﷺ: "اللهم ارزق ثعلبة مالا، اللهم ارزق ثعلبة مالا". قال: فاتخذ غنما، فنَمَتْ كما يَنْمِى الدود، فكان يصلى مع رسول الله ﷺ الظهر والعصر، ويصلى فى غنمه سائر الصلوات، ثم كثرت ونمت، فتقاعد أيضا حتى صار لا يشهد إلا الجمعة، ثم كثرت ونمت فتقاعد أيضا حتى كان لا يشهد جماعةً ولا جمعةً. وكان إذا كان يوم جمعة خرج يتلقى الناس يسألهم عن الأخبار، فذكره رسول الله ﷺ ذات يوم فقال: "ما فعل ثعلبة؟". فقالوا: يا رسول الله، اتخذ ثعلبةُ غنمًا لا يسعها وادٍ. فقال رسول الله ﷺ: "يا ويح ثعلبة! يا ويح ثعلبة! يا ويح ثعلبة!". وأنزل الله آية الصدقة، فبعث رسول الله ﷺ رجلا من بنى سليم ورجلا من بنى جهينة، وكتب لهما أسنان الصدقة: كيف يأخذان؟ وقال لهما: "مُرَّا بثعلبة بن حاطب وبِرَجُلٍ من بنى سليم فخذا صدقاتهما". فخرجا حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة وأقرآه كتاب رسول الله ﷺ، فقال: ما هذه إلا جزية! ما هذه إلا أخت الجزية! انطلِقا حتى تَفْرُغا ثم عُودَا إلى. فانطلَقا وسمع بهما السلمى، فنظر إلى خيار أسنان إبله فعَزَلها للصدقة، ثم استقبلهما بها، فلما رأياها قالا: ما هذا عليك. قال: خذاه، فإن نفسى بذلك طيبة. فمَرَّا على الناس وأخذا الصدقة، ثم رجعا إلى ثعلبة، فقال: أَرُونِى كتابكما. فقرأه فقال: ما هذه إلا جزية! ما هذه إلا أخت الجزية! اذهبا حتى أرى رأيى. فأقبلا، فلما رآهما رسول الله ﷺ قبل أن يكلماه قال: "ويح ثعلبة!". ثم دعا للسلمى بخير، وأخبراه بالذى صنع ثعلبة، فأنزل الله عز وجل: "وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ"، وعند رسول الله ﷺ رجل من أقارب ثعلبة سمع ذلك، فخرج حتى أتاه، فقال: ويحك يا ثعلبة! قد أنزل الله عز وجل فيك كذا وكذا. فخرج ثعلبة حتى أتى النبى صلى الله عليه وسلم، فسأله أن يقبل منه صدقته، فقال: "إن الله تبارك وتعالى منعنى أن أقبل منك صدقتك". فجعل يحثى التراب على رأسه، فقال رسول الله ﷺ: "هذا عملك. قد أمرتُك فلم تطعنى". فلما أبى رسول الله ﷺ أن يقبض صدقته رجع إلى منزله، وقُبِض رسول الله ﷺ ولم يقبض منه شيئا.

ثم أتى أبا بكر رضى الله عنه حين استُخْلِف، فقال: قد علمتَ منزلتى من رسول الله صلى الله عليه وسلم وموضعى من الأنصار، فاقبل صدقتى. فقال أبو بكر: لم يقبلها رسول الله منك. أنا أقبلها؟ فقُبِض أبو بكر رضى الله عنه ولم يقبلها. فلما وَلِى عمرُ أتاه فقال: يا أمير المؤمنين، اقبل صدقتى. فقال: لم يقبلها منك رسول الله ﷺ ولا أبو بكر. أنا أقبلها؟ فقُبِض ولم يقبلها. ثم ولى عثمان رضى الله عنه، فأتاه فسأله أن يقبل صدقته، فقال: لم يقبلها رسول الله ولا أبو بكر ولا عمر. أنا أقبلها؟ ولم يقبلها. وهلك ثعلبة فى خلافة عثمان رضى الله عنه. أخرجه الثلاثة، ونسبوه كما ذكرناه. وكلهم قالوا: إنه شهد بدرا، وقال ابن الكلبى: ثعلبة بن حاطب بن عمرو بن عبيد بن أمية، يعنى ابن زيد بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف الأنصارى من الأوس، شهد بدرا، وقُتِل يوم أحد. فإن كان هذا الذى فى الترجمة فإما أن يكون ابن الكلبى قد وهم فى قتله، أو تكون القصة غير صحيحة، أو يكون غيره، وهو هو لا شك فيه".

وأول كل شىء أن العلماء يذكرون ثعلبة بين من شهدوا بدرا. وبالفعل ألفيتُ ابن إسحاق مثلا، فى السيرة النبوية، يورده ضمن البدريين. ويتفق هؤلاء العلماء على أن أهل بدر لا يمكن أن يَتَدَهْدَوْا إلى النفاق على النحو الذى تصوِّر به القصةُ المذكورةُ ثعلبةَ بنَ حاطب الأنصارى. كما أن الرسول عليه السلام قد منع عمر بن الخطاب أن يقتل حاطب بن أبى بلتعة، وكان بدريا، رغم إرساله خطابا لأهل مكة ينبههم فيه إلى أن النبى ينوى أن يغزوهم. وقد دفع ابنَ أبى بلتعة إلى هذا خوفُه على ما كان لديه فى مكة من مال، فأراد أن يتقرب بهذه اليد إليهم حتى لا يصادروه. ولما انكشف الأمر وقُبِض فى الطريق إلى مكة على المرأة حاملة الخطاب قبل وصولها إلى أم القرى اقترح ابن الخطاب أن يقتل الصحابىَّ البدرىَّ مرسلَ الرسالة، لكن النبى رفض رفضا باتا، وقال كلمته الخالدة: "لعل الله اطَّلَع على أهل بدر فقال لهم: افعلوا ما شئتم، فقد غفرت لكم"، وذلك لليد الكريمة التى أَوْلَوْها الإسلامَ فى تلك الآونة العصيبة قبل أن يستقر أمره فى المدينة وتقوى شوكة المسلمين ويكثر عددهم ويصير للإسلام جاذبية.

ثم كيف يستعمل ثعلبةُ كلمة "الجزية" فى غير موضعها، وهى لم تستعمل حتى ذلك الحين إلا فى الرومان، الذى أرادوا أن يغزوا المدينة، فجيَّش لهم النبى جيشا أراد أن يريهم به أن المسلمين ليسوا بالصيد الهين نزولا على قوله تعالى فى سورة "التوبة": "قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآَخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (٢٩)"، وفرض الجزية وضع لا ينطبق بأى حال على ثعلبة، بل الأمر محتاج إلى حرب بين المسلمين وبين من لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب ينتصر فيها المسلمون ويَذِلّ فيها أعداؤهم؟ فأين هذا من ثعلبة، وهو مهما يكن من إخلاصِه أو دَخَلِه مُوَاطِنٌ من مواطنى دولة المدينة؟ ثم هل كان ثعلبة ليفكر فى اتخاذ هذا الموقف الذى لا يستطيع أن ينهض بتبعاته؟ وهل كان الرسول ليتركه دون أن يستدعيه ويواجهه بعصيانه وتمرده؟ هل كل من يخرج على الدولة كان الرسول يتركه لحال سبيله؟ ألا إن هذا لغريب. ثم أين عمر المتحمس فلم يظهر فى الصورة مهددا متوعدا على عكس حالات أخرى كان متحمسا لأن يقتل أو يعاقب عقابا صارما من يحسبه من المنافقين أو الخائنين؟

كذلك فالإسلام لا يغلق باب التوبة أبدا فى وجه أى إنسان حتى يغرغر: "إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا" (النساء/ ١٧). وفى الحديث: "اجتمعَ أربعةٌ من أصحابِ النَّبى صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ، فقالَ أحدُهُم: سَمِعْتُ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ: إنَّ اللَّهَ يقبلُ توبةَ العبدِ قبلَ أن يموتَ بيومٍ. فقالَ الآخرُ: أنتَ سمِعتَ هذا من رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ؟ قالَ: نعم. قالَ: وأَنا سَمِعْتُ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ: إنَّ اللَّهَ يقبلُ توبةَ العبدِ قبلَ أن يموتَ بنصفِ يومٍ. فقالَ الثَّالثُ: أنتَ سمِعتَ هذا من رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ؟ قالَ: نعم. قالَ: وأَنا سَمِعْتُ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ يقول إنَّ اللَّهَ يقبلُ توبةَ العبدِ قبلَ أن يموتَ بضحوة. قالَ الرَّابعُ: أنتَ سمِعتَ هذا من رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ

عليهِ وسلَّمَ؟ قالَ: نعم. قالَ: وأَنا سَمِعْتُ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ إنَّ اللَّهَ يقبلُ توبةَ العبدِ ما لم يُغَرْغِرْ بنفسِهِ".

بل إن الله سبحانه لينادى عباده الذين أسرفوا على أنفسهم ألا يقنطوا من رحمة الله، لأنه يغفر الذنوب جميعا وأنه هو الغفور الرحيم كما تقول الآية ٥٣ من سورة "الزُّمَر". ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا أَيُّها الناسُ، توبوا إلى ربِّكم، فواللهِ إنى لأتوبُ إلى اللهِ عَزَّ وجَلَّ فى اليومِ مائةَ مَرَّةٍ"، "إنَّ اللهَ تعالى يَبْسُطُ يدَهُ بالليلِ ليتوبَ مُسِيءُ النهارِ، ويبسطُ يدَهُ بالنَّهارِ ليتوبَ مُسِيءُ الليلِ، حتى تطلُعَ الشمسُ من مغرِبِها"، "إذا كان ثُلُثُ الليلِ أو شَطْرُه يَنزِلُ اللهُ إلى سماءِ الدنيا فيقولُ: هل من سائلٍ فأُعْطِيَه؟ هل من داعٍ فأستجيبَ له؟ هل من تائبٍ فأتوبَ عليه؟ هل من مستغفِرٍ فأغفرَ له؟ حتى يَطْلُعَ الفجر".

وتوبة ثعلبة، حسب القصة التى بين أيدينا، توبة حارة بل لاهبة، إذ ما إن سمع بما نزل فى حقه من وحى حتى انطلق من فوره إلى النبى يعلن ندمه واستغفاره ومعه الزكاة المطلوبة منه، ويضع التراب على رأسه تعبيرا عن الخوف من الله والندم على ما صنع والخجل مما فرط منه. ولم يُعْهَد عن النبى أنه كان يرد تائبا. فماذا ننتظر أكثر من ذلك حتى تكون التوبة حقيقية ونقبلها؟ وهذا إن كان لنا أن نشكك فى صحة التوبة، أية توبة. ومعروف أن الإنسان فى الإسلام يؤخذ، فى مثل تلك الحالات، بظاهره دون محاولة التنقيب عما فى قلبه.

ولدينا هذا الحديث الجميل: "كان فيمن كان قبلكم رجلٌ قتل تسعةً وتسعين نفسًا، فسأل عن أعلمِ أهلِ الأرضِ، فدُلَّ على راهبٍ، فأتاه فقال إنَّه قتل تسعةً وتسعين نفسًا، فهل له من توبةٍ؟ فقال: لا. فقتله فكمَّل به مائةً. ثمَّ سأل عن أعلمِ أهلِ الأرضِ فدُلَّ على رجلٍ عالِمٍ، فقال إنَّه قتل مائةَ نفسٍ، فهل له من توبةٍ؟ فقال: نعم. ومن يحولُ بينه وبين التَّوبةِ؟ انطلق إلى أرضِ كذا وكذا، فإنَّ بها أُناسًا يعبدون اللهَ، فاعبُدِ اللهَ معهم، ولا ترجِعْ إلى أرضِك، فإنَّها أرضُ سوءٍ. فانطلق حتَّى إذا نَصَفَ الطَّريقَ أتاه الموتُ، فاختصمت فيه ملائكةُ الرَّحمةِ وملائكةُ العذابِ، فقالت ملائكةُ الرَّحْمةِ: جاء تائبًا مقبلا بقلبِه إلى اللهِ. وقالت ملائكةُ العذابِ: إنَّه لم يعمَلْ خيرًا قطُّ. فأتاهم مَلَكٌ فى صورةِ آدمى، فجعلوه بينهم، فقال: قِيسوا ما بين الأرضين، فإلى أيَّتِهما كان أدنىَ فهو له. فقاسُوه فوجدوه أدنىَ إلى الأرضِ الَّتى أراد، فقبضتْه ملائكةُ الرَّحمةِ. قال قتادةُ: فقال الحسنُ: ذُكِر لنا أنَّه لما أتاه الموتُ نأَى بصدرِه".

فانظر إلى هذا الحديث الرمزى البديع واسأل نفسك: أى الرجلين أعظم ذنبا؟ ولنلاحظ أيضا أنه فى الوقت الذى لم يصنع فيه قاتل المائة خيرا قط كان ثعلبة، طبقا للقصة، يحمل ما وجب عليه من صدقة إلى النبى فخلفائه الثلاثة الأوائل ويحثو التراب على رأسه ندما وإيمانا وخوفا من الله وخجلا. كما أن ثعلبة كان فى عنفوان عافيته بخلاف القاتل، الذى مات فى منتصف الطريق. فهل يعقل أن يصور الرسول العظيم أمر التوبة هذا التصوير الرائع العظيم المفعم بالأمل والطمأنينة، ثم عند التطبيق يتراجع هذا التراجع غير المفهوم؟

ثم لقد رأينا ثعلبة فى القصة يأتى إلى أبى بكر وعمر فيقول لكل منهما إنه كان صاحب مكانة عند رسول الله. فهل يعقل أن يكون بهذه السذاجة فيظن أنهما سوف يصدقان كذبته هذه، والجميع بقاصيهم ودانيهم يعلم أنه لم تكن له أية مكانة عند رسول الله، بل لقد رفض الرسول رفضا باتا أن يقبل منه الصدقة ورده ردا شديدا طبقا للقصة وقال له مرارا: ويحك يا ثعلبة؟ ثم كيف يرفض النبى وصاحباه من بعده أن يتقبلا الصدقة منه؟ إنها حق الفقراء والمساكين، فكيف يُحْرَم مستحقوها منها؟ كما أن الدولة قد حاربت مانعى الزكاة بعد موت النبى ولم تتركهم وما فعلوا دون عقاب. فلِمَ كان هذا الموقف الغريب منها تجاه ثعلبة وحده؟ أما كلام الآية أن الله لن يتقبل من المنافقين نفقاتهم فمعناه أنه لن يأجرهم عليها يوم القيامة. وأما إذا كان بطل قصتنا قد استُشْهِد بأُحُد فقد "قطعتْ جَهِيزَةُ قولَ كلِّ خطيب".

وهناك نقطة مهمة فى الموضوع، فبقية الآيات التى يقال إنها نزلت فى ثعلبة تقول: "أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلامُ الْغُيُوبِ (٧٨) الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٩) اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٨٠)"، مما لا ينطبق على ثعلبة، إذ لم تذكر القصة أنه كان يسخر من المسلمين الذين كانوا لا يملكون سوى القليل، ومع هذا كانوا يخرجون صدقاتهم طيبى النفس بها، أو أن النبى كان يستغفر له مرارا حتى نزلت الآيات بهذا الحسم الشديد تحرم عليه الاستغفار، بل رفض النبى زكاته على الفور دون أى تردد أو إبطاء ولم يتقبل منه ندما ولا توبة ولا تعاطَفَ معه بتاتا طبقا لما تقول الرواية.

وكيف تقول الآيات الأولى إن الله قد أعقب امتناعَه عن الصدقة نفاقًا فى قلبه إلى يوم يلقاه، وقد رأينا ثعلبة ما إنْ عَلِم بنزول قرآن فيه حتى انتفض من فوره قاصدا الرسول يناشده العفو ويبدى الندم والألم ويعرض عليه الزكاة ويكبش التراب ويضعه على رأسه، ثم لا ييأس من رَوْح الله فيظل يَفِد على خلفاء الرسول الثلاثة الأوائل طوال بضع عشرة سنة لا يَكِلُّ ولا يَمَلُّ طامعا أن تُطْوَى معه تلك الصفحة السيئة؟ أهذا سلوكُ مَنْ تغلغلَ النفاقُ فى قلبه إلى الأبد فلا يخرج منه دَهْرَ الداهِرِين؟ كما وصفته الآية الأخيرة بأنه كَفَرَ بالله ورسوله. فأين الكفر هنا، وكل ما فعله الرجل بعد تنبيه أقاربه له يدل على أنها كانت نزغة من الشيطان سرعان ما ألقاها بعيدا عن قلبه واستقام؟

وإذا كان القرآن، قبيل الآيات التى يزعمون أنها نزلت فى ثعلبة، يقول فى حق فريق من المنافقين أشد على الإسلام وأخطر فى الذنب من ثعلبة: "يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآَخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِنْ وَلِيٍ وَلا نَصِيرٍ (٧٨)" واعدا إياهم أنهم إذا تابوا تاب الله عليهم وكان خيرا لهم فكيف نظن أن الرسول يرفض توبة ثعلبة؟

وفى سورة "الفتح" نقرأ الآيات التالية، وهى فى قبائل نكلت عن الخروج مع الرسول عليه السلام تلبية لنداء الجهاد فى سبيل الله، ومع هذا لم يغلق الله فى وجهها الباب بل اشترط عليهم أن يثبتوا بسلوكهم الجديد أنهم تغيروا وتابوا، وهذا كل ما هنالك: "سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١١) بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا (١٢) وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا (١٣) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (١٤) سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لا يَفْقَهُونَ إِلا قَلِيلا (١٥) قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦)".

وفى سورة "الفرقان" لدى الحديث عن المؤمنين يثنى عليهم ربهم بأنهم "لا يشركون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرَّم اللهُ إلا بالحق ولا يَزْنُون"، ثم تخرج الآية عن طريقها منعطفة إلى من يجترح تلك الكبائر فتتوعده قائلة: "يضاعَفْ له العذابُ يوم القيامة ويَخْلُدْ فيه مُهَانًا" لتعود فتستثنى التائبين قائلة إن المولى سبحانه سوف يبدل سيئاتهم حسنات: "وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٧٠) وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (٧١)". ومن صفات المتقين حسبما نقرأ فى سورة "آل عمران" أنهم هم الذين يفعلون كذا وكذا "وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (١٣٦)".

ولدينا أيضا قصة كعب بن مالك الشاعر المعروف ومرارة بن ربيعةَ العامرى وهلال بن أميةَ الواقفى، الذين تخلفوا فى المدينة عن غزوة تبوك، وتركوا الرسول والمسلمين فلم يخرجوا معهم للحرب ترددًا وتجنبًا للحر الفظيع، وبخاصة أن الوقت كان وقت حصاد رغم أنه كان فى نيتهم الخروج مع الخارجين وتجهزوا لذلك فعلا، ثم لما عاد المسلمون من الغزو قاطعوهم، ثم انتهى الأمر بنزول الآيات التى فى أواخر "التوبة" تتوب عليهم وتفتح لهم الباب ليعودوا من جديد إلى صدر الإسلام الحنون بعدما عاقبوا أنفسهم بأنفسهم، وكأن شيئا لم يكن. قال تعالى فى شأنهم: "لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِي وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا

رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ".

وإذا كان الله عز شأنه يقول فى المنافقين بوجه عام فى سورة "النساء": "إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِى الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (١٤٥) إِلا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (١٤٦)" فماذا نريد من ثعلبة أكثر من هذا إن كانت حكايته صحيحة؟ إن الإصرار، بعد ذلك كله، على صحة قصة ثعلبة من شأنه بث اليأس فى قلوب المذنبين، وبخاصة من قد يبخلون بأموالهم ويسوِّل لهم الشيطان التوقف عن إخراج الزكاة. وهل يكون ثعلبة أشد ذنبا من رأس النفاق ابن أبى سلول، وقد كان النبى ينوى الصلاة عليه حين طلعت روحه رغم كل الذى عمل، وقد عمل الدواهى وسوَّى الهوائل، وخالف الرسولُ ﷺ عُمَرَ فى موقفه منه حين اعترض الفاروق على صلاته عليه لولا أنْ نزل القرآن ينهاه عليه السلام نهيا قاطعا عن الصلاة والاستغفار له؟

وأخيرا كيف يصدِّق الشيخ الشعراوى القصة بكل ما فيها من ثغرات واسعة ولا يستغرب ما زعمه مؤلفوها عن رفض النبى وخلفائه توبة الرجل، وشيخنا يقول للمسلم العاصى فى مفتتح تفسيره عند تناوله للبسملة فى أول "الفاتحة": "بعض الناس يتساءل: كيف أبدأ باسم الله، وقد عصيتُ وقد خالفتُ؟ نقول: إياك أن تستحى أن تقرأ القرآن وأن تبدأ باسم الله إذا كنت قد عصيت. ولذلك أعطانا الله سبحانه وتعالى الحيثية التى نبدأ بها قراءة القرآن فجعلنا نبدؤه باسم الله الرحمن الرحيم. فالله سبحانه وتعالى لا يتخلى عن العاصى بل يفتح له باب التوبة ويحثه عليها ويطلب منه أن يتوب وأن يعود الى الله، فيغفر له ذنبه لأن الله رحمن رحيم. فلا تقل: إننى أستحى أن أبدأ باسم الله لأننى عصيته. فالله سبحانه وتعالى يطلب من كل عاصٍ أن يعود الى حظيرة الايمان، وهو رحمن رحيم. فاذا قلت: كيف أقول: "باسم الله"، وقد وقعت فى معصية أمس؟ نقول لك: قل: "باسم الله الرحمن الرحيم"، فرحمة الله تسع كل ذنوب خلقه، وهو سبحانه وتعالى الذى يغفر الذنوب جميعا"؟

كما يورد الشيخ، فى تعليقه على آية "الرحمن الرحيم" من "الفاتحة" كذلك، هذا الحديث القدسى الذى تنبجس الرحمات منه انبجاسا، والذى قرأت أنه حديث ليس له إسناد، لكن له مع هذا دلالته الشديدة الأهمية فى سياقنا الحالى. يقول الشيخ الكريم: "واقرأ الحديث القدسى لتعرف شيئا عن رحمة الله بعباده. يقول الله عز وجل: "ما من يوم تطلع شمسه إلا وتنادى السماء تقول: يا رب، ائذن لى أن أسقط كِسَفًا على ابن آدم، فقد طَعِم خيرَك ومَنَعَ شكرَك. وتقول البحار: يا رب، ائذن لى أن أغرق ابن آدم، فقد طعم خيرك ومنع شكرك. وتقول الجبال: يا رب، ائذن لى أن أُطْبِق على ابن آدم، فقد طعم خيرك ومنع شكرك. فيقول الله تعالى: دعوهم! دعوهم! لو خلقتموهم لرحمتوهم. إنهم عبادى: فإن تابوا إلى فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم".

وفى "الفتوحات المكية" لابن عربى أنه لما وَلِيَ عثمانُ الخلافةَ جاءه ثعلبةُ بالزكاة، فأخذها منه متأوِّلا أنها حق الأصناف الذين أوجب الله لهم هذا القدر فى عين هذا المال. وقد سَوَّغَ ابنُ عربى

تصرفَ عثمان بأنه اجتهاد منه، وبخاصة أن النبى لم يُفْتِ بعدم قبول زكاته، بل اكتفى بأنه هو نفسه لم يقبلها، وللرسول خصوصيات ينفرد بها ولا تلزم غيره ﷺ كما قال الصوفى الأندلسى.

إذن فقراءة الآية على هذا النحو قراءة خاطئة. لقد أخرجتْ من اعتبارها السياق القرآنى والحديثى والإسلامى كله وشخصية ثعلبة وتاريخه. ومثل تلك القراءة لا تصلح، ولا مناص من أن يقع أصحابها فى عثرات صعبة ويصطدموا بعقبات غير هينة لا تسهل مجاوزتها. فهل نأخذ بتلك القراءة كما هى ونعدها إغناء للنص رغم كل ما فيها من أخطاء وعيوب فادحة؟ هنا نقف أمام أصحاب النظرية التى يدور حولها كتابنا هذا مبينين لهم أن فى بعض المقولات التى ارتبطت بها ضعفا وتهافتا شنيعين وأنهم ينبغى أن يعيدوا النظر فى هذه المقولات على ضوء هذه الأخطاء التى كشفناها.

وأمام ما تثيره الآية السابعة من سورة "هود" من قضية قِدَم العالم أو حدوثه يقف ابن رشد الفيلسوف الأندلسى وقفة مطولة قائلا: "أما مسألة قِدَم العالم أو حدوثه فإن الاختلاف فيها عندى بين المتكلمين من الأشعرية والحكماء المتقدمين يكاد أن يكون راجعا للاختلاف فى التسمية، وبخاصة عند بعض القدماء. وذلك أنهم اتفقوا على أن هاهنا ثلاثة أصناف من الموجودات: طرفان وواسطة بين الطرفين. فاتفقوا فى تسمية الطرفين، واختلفوا فى الواسطة. فأما الطرف الواحد فهو موجود وُجِد من شيء، أعنى عن سبب فاعل ومن مادة، والزمان متقدم عليه، أعنى على وجوده. وهذه هى حال الأجسام التى يُدْرَك تكوّنها بالحس، مثل تكوّن الماء والهواء والأرض والحيوان والنبات وغير ذلك. وهذا الصِّنْف من الموجودات اتفق الجميع من القدماء والأشعريين على تسميتها: "مُحْدَثة". وأما الطرف المقابل لهذا فهو موجود لم يكن من شيء ولا عن شيء ولا تقدمه زمان. وهذا أيضا اتفق الجميع من الفرقتين على تسميته: "قديما". وهذا الموجود مدرك بالبرهان، وهو الله تبارك وتعالى. هو فاعل الكل ومُوجِده والحافظ له سبحانه وتعالى قَدْرُه. وأما الصنف من الموجود الذى بين هذين الطرفين فهو موجود لم يكن من شيء ولا تقدمه زمان، ولكنه موجود عن شيء، أعنى عن فاعل. وهذا هو العالم بأسره.

والكل منهم متفق على وجود هذه الصفات الثلاث للعالم. فإن المتكلمين يُسَلِّمُون أن الزمان غير متقدم عليه أو يلزمهم ذلك، لأن الزمان عندهم شيء مقارن للحركات والأجسام. وهم أيضا متفقون مع القدماء على أن الزمان المستقبل غير متناه، وكذلك الوجود المستقبل. وإنما يختلفون فى الزمان الماضى والوجود الماضى: فالمتكلمون يَرَوْنَ أنه متناهٍ، وهذا هو مذهب أفلاطون وشيعته. وأرسطو وفرقته يَرَوْنَ أنه غير متناهٍ كالحال فى المستقبل. فهذا الوجودُ الآخَرُ الأمرُ فيه بيّن أنه قد أخذ شبها من الوجود الكائن الحقيقى ومن الوجود القديم. فمن غَلَّب عليه ما فيه من شبه القديم على ما فيه من شبه المُحْدَث سماه: "قديما". ومن غَلَّب عليه ما فيه من شَبَه المحدَث سماه: "مُحْدَثا". وهو فى الحقيقة ليس محدَثا حقيقيا ولا قديما حقيقيا، فإن المحدَث الحقيقى فاسد ضرورة، والقديم الحقيقى ليس له علة. ومنهم من سماه: "محدثا أزليا"، وهو أفلاطون وشيعته، لكون الزمان متناهيا عندهم من الماضى. فالمذاهب فى العالم ليست تتباعد كل التباعد حتى يكفر بعضها ولا يكفر. فإن الآراء التى

شأنها هذا يجب أن تكون فى الغاية من التباعد. أعنى أن تكون متقابلة كما ظن المتكلمون فى هذه المسألة. أعنى أن اسم القدم والحدوث فى العالم بأسره هو من المتقابلة. وقد تبين من قولنا أن الأمر ليس كذلك.

وهذا كله مع أن هذه الآراء فى العالم ليست على ظاهر الشرع. فإن ظاهر الشرع إذا تُصُفِّح ظهر من الآيات الواردة فى الإنباء عن إيجاد العالم أن صورته محدثة بالحقيقة، وأن نفس الوجود والزمان مستمر من الطرفين، أعنى غير منقطع. وذلك أن قوله تعالى: "وهو الذى خلق السماواتِ والأرضَ فى ستة أيام وكان عرشه على الماء" يقتضى بظاهره وجودا قبل هذا الوجود، وهو العرش والماء، وزمانا قبل هذا الزمان، أعنى المقترن بصورة هذا الوجود، الذى هو عدد حركة الفلك، وقوله تعالى: "يوم تُبَدَّل الأرضُ غيرَ الأرض والسمواتُ" يقتضى أيضا بظاهره وجودا ثانيا بعد هذا الوجود، وقوله تعالى: "ثم استوى إلى السماء وهى دخان" يقتضى بظاهره أن السموات خُلِقَتْ من شىء. فالمتكلمون ليسوا فى قولهم أيضا فى العالم على ظاهر الشرع بل متأولون، فإنه ليس فى الشرع أن الله كان موجودا مع العدم المحض، ولا يوجد هذا فيه نَصًّا أبدا. فكيف يُتَصَوَّر فى تأويل المتكلمين فى هذه الآيات أن الإجماع انعقد عليه؟ والظاهر الذى قلناه من الشرع فى وجود العالم قد قال به فرقة من الحكماء". ومن حججه العقلية على قدم العالم أن العالم هو فِعْل الله، ومن ثم فإن العقل يحكم بأزليته تبعا للفعل الإلهى فى تلك الأزلية حسبما كتب د. مُحَمَّد عابد الجابرى فى كتابه: "ابن رشد– سيرة وفكر: دراسة ونصوص".

وابن رشد هنا يجرى على خطا أرسطو، فقد كان الفيلسوف اليونانى يقول بقدم العالم، فجاء ابن رشد وبعض متفلسفة المسلمين ورددوا كلامه. وفى مادة "ابن رشد" بالمجلد الأول من موسوعة "Grand Larousse Encylopédique" (ط١٩٦٠م) نقرأ أن ابن رشد، انطلاقا من فلسفة أرسطو فى الأساس، قد طور العناصر المادية والعقلية أكثر مما فعل ابن سينا من قبل. فالمادة والحركة أزليتان وغير مخلوقتين، إذ لا شىء يُخْلَق من عدم، أما الظواهر فهى متناهية فى الماضى والمستقبل على السواء. ورغم وضوح كلام ابن رشد فى قدم المادة التى يتشكل منها العالم، ورغم تسميته الله لا "خالقا"بل "فاعلا" بمعنى إعطائه للمادة الأولى القديمة الأزلية صورها المختلفة التى تظهر من خلالها لنا، يؤكد د. محمود قاسم، فى كتابه: "الفيلسوف المفترى عليه ابن رشد"، أن ابن رشد إنما يقول بالخلق من العدم، ثم لا يكتفى بهذا بل يهاجم من يقولون عن ابن رشد خلاف ذلك. كيف؟ هذا ما لا أفهمه. والعجيب أنه يقول بوجود الزمان كما رأينا قبل خلق السماوات والأرض. ولكن كيف يكون هناك زمانٌ قبل خلق السماوات والأرض، والزمانُ كما يقول ابن رشد هنا ناتج عن عدد حركة الفلك، والفلك لم يكن موجودا بعد، إذ لم يكن هناك سوى الماء والعرش كما قال هو نفسه، ولم تكن السماوات بما فيها من أفلاك قد تم خلقهما؟

ابن رشد يقول إذن بقدم العالم فى الوقت الذى تنص فيه الآيات القرآنية بصريح العبارة على أن الله خالق كل شىء: "بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ

شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (الأنعام/ ١٠١– ١٠٢)، "قَالَ رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى" (طه/ ٥٠)، "الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا" (الفرقان/ ٢)، "إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ" (القمر/ ٤٩). و"كل شىء" يشمل "الماء"، فهو أحد الأشياء المخلوقة التى يتضمنها الكون. ومع هذا يقول ابن رشد إن الماء كان موجودا قبل خلق السماوات والأرض. ووجوده قبل خلق السماوات والأرض معناه عند ابن رشد أنه أزلى بلا بداية، أى لم يُخْلَق، لأن ما كان موجودا منذ الأزل لا يقال عنه: مخلوق. ولكن ها هو ذا الرسول عليه الصلاة والسلام يصف الماء، الذى يرى ابن رشد أنه أزلى، بأنه مخلوق: "خُلِقَ الماءُ طَهُورًا لا يُنَجِّسُهُ شيءٌ". كذلك يفهم من كلام ابن رشد أن الماء يشكل المادة الأولى التى خُلِق منها الكون، فهل كل شىء فى الوجود خُلِق من ماء، ومن ماء فقط، بمعنى أن الماء هو المادة الأصلية التى كانت موجودة منذ الأزل وتُشَارِكُ اللهَ سبحانه وتعالى فى قِدَمه، وخُلِق منها كل شىء؟ بطبيعة الحال ليس الماء هو المكوّن الوحيد فى هذا الوجود، ومن ثم فتفسير فيلسوفنا للآية تفسير غير صحيح، ولا يؤدى إلى ما يريد.

ولا أدرى كيف غفل ابن رشد عن النصوص القاطعة المذكورة آنفا، إلا أن يكون قد دخل الموضوع وفى ذهنه بعض الأفكار المسبقة التى أذهلته عنها. لقد تسربت "الإسرائيليات"، أى عقائد أهل الكتاب، إلى تفسير القرآن الكريم عند بعض المفسرين، وها هو ذا ابن رشد يتسرب إلى تفكيره ما يمكن تسميته بـ"الإغريقيات"، وهى عقائد بعض فلاسفة الإغريق. وكلتاهما خطر على فهمنا للقرآن الكريم، إذ تجعلنا نغفل عن الآيات الأخرى التى ينبغى أن تكون حاكمة على ما نقول. وإذن فأَخْذ بعض الآيات وتفسيرها بعيدا عن أخواتها وسياقها من القرآن والحديث هو اتجاه خاطئ، مع احترامنا لابن رشد احتراما لا يلغى عقولنا ولا يجعل منه ومن أمثاله قيدا على أفكارنا. فهم رجال، ونحن رجال، وعلى كل منا أن يعرض بضاعته الفكرية على القراء مشفوعة بالدليل، وعلى القراء أن يعملوا عقولهم وفكرهم فيما هو مبسوط تحت أعينهم غير واضعين فى اعتبارهم شهرة صاحب البضاعة أو خفاء سمعته.

أما العرش فإذا أخذناه على ظاهره فقد قال الرسول إنه مخلوق، ومن ثم لم يكن لابن رشد هنا أىّ متعلَّق. فعن أبى رزين العقيلى لقيط بن عامر: "قلتُ: يا رسولَ اللهِ، أين كان ربنا قبلَ أن يخلقَ السماواتِ والأرضِ؟ قال: كان فى عماءٍ، ما فوقَه هواءٌ وما تحتَه هواءٌ، ثم خلقَ العرشَ ثم استوى عليهِ". وقال عليه الصلاة والسلام: "كان اللهُ ولا شيءَ معه"، وفى روايةٍ: "ولا شيءَ غيْرُه"، وفى روايةٍ: "ولم يكنْ شيءٌ قبله". وهو ما تقوله الآية القرآنية التالية التى تصفه سبحانه وتعالى ضمن ما تصفه بأنه هو "الأول": "هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ" (الحديد/ ٣). ثم إن القول بأن هناك وجودا أزليا آخر غير وجود الله سبحانه يصادم قوله جل وعلا عن ذاته الكريمة: "لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ" (الشورى/ ١١). كما أن القول بما قاله ابن رشد يمكن أن يكون بابا مفضيا إلى القول

بوحدة الوجود: الله فيها هو روح الكون، والكون هو جسد الله، أو إلى القول بإلهين: الله، والمادة الأولى التى منها جاء الكون. أليست هذه المادة مثل الله أزلية كما جاء فى كلام ابن رشد؟

أما فهم ابن رشد لقوله تعالى: "وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ" (هود/ ٧) فهو أن العرش والماء أزليان. وهذا الفهم يستند إلى وجود "الواو" فى "وكان عرشه على الماء". وسواء كانت هذه الواو واوا حالية أو واوا استئنافية فلا يعنى هذا بالضرورة أن وجود العرش والماء يمتد فى الماضى إلى ما لا نهاية، بل المعنى أن عرشه سبحانه وتعالى كان عند خلق السماوات والأرض على الماء. ترى هل إذا قلت: "إن المدرس شرح الدرس وكانت السبورة ممسوحة" كان لازما أن السبورة كانت منذ الأزل ممسوحة؟ أبدا. بل المعنى أنها كانت عند شرح المدرس الدرس ممسوحة. أما هل كانت ممسوحة منذ الأزل فليس شرطا، بل المفهوم أنها لا يمكن أن تكونه.

هذا عن العرش والماء، وبقى الكلام فى الدخان، الذى فهم ابن رشد من الآية التالية أنه كان موجودا قبل وجود الكون: "قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِى مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ * ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِى دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِى كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ" (فُصِّلَتْ/٩– ١٢). ابن رشد، للأسف، يظن أن الآية تتحدث عن خلق السماوات والأرض فى حين أنها تتحدث عما بعد مرحلة الخلق. لقد خلق الله الأرض وانتهى الأمر، ثم انتقلت القضية إلى مرحلة تالية هى مرحلة إنشاء الرواسى وتقدير الأقوات فيها ومباركتها. وبالمثل تم خلق السماء، ثم انتقل الأمر إلى مرحلة قضائها سبع سماوات وتزيينها بالمصابيح. فاستواء الله سبحانه إلى الدخان لم يكن قبل خلق السماء كى يقول ابن رشد إنه كان هناك دخان قبل الخلق، بل كانت السماء دخانا آنذاك، بما يعنى أنها كانت موجودة فعلا، ولكنها كانت على شكل دخان، ثم قضاها الله سبع سماوات. هذا هو الأمر على حقيقته لا كما يقول ابن رشد. ومن هذا كله يتبين لنا عدم صحة ما قاله فيلسوفنا الأندلسى من أنه كانت هناك موجودات مع الله منذ الأزل هى الماء والعرش والدخان. وعلى أية حال فإن القول بأزلية المادة معناه أننا ننفى عن الله سبحانه وتعالى الخلق. ذلك أن الخلق هو الإيجاد من عدم، وابن رشد يقول إنه لم يكن هناك عدم بَتَّةً. وعلى هذا فإن الله لم يخلق شيئا قط، بل كل ما صنعه ويصنعه وسيصنعه إنما هو تحويل المادة الموجودة منذ الأزل من صورة لأخرى. ودمتم! وهذا ما يستطيعه البشر أيضا أو يستطيعون مثله على نحو أو على آخر.

نعم إن عملية الخلق بهذا الشكل الذى يتصوره ابن رشد تنحصر فى تغيير الصور وتقتصر عليها، وهذا نزول بالقدرة الإلهية إلى مستوى قدرة البشر، إذ نحن لا نكف طوال الوقت عن تغيير صور الأشياء إلى صور أخرى. إننا مثلا نأتى إلى مواد البناء من زلط وأسمنت ورمل وماء ونعجن هذه الأشياء بمقادير معينة وبطريقة معينة ونصبها على شكل أعمدة وسقوف تحتوى على أسياخ حديدية فيتكون منها فى النهاية بيت، أى تنشأ عنها صورة لم يكن لها وجود من قبل. وهكذا فى كل ما نصنع

ونكتب ونخطط. فهل يريد ابن رشد أن يقصر الخلق الإلهى على هذا؟ إذن لا فرق بين الله والإنسان ما دام خلق الأشياء من العدم لا وجود له. وهناك التوالد الذاتى، وهو كامن فى طبيعة الكائنات الحية، ولا يفد عليها من الخارج. فهو أيضا ليس خلقا من العدم، بل هو أحد التطورات التى لحقت بالمادة الأولى الأزلية. فانظر إلام يؤدى بنا تفكير ابن رشد.

ويقول ابن رشد فى "مناهج الأدلة": إنه ليس فى الشرع أنه سبحانه مريد بإرادة حادثة ولا قديمة. وإن الشرع لم يصرح فى لفظه بمعنى الحدوث الذى فى الشاهد، وإن جاء فيه التمثيل مطابقا لذلك المعنى تنبيها منه للعلماء على أن حدوث العالم ليس هو مثل الحدوث الذى فى الشاهد. وإنما أطلق عليه لفظ "الحدوث" الذى فى الشاهد، وتصور الحدوث الذى أدى إليه البرهان عند العلماء فى الغائب. وأنا أتفق معه فى أن الله لم يقل شيئا مما يقوله هو وغيره من المتكلمين والمتفلسفة عن الإرادة القديمة أو الحديثة، بيد أنه سبحانه لم يقل أيضا أى شىء مما يقوله هو من أن العالم قديم وأنه لم يخلقه بل فاض عنه، وهو مما لا يعقل أبدا، إذ كيف يفيض العالم عنه ثم يكون رغم هذا أزليا مثله؟ إن الفيض يقتضى أن يكون الأصلُ الذى فاض عنه العالم قد سبق ذلك العالم، وإلا لم يكن هناك فيض. وإذا كان الأمر كذلك فكيف يقول ابن رشد ذاته إن العالم قديم قدم الله؟ لقد ذكر الله أنه خلق كل شىء، فلم التحذلق والتكلف وتسوية المخلوق بالخالق؟ ألم يقل الله سبحانه: "ليس كمثله شىء"؟ فكيف يُسَوِّى ابن رشد بين الله والعالم فى الأزلية؟ وكيف يقول ذلك بكل تداعياته من أن العالم غير مخلوق، والرسول يخبرنا بقول صريح فصيح بأن الله فى الأصل كان ولا شىء معه؟

وفى رسالته عن ابن رشد يقول العقاد، نقلا عن موريس دى وولف (Maurice de Wulf) عضو المجمع العلمى البلجيكى فى وقته وصاحب كتاب "Histoy of Medieval Philosophy"، إن ابن رشد كان يؤمن بأن "المادة قديمة مع الله لأن العدم لا يتعلق به عمل خالق... وهى عاجزة عن العمل، ولكنها ليست خواء تناط به الصور كما فى مذهب الأفلاطونية الحديثة، بل هى قابلية عامة تشتمل على الصور المختلفة. ومع حضور هذه المادة القديمة يُخْرِج منها الخالقُ قواها العاملة، وينشأ العالم المادى من أثر هذا الخلق الدائم. ولا بد من تتابع هذه الحركات بلا بداية ولا نهاية".

فما الذى بقى لله من عمل الألوهية بعدما عرفنا أن المادة التى سيتوفر سبحانه عليها موجودة منذ الأزل، اللهم إلا استخراج ما هو موجود فيها بالقوة، وهو ما نصنع شيئا كبيرا منه نحن البشر؟ فما الفرق إذن؟ ثم من يا ترى خلق تلك المادة القديمة؟ واضح أنها تقف إلى جانب الله عز وجل رأسا برأس، وهو ما يمكن أن يؤدى إلى الاعتقاد بوحدة الوجود أو الإيمان بأن هناك إلهين كما سبق القول. كذلك كيف نصف الله بأنه "الخالق"، وهو لم يخلق شيئا؟ أليس الخلق هو إيجاد شىء من العدم؟ يقول ابن رشد إن العدم لا يتعلق به خلق. فمن أين له بذلك؟ وما معنى الألوهية إذن إذا كانت قدرات الله مقيدة ولا تتعلق إلا بما هو موجود فعلا؟ ثم من يا ترى الذى أودع فى المادة القديمة قواها العاملة التى تنحصر قدرة الله فى استخراجها؟ الواقع أننى لا أستطيع أن أشارك ابن رشد هذه الفكرة الغريبة التى أراها لا تنسجم مع مفهوم الألوهية فى ديننا وكما أفهمها. فقراءة ابن رشد هنا، كما نرى،

هى قراءة خاطئة، ولا يعقل أن نقول إنها قراءة شرعية، فقد وجدنا أنها فى كل عنصر من عناصرها تصطدم بآيات القرآن والمنطق العقلى.

والآن ننتقل إلى خطإٍ قِرَائِيٍّ آخر. فقد قرأت لمحمد لطفى جمعة فى كتابه: "نظرات عصرية فى القرآن الكريم" أن قوله تعالى فى سورة "النحل": "وَلاَ تَكُونُواْ كالَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِى أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ. إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِ، وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ" هو إشارة إلى بينيلوب زوجة الملك الإغريقى يوليسس وما كانت تصنعه، أثناء غيابه فى حرب طروادة كى تذود عن نفسها كبار رجال الدولة الطامعين فى الزواج منها وفى تبوُّإ عرش المملكة، إذ كانت تعكف بالنهار أمامهم على غزل قطعة قماش لتنقض ما غزلته ليلا ثم تعيد غزله من جديد تحت أبصارهم نهارا قائلة لهم: لن أتزوج قبل الانتهاء من قطعة القماش هذه. ولا أظن هذا صحيحا، إذ نَقْضُ الغَزْل فى الآية رمز على الغدر والخيانة بينما هو فى حكاية بينيلوب رمز على الوفاء والصبر والعفة واحترام الزوج الغائب. ثم إن كتب التفسير تذكر صراحة أن القرآن إنما يشير إلى امرأة خرقاء بمكة كانت تغزل صوفها ثم تعود فتنقض ما كانت غَزَلَتْه. فتصرُّفها هذا دليل الخُرْق والحماقة لا الوفاء والإخلاص. كذلك أين الإغريق وأساطيرهم وملاحمهم من العرب وثقافتهم آنذاك؟ إننا لم نعرف شيئا عن بينيلوب ويوليسيس إلا فى العصر الحديث، أما علماؤنا القدامى فلم يكونوا على علم بشىء من هذا. ولا أذكر أننى قابلت أية إشارة إلى ذلك الموضوع على أى نحو من الأنحاء ولا إلى أى من أبطاله فى الكتب القديمة. فهذه قراءة خاطئة للنص القرآنى، ولا ينبغى أن نتركها تمر دون تنبيه وتصحيح. أما القول بأن كل القراءات متساوية الشرعية والأهمية فهو كلامٌ عارٍ عن المنطق فى ضوء الحجج التى قدمناها وبينا من خلالها تهافت تلك القراءة القائمة على إغفال السياق النصى والتاريخى.

وفى تفسير قوله تعالى من سورة "الإسراء" المكية مخاطبا نبيه مُحَمَّدا: "وإذا قرأتَ القرآنَ جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا" نجد القشيرى فى "لطائف الإشارات" يشرحه قائلا: "أدخلناك فى إيوان حفظنا، وضربنا عليك سرادقات عصمتنا، ومنعنا الأيدى الخاطئة عنك بلطفنا" مما يفهم منه أن المقصود بـ"الحجاب المستور" هو منع إيذاء المشركين من الوصول إلى رسول الله مع أن المراد هو انغلاق عقولهم وقلوبهم فى وجه دعوة الحق التى جاءهم عليه السلام بها: فهم إذا تُلِيَ عليهم القرآن صَمَّتْ عنه آذانهم، وإذا سمعوه سُدَّتْ عن فهمه أفئدتهم... وهكذا. وإن الآية التالية لهذه الآية لتقطع بأن هذا هو المراد بلا أدنى ريب، إذ تقول: "وجعلنا على قلوبهم أَكِنَّةً أن يفقهوه، وفى آذانهم وَقْرًا. وإذا ذكرتَ ربَّك فى القرآن وحده وَلَّوْا على أدبارِهم نفورا".

ثم كيف يقول إن الله سبحانه وتعالى قد منع الأيدى الخاطئة من الوصول إلى رسوله بالإيذاء وإنه قد عصمه مع أن العصمة من الإيذاء لم تنزل إلا بالمدينة فى قوله تعالى: "يا أيها الرسول، بَلِّغْ ما أُنْزِل إليك من ربك. وإن لم تفعلْ فما بَلَّغْتَ رسالته. والله يَعْصِمك من الناس"، فما كان منه صلى الله عليه وسلم إلا أن قال لحراسه على الفور: انصرفوا أيها الناس، فإن الله قد عصمنى. أما فى مكة

فقد كان الأذى ينصب عليه من كل جانب، فيتهمه المشركون بأنه كذاب وساحر وكاهن وشاعر، كما كان بعضهم يلقى عليه سَلا الجَزُور ويضع الشوك والوساخات أمام بيته. وعندما ذهب إلى الطائف، أملا فى أن تلقى دعوته بها مصيرا أفضل وقلوبا ألين وعقولا أكثر انفتاحا ومرونة، أغرى أهلُها صبيانَهم وعبيدَهم وسفهاءَهم فطاردوه بالحجارة حتى ألجأوه إلى بستان هناك يحتمى به من سفاهتهم وعدوانهم البربرى. وواضح من تفسير القشيرى أنه أهمل السياق التاريخى والقرآنى، ولم يقرأ النص قراءة سليمة لأنه عزل الآية عما حولها، فَسَهَا وخلط بين الفترة المكية والفترة المدنية.

كذلك يقف أركون، فى كتابه: "القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الدينى"، إزاء قوله تعالى فى الآية الخامسة والعشرين من سورة "الكهف" عن المدة التى بقيها أصحاب الكهف فى كهفهم: "ولبثوا فى كهفهم ثلاثَمائةٍ سنين وازدادوا تسعا"، وَهْمًا منه أن فيها شذوذا لغويا، إذ كان ينبغى أن يكون الكلام فى رأيه هكذا: "ثلاثَمائةِ سنةٍ" لا "ثلاثمائةٍ سنين"، وهو ما يرتِّب عليه هذا الجاهل الإمعة افتراض "العديد من الافتراضات حول شروط أو ظروف تثبيت النص" جريا وراء ريجى بلاشير المستشرق الفرنسى. ثم يضيف فى الهامش قائلا إن "النقد الفيلولوجى يكشف عن أشياء مذهلة ويطرح تساؤلات عديدة، ولكن من دون أن يستطيع القطع بشىء". يقصد أن منهج المستشرقين السابقين لم يكن يساعدهم على الاستفادة من النتائج التى يتوصلون إليها، بخلاف منهجه هو الذى يسوِّل له أن يطير بكل شبهة مطنطنا بها ومخطِّئا القرآن دون تبصر أو مراجعة! ترى هل من المنهج العلمى أن يطير الباحث مع أوهامه الناشئة عن قصور علمه وشدة حقده دون أن يراجع نفسه لعله قد أخطأ أو تسرَّع أو سَهَا أو فاتته أشياء يجهلها؟ المعروف بين العالمين جميعا أن حرص المسلمين على قراءة القرآن فى الصلاة وخارج الصلاة يتعبدون به ويتقربون إلى الله منذ بداية نزوله حتى الآن كان له دور عظيم فى الحفاظ على النص القرآنى فى الذاكرة المسلمة، ومُحَمَّد أركون لا يمارى فى ذلك، إذ يقول فى نفس الكتاب: "إن الاستخدام الطقسى أو الشعائرى للنص القرآنى ساهم بالتأكيد وبشكل مبكر فى تثبيته". بيد أنه سرعان ما يمضى قائلا: "لكن لهذا الاستخدام بالذات تاريخ لا نعرفه، بمعنى أننا لا نعرف متى بدأ المسلمون يستخدمون النص القرآنى كنص عبادى فى الصلوات والطقوس، ولا كيف تطور ذلك على مدار التاريخ". ترى هل يُعْقَل أن أركون يجهل منذ متى شرع المسلمون فى قراءة القرآن فى صلواتهم وعباداتهم؟ إن قراءة القرآن هى فى حد ذاتها عبادة وقربى إلى الله، وهو ما يعنى، لهذا السبب على الأقل، أنها قد بدأت منذ اللحظة الأولى لنزوله: فى الصلاة وخارج الصلاة.

ثم هل يظن المستشرقون وتوابعهم من القُفَف أن من حقهم، وهم الأعاجم، وبعد كل هذه القرون المتطاولة، أن يخطِّئوا أسلوب القرآن حتى لو قلنا معهم إن صاحبه هو مُحَمَّد بن عبد الله؟ أليس ما يقوله مُحَمَّد هو الصواب الذى يُحْتَجّ به لا الخطأ الذى يُسْتَدْرَك على صاحبه؟ إن مُحَمَّدا لا يختلف فى هذه الحالة عن أى شاعر أو خطيب جاهلى، فضلا عن أى أعرابى ممن كان العلماء يسعَوْن إلى البادية للالتقاء بهم وأخذ اللغة عنهم، فلماذا هو من دون العرب جميعا الذى ينبغى أن يكون مخطئا؟

ألأن هذا التركيب وأمثاله لم ترد فى كتب النحو التى تُدْرَس فى المدارس؟ لكن متى كانت هذه الكتب تستوعب كل إمكانات اللغة العربية فى الجاهلية قبل أن تُقَنَّن القواعد على النحو الذى نعرفه فى كتب النحو والصرف الخاصة بالطلاب الصغار؟ إن القرآن نفسه، رغم كونه المثال الأعلى فى الفصاحة العربية، لا يستوعب هذه الإمكانات، فكيف يفكر أحد فى محاكمته إلى كتب الطلاب الصغار الذين أُريد الابتعاد بهم عن كل ما يخرج عن القوالب البسيطة المباشرة ولا يعرفون من هذه الإمكانات إلا أقل القليل؟ إن هذا لأشبه بمن يريد نَطْل البحر بكستبان إبرة! ومن المعلوم للجميع أن إعراب اللغة العربية يعطيها مرونة عالية فى تركيب العبارة، إذ مهما قدّمنا أو أخرنا أو حذفنا فإن الإعراب يُسَهِّل التعرف على وظيفة الكلمة رغم ذلك فى معظم الأحيان.

إن بلاشير وأركون وأمثاله يتصورون أن اللغة العربية لا تعرف إلا وضعا واحدا لكل حالة من حالات التمييز، ومن هنا فإنهم لا يتخيلون أن من الممكن مجىء تركيب الكلام فى تمييز "ثلاثمائة" وأمثالها إلا هكذا: "ثلاثمائةِ سنةٍ، ستمائةِ امرأةٍ، تسعمائةِ كتابٍ" بإفراد التمييز وخفضه على الإضافة كما ترى. لكن هذا، وإن كان هو ما يعرفه التلاميذ، ليس كل شىء، إذ كان العرب أيضا يجمعون المعدود فى هذه الحالة مع الإضافة أو قطعها. وما دام هذا الاستعمال قد ورد فى القرآن فمعنى ذلك أنه صحيح حتى لو كان مُحَمَّد هو مؤلف القرآن، بل حتى لو قلنا إن القرآن قد تعرض لتدخل من العرب بعد وفاة الرسول حسبما يزعم الزاعمون. ولو كان فى هذا التركيب شبهة خطإ ما سلم الرسول ولا القرآن من ألسنة المشركين والنصارى واليهود والمنافقين فى جزيرة العرب لحظة واحدة. وفى المثال الذى نحن بصدده من سورة "الكهف" يمكننا أن نركِّب الكلام على أكثر من وضع فنقول: "ثلاثَمائةِ سنةٍ، ثلاثَمائةٍ من السنين، سنين ثلاثَمائةٍ، ثلاثمائةٍ سنين، ثلاثمائةِ سنين، ثلاثَ مئاتٍ من السنين، ثلاثَ مئين من السنين، مئين ثلاثًا من السنين، مئاتٍ ثلاثًا من السنين، ثلاثًا من مئات السنين"، ولكلٍّ نكهتها وظلالها الإيحائية. وقد سبق فى هذا الكتاب أن عالجنا هذا الموضوع بالتفصيل، فلا لزوم للمضى فيه هنا أبعد من ذلك.

كذلك وجه المبشرون للقرآن انتقادات علمية بناء على قراءة خاطئة للنص منها ما يتعلق مثلا بما جاء فى الآية ٨٦ من سورة "الكهف" عن ذى القرنين ومشاهدته الشمس وهى تغرب فى عين ماء، مما يخالف حقائق علوم الفلك كما قيل. والآية المشار إليها هى قوله تعالى: "حَتَّى إِذَا بَلَغَ (أى ذو القرنين) مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا...". ومن المعروف فى كتب اللغة أن حروف الجر ينوب بعضها عن بعض، بمعنى أن هناك توسعا فى استعمالها. بل إن فى اللغة توسعات كثيرة فى غير حروف الجر أيضا. وتدخل هذه التوسعات فى باب "المجاز"، وهو ما يعنى أن الكلام لا ينبغى فى هذه الحالة أن يؤخذ على ظاهره أو حرفيته. ولْنأخذ حرف الجرّ: "فى" (الموجود فى الآية) لنرى ماذا يقول النحاة فى استعمالاته: فهم يقولون إنه يُسْتَخْدَم فى عشرة معانٍ: الأول الظرفية، زمانًا أو مكانًا، حقيقةً أو مجازًا، ومن الزمانية: "حضرتُ إلى الاجتماع فى العاشرة مساء"، ومن المكانية: "سكنتُ فى هذا البيت أعواما طوالا". الثانى المصاحبة،

نحـــو قولـــه تعـــالى: "ادخلـــوا فى أُمَـــمٍ"، أى بمـــصاحبتها. الثالـــث التعليـــل، نحـــو "فَذَلِكُم الذى لُمْتُنَّنى فيه"، أى بسببه. الرابع الاستعلاء، نحو قوله تعالى: "ولأُصَلِّبَنَّكم فى جذوع النخل"، أى عليها. الخامس مرادفة الباء، نحو: "فلان بصير فى الموضوع الفلانى"، أى بصير به. السادس مرادفة "إلى" نحو قوله تعالى: "فرَدّوا أيديهم فى أفواههم"، أى مَدَّ الكفار أيديهم إلى أفواه الرسل ليمنعوهم من الدعوة إلى الهدى والنور. السابع مرادفة "مِنْ". الثامن المقايسة، وهى الداخلة بين مفضولٍ سابقٍ وفاضلٍ لاحقٍ، كما فى قوله سبحانه: "فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل"، أى أن متاع الحياة الدنيا بالقياس إلى الآخرة قليل. التاسع التعويض، كما فى قولنا: "دفعتُ فى هذا الكتاب عشرين جنيها". العاشر التوكيد، وأجازه بعضهم فى قوله تعالى: "وقال: اركبوا فيها"، أى أن الركوب لا يكون إلا فى السفينة، ولذلك لا ضرورة للنص على ذلك إلا من باب التوكيد (انظر فى ذلك مثلا "مغنى اللبيب" لابن هشام).

وفى القرآن الكريم نقرأ قوله عز وجل: "يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حَذَرَ الموت"، والمقصود أن كلا منهم يضع طرف إصبع واحدة من أصابعه عند فتحة الأذن، لا فى داخلها. ونقرأ: "وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعلٌ فى الأرض خليفة، وطبعا لم يجعل المولى الإنسان خليفة فى الأرض، أى فى باطنها، بل على سطحها. ونقرأ: "وأُشْرِبوا فى قلوبهم العِجْل بكفرهم"، وليس المقصود العجل نفسه بل عبادته، وهى لا تُشْرَب ولا تدخل فى القلب بالمعنى الذى نعرفه. ونقرأ: "قل: أتحاجّوننا فى الله، وهو ربنا وربكم؟"، أى أتحاجّوننا بشأن الله؟ ونقرأ: "قد نرى تقلُّب وجهك فى السماء، فلَنُوَلِّيَنَّك قِبْلَةً ترضاها"، أى صوب نواحى السماء، وليس فى السماء فعلا. ونقرأ: "ليس البِرَّ أن تُوَلُّوا وجوهكم قِبَل المشرق والمغرب، ولكن البِرَّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حُبّه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب"، والإنسان لا ينفق ماله فى الرقاب، بل يعتق به الرقاب. ونقرأ: "يا أيها الذين آمنوا، كُتِب عليكم القِصَاص فى القتلى"، أى مقابل جريمة القتل وتعويضا لأهل القتيل. ونقرأ: "وإذا تولَّى سَعَى فى الأرض ليُفْسِد فيها"، أى فوقها. ونقرأ: "والذين يُتَوَفَّوْن منكم ويَذَرُون أزواجا وصيةً لأزواجهم متاعًا إلى الحَوْل غيرَ إخراج. فإن خرجن فلا جُناح عليكم فى ما فعلن فى أنفسهن من معروف"، أى فعلن بأنفسهن. ونقرأ: "وكتبنا له فى الألواح من كل شيءٍ موعظةً وتفصيلًا لكل شيء"، أى على الألواح. ونقرأ: "وإذ يُريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلا ويقلِّلكم فى أعينهم ليقضى الله أمرا كان مفعولا"، أى أمام أعينكم وأعينهم. ونقرأ: "يا أيها النبى، قل لمن فى أيديكم من الأسرى:..."، ولا يمكن إنسانا أن يكون فى يد إنسان آخر بالمعنى الحرفى كما هو واضح. ونقرأ: "الذين كانت أعينهم فى غطاءٍ عن ذِكْرِى"، والعيون لا تكون فى الغطاء، بل تحت الغطاء. ونقرأ: "وأَذِّنْ فى الناس بالحج يأتوك رجالا"، أى أذِّن بحيث يسمعك الناس. ونقرأ: "... وتقلُّبك فى الساجدين"، أى معهم. ونقرأ: "فإذا أُوذِى فى الله جَعَل فتنة الناس كعذاب الله"، أى أُوذِىَ بسبب إيمانه بالله. "أَوَمَنْ يُنَشَّا فى الحِلْيَة وهو فى الخصام غير مُبِين؟"، والنساء لا ينشأن فى الحلية بل يرتدينها ويستمتعن بها. ونقرأ: "إن المتقين فى

جنّات ونَهَر"، والمتقون فى الآخرة سيكونون فعلا فى الجنات، لكنهم بكل تأكيد لن يكونوا فى النهر، بل ستجرى الأنهار فى الجنات. ونقرأ: "فى سِدْرٍ مخضود"، وهم لن يكونوا فى الجنة فى شجر السِّدْر، بل سيأكلون منه. ونقرأ: "أولئك كَتَب فى قلوبهم الإيمان"، ولا كتابة فى القلوب بالمعنى الظاهرى بطبيعة الحال ولا حتى فوقها. ونقرأ: "ثم فى سلسلةٍ ذَرْعُها سبعون ذراعا فاسلكوه"، أى اربطوه بها. ونقرأ: "فى جِيدها حبلٌ من مَسَد"، أى حَوْل جيدها... وهكذا.

وفى الكتاب المقدس عند اليهود والنصارى أمثلة كثيرة على ما نقول، وهو أمر طبيعى، فهذه هى طبيعة اللغة، سواء فى كتاب الله أو فى كلام أهل الكتاب أوفى أى كلام آخر. وهذه بعض الأمثلة من الكتاب المذكور: "كل شجر البرية لم يكن بعدُ فى الأرض" (تكوين/ ٢/ ٥)، "وكان قايين عاملا فى الأرض" (تكوين/ ٤/ ٢)، "وأما نوح فوجد نعمة فى عينى الرب" (تكوين/ ٦/ ٨)، "كان نوح رجلا بارا كاملا فى أجياله" (تكوين/ ٦/ ٩)، "تُنْجِح طريقى الذى أنا سالك فيه" (تكوين/ ٢٤/ ٤٢)، "فوضعت الخزامة فى أنفها" (تكوين/ ٢٤/ ٤٧)، "فأحب إسحق عيسو لأن فى فمه صيدا" (تكوين/ ٢٥/ ٢٨)، "فتعاظم الرجل وكان يتزايد فى التعاظم" (تكوين/ ٢٦/ ١٣)، "فالآن، يا ابنى، اسمع لقولى فى ما أنا آمرك به" (تكوين/ ٢٧/ ٨)، "ويتبارك فيك وفى نسلك جميع قبائل الارض" (تكوين/ ٢٨/ ١٤)، "وخلع فرعون خاتمه من يده وجعله فى يد يوسف وألبسه ثياب بوص ووضع طوق ذهب فى عنقه" (تكوين/ ٤١/ ٤٢)، "فتقدموا إلى الرجل الذى على بيت يوسف وكلموه فى باب البيت" (تكوين/ ٤٣/ ١٩)، "أليس هذا هو الذى يشرب سيدى فيه؟" (تكوين/ ٤٤/ ٥)، "وحمل بنو إسرائيل يعقوب أباهم وأولادهم ونساءهم فى العجلات التى أرسل فرعون لحمله" (تكوين/ ٤٦/ ٥)، "ومرّروا حياتهم بعبودية قاسية فى الطين واللبن وفى كل عمل فى الحقل" (خروج/ ١/ ١٤)، "خرج إلى إخوته لينظر فى أثقالهم" (خروج/ ٢/ ١١)، "ما بالكنّ أسرعتنّ فى المجيء اليوم؟" (خروج/ ٢/ ١٨)، "وقال الرب لموسى: عندما تذهب لترجع الى مصر انظر جميع العجائب التى جعلتها فى يدك واصنعها قدام فرعون" (خروج/ ٤/ ٢١)، "فذهب والتقاه فى جبل الله وقبّله" (خروج/ ٤/ ٢٧)، "هما اللذان كَلّما فرعون ملك مصر فى إخراج بنى إسرائيل من مصر" (خروج/ ٦/ ٢٧)، "الدمامل كانت فى العرّافين وفى كل المصريين" (خروج/ ٩/ ١١)، "تخبر فى مسامع ابنك وابن ابنك بما فعلتُه فى مصر وبآياتى التى صنعتها بينهم" (خروج/ ١٠/ ٢)...إلخ.

ومن هنا كان من السهل أن ندرك معنى قول القرطبى مثلا فى الآية المذكورة: "وَيَجُوز أَنْ تَكُون الشَّمْس تَغِيب وَرَاءَهَا (أى وراء العَيْن الحَمِئَة) أَوْ مَعَهَا أَوْ عِنْدهَا، فَيُقَام حَرْف الصِّفَة مَقَام صَاحِبه". يقصد أن حروف الجر قد ينوب بعضها عن بعض، بمعنى أن يُسْتَعْمَل بعضها فى مكان بعضها الآخر. وفى نفس المجرى يجرى ما نجده عند البغوى وأبى حيان، إذ نقرأ فى تفسير الأول نقلا عن القتيبى أنه يجوز أن يكون المعنى هو أنه كان "عند الشمس" أو "فى رأى العين" عين حمئة، أما الثانى فقد ذكر أن بعض البغداديين يفسر قوله تعالى: "فى عين حمئة" بمعنى "عند عين حمئة".

بل إن فى الكتاب المقدس عبارات كثيرة من نوع الآية القرآنية التى بين أيدينا بل أَوْغَل فى مضمار الاستخدامات المجازية، ومنها الشواهد التالية: "أما هما فى عبر الأردن وراء طريق غروب الشمس فى أرض الكنعانيين..." (تثنية/ ١١/ ٣٠)، "هكذا يبيد جميع أعدائك يا رب. وأحباؤه كخروج الشمس فى جبروتها" (قضاة/ ٥/ ٣١)، "هكذا قال الرب: هأنذا أقيم عليك الشر من بيتك وآخذ نساءك أمام عينيك وأعطيهنّ لقريبك فيضطجع مع نسائك فى عين هذه الشمس" (صموئيل ٢/ ١٢/ ١١)، "وقلت لهما: لا تفتح أبواب أورشليم حتى تَحْمَى الشمس" (نحميا/ ٧/ ٣)، "قدام الشمس يمتد اسمه" (مزامير/ ٧٢/ ١٧)، "ثم رجعت ورأيت كل المظالم التى تجرى تحت الشمس" (الجامعة/ ٤/ ١)، "ويخجل القمر وتَخْزَى الشمس" (إشعيا/ ٢٤/ ٢٣)، "وأظلمت الشمس وانشقّ حجاب الهيكل من وسطه" (لوقا/ ٢٣/ ٤٤)، "إنك قد طردتنى اليوم عن وجه الارض ومن وجهك أختفِى وأكون تائها وهاربا فى الأرض. فيكون كل من وجدنى يقتلنى" (تكوين/ ٤/ ١٤)، "وفسدت الأرض أمام الله وامتلأت الأرض ظلما" (تكوين/ ٦/ ١١)، "الآن قم اخرج من هذه الأرض" (تكوين/ ٣١/ ١٣)، "وأُدْخِلكم إلى الأرض التى رفعت يدى أن أعطيها لإبراهيم" (خروج/ ٦/ ٨)، "واستراحت الأرض من الحرب" (يشوع/ ١٤/ ١٥)، "دور يمضى ودور يجيء والأرض قائمة إلى الأبد" (جامعة/ ١/ ٤)، "فوجدها ملاك الرب على عين الماء فى البرية. على العين التى فى طريق شور" (تكوين/ ١٦/ ٧).

وقبل كل ذلك فإن الكلام هنا ليس كلاما فى علم الطبيعة أو الجغرافيا أو الجيولوجيا، بل هو كلام أدبى يقوم فى جانب منه على التعبيرات المجازية والتجسيدية والتشخيصية وما إلى ذلك. باختصار: هذه هى طبيعة اللغة. فالحرف "فى" فى الآية الكريمة لا يعنى "داخل العين الحمئة" لأن الآيات القرآنية التى تذكر الشمس تتحدث عنها على أنها جِرْمٌ موجودٌ فى الفضاء لا يغادره أبدا، بل يعنى أنه قد تصادف وقوع غروب الشمس حين كان ذو القرنين فى ذلك المكان عند العين الحمئة، وإن كان ما شاهده بعينه يوحى أنها قد غربت فى تلك العين. وحتى لو قيل إنها لم تغرب فى العين بل وراء العين أو عند العين أو ما إلى ذلك، فإن هذا كله لا يصح من الناحية العلمية، فالشمس لا تبتعد ولا تختفى، بل الأرض هى التى تتحرك حولها، فتبدو الشمس وكأنها هى التى تغيب. وبعضهم يقول إن الآية تستعمل الفعل: "وجدها" تغرب فى عينٍ حمئةٍ، ومعنى هذا أنها كانت تغرب فى العين فعلا. وهذا غير صحيح، فنحن مثلا عندما يُسْأَل الواحد منا عن صحته: "كيف تجدك اليوم؟" (أى "كيف حالك؟") يجيب قائلا: "أجدنى بخير وعافية"، وقد يكون هذا القائل مريضا لكنه لا يدرى لأن أعراض المرض ليست من الوضوح أو لأنه من الاندماج فى حياته اليومية بحيث لا يتنبه لحالته الصحية الحقيقية. وبالمثل يمكن أن يقول الواحد منا (صادقا فيما يظن) إنه وجد فلانا يضرب ابنه عند البيت، بينما الحقيقة أنه كان يضرب ابن الجيران مثلا، لكن المتكلم توهم الأمر على ما قال. كذلك فالمصاب بعمى الألوان قد يقول إنه وجد البطيخة التى اشتراها خضراء على عكس ما أكد له

البائع، ثم يكون العيب فى الشارى لا فى البائع ولا فى البطيخة. وقد كفانا المتنبى فى قوله:

ومن يَكُ ذا فمٍ مُرٍّ مريضٍ يجدْ مُرًّا به الماءَ الزُّلالا

مؤنة التوضيح بأنّ وجْداننا الشىء على وضعٍ ما لا يعنى بالضرورة أنه على هذا الوضع فى الحقيقة والواقع. وفى القرآن مثلا: "فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقضّ فأقامه"، وليس هناك فى أى مكان فى الدنيا جدار عنده إرادة: لا للانقضاض ولا للبقاء على وضعه الذى هو عليه، لأن الجدران من الجمادات لا من الكائنات الحية ذوات الإرادة. كذلك فعندنا أيضا قوله عز شأنه: "والذين كفروا أعمالُهم كسرابٍ بقِيعَةٍ يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفّاه حسابه"، ولا يمكن القول أبدا بأن الآية على معناها الحرفى، فالله سبحانه لا ينحصر وجوده فى مكان من الأمكنة، بل الكون كله مكانا وزمانا وكائنات فى قبضته عز وجل، ومن ثم لا يمكن أن يوجد عند السراب، وهذا من البداهة بمكان لأنه سبحانه وتعالى هو المطلق الذى لا يحده حد.

والطريف أن بعض المفسرين الذين رجعت إليهم بعد ذلك يقولون إنه لو كانت الآية قالت إن الشمس "كانت تغرب" فى العين فعلا لكان ثم سبيل لانتقادها، أما قولها إن ذا القرنين "وجدها تغرب" فى العين فمعناه أن ذلك هو إدراكه للأمر لا حقيقته الخارجية. ومن هؤلاء البيضاوى، وهذه عبارته: "ولعله بلغ ساحل المحيط فرآها كذلك، إذ لم يكن فى مطمح بصره غير الماء، ولذلك قال: وجدها تغرب، ولم يقل: كانت تغرب"، وهذا الذى قاله أولئك المفسرون هو الصواب. وفى الكتاب المقدس لدى اليهود والنصارى شىء مثل ذلك، ومنه هذا الشاهدان: "وأما نوح فوجد نعمة فى عينى الرب" (تكوين/ ٦/ ٨)، "فوجدها ملاك الرب على عين الماء فى البرية. على العين التى فى طريق شور" (تكوين/ ١٦/ ٧). فالنعمة لا توجد فى عين الرب على سبيل الحقيقة، فضلا عن أن الله لا يمكن أن يُرَى ولا أن تُرَى عينه (إن قلنا إن له سبحانه عينا لكنها ليست كأعيننا). كما أن المرأة التى وجدها ملاك الرب لم تكن "على" العين، بل "عند" العين. أى أن الحقيقة الخارجية فى كلا الشاهدين لم تكن على حَرْفِيّة ما جاء فى العبارتين.

وفوق ذلك فكثيرا ما يتحدث الأدباء والشعراء الغربيون أنفسهم عن سقوط الشمس أو غوصها أو غروبها فى البحر أو فى السهل أو ما إلى هذا كما فى النصوص التالية: "Alone stood I atop a little hill, And beheld the light-blue sea lying still, And saw the sun go down into the sea" (من قصيدة بعنوان "AN EPISTLE" لـNumaldasan)، و "The sun sinks down into the sea" (من رواية "The Water-Babies" لـCharles Kingsley)، و "The Sun came up upon the left, out of the sea came he! And he shone bright, and on the right Went down into the sea" (من قصيدة "The Rime of the Ancient Mariner" لكوليردج)، و "The red sun going down into the sea at Scheveningen" (من "Letter from Theo van Gogh

to Vincent Gogh van Auvers-sur-Oise, 30 June 1890")، و "The sun sank slowly into the sea" (من مقال "The Light Of The Setting Sun" لـRocky)، و "Just then the sun plunged into the sea it popped out from behind the gray cloud screen that had obscured the fiery disk" (من مقال بعنوان "Taps for three war buddies" فى موقع sun-herald.com)، و"le soleil descendre dans l'ocean…" (من "L'ILE DES PINGOUINS" لأناتول فرانس)، و "Le soleil, disparu dans la mer, avait laissé le ciel tout rouge, et cette lueur saignait aussi sur les grandes pierres, nos voisines" (من "En Bretagne " لجى دى موباسان)، و "Spectacle saisissant, que le soleil couchant dans ces dunes impressionnantes" (من مقال "RAID EN LIBYE"لـRoger Vacheresse)، و "On comprend aussi que la blessure de Réginald a quelque chose du Soleil plongeant dans la mer" (من "LES CHANTS DE MALDOROR" لـle comte de Lautréamont).

كذلك فمن معانى "العين" فى العربية "الناحية"، ولا مشكلة فى هذه. ومن معانيها أيضا "البحر"، ولذلك وجدنا من مترجمى القرآن من يترجمها بمعنى "بحر" أو "بحيرة". وهأنذا أسوق إلى القارئ الكريم بعض ما جاء فى كتب التفسير القديمة: ففى القرطبى مثلا: "وَقَالَ الْقَفَّال: قَالَ بَعْض الْعُلَمَاء: لَيْسَ الْمُرَاد أَنَّهُ انْتَهَى إِلَى الشَّمْس مَغْرِبًا وَمَشْرِقًا ووَصَلَ إِلَى جِرْمهَا وَمَسّهَا، لأَنَّهَا تَدُور مَعَ السَّمَاء حَوْل الأَرْض مِنْ غَيْر أَنْ تَلْتَصِق بِالأَرْضِ، وَهِى أَعْظَم مِنْ أَنْ تَدْخُل فِى عَيْن مِنْ عُيُون الأَرْض، بَلْ هِى أَكْبَر مِنْ الأَرْض أَضْعَافًا مُضَاعَفَة، بَلْ الْمُرَاد أَنَّهُ انْتَهَى إِلَى آخِر الْعِمَارَة مِنْ جِهَة الْمَغْرِب وَمِنْ جِهَة الْمَشْرِق، فَوَجَدَهَا فِى رَأْى الْعَيْن تَغْرُب فِى عَيْن حَمِئَة، كَمَا أَنَّا نُشَاهِدهَا فِى الأَرْض الْمَلْسَاء كَأَنَّهَا تَدْخُل فِى الأَرْض. وَلِهَذَا قَالَ: "وَجَدَهَا تَطْلُع عَلَى قَوْم لَمْ نَجْعَل لَهُمْ مِنْ دُونهَا سِتْرًا"، وَلَمْ يُرِدْ أَنَّهَا تَطْلُع عَلَيْهِمْ بِأَنْ تُمَاسّهُمْ وَتُلاصِقهُمْ، بَلْ أَرَادَ أَنَّهُمْ أَوَّل مَنْ تَطْلُع عَلَيْهِمْ. وَقَالَ الْقُتَبِى: وَيَجُوز أَنْ تَكُون هَذِهِ الْعَيْن مِنْ الْبَحْر، وَيَجُوز أَنْ تَكُون الشَّمْس تَغِيب وَرَاءَهَا أَوْ مَعَهَا أَوْ عِنْدهَا، فَيُقَام حَرْف الصِّفَة مَقَام صَاحِبه. وَاَللَّه أَعْلَم". وفى ابن كثير: "وَقَوْله: "حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِب الشَّمْس"، أَى فَسَلَكَ طَرِيقًا حَتَّى وَصَلَ إِلَى أَقْصَى مَا يُسْلَك فِيهِ مِنْ الأَرْض مِنْ نَاحِيَة الْمَغْرِب، وَهُوَ مَغْرِب الأَرْض. وَأَمَّا الْوُصُول إِلَى مَغْرِب الشَّمْس مِنْ السَّمَاء فَمُتَعَذِّر، وَمَا يَذْكُرهُ أَصْحَاب الْقَصَص وَالأَخْبَار مِنْ أَنَّهُ سَارَ فِى الأَرْض مُدَّة، وَالشَّمْس تَغْرُب مِنْ وَرَائِهِ، فَشَيْءٌ لا حَقِيقَة لَهُ. وَأَكْثَرُ ذَلِكَ مِنْ خُرَافَات أَهْل الْكِتَاب وَاخْتِلاق زَنَادِقَتهمْ وَكَذِبهمْ. وَقَوْله: "وَجَدَهَا تَغْرُب فِى عَيْن حَمِئَة"، أَى رَأَى الشَّمْس فِى مَنْظَره تَغْرُب فِى الْبَحْر الْمُحِيط. وَهَذَا شَأْن كُلّ مَنْ انْتَهَى إِلَى سَاحِله يَرَاهَا كَأَنَّهَا تَغْرُب فِيهِ، وَهِى لا تُفَارِق الْفَلَك الرَّابِع الَّذِى هِى مُثْبَتَة فِيهِ لا تُفَارِقهُ". وفى الجلالين: "حَتَّى إذَا بَلَغَ مَغْرِب الشَّمْس: مَوْضِع غُرُوبهَا "وَجَدَهَا تَغْرُب فِى عَيْن حَمِئَة": ذَات حَمْأَة، وَهِى الطِّين الأَسْوَد. وَغُرُوبهَا فِى الْعَيْن فِى رَأْى الْعَيْن، وَإِلاَّ فَهِى أَعْظَم مِنْ الدُّنْيَا". وأرجو ألا يغيب عن ناظر القارئ الحصيف كيف أن ابن كثير يلقى باللوم فى أمر التفسيرات الخرافية فى الآية على زنادقة أهل الكتاب وكذابيهم، مما يدل على

أن القوم هم هكذا من قديم لم تتغير شِنْشِنَتهم، وأن فريقا من علمائنا كانوا واعين بالدور الشرير الذى كانوا يضطلعون به لتضليل المسلمين بإسرائيلياتهم، وكانوا يعملون على فضح سخفهم ومؤامراتهم.

وإلى القارئ شيئا من النصوص القرآنية التى تبين أن هناك مسارا سماويا دائما للشمس والقمر: "فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا" (أى بنظام وحساب دقيق: الأنعام/ ٩٦)، "هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ" (يونس/ ٥)، "وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَار" (إبراهيم/ ٣٣)، "وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى" (لقمان/ ٢٩)، "لا الشَّمْسُ يَنْبَغِى لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَار" (يس/ ٤٠)، "وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا" (أى فى السماوات السبع: نوح/ ١٦)، "إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ" (أى خُلِعَتْ من مسارها يوم القيامة، بما يعنى أنها لا تفارق هذا المسار قبل ذلك الحين: التكوير/١). وقد صادفتُ بحثا فى المشباك بعنوان " Orbits of Earth, Moon, & Sun: 18 RELEVANT VERSES REGARDING THE SUN'S & MOON'S: ORBIT, ROTATION AND LIFE " لكاتب وقَّع باسم "Frank" يستشهد بهذه الآيات وأمثالها على ما قلناه هنا، ويردّ من خلالها على من يتهمون القرآن بأن ثمة أخطاء علمية فى حديثه عن الشمس والقمر والأجرام السماوية، مؤكدا أننا ما زلنا حتى الآن نقول إن "الشمس غربت فى البحر" كما جاء فى الآية التى يدور حولها هذا المقال: " we still use expressions such as the sun set into the sea, as is used in verse 18:86".

وفى النهاية أحب أن أقول للقارئ إن هناك وجها آخر فى تفسير الآية الكريمة يجنِّبها كل هذا اللغط رأيت ابن حزم فى كتابه: "الفِصَل فى الملل والنِّحَل" يقول به ويرفض كل ما سواه، وهو أن الذى كان فى "عين حمئة" ليس هو الشمس، بل ذو القرنين نفسه. والمعنى حينئذ هو أن الرجل قد أدركه المغرب (أو أدرك هو المغرب) وهو فى العين الحمئة. وتركيب الجملة يسمح بهذا بشىء غير قليل من الوجاهة، وإن لم يكن هو المعنى الذى يتبادر للذهن للوهلة الأولى. وفى هذه الحالة سيكون شِبْه جملة "فى عين حمئة" ظرفًا متعلقًا بفاعل "وجدها" وليس بالمفعول، أى أنه يصور حال ذى القرنين لا الشمس، وإن كان من المفسرين من يرفض هذا التوجيه كأبى حيان فى "البحر المحيط"، إذ يرى فيه لونا من التعسف. وسأضرب لهذا التركيب مثلا أَبْسَط يوضح ما أقول، فمثلا لو قلنا: "ضرب سعيدٌ رشادًا واقفا" لجاز أن يكون المعنى هو أن سعيدا ضرب رشادا، وسعيد واقف، أو أن يكون المعنى هو أن سعيدا ضرب رشادا، ورشاد واقف. والسياق هو الذى يوضح ما يراد.

ولننتقل إلى قراءة خاطئة أخرى، فأذكر ما كان يقوله زميل لى أيام كنت مدرسا مساعدا فى قسم اللغة العربية بآداب عين شمس فى قوله سبحانه من سورة "مريم" عن الكفار الذين يقولون إن الله اتخذ ولدا وعن حالهم يوم القيامة بعدما سدوا آذانهم وعصبوا عيونهم فى الدنيا حتى لا يدركوا شيئا من الحق: "فاختلف الأحزاب من بينهم، فويلٌ للذين كفروا من مشهدِ يومٍ عظيمٍ * أَسْمِعْ بهم وأَبْصِرْ يوم يأتوننا. لكنِ الظالمون اليومَ فى ضلالٍ مبين"، إذ كان يقرأ الآية على أساس أن المعنى "تعالَوْا فاسْمَعُوهم

وأبصِروهم يوم القيامة"، ولسوف تجدون حالهم مختلفا. وفاته أن التركيب تركيب تعجب مثل "ما أسمعهم! وما أبصرهم!". وقد درسه فيما درس ضمن مقرر النحو فى درس أسلوبى التعجب: "ما أفعله! وأَفْعِلْ به" فى المراحل المدرسية المختلفة علاوة على درسه فى الجامعة بتوسع. ورغم هذا جاءت قراءته للآية خاطئة، وفهمه مفارقا للصواب. فهل نترك مثل تلك القراءة تمر ونقبلها على أساس أنها قراءة من القراءات وأن كل القراءات سواء فى الأهمية ولا ينبغى التفريط فيها؟ هذه أول مرة أسمع أنه ينبغى التعامل مع القراءة الخاطئة بهذا الاحترام لا لشىء إلا لمجرد أنها قراءة من القراءات.

ولدن تناول الشيخ مُحَّد متولى الشعراوى لقوله تعالى من سورة الحج: "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِىٍ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِى أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِى الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ" يستطرد فيقول: "ومن بشريته ﷺ أنه تعرّض للسحر، وهذه واقعة لا تُنْكَر، وقد ورد فيها أحاديث صحيحة. وقد كاد الكفار لرسول الله بكل أنواع الكيد: استهزاءً وسبابًا واضطهادًا وإهانةً، ثم تآمروا عليه بلَيْلٍ ليقتلوه، وبَيَّتُوا له فلم يُفْلِحوا. قال تعالى: "وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ". وكاد الله لرسوله وأخرجه من بينهم سالما، وهكذا فضح الله تبييتهم وخيَّب سَعْيهم، وفَشِلَتْ محاولاتهم الجهرية والسرية، فلجأوا إلى السحرة ليفعلوا برسول الله ما عجزوا هم عنه، وعملوا لرسول الله سحرًا فى مُشْطٍ ومُشَاطةٍ من شعره ﷺ وطَلْع نخلة ذكَر، ففضحهم الله وأخبر رسوله بذلك فأرسل الإمام عليًّا فأتى به من بئر ذروان. وكأن الحق سبحانه يريد أنْ يُبيِّن لنا بشرية الرسول وأنه يجرى عليه ما يجرى على البشر، لكن ربه لا يترك بشريته وحدها، وإنما يعصمه بقيوميته".

وواضح أن الشيخ يؤمن بحقية السحر بالمعنى الشائع وبأن النبى قد أصيب به. على أن الأمر لا يقف عند هذا الحد، إذ هناك روايات أخرى تقول إن شَعْر رسول الله قد تساقط، وكان يخيل له أنه يأتى الشىء ولا يأتيه، وإنه كان يذوب ذوبا، واستمر ذلك مدة. ومعناه أن أحواله كلها قد اضطربت، والعياذ بالله، وكأن النبوة لعب عيال يستطيع اليهود الأدناس أن يؤثروا فى صاحبها كل هذا التأثير الشنيع، وهو الذى أدبهم الأدب الشرعى وأراهم حجمهم الصحيح وجعلهم يمشون على العجين فلا يلخبطونه أبدا، وطهر منهم ومن إجرامهم وتآمراتهم وفتنهم بلاد العرب. وقد سبق أن تناولت هذه النقطة فى فصل سابق من هذا الكتاب بكثير من التفصيل وأكدت أنى لا أومن بأى تأثير للسحر، إذ هو مجرد خفة يد وتخييلات باطلة ودعاوى عريضة دون أى أساس. وواضح أن لكل منا، أنا وفضيلة الشيخ الشعراوى، فى موضوع سحر النبى عليه الصلاة والسلام طريقا مختلفا تماما.

هذا، وقد قرأت بتاريخ الأحد ٢١ أكتوبر ٢٠١٨ فى جريدة "المصريون" الضوئية مقالا بعنوان "مجموعة من الساحرات يؤذين مسؤول أمريكى شهير على الهواء" حرره أحمد عادل شعبان جاء فيه: "تفاجأت وسائل الإعلام الأمريكية بمجموعة من ساحرات نيويورك يقمن بتنفيذ تهديدهن بإيذاء القاضى الامريكى بريت كافانو بسبب ما قيل عن تحرشه بالنساء. وأثار كافانو الجدل عقب ترشيحه من قبل الرئيس دونالد ترامب لعضوية المحكمة العليا، وصَدَّق مجلس الشيوخ على تعيينه فى وقت

سابق من الشهر الحالى. وحضر طقوسَ السحر عشراتُ الأشخاص فى بروكلين، كما بُثَّت الفعالية على الإنترنت. وحسب منظِّمى الطقوس فقد استخدمت الساحرات تعويذةً الهدفُ منها "كشفُ شخصية كافانو الحقيقية وإلحاق الضرر به وإفشاله فى عمله". يعتزم المنظمون صرف الأموال التى يجمعونها فى هذه الفعاليات للجمعيات المهتمة بالرعاية الصحية للنساء. وفى المقابل أعلن القس الكاثوليكى غارى ثوماس فى كاليفورنيا عن إقامة صلوات بهدف إبطال أعمال السحر التى تستهدف القاضى. وقال القس عن الطقوس المقامة فى نيويورك: هذه أعمال شريرة، ولا علاقة لها بحرية التعبير.

وكانت مجموعة الساحرات نفسها نظمت طقوسا مشابهة للانتقام من الرئيس الأمريكى دونالد ترامب، وباعت جميع التذاكر المتاحة للمشاركين فى الطقوس. وقالت المجموعة إنها تعرضت للمضايقات من قبل بسبب نشاطها، ولكن حدة الكراهية والتهديد بالقتل التى تلقتها بعد إعلانها إقامة طقوس سحر انتقاما من كافانو كانت أكبر بكثير من الموجات السابقة. وأكدت الساحرات أن أعمالها ضد ترامب كانت فعالة، إذ "كشفت شخصية ترامب الحقيقية على مختلف المستويات، بداية من التحقيق بشأن تلاعب روسيا إلى مشاكله المالية، إلى قضية ستورمى دانيلز". وأوضحت أن السحر ممارسة وليس طقوسا دينية، فهو ما نفعله لا ما نؤمن به".

وتعليقى على هذا أن الساحرات المزعومات لم يحددن نوع الضرر الذى سيلحقنه بالقاضى كافانو فى عمله. ومن ثم فكلامهن كلام عام وعائم. فإذا أصيب القاضى بنزلة برد فسيقلن: سِحْرُنا هو السبب. وإذا أصابه إسهال فسيقلن إن سِحْرَهن هو السبب. وإذا عاركته امرأته وخبطته روسية فلقت دماغه فسوف يقلن إنهن هن السبب. وإذا تعطلت سيارته وذهب يصلح إطارها عند "بتاع الكاوتش" فسيقلن إن ما مارسنه ضده من سحر هو السبب. وإذا شكته امرأة أو فتاة تحرش بها، وهذا أمر متوقع جدا ما دام فى هذا الرجل الشائب العائب أبى عيون زائغة ذلك الداء، فسوف يؤكدن أن تعزيمهن هو السبب. فكلامهن، كما قلت، يمكن تطويعه وتوجيهه فى أى اتجاه لأنه كلام عائم وغائم. كما أن حديثهن عن الضرر الذى ألحقنه بترامب لا يصدق، فلسن هن اللاتى فضحنه، بل خصومه السياسيون. وفى السياسة فى أمريكا لا يتركون الناجح فى انتخابات رئاسة البلاد يهنأ بنجاحه بل يُنَخْرِبون وراءه فى كل مكان وعند كل شخص يعرفه، ويظلون يجمعون المعلومات والأدلة من هنا وها هنا، ويجندون فى ذلك المحامين والمخبرين السريين، وينفقون الأموال الطائلة فى ذلك بغية تحطيمه وإزاحته إن أمكن من منصبه والإتيان بشخص آخر من حزبهم. وعلى كل حال فترامب راسخ حتى الآن على صدر أمريكا بل وعلى صدر العالم أجمع رغم كل هذا السحر المزعوم. ثم إن الساحرات يتحدثن عما يتلقينه من التهديدات بالقتل وما إلى ذلك. فهن إذن مسكينات مثلى لا حول لهن ولا قوة، وإلا لقد كان ينبغى أن يضررن من يهددهن ويُشْلِلْنَه فلا يستطيع حولا ولا طولا. أليس هذا ما يقوله المنطق؟ لكن لا تنس أننا فى أمريكا، وأمريكا لا طنطا هى بلد الأونطا!

وإذا ما بحثنا عما يقوله القرآن الكريم عن السحر ألفينا ما يلى: فعن سحرة فرعون حين أَلْقَوْا حبالَهم وعِصِيَّهم بعدما طلب منهم موسى أن يلقوها قبل أن يلقى هو عصاه يقول الحق تبارك وتعالى:

"قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ"، وفى موضع آخر قال سبحانه عن موسى حينما ألقى السحرة أدوات سحرهم: "فإذا حبالُهم وعِصِيُّهم يخيَّل إليه مِنْ سِحْرهم أنها تَسْعَى". فالأمر، كما يقول القرآن، مجرد تخييل واسترهاب للعيون. وقد هددهم موسى بأن ما جاؤوا به مجرد سحر سوف يبطله الله: "ما جِئْتُم به السِّحْرُ. إن اللهَ سيُبْطِله. إن الله لا يُصْلِح عَمَلَ المفْسِدين". وحين لقفت عصا موسى الحبال والعصى قال سبحانه: "فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ". وفى موضع آخر من القرآن: "ولا يُفْلِح السَّاحِرُ حيث أَتَى". وفى سورة "يونس" يقول موسى: "وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ". فالسحر، كما نرى، مجرد تخييلات وإيهامات باطلة لا تنتهى إلى شىء. وقد ذكر الشيخ الشعراوى فى بعض أحاديثه أنه كان ذات مرة فى زيارة للهند، وشاهد ساحرا يأتى أشياء عجيبة باهرة، فكلف أحدَهم أن يصوب آلة التصوير على الساحر أثناء تأديته سحره ويصور ما يفعله، ثم لما حَمَّضوا الصورة لم يجدوا سوى الساحر دون سحره، فتبين له رحمه الله أنه مجرد تخييلات كما قال القرآن العظيم. وليس من المعقول أن يبذل الواحد منا كل جهده طبقا لسنن الكون فى أداء عمل ما، ثم يأتى أحدهم فيفسد هذا كله بكلمة يعزّم بها أو حجاب يكتبه أو عمل سخيف يأتيه لا يخضع لمنطق أو قانون، بل مجرد شغل بكاشين. ولا ريب أن هذا موقف جميل للشيخ من السحر، لكنه للأسف يصدق رغم ذلك بأن النبى قد سُحِر.

وفى تفسير الآية ١١٦ من سورة "الأعراف" عن سحرة فرعون وحبالهم وعصيهم التى ألقَوْها واسترهبوا بها أعين الناس يقول الحافظ ابن كثير: "أى خَيَّلوا إلى الأبصار أن ما فعلوه له حقيقة فى الخارج، ولم يكن إلاّ مجرد صنعة وخيال". ويقول الشيخ ابن عاشور فى "التحرير والتنوير" عن إبطال الله سبحانه للسحر: "وإبطاله إظهار أنه تخييل ليس بحقيقة، لأن إظهار ذلك إبطال لما أريد منه، أى أن الله سيبطل تأثيره على الناس بفضح سره". وفى تفسير الآية ٧٧ من سورة "يونس" يقول رشيد رضا إن "السحر أمور شعوذة وتخييل لا تلبث أن تفتضح وتزول"، وهو ما كرره بمعناه لدن تفسير الآية رقم ٨١: "إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُ، أى سيظهر بطلانه للناس وأنه صناعة خادعة لا آية خارقة صادعة". ومع هذا فطوائف كثيرة جدا من المسلمين تعتقد فى صحة السحر وفى قدرته على تغيير طبيعة الأشياء. وعبثا تحاول إقناعهم بأن الله قد أجرى كونه على قوانين مطردة منضبطة، فقد تصلبت شرايين أمخاخهم على هذا الاعتقاد، ومهما جئتهم بالحجج والآيات فلن تستطيع تحويلهم عن أماكنهم التى تمترسوا فيها، وكأنهم يؤدون فرض عين بهذا التصلب والتمترس. أما العلم فلا يحظى منهم باهتمام.

وفى مقال منشور فى صحيفة "اليوم السابع" بتاريخ الجمعة الأول من يونيه ٢٠١٨ وتحت عنوان "خلال برنامج "الإمام الطيب، الإمام الأكبر: السحر هو تخييل يحدث للرائى، ولا أساس له فى واقع الأشياء" ذكر الصحفى كاتب المقال أن د. أحمد الطيب قد أشار "إلى أن السحر ليس من خوارق العادات، وإنما هو تخييل يرجع إلى خفة فى اليد أو يرجع إلى الشعوذة، والساحر إنما يؤثر فى أعين الناس فيجعلها ترى أشياء لا حقيقة لها فى واقع الأمر، مبينا أن الفرق بين المعجزة والسحر

يكمن فى أن المعجزة حقيقة تؤثر فى ذوات الأشياء، كما أنه تستحيل معارضتها والرد عليها بمعجزة أخرى، بينما السحر تخييل يتعامل مع الأعين لا مع الأشياء، كما أن السحر علم يمكن أن يُتَعَلَّم ويُعَارَض بمثله. واختتم فضيلة الإمام الأكبر حديثه بأن السحر لا يقلب حقائق الأشياء ولا يغيرها ولا يؤثر فيها، وإنما هو تخييل يحدث للرائى، وليس له أى مقابل موضوعى فى واقع الأشياء، مستنكرا على الساحر الذى يتعب نفسه ويصنع له حلقة كى يربح من خلالها بعض النقود بقوله: فلماذا لا يجلس فى بيته ويسحر لنفسه ويتربح من خلالها؟ ألا يكون ذلك أفضل له من السير فى الشوارع بغية أن يحصل من هذا أو ذاك على مبلغ ليقتات به؟".

وثم قضية هامة جدا تتصل بالآيات التالية فى آخر سورة "الشعراء": "وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ (٢٢٧)" وبآيات سورة "يس" حيث يقول سبحانه عن نبيه مُحَمَّد عليه السلام: "وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآَنٌ مُبِينٌ (٦٩) لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧٠)"، إذ يعتمد بعض دارسى القرآن على هاتين الآيتين للقول بأن القرآن يكره الشعراء ويدينهم ويحرِّم نَظْمَ الشعر. وهذه قراءة لِذَيْنِك النصين. وعلينا، طبقا لبعض أصحاب النظرية التى بين أيدينا على الأقل، أن نخلع القبعة أو العمامة أو الطاقية أو الغترة أو المنديل المحلاوى (حسب غطاء الرأس القومى لكل منا) تحية واحتراما لتلك القراءة وأصحابها لأنها قراءة شرعية مثلها مثل أية قراءة أخرى. هذه طريقة أصحابنا فى القراءة والحكم عليها، أما نحن فسبيلنا سبيل مختلف. وإليكم البيان.

ففى آيات أخرى من القرآن العظيم نسمع المشركين يتهمون الرسول بأنه شاعر، أى أن ما يتلوه عليهم من القرآن ليس من عند الله بل شعرا من بُنَيَّات عقله وأهوائه وأوهامه كأى شاعر يقول ما يتراءى له فى خياله بمبالغاته وتصاويره التى لا يراعَى فيها حق ولا باطل بل التأثير على السامعين بكل سبيل. فالقرآن الكريم ينفى أن يكون مُحَمَّد شاعرا، ويؤكد بالعكس أنه رسول اختاره الله لتبليغ رسالته إلى البشرية بدءا من قبيلته ومدينته وصولا إلى العالمية. وحين ينفى القرآن أن يكون شعرا أو يكون مُحَمَّد شاعرا فهو يقرر الحقيقة، فليس القرآن شعرا لأنه من الناحية الشكلية أولا لا يتكون من قصائد كل قصيدة مكونة من أبيات مقفاة وكل بيت مكون من شطرين. كما أنه عليه السلام لا يضع فى ذهنه أن يقول شيئا من لدنه بل يتلقى الوحى فيبلغه كما هو. وثانيا فالقرآن ليس مديحا ولا هجاء ولا وصفا للخمر ولا حديثا عن القمار ولا غزلا ولا وصفا للصحراء والناقة والحصان ولا بكاء فى الديار والأطلال ولا رثاء لمن مات من رجال القبيلة ولا فيه مبالغات الشعراء وخيالاتهم التى لا تنتهى على أرض الواقع عادة إلى شىء. فالله ينفى عن نبيه الشعر. وفعلا ليس الرسول شاعرا. وهذا معنى آيات سورة "يس". فما المشكلة فى هذا؟

أما آيات سورة "الشعراء" فتهاجم شعراء الشرك، إذ كان أهل مكة يزعمون أن القرآن قد تنزلت به الشياطين طبقا لما كانوا يعتقدونه من شياطين الشعراء التى كانت تسكن وادى عبقر

وتلهمهم شعرهم. فهى ترد على تلك الدعوى الخاطئة بأن الشياطين إنما تتنزل على كل أفاك أثيم من شعراء الكفر والوثنية الذين كانوا يحاولون النيل من رسول الله ﷺ ويزعمون بشأنه وشأن قرآنه المزاعم، وتُبَيِّن أن القرآن ليس وحى الشياطين بل وحى السماء، وأن سبيله ليست سبيل الشعراء، الذين نراهم فى كل واد من أودية الأباطيل والأوهام يهيمون بعيدا عن حقائق الواقع، والذين يقولون ما لا يفعلون، إذ إن همهم كله المبالغة والتهويل فى كلامهم دون قيد، والذين يتبعهم أمثالهم ممن يتلذذون بتلك الخيالات والأوهام والمبالغات والتصاوير، بل سبيله سبيل الأخلاق الكريمة والقيم النبيلة. ثم استثنى الله سبحانه الشعراء المؤمنين العاملين للصالحات والذاكرين لربهم والمنتصرين لأنفسهم من الظالمين. أى أن الشعر فى حد ذاته ليس هو المقصود بل شعر الشرك والوثنية ليس إلا.

ولو كان الشعر فى حد ذاته محرما أو مكروها لما رأينا النبى يستمع للشعر، ويدعو لحسان أن يعضده روح القدس فى رده على أكاذيب شعراء مكة المشركين، وينصت لشعراء الوفود فى العام التاسع للهجرة النبوية، ولما أثاب كعبَ بنَ زهير حين ألقى على مسامعه ومسامع الصحابة لاميته الشهيرة التى خلع عليه السلام بردته الشريفة ووهبها له تكريما وتشجيعا. والقصيدة معظمها غزل بسعاد ووصف لما تتمتع به من جمال وما فعلته بقلبه من أفاعيل وتشبيه لطعم فمها بالخمر الممزوجة بماء بارد أحضر من فوق قمة جبل عال، مما لا أستبعد أن يكون مقصده من ورائها الجاهلية، التى لم تفده بشىء وخرج منها صفر اليدين بعدما أضاع سنوات من عمره فى الاستمساك بها ومعاندة أخيه بجير، الذى كثيرا ما رجاه أن يلحق به فى المدينة عند رسول الله ويتبع الدين الجديد، دين التوحيد والسمو الروحى والعقل السليم والحلم والمساواة بين البشر والعطف على الفقراء.

وقد ترتب على تلك القراءة الخاطئة للنص القرآنى أنْ ذاعت مقولة سخيفة مفادها أن الشعراء قد صمتوا فور نزول الآيات التى يرى مذيعو هذه المقولة أنها تحارب الشعر وتحقر من أمر الشعراء. وهذا غير صحيح البتة، فقد ظل الشعراء من مسلمين ومشركين ويهود ينظمون قصائدهم ومقطوعاتهم، بل كانت هناك بعد الهجرة بين شعراء الإسلام وبين شعراء الوثنية واليهودية مناقضات شعرية كالتى كانت بين الفرزدق وجرير والأخطل والبعيث وغيرهم فى العصر الأموى. وكانت الأشعار تنظم فى المعارك الغزوات. وكان ثم أشعار شخصية كثيرة كما كان الحال فى الجاهلية. ذلك أنه لا يمكن أن يموت الشعر فى مجتمع ما بل لا يمكن أن يخفت صوته مجرد خفوت. إن هذا ضد طبيعة الأشياء. بل إن لبيد بن ربيعة، الذى قيل إنه قد ترك الشعر وعكف على القرآن وصار لا يهتم بغيره حتى إنه لم ينظم فى الإسلام سوى بيت شعر واحد، لبيدا هذا يتضمن ديوانه طائفة من القصائد الإسلامية. أى أنه قد نظم فى الإسلام عددا من القصائد لا بيتا واحدا فقط عكس ما هو مشهور. ذلك أن الشعر حاجة فطرية: فهو موهبة لا يستطيع صاحبها لها تجاهلا، وهو متعة لا يمكن الشاعر حرمان نفسه ولا سامعيه منها. إنها أشبه بالتنفس، فهل من يقدر على التوقف عن الشهيق والزفير؟

ورغم ذلك هناك من يزعم أن الشعر، وإن استمر بعد الإسلام، لم يعد قويا كما كان فى الجاهلية. وأصحاب هذا الرأى يدعوننا إلى النظر فى شعر حسان مثلا فى الجاهلية وشعره فى الإسلام

والموازنة بينهما، ولسوف نرى أن شعره قبل الإسلام كان أقوى. وقد رَدَّدْتُ النظر فى هذه الدعوى فى كتابى عن النابغة الجعدى، فتبين لى خطأ هذه المقولة خطًا أبلقَ. فهذه قراءة أخرى للنص القرآنى عن الشعر ترتبت عليها أحكام غريبة ما أنزل الله بها من سلطان. فهل مثل تلك القراءة ينبغى أن ندافع عنها وعن شرعيتها؟ بطبيعة الحال نحن لا نملك من القوة المادية ولا المعنوية ما نمحو به تلك القراءة ولا يدور فى ذهننا أبدا أن نمسها أو نمس صاحبها بسوء حتى لو كانت لدينا القدرة على ذلك، لكننا نملك مناقشتها والرد عليها وتخطئتها والتحذير من تصديق مقولات أصحابها. أما أن نتقبلها بوصفها قراءة شرعية مَثَلُها مَثَلُ أيَّة قراءة أخرى تتبع شروط القراءة السليمة وتلتزم بضوابطها فلا ثم لا ثم لا.

فإذا جئنا إلى الآيات التالية من سورة "النمل"، وهى تبدأ بخطاب سليمان عليه السلام للهدهد بشأن ملكة سبإ وتكليفه إياه بحمل رسالة منه إليها: "اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣١) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ (٣٢) قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣) قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (٣٥) فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ (٣٧) قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠) قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ (٤١) فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢) وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ (٤٣) قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٤)" وجدنا الطبرى سيد المفسرين يقرأ الجزء الأخير منها على النحو التالى:

"فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ. يقول تعالى ذكره: لما جاءت صاحبةُ سبإٍ سليمانَ أخرج لها عرشها، فقال لها: أَهَكَذَا عَرْشُكِ؟ قَالت، وشبَّهته به: كَأَنَّهُ هُوَ. وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل. ذِكْرُ مَنْ قال ذلك: حدثنا ابن حميد، قال: ثنا سلمة، عن ابن إسحاق، عن بعض أهل العلم، عن وهب بن منبه، قال: لما انتهت إلى سليمان وَكَلَّمَتْه أخرج لها عرشها، ثم قال: أَهَكَذَا عَرْشُكِ؟ قالَتْ: كأَنَّهُ هُوَ. حدثنا القاسم، قال: ثنا الحسين، قال: ثنا أبو سفيان، عن معمر، عن قَتادة: فَلَمَّا جَاءَتَ قِيلَ: أَهَكَذَا عَرْشكِ؟

قالَتْ: كأَنَّهُ هُوَ. قال: شَبَّهَتْه، وكانت قد تركته خلفها. حدثنى يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد: كان أبى يحدّثنا هذا الحديث كله، يعنى حديث سليمان وهذه المرأة: "فلما جاءت قِيلَ: أهَكَذَا عَرْشُكِ؟ قالَتْ: كأَنَّهُ هُوَ". شكَّت. وقوله: "وأُوتِينا العِلْمَ مِنْ قَبْلِها" يقول تعالى ذكره مخبرا عن قِيل سليمان، وقال سليمان: "وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا"، أى (من قبل) هذه المرأة، بالله وبقدرته على ما يشاء، وَكُنَّا مُسْلِمِينَ لله من قبلها. وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل. ذِكْرُ مَنْ قال ذلك: حدثنى محمد بن عمرو، قال: ثنا أبو عاصم، قال: ثنا عيسى وحدثنى الحارث، قال: ثنا الحسن، قال: ثنا ورقاء جميعًا، عن ابن أبى نجيح، عن مجاهد قوله: "وأُوتِينَا العِلْمَ مِنْ قَبْلِها" قال سليمان بقوله. حدثنا القاسم، قال: ثنا الحسين، قال: ثنى حجاج، عن ابن جُرَيج، عن مجاهد، مثله.

"وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ. إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ". يقول تعالى ذكره: ومَنَعَ هذه المرأةَ صاحبةَ سبإٍ ما كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ الله، وذلك عبادتها الشمس، أن تعبد الله. وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل. ذكر من قال ذلك: حدثنى محمد بن عمرو، قال: ثنا أبو عاصم، قال: ثنا عيسى وحدثنى الحارث، قال: ثنا الحسن، قال: ثنا ورقاء جميعًا، عن ابن أبى نجيح، عن مجاهد: "وَصَدَّها ما كانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ" قال: كُفْرُها بقضاء الله غير الوثن صدَّها أن تهتدى للحق. حدثنا القاسم، قال: ثنا الحسين، قال: ثنى حجاج، عن ابن جُرَيج، عن مجاهد: "وَصَدَّها ما كانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دونِ اللَّهِ" قال: كفرها بقضاء الله صدها أن تهتدى للحق. ولو قيل: معنى ذلك: وصدّها سليمان ما كانت تعبد من دون الله، بمعنى "مَنَعَها وحال بينها وبينه"، كان وجهًا حسنًا. ولو قيل أيضًا: "وصدّها الله ذلك بتوفيقها للإسلام" كان أيضًا وجهًا صحيحًا. وقوله: "إنَّها كانَتْ مِنْ قَوْمٍ كافِرِينَ" يقول: إن هذه المرأة كانت كافرة من قوم كافرين. وكُسِرَت الألف من قوله "إنها" على الابتداء. ومَنْ تأوَّل قولَه: "وَصَدَّها ما كانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ" التأويلَ الذى تأوَّلْنا كانت "ما" من قوله: "ما كانَتْ تَعْبُدُ" فى موضعِ رفعٍ بالصدّ، لأن المعنى فيه "لم يصدها عن عبادة الله جهلُها وأنها لا تعقل، إنما صَدَّها عن عبادة الله عبادتُها الشمسَ والقمرَ، وكان ذلك من دين قومها وآبائها، فاتبعت فيه آثارهم". ومَنْ تَأَوَّلَه على الوجهين الآخرين كانت "ما" فى موضع نصب".

هذا ما قاله الطبرى فى قراءته، أى تفسيره، لتلك الآيات. وواضح أنه يغير مرجع الضمائر فى تكلف وتمزيق للنص الكريم لا يصلحان حتى مع النصوص البشرية، فكيف بهما مع النص القرآنى؟ صحيح أنه أبو المفسرين وسيدهم وأستاذهم، وقل فيه ما تريد فلن توفيه حقه، وأنا أحبه وأجله وأراه مفسرا عملاقا، لكن هذا جميعه لا يصدنى عن الإدلاء بقراءتى الخاصة للآيات واختلافى عنه فى ذلك. وأرى أن القراءة الصحيحة هى كالآتى: لقد بعث لها سليمان برسالة طلب منها فيها ألا تعلو هى ومَلَؤُها عليه وأن يأتوه مسلمين. والإسلام هنا معناه الانقياد والخضوع لسلطانه الملكى لا الإسلام بمعنى الإيمان بالله رب العالمين، لأن وقت دعوتها إلى ذلك لم يكن قد أتى بعد. ولما أتت سليمانَ

وسألها: أهكذا عرشك؟ أجابته: "كأنه هو"، ثم أضافت قائلة: "وأوتينا العلم من قبلها، وكنا مسلمين". ومعنى كلامها أننا قد علمنا قبل هذا من الأنباء التى بلغتنا عنك أنك ملك قادر، وها نحن قد أتيناك منقادين خاضعين. ولم تعلن إسلامها لله، أى إيمانها به، فى البداية تأثرا منها بوثنيتها، التى صدتها عن التوحيد. ثم بعد قليل سوف نراها تعلن إسلامها بالله رب العالمين. هذه هى القراءة المستقيمة فيما أتصور مع احترامى وإجلالى التامَّيْن لذلك المفسر العملاق. أما قراءة شيخنا الكبير فتمزق الآيات وتعبث بالضمائر دون أدنى مسوغ.

وثم شخص سورى اسمه مُحَمَّد عبد الجليل يعمل فى العاصمة الفرنسية فى معهد البحوث والدراسات الخاصة بالعالم العربى والإسلامى له مقال منشور على المشباك بعنوان "أخطاء القرآن اللغوية والإنشائية– قراءة تفكيكية" يهاجم فيه القرآن الكريم ويتهمه بأنه ركيك ومملوء بالأخطاء اللغوية والإنشائية أقتطف منه الفقرة التالية: "ليس من المستغرَبِ وجودُ أخطاءٍ فى نصٍّ كالقرآن، بل مِن المستغرَبِ عدمُ وجودِ نقدٍ لأخطائه. فعدمُ وصول أى نقد لأخطاء القرآن من خصوم مُحَمَّد إلينا (إلا النزر اليسير مما نقلَه القرآنُ وفقهاء المسلمين) يدلُّ على حجم العنف والدكتاتورية فى فرضِ النص القرآنى. فالتاريخ نقلَ لنا أنَّ محمدًا لم يتهاون مع منتقدى القرآن إذْ عفا عن أسرى المشركين وأصرَّ على قتل النضر بن الحارث صبرًا (بحرمانه من الشرب والأكل) لأنه انتقدَ القرآن وفضحَ مصادرَه".

هذا ما قاله المدعوّ: مُحَمَّد عبد الجليل. ومن الواضح الجلىّ أنه يتنفس الكذب تنفسا. ويتلخص كذبه فى دعواه بأن النضر بن الحارث قد انتقد القرآن وفضح مصادره. إن شيئا من ذاك لم يحدث، إذ كل ما عمله النضر هو أنه كان يتتبع النبى بمكة، فكلما تلا الرسول على الناس شيئا من الوحى جلس النضر مكانه وقص عليهم بعض الحكايات من أخبار ملوك الفرس وقوادهم، زاعما أن حديثه أفضل من قرآن مُحَمَّد.

تقول سيرة ابن هشام: "كان النضر بن الحارث من شياطين قريش وممن كان يؤذى رسول الله ﷺ وينصب له العداوة. وكان قد قَدِم الحيرة وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس وأحاديث رستم وإسبنديار، فكان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلسا فذكَّر فيه بالله وحذَّر قومه ما أصاب مَنْ قبلهم مِنَ الأمم مِنْ نقمة الله خَلَفَه فى مجلسه إذا قام ثم قال: أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثا منه، فهلمَّ إلى، فأنا أحدثكم أحسن من حديثه. ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم وإسبنديار، ثم يقول: بماذا مُحَمَّد أحسن حديثا منى؟ قال ابن هشام: وهو الذى قال فيما بلغنى: "سأُنْزِل مثلَ ما أنزل الله". قال ابن إسحاق: وكان ابن عباس رضى الله عنهما يقول فيما بلغنى: نزل فيه ثمانى آيات من القرآن: قول الله عز وجل "إذا تُتْلَى عليه آياتنا قال: أساطير الأولين". وكل ما ذُكِر فيه من الأساطير من القرآن".

فأين الفضح الذى فضح به النضر مصادر القرآن؟ ألا يعلم هذا الأفاك أن القرآن لا يتضمن أى شىء من تاريخ الفرس أو من الحديث عن ملوكهم وزعمائهم وقوادهم وأنبيائهم؟ بلى هو يعلم ذلك، ولكنه يوجه الاتهامات إلى النبى الكريم كذبا وزورا تقربا إلى الجهات الغربية التى تُشَغِّله عندها.

ثم أين الانتقاد الذى وجهه النضر إلى القرآن؟ هل حلل شيئا من آياته أو سوره وبَيَّن ما فيها من مآخذ ومعايب ووَضَّح كيف كان يمكن أن تكون أفضل؟ أبدا.

ولقد ظل النضر على عداوته للإسلام، وكان أحد كبار المشركين القرشيين المنظِّمين لمقاطعة بنى هاشم فى شِعْب أبى طالب والمشرفين على تنفيذها ومعاقبة كل من يفكر فى الخروج عليها بتوفير الطعام للمساكين المحاصَرين فى الشعب عطفا ورحمة، إلى أن مات (أو قُتِل) عقيب غزوة بدر، التى كان أحد من تَوَلَّوْا كِبْرَها من القرشيين وممن تم أَسْرُهم، وكان يتصل هو وأمثاله من مشركى مكة باليهود ويشترك معهم فى التآمر على الرسول ودينه وأصحابه. وبالمناسبة فقد أسلم ابنه النضير وانحاز إلى الصدق والعقل نابذا الأصنام، وهاجر من مكة إلى المدينة. أفلو كان يعلم أن أباه فضح مصادر القرآن أكان يترك مكة ويلتحق بالرسول دون أن يكون ثم ما يأطره على ذلك أطرا؟ كما أسلمت ابنة النضر (أو أخته) قتيلة يوم الفتح. هذا ما يقوله التاريخ لا الذى يلفقه محمد على عبد الجليل من أحقاده وأوهامه. فهذه قراءة الحاقد السخيف الجاهل محمد عبد الجليل للقرآن، فهل نقبلها ونعدها قراءة شرعية؟ تعست القراءة وتعس القراء إذا تدهدى الأمر إلى هذا الدرك الأسفل!

ولدن تعرض الشيخ الشعراوى، فى خواطره الخاصة بالقرآن المجيد، لتفسير قوله تعالى فى الآية ٥٤ من سورة "الأعراف": "إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ" يقول الشيخ: "والله سبحانه وتعالى يعطينا خبر خلقه السموات والأرض. وأوضح سبحانه أن السموات سبع، وقد جاءت مجموعة. أما الأرض فجاء بها مفردة. لكنه جل وعلا قال فى آية أخرى: "اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ" (الطلاق/ ١٢). فكما خلق سبع سماوات خلق سبع أَرَضِين. ولماذا جاء بالسماء بالجمع، وترك لفظ الأرض مفردًا؟ لماذا لم يقل: سبع أرضين؟ لأن كلمة "أرضين" ثقيلة على اللسان، فتركها لثقلها، وأتى بالسماوات مجموعة لخفتها ويسر نطقها...

وسبحانه خالق السماء التى فوقنا، وهو جل وعلا خالق الأرضين. وأين هى هذه الأرضين؟ أهى أرضين مبعثرة؟ ولقد أثبت العلم أن كل مجرّة من المجرّات فيها مليون مجموعة شمسية، وكل مجموعة شمسية فيها أرض، إذن فهناك أراضٍ عديدة، ونلحظ أن الحق سبحانه حين يتكلم عن الأرض فكل مخاطب بالأرض التى هو فيها، ولذلك قال بعض العلماء: إن فى هذا العالم العالى توجد أراضٍ، وكل أرض أرسل لهم الحق رسولًا. والحق هو القائل: "وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ" (الشورى/ ٢٩). ويعطينا العلم كل يوم مزيدًا من الاكتشافات. وهكذا تكون السماء هى كل ما علاك، والأرض كل ما أقلك. وما دامت سبع سموات، والسماء الأولى فراغ كبير وفضاء، وتأتى بعدها السماء الثانية تُظِلّ السماء الأولى، وكل سماء فيها أرض وفيها سماء أخرى. ونحن غير مكلفين بهذا، نحن مكلفون بأن نعلم أن الأرض التى نحن عليها مخلوقة لله.

والحق يقول: "خَلَقَ السَمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ" (الأعراف/ ٥٤)... وتلك هى الآيات المحكمات فى القرآن بالنسبة لزمن الخلق: ستة أيام. ولكن آية التفصيل للخلق جاءت فى ظاهر الأمر أنها ثمانية أيام. اقرأ معى: "قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِى مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ * ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَآءِ وَهِى دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ" (فصلت/ ٩– ١٢). والظاهر من آية التفصيل أنها ثمانية أيام، أما آيات الإجمال فكلها تقول: إنها ستة أيام، ومن هذه النقطة دخل المستشرقون، وادَّعَوْا زورًا أن القرآن فيه اختلاف، وحاولوا أن يجعلوها ضجة عالية.

ونقول: إنه سبحانه خلق الأرض وما فيها فى أربعة أيام كاملة بلا زيادة ولا نقصان. فالمراد أن ذلك حصل وتم فى تتمة أربعة أيام، ويضم إليها خلق السماوات فى يومين فيكون عدد الأيام التى تم فيها خلق السماوات والأرض ستة أيام، أو نحمل المفصل على المجمل، فحين يقول الحق: "إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ" (الأعراف/ ٥٤)، فهل خَلْق الله يحتاج إلى علاج حتى يتطلب الزمن الممتد؟ إن ربنا يخلق بـ"كن"، ونحن البشر على حسب قدرتنا لا نخلق شيئًا، وكل عملية نقوم بها تأخذ زمنًا، لكن من يخلق بكلمة "كن" فالأمر بالنسبة له هين جدا سبحانه وتعالى. لكن لماذا جاء الخلق فى ستة أيام؟ نعلم أن هناك فرقًا بين ميلاد الشيء وبين تهيئته للميلاد.

وكنا قد ضربنا المثل سابقا، ولله المثل الأعلى، بصانع الزبادى، الذى يأتى بأكواب اللبن الدافئ، ثم يضع فى كل منها جزءا من خميرة الزبادى، ويضع تلك الأكواب فى الجو المناسب. فهل يؤدى هذا الرجل عملًا لمدة اثنتى عشرة ساعة فى كل كوب، وهى المدة اللازمة لتخمُّر الكوب؟ طبعًا لا، فقد اكتفى بأن فى كل كوب عناصر التخمر لتتفاعل بذاتها إلى أن تنضج. ولننظر إلى خلق الجنين من تزاوج بويضة وحيوان منوى. ويأخذ الأمر تسعة شهور، وسبحانه ﷻ لا يعمل فى خلق الجنين تسعة شهور، لكنه يترك الأمر ليأخذ مراحل تفاعلاته. إذن فخلق الله السماوات والأرض فى ستة أيام لا يعنى أن الستة أيام كلها كانت مشغولة بالخلق، بل قال سبحانه: "كن"، وبعد ذلك ترك مكونات السموات والأرض لتأخذ قدرها ومراحلها لأن ميلادها سيكون بعد ستة أيام".

وأولا يقول الشيخ رحمه الله إن الأرضين سبع مثلما أن السماوت سبع، وإن السبب فى أن الله لم يورد "أرض" مجموعة فى القرآن (على "أرضين") هو أن هذه الصيغة ثقيلة على اللسان. لكنه للأسف لم يوضح لنا معيار الثقل هنا. وأنا مثلا لا أراها كذلك. بل لقد استعملها مرارا سيد البلغاء عليه الصلاة والسلام فى أحاديثه الشريفة. كما تقابلنا كثيرا جدا فى الشعر والنثر العربى فى كل العصور. فهو إذن تعليل غير مقنع. ثم إنه ينسى بعد قليل فيقول إن كل مجرّة من المجرّات فيها مليون مجموعة شمسية، وكل مجموعة شمسية فيها أرض. ومعنى هذا بكل بساطة أن فى الكون ملايين الأرضين، بينما القرآن، والشيخ أيضا بالتبعية، يقول إن الأرضين سبعٌ لا غير. فكيف نزيل هذا

التناقض؟ الحق أنه ما كان ينبغى لنا أن نتجاوز معارفنا شِبْه الصِّفْرِيّة فى علم الفلك حتى لا نسىء من حيث نحسب أننا نحسن صنعا.

ونأتى إلى موضوع الستة الأيام التى خلق الله فيها السماوات والأرض. ولست أرى أى تناقض بين النصين اللذين أوردهما فضيلته: فالأرض خلقت فى يومين. هذا صحيح. أما تشكيل رواسيها ومباركتها وتقدير أقواتها فى أربعة أيام فهذا لا يدخل فى خلق الأرض كما هو واضح، ولا علاقة له بحسبة الأيام الستة على الإطلاق، فالأرض كانت قد خلقت وانتهى الأمر. ثم يبقى اليومان اللذان قضى فيهما الله السماء سبع سماوات. وهما أيضا لا يدخلان فى حسبة الأيام الستة لأن السماء لم تخلق فيهما، إذ كانت السماء موجودة، وكل ما حدث أن الله سبحانه قد استوى إليها وأمرها هى والأرض أن تأتياه طوعا أو كرها. وهو ما يدل على أنها كانت كالأرض موجودة قبل ذلك. أى أن اليومين هما مسألة تنظيم ليس إلا. إذن فهذا النص لا يذكر من أيام الخلق الستة سوى يومى خلق الأرض فحسب.

وفى تفسير قوله تعالى فى آخر سورة "القلم": "وإِنْ يكاد الذين كفروا لَيُزْلِقونك بأبصارهم لما سمعوا الذِّكْرَ ويقولون إنه لمجنون" نرى النسفى مثلا يقرؤه على أساس أن الكفار كانوا يَعِينُون الرسول، أى يصيبونه بالعين، باعتبار أن العين حق، لكن الله حماه من ذلك. يقول المفسر الكبير: "وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ. وبفتح الياء: مدنى. "إنْ" مخففة من الثقيلة، واللام علمها. زَلَقَة وأَزْلَقَة أزاله عن مكانه، أى قارب الكفار من شدة نظرهم إليك شزرًا بعيون العداوة أن يزيلوك بأبصارهم عن مكانك أو يهلكوك لشدة حنقهم عليك. وكانت العين فى بنى أسد، فكان الرجل منهم يتجوع ثلاثة أيام فلا يمر به شيء فيقول فيه: "لم أر كاليوم مثله" إلا هلك. فأُرِيدَ بعضُ العيّانين على أن يقول فى رسول الله مثل ذلك، فقال: "لم أر كاليوم مثله رجلًا"، فعصمه الله من ذلك. وفى الحديث: "العين حق، وإن العين لتُدْخِل الجمل القِدْر، والرجلَ القبر". وعن الحسن: رقية العين هذه الآية. "لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِكْرَ": القرآن. "وَيَقُولُونَ" حسدًا على ما أوتيتَ من النبوة: "إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ": إن محمدًا لمجنون، حيرة فى أمره وتنفيرًا عنه. "وَمَا هُوَ"، أى القرآن "إِلاَّ ذِكْرٌ" وعظ "للعالمين" للجن والإنس. يعنى أنهم جَنَّنُوه لأجل القرآن، وما القرآن إلا موعظة للعالمين، فكيف يُجَنَّن من جاء بمثله؟ وقيل: لما سمعوا الذكر، أى ذِكْرَه عليه السلام. وما هو، أى محمد عليه السلام، إلا ذكر، شرف للعالمين، فكيف ينسب إليه الجنون؟ والله أعلم".

وأول شيء هو أن العرب لم تكن تحسد النبى على النبوة بل كانت تكذبه تعصبا لما ترك لهم الآباء والأجداد من عادات وتقاليد وعقائد وخرافات وقيم هابطة، ونفورا من تغيير أى شيء من سنن حياتهم. فلا حسد هناك ولا يحزنون. ثم على أى شيء كان يمكن أن يحسدوا الرسول؟ لقد كان ضعيفا مضطهدا آنذاك لا يملك حولا ولا طولا ولا مالا ولا رئاسة ولا زعامة مما يمكن أن يثير الأحقاد فى النفوس. أما الحسد على النبوة فقد ظهر فى المدينة، وكان اليهود أصحابه. ولم يذكر القرآن أنهم عانُوا الرسول عليه السلام، بل ذكر أنهم كانوا يؤلبون المشركين ضده ويزعمون لهم أن وثنيتهم خير

من توحيده. وكان مبعث حسدهم له أن النبوة قد فارقت بنى إسرائيل وانتقلت إلى العرب واختير لها محمد ﷺ، وهم لا يطيقون أن تكون النبوة فى أى قوم غيرهم. ونجد ذلك الموضوع فى سورة "النساء": "أم يحسدون الناسَ على ما آتاهم اللهُ مِنْ فَضْلِه؟".

كذلك من الغريب أن يقال عن بنى أسد ما قيل، وكأن الحسد مرض وراثى ينتقل من جيل إلى جيل فى بنى أسد دون سواهم من العرب. ولكن ماذا عن بقية القبائل؟ هل كانت العين فرض كفاية قام به عن بقية العرب بنو أسد؟ كيف ذلك؟ هذه أول وآخر مرة أسمع فيها هذا الكلام. وما دخل الجوع هنا؟ ألا تصيب العين إلا إذا كان صاحبها جائعا؟ ومن يا ترى سوف يرضى أن يجوّع نفسه ويعانى آلام الجوع وصرخاته فى بطنه عدة أيام كى يحسد الآخرين بعينه؟ ثم هل تقع الإصابة بالعين بالأمر؟ أى هل يمكن أن يصيب الحاسد المحسود لمجرد أن أحدا كلفه بذلك دون أن يكون قلبه مملوءا بالحنق عليه والبغض له وكراهية الخير الذى يتنعم به؟ أما قول الخبر إن الواحد من أولئك العائنين كان يقول عند ممارسته الحسد: "ما رأيت كاليوم رجلا مثله" فهو يشير إلى الإيمان بأن فى الألفاظ سحرا كامنا، فكلمةٌ تقتل، وكلمة تُحْيِى. ثم إننا بعد ذلك كله ننظر فنجد أن الله سبحانه يخبرنا بأنهم كانوا يقولون عنه إنه لمجنون، ولم يقولوا: "ما رأيت كاليوم رجلا مثله". وعلى هذا لم يكن ينبغى أن يصاب النبى بهذه الكلمة لأنها ليست "كلمة السر" المطلوبة فى العين.

الواقع أن عبارة "وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم..." إنما تعنى أنهم، من شدة عداوتهم له وغيظهم منه لحَمْلَته على آبائهم وأسلافهم وأوثانهم وكل شىء تقريبا فى حياتهم، كانوا يصوبون إليه نظرات نارية. فالعبارة مجازية لا حقيقية. وأخيرا فلو كان الأمر أمر عين وعائن ومعيون لاستخدمت كلمة "العيون" بدلا من الأبصار. ومن المضحك أن يكون هناك حسد جماعى، إذ الآية تقول إن الذين كفروا كادوا أن يزلقوه بأبصارهم، وهو ما يعنى أنهم كانوا يصوبون نظراتهم جميعا إليه معا. فهل يعقل هذا عاقل؟ أذكر أننى، حين قرأت هذا الكلام وأنا ولد فى السنة الأولى بقسم اللغة العربية بآداب القاهرة، وكنت آتيا لتوى من القرية وأعماق المجتمع، لم أصدقه ولم أقتنع بأن العين تصيب، رغم أنى عشت فى بيئة ريفية تؤمن بهذا الكلام. بل لقد كان لنا جار مشهور بأنه عيَّان ما إن ينظر إلى بهيمة حتى تسقط ميتة، مع أننى لا أذكر أن شيئا من ذلك قد حدث لا أمامى ولا من ورائى. والطريف أنه بعد أن مرت العقود وصرت رجلا، كنت كلما نزلت القرية وأحببت أن أشترى جبنا قريشا من بيت ذرية هذا الرجل، الذى توفى منذ زمن طويل رحمه الله، جاءتنى الإجابة بأنهم لن يَرْضَوْا أن يبيعوا لأحد ممن حولهم جبنهم. لماذا؟ قالوا لى: خوفا على بقرهم وجاموسهم من العين. الله أكبر! لقد صار العيانون خوافين من العين. يا لها من مفارقة عجيبة!

وثم غرائب كثيرة فى هذا الموضوع، ومنها ذلك الحديث المنسوب للنبى عليه الصلاة والسلام، ونصه: "أَكْثَرُ مَنْ يَمُوتُ مِنْ أُمَّتِي بَعْدَ قَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ بِالأَنْفُسِ"، أى بالعين. ووجه الغرابة فى هذا الكلام هو أنه يشترط قضاء الله وقدره فى الإصابة بالعين، وكأن الإصابات الأخرى لا تستلزم ذلك. أما إذا كان المقصود هو وضع الموت بالعين فى فئة أخرى من الوَفَيَات خارج قضاء الله وقدره فمعنى

ذلك أن هناك من ألوان الموت ما يمكن ألا يخضع للقضاء والقدر، وهو ما لا يمكن أن يكون. وفوق ذلك فالحديث يقرر أن أكثر الموت فى أمة المسلمين راجع إلى العين مع أن وقائع التاريخ لا تساعد على هذا الاقتناع، ودعك من أنه يجعل منا أمة من الحسادين الذين يصيب بعضهم بعضا بنظرات العيون. ويكفى فى التدليل على خطإ ذلك الكلام أن مرض سهل بن حنيف فى الماء بسبب نظر عامر بن ربيعة إليه وثنائه على بشرته البيضاء وهو يستحم عاريا على ما سوف يأتى للتو هو، فيما نعلم، الحالة الوحيدة من الإصابة بالعين فى عهده ﷺ وعهد الخلفاء الراشدين على الأقل، إذ لم نسمع بحالة غيرها آنذاك.

لا أجهل أن هناك حديثا منسوبا للنبى عليه الصلاة والسلام يقول: "العين حق. ولو كان شيء سابق القدر سبقتْه العين، وإذا اسْتُغْسِلْتُم فاغتسلوا". ولو ثبت أن رسول الله ﷺ قد قال ذلك وحيا من السماء، وبالمعنى الذى يقصده من يؤمنون بالعين، لما كان لى إلا أن أصدق ما قاله سيدنا رسول الله. لكن لى عدة ملاحظات: هل قال النبى ذلك فعلا؟ الجواب هو أن كتب الحديث تقول إنه حديث صحيح. إذن فمن حيث الرواية: الحديث صحيح. لكن هل إذا كان الحديث صحيحا فى نظر أهل الحديث من ناحية الإسناد أفلا بد أن يكون صحيحا بالضرورة؟ هل الأحاديث مجرد رواية لا دخل لها بالتفكير المنطقى فى مضمونها ومعناها؟ ثم هل قاله ﷺ على سبيل الوحى؟ أم هل كان ذلك مجرد اجتهاد منه كاجتهاده فى مسألة تأبير النخل، التى اتضح أن ما أشار به فيها كان فى غير موضعه ولم يكن هو الأسلوب الناجع فى عملية التلقيح؟ لكن هل يترك الله الأمر فى هذه الحالة دون أن يتم تصحيح الخطإ على نحو أو على آخر كما حدث فى تأبير النخل؟ معنى هذا أن يكون النبى قد قال ذلك أوّلا حتى يمكن أن يصحَّح ما يكون قد وقع منه من سهو أو نسيان أو خطإ، فهل قاله فعلا؟

كذلك هل يمكن أن يسبق شيءٌ القَدَر؟ إن القدر هو مشيئة الله عز شأنه، فهل يمكن أن يخطر هذا المعنى على بال رسول الله ﷺ وينطق به فى حديث يظل يردده المسلمون طوال الحياة؟ ترى هل هناك شيء يقع على الأرض أو فى السماء يمكن أن يكون بمشيئة غير مشيئته سبحانه، بله أن تسبق تلك المشيئة مشيئته تعالى، بله أن يكون هذا الشيء هو العين، التى يرى ابن القيم أنها قد تصيب، وقد تخيب، فضلا عن أنها ليست بالقضية الهامة على الإطلاق، بل هى لا فى العير ولا فى النفير، وبخاصة أننا لا يرى أثرا لها فى الواقع؟ فكيف يمكن التصديق بأن الرسول عليه السلام يلجأ، فى الكلام عنها، إلى هذا التعبير المتجاوز؟ الواقع أننى فى أشد الحيرة.

ومن الأحاديث التى قررت ذلك الموضوع الأحاديث التالية: "انطلق عامرُ بنُ ربيعةَ وسهلُ بنُ حُنَيفٍ يريدان الغُسْلَ. قال: فانطلَقا يلتمِسانِ الخَمَرَ. قال: فوضع سهلٌ جُبَّةً كانت عليه من صوفٍ، فنظرتُ إليه فأصبتُه بعينى، فنزل الماءَ يغتسلُ. قال: فسمعتُ له فى الماءِ قرقعةً، فأتيتُه فناديتُه ثلاثًا، فلم يُجِبْنى. فأتيتُ النبى صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ، فأخبرتُه فجاء يمشى فخاض الماءَ كأنى أنظرُ إلى بياضِ ساقَيْه. قال: فضرب صدَره بيدِه، ثم قال: اللهمَّ أذهِبْ عنه حرَّها وبردَها ووصَبَها. قال: فقام. فقال

رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: إذا رأى أحدُكم من أخيه ومن نفسِه ومن مالهِ ما يُعْجِبُه فلْيُبرِّكْهُ، فإنَّ العينَ حقٌّ".

"اغتسلَ سهلُ بنُ حُنَيْفٍ بالخَرَّارِ فنزع جُبَّةً كانت عليه، وعامرُ بنُ ربيعةَ ينظرُ، وكان سهلٌ رجلًا أبيضَ حسنَ الجلدِ، قال: فقال له عامرُ بنُ ربيعةَ: ما رأيتُ كاليومِ ولا جلدَ عذراءَ. قال: فوُعِكَ سهلٌ مكانَه، واشتدَّ وعَكُه، فأتى رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فأخبره أنَّ سهلًا وُعِكَ، وأنه غيرُ رائحٍ معك يا رسولَ اللهِ. فأتاه رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ، فأخبر سهلٌ بالذى كان من أمرِ عامرٍ، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: علامَ يقتلُ أحدُكم أخاهُ؟ ألا بَرَّكْتَ؟ إنَّ العينَ حقٌّ. تَوَضَّأْ له. فتوضَّأَ له عامرٌ، فراح سهلٌ مع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ليس به بأسٌ".

"خرج (سهيل بن حنيف) مع رسول الله ﷺ حتى إذا كان بالخرار دخل ماءً يغتسل، وكان رجلا وضاء، فمر به عامر بن ربيعة فقال: لم أر كاليوم حُسْنَ شيء ولا جِلْدَ مخبَّأة. فما لبث سهل أن لُبِطَ به، فدُعِيَ له نبي الله ﷺ، فقال: علام يقتل أحدكم أخاه؟ من تتهمونه به؟ قالوا: عامر بن ربيعة. فدعا عامرا ودعا بإناء فيه ماء فأمر عامرا، فغسل وجهه فى الماء وأطراف يديه وركبتيه وأطراف قدميه، ثم أخذ النبى ﷺ ضَبْعَى إزار عامر وداخِلَتَه فغمرها فى الماء ثم أفرغ الإناء على رأس سهل وأكفأ الإناء من دبره، فأُطْلِقَ سهل لا بأس به".

والآن أى هذه الأحاديث هو الصحيح؟ هل ذهب الحاسد إلى الرسول فأخبره بما وقع منه من حسد كاد أن يقتل صاحبه؟ أم هل سأل رسولُ الله من حوله فوجهوا الاتهام إلى عامر بن ربيعة؟ ثم هل كان المحسود، أيا كان، يحتاج إلى أن يخلع ملابسه حتى يرى الحاسد لون بشرته؟ أليست بشرة الواحد منا تظهر حتى وهو مرتدٍ ملابسه من خلال صدره ووجهه وذراعيه مثلا؟ أم كان الرجال فى ذلك الوقت يغطون كل بقعة من أجسادهم؟ كذلك متى كان رجال العرب، فضلا عن المسلمين، يتفاخرون بأن جلودهم تشبه جلود العذارى، كى يحسد بعضهم بعضا على هذا؟ ثم كيف عرف الراوى أنه أصاب صاحبه بعينه كما جاء فى الحديث الأول؟ هل رأى لافتة على جسم الرجل تقول: "برافو! تمت الإصابة بنجاح" مثلا؟ ألا إن ذلك لعجيب غاية العجب. وحين وصل النبى إلى الصحابى المصاب نلاحظ أنه لم يدع له بالشفاء من العين بل من حر المدينة وبردها ووصبها. الله أكبر! إن هذا الدعاء لا صلة بينه البتة وبين العين. ثم هل شُفِيَ المعيون بضرب النبى له على صدره أو بإراقة الماء الذى اغتسل به العائن على جسده؟ ومع هذا فإننى لا أنفى وجود الحسد فى الناس، فالحسد شعور بشرى يكاد لا يفلت منه أحد. وعلى هذا فليس لمن يحاول إثبات أثر العين دليل على وجود ذلك الأثر بالقول بأن الحسد مذكور فى القرآن، إذ الحسد موجود كما قلنا، ونحن نؤمن به سواء ورد ذكره القرآن أو لا.

لكن السؤال هو: هل يؤثر هذا الحسد فى المحسودين عن طريق نظرات عين الحسود؟ أما أنا فلا أعتقد ذلك، بل أرى أن الحسد إنما يؤثر فى عن طريق ما يمكن أن يحيكه الحاسد من مؤامرات مثلا ضد من يتفوق عليه ويثير الغيظ والحقد فى نفسه، أو من خلال ما يضعه فى طريقه من عقبات

أو يثيره فى وجهه من مشاكل أو يشنه ضده من شائعات، إن لم يفكر فى ضربه أو قتله. أما العين فقصة أخرى.

وقد ورد ذكر "القرقعة" فى الحديث الأول، وهى صوت الحديد عند اصطدامه بالحديد وما أشبه من الأصوات. وإنى لأتساءل: ما دخل القرقعة هنا بالعين والإصابة بها؟ ثم كيف يترك الرجل زميله فى هذا الوضع المفزع ويذهب لرسول الله كى يخبره بما حصل دون أن يحاول مساعدته مع أن كل الشواهد تدل على أنه فى خطر عظيم إذ لم يستطع الرد عليه حين ناداه ثلاث مرات لا مرة واحدة، وسمع بدلا من ذلك صوت قرقعة، وكأن هناك حديدا يصدم حديدا، وبخاصة أن الذهاب إلى رسول الله والعودة معه لا بد أن يستغرق وقتا طويلا يكون المعيون فيه قد صار فى خبر "كان"؟ ثم ماذا كان يمكن أن يقع لو لم يكن هناك رسول الله؟ لقد كان الرجل فى كرب عظيم، وكانت حياته فى حرج كما يفهم من سياق الرواية. أإلى هذا الحد يكون خطر العيون، وتكون حياة الشخص المَعِين رهنا بالمصادفات التى لا تجرى على قانون؟ وإذا كان الرسول قد تدخل فى الأمر ووضع حدا للمعاناة التى كان يعانيها الصحابى المستحم فماذا لو لم يعلم الرسول بما حصل؟ يقينا لا بد أن يصاب إصابة فادحة، بل قد يموت. وهو ما سوف يحدث لكل محسود بالعين، إذ ليس من المعقول أن يقول العائن عن نفسه: لقد أصبت اليوم عدد كذا من الرجال وعدد كيت من النساء. أما المصاب بالعين فكيف يعرف أن العين هى سر معاناته؟ وهذا إن بقى على قيد الحياة!

والغريب أن ثَمَّ حديثا فى شرح "موطإ" الإمام مالك المسمى بـ"المنتقى" يقول: "رَوَى ابْنُ السُّنِّيِّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ حَكِيمٍ قَالَ: "كَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا خَافَ أَنْ يُصِيبَ شَيْئًا بِعَيْنِهِ قَالَ: اللَّهُمَّ بَارِكْ فِيهِ، وَلا تَضُرَّهُ"، وهو ما يعنى أن عينه عليه الصلاة والسلام كانت هى أيضا مؤذية لولا أنه كان يستعين على أذاها بتبريك الشىء أو الشخص الذى ينظر إليه. أستغفر الله! لم يبق إلا أن يقال هذا عن النبى ﷺ. ألا إن هذا لهو الهوس بعينه! أما كيف نحصل على ماء اغتسال العائن لِصَبِّه على المَعْيُون فقد قرأت فى آخر إحدى روايات الحديث الذى نحن بصدده ما يلى: "الغُسْلُ أنْ يُؤْتَى بالقَدَحِ، فيُدخِلَ الغاسلُ كفَّيْهِ جميعًا فيه ثمَّ يغسِلَ وجهَه فى القَدَحِ ثمَّ يُدْخِلَ يدَه اليُمنى فيغسِلَ صدرَه فى القَدَحِ ثمَّ يُدخِلَ يدَه فيغسِلَ ظهرَه ثمَّ يأخُذَ بيدِه اليُسرى يفعَلُ مِثلَ ذلك، ثمَّ يغسِلَ رُكبتَيْهِ وأطرافَ أصابعِه مِن ظَهرِ القدَمِ ويفعَلَ ذلك بالرِّجْلِ اليُسرى ثمَّ يُعْطِى ذلك الإناءَ، قبْلَ أنْ يضَعَه بالأرضِ، الَّذى أصابه العينُ ثمَّ يمُجَّ فيه ويتمضمضَ ويُهْرِيقَ على وجهِه ويصُبَّ على رأسِه ويُكْفِئَ القَدَحَ مِن وراءِ ظَهرِه". وهذا، كما نرى، أشبه بأعمال السحر، فضلا عن أنه يختلف اختلافا شديدا عما صنعه رسول الله ﷺ. ثم من ذا يا تُرَى يرضى بأن يقال عنه إنه حسّاد حقود يؤذى الناس بعينه، ويقتلهم بها قتلا، ويوافق على الاغتسال ويعرض نفسه لذلك الأمر الفاضح المهين؟ إن هذه دعوة إلى إفساد العلاقات بين الناس أكثر مما هى فاسدة أصلا.

ولكن هل يقع الحسد على الإنسان وحده حتى يقال إن ماء اغتسال الحاسد تشفيه مما أصابه؟ ترى لو كان المحسود منزلا ما إن وجه العائن إليه نظراته الإجرامية الشيطانية حتى انهار وانهدم

كما نرى فى بعض إعلانات التلفاز مؤخرا عن نوع من الأسمنت جديد؟ هل يعيده ماء استحمام الحاسد إلى ما كان عليه بحيث ينتفض فى التو ويقوم من أنقاضه ويعود مرة أخرى منزلا كاملا بعد أن كان ترابا وحجارة محطمة وحديدا صدئا ملتويا وخشبا لم يعد يصلح لشيء؟ ونفس الكلام يقال عن السيارة مثلا التى خبطها الحسود بنظرة شريرة من عينيه المباركتين فانقلبت على جنبها أو لبست فى جدار وتحطمت، فهل يعيدها الماء سيارة جديدة كما كانت ليس فيها خدش بتاتا؟ ولكن ألا ترى أن ورش الميكانيكا والكهربا والسمكرة والدوكو بهذه الطريقة سوف تغلق أبوابها وتنهدم بيوت أصحابها فيتشردون فى الطرقات يشحتون ما دامت السيارات تعود كما كانت بمجرد التمتمة ببضع كلمات وكوز وقليل من الماء؟ وقس على ذلك كل شيء يتعرض للحسد من بشر وأشياء. وهذا إن أقر واعترف العائن بأنه ذو عينين شريرتين. وأين ذلك الذى يمكن أن يفضح نفسه؟

ليس ذلك فقط، بل يمضى الهوس بذلك الموضوع حتى لنقرأ، فى ذات الكتاب السابق، كلاما عجيبا منسوبا للقرطبى مُفَاده أنه "لَوْ أَتْلَفَ الْعَائِنُ شَيْئًا ضَمِنَهُ، وَلَوْ قَتَلَ فَعَلَيْهِ الْقِصَاصُ أَوِ الدِّيَةُ إِذَا تَكَرَّرَ ذَلِكَ مِنْهُ بِحَيْثُ يَصِيرُ عَادَةً. وَهُوَ فِي ذَلِكَ كَالسَّاحِرِ الْقَاتِلِ بِسِحْرِهِ عِنْدَ مَنْ لا يَقْتُلُهُ كُفْرًا، وَأَمَّا عِنْدَنَا فَيُقْتَلُ: قَتَلَ بِسِحْرِهِ أَمْ لا لِأَنَّهُ كَالزِّنْدِيقِ". ومعنى هذا أن القرطبى لا مانع عنده أن يقتل العائن كم قتيلا للتجربة، ولكن حين نتأكد من خلال التجارب أنه يَعِين فعلا فعندئذ لا بد من قتله إذا مات المَعِين (المَعْيُون). والواقع أننا لو أخذنا بهذا الحكم العجيب الذى سوف يجعلنا مهزلة الأمم لسوف يقوم الجهلة، وما أكثرهم وأشد حماقتهم واختلال عقولهم، باتهام بعضهم بعضا بالقتل عن طريق العين، وسوف ينتهى الأمر بتفانى المسلمين. وشكرا للإمام القرطبى على غيرته "القاتلة" على الدين، فهكذا ينبغى أن تكون الغيرة، وإلا فلا.

وعلى خلافه ابن عبد البر والإمام النووى، إذ يقول الأول نقلا عن صاحب "المنتقى": "إِنَّ مِنَ الطَّبْعِ الْبَشَرِي الإِعْجَابَ بِالشَّيْءِ الْحَسَنِ وَالْحَسَدَ عَلَيْهِ، وَهَذَا لا يَمْلِكُهُ الْمَرْءُ مِنْ نَفْسِهِ. فَلِذَا لَمْ يُعَاتَبْ عَامِرٌ عَلَيْهِ، بَلْ عَلَى تَرْكِ التَّبْرِيكِ الَّذِى فِي وُسْعِهِ، وَأَنَّ الْعَيْنَ قَدْ تَقْتُلُ، وَتَوْبِيخُ مَنْ كَانَ مِنْهُ أَوْ بِسَبَبِهِ سُوءٌ، وَإِنْ كَانَ النَّاسُ كُلُّهُمْ تَحْتَ الْقَدَرِ السَّابِقِ بِذَلِكَ كَالْقَاتِلِ يَقْتُلُ، وَإِنْ كَانَ الْمَقْتُولُ يَمُوتُ بِأَجَلِهِ، وَأَنَّ الْعَيْنَ إِنَّمَا تَعْدُو إِذَا لَمْ يُبَرِّكْ، فَيَجِبُ عَلَى كُلِّ مَنْ أَعْجَبَهُ شَيْءٌ أَنْ يُبَارِكَ". وهذا كلام معقول رغم أنى لا أطمئن إلى أن العين تؤذى.

وفى "المنتقى" كذلك نقرأ للنووى أنّه "لا يُقْتَلُ الْعَائِنُ، وَلا دِيَةَ وَلا كَفَّارَةَ، وَأَنَّ الْحُكْمَ إِنَّمَا يَتَرَتَّبُ عَلَى منضبطٍ عَامٍّ دُونَ مَا يَخْتَصُّ بِبَعْضِ النَّاسِ وَبَعْضِ الأَحْوَالِ مِمَّا لا انْضِبَاطَ لَهُ. كَيْفَ، وَلَمْ يَقَعْ مِنْهُ فِعْلٌ أَصْلًا، وَإِنَّمَا غَايَتُهُ حَسَدٌ وَتَمَنٍّ لِزَوَالِ النِّعْمَةِ؟ وَأَيْضًا فَالَّذِى يَنْشَأُ عَنِ الإِصَابَةِ بِالْعَيْنِ حُصُولُ مَكْرُوهٍ لِذَلِكَ الشَّخْصِ، وَلا يَتَعَيَّنُ ذَلِكَ الْمَكْرُوهُ فِي إِزَالَةِ الْحَيَاةِ، فَقَدْ يَحْصُلُ لَهُ مَكْرُوهٌ بِغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَثَرِ الْعَيْنِ. قَالَ الْحَافِظُ: وَلا يُعَكِّرُ عَلَيْهِ إِلا الْحُكْمُ بِقَتْلِ السَّاحِرِ، فَإِنَّهُ فِي مَعْنَاهُ، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا عَسِرٌ".

وفى "المنتقى" أيضا أنه قد "نَقَلَ ابْنُ بَطَّالٍ عَنْ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلإِمَامِ مَنْعُ الْعَائِنِ، إِذَا عُرِفَ بِذَلِكَ، مِنْ مُدَاخَلَةِ النَّاسِ، وَيَأْمُرُهُ بِلُزُومِ بَيْتِهِ، وَإِنْ كَانَ فَقِيرًا رَزَقَهُ مَا يَكْفِيهِ وَيَكُفُّ أَذَاهُ عَنِ النَّاسِ، فَإِنَّ ضَرَرَهُ أَشَدُّ مِنْ ضَرَرِ آكِلِ الثومِ وَالْبَصَلِ الَّذِي مَنَعَهُ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ دُخُولِ الْمَسْجِدِ لِئَلا يُؤْذِي الْمُسْلِمِينَ، وَمِنْ ضَرَرِ الْمَجْذُومِ الَّذِي مَنَعَهُ عُمَرُ وَالْعُلَمَاءُ بَعْدَهُ الاخْتِلاطَ بِالنَّاسِ، وَمِنْ ضَرَرِ الْمُؤْذِيَاتِ مِنَ الْمَوَاشِي الَّذِي يُؤْمَرُ بِإِبْعَادِهَا إِلَى حَيْثُ لا يَتَأَذَّى بِهَا أَحَدٌ". ورغم أنى لست من أنصار تحديد إقامة العائن، أو بالأحرى: من يظن الناس أنه عائن، فلا شك أن هذا أخف كثيرا جدا من قتله، وإن كنت أتخوف من لجوء أعداد غفيرة من الناس إلى الزعم بأنهم حسادون عيانون حتى تنفق عليهم الدولة ويعيشوا فى نغنغة دون أن يبذلوا جهدا فى السعى على لقمة العيش كتنابلة السلطان!

وبعد فهذه قراءتى للنص القرآنى الكريم، وتلك قراءة النسفى وأمثاله من المفسرين. وأرجو ألا تكون قراءتى هى القراءة الخاطئة. وأنا دائما ما أدعو إلى التحقق من أمر العين عن طريق الدراسة والتجربة العلمية، لكن سرعان ما يأتينى الاعتراض بأن الأمر أمر عقيدة لا أمر تجارب، بل إن بعض من تأخذهم الجلالة ليمضون خطوة أخرى قائلين إن العين أمر ميتافيزيقى، فأبتسم وأقول لهم: كيف يكون كذلك، وكل عناصره فيزيقية تدرك بالحواس: فالعين شىء مادى، والشعاع الذى يزعمون أنه يخرج منها ويصيب هو شىء يمكن قياسه ماديا، والنتيجة التى تقع بسبب العين شىء مادى سواء كان كسرا أو تحطيما أو مرضا أو فشلا؟ فيقولون إن الرسول قد أكد أن العين حق. فيكون ردى: وربما لم يقل هذا أصلا، لكنه نُسِب إليه خطأ أو عن عمد.

وعلى أية حال لن يغضب الرسول الكريم حين يرى بعض أتباعه يحبون استعمال العقل واللجوء إلى العلم لحسم مسألة كهذه تحير البال منذ قرون، بل بالعكس سينشرح قلبه لهذا لأن دينه هو دين العقل والعلم والتحقيق والتدقيق. وهذا أشبه بحادثة تأبير النخل، فإنه ﷺ لم يضق صدرا بما قاله الصحابة له بعد نحو عام من اقتراحه عليهم ألا يلقحوا النخل ويتركوه على طبيعته، من أنهم قد اتبعوا نصيحته وتركوا النخل دون تلقيح فلم يثمر بلحا طيبا بالمرة، بل كان رده عليهم بكل بساطة وتواضع: أنتم أعلم بأمور دنياكم. وفى الأمثال: "قالوا: الجمل صعد النخلة. قلنا: هذا الجمل، وهذه النخلة، فأرونا كيف صعد الجمل النخلة". أما الجدال النظرى فلا معنى له ولا جدوى منه ما دمنا نستطيع أن نحسم الأمر عمليا.

والآن ننتقل إلى النصوص القرآنية الكريمة التى تتعلق بالمعجزات. ومعروف أن كثيرا من البشر كفار ملاحدة يرفضون الأديان وما فيها من كلام عن الوقائع التى لا تجرى مع قوانين الكون بوصفها حوادث حقيقية وقعت فعلا. وهم ينظرون إلى هذا الكلام على أنه خرافات لا ينبغى أبدا تصديقها. فهؤلاء فريق. وثم فريق آخر يعلن إيمانه بالإسلام لكنه يؤول تلك الآيات بما يجعلها آيات رمزية ليس فيها أى شىء إعجازى، فتراهم يفسرونها بما يصرفها عن الناحية الإعجازية إلى الناحية الواقعية التى تجرى مع السنن الكونية المطردة بلا أدنى تعارض. ومن هؤلاء القاديانيون، الذين يؤمنون بنبوة غلام

أحمد الكذاب المنسوب إلى قاديان بالهند والذى ظهر ودعا إلى نفسه فى أواخر القرن التاسع عشر. ومذهبهم منتشر هنا وهناك فى بعض البلاد.

وهم يقولون عن أنفسهم إنهم هم وحدهم المسلمون الحقيقيون. ولهم ترجمات تفسيرية للقرآن المجيد بعدد من اللغات. وقد نظرت فى بعض تلك الترجمات فألفيتها مفعمة بالأخطاء والانحرافات، ومنها الترجمة التى أشرف عليها ملك غلام فريد. وفيها تأويل لآيات المعجزات: لقد ذكر كتاب الله مثلا أن بعض الجن قد استمعوا إلى النبى وهو يقرأ القرآن فتفكروا فيه وآمنوا به، فماذا يقول المفسر القاديانى فى ذلك؟ إن الجن فى تفسيره ليسوا جنا حسبما نعرف الجن، بل مجموعة من البشر الغرباء من أهل الكتاب، وهو ما يثير السؤال التالى: وهل هؤلاء وحدهم هم كل من استمع إلى النبى من الغرباء وهو يقرأ القرآن وآمن به؟ فلماذا انفرد هؤلاء وحدهم بتسمية الله لهم بـ"الجن"؟ ثم إذا كانت تسميتهم: "جِنًّا" سببها أنهم غرباء، فلماذا عاد قاديانيُّنا ففسر الجن فى السورة المسماة باسمهم بأنهم هم الكهنة والعرافون؟ كما ورد فى القرآن مثلا فى أكثر من موضع أن عيسى عليه السلام صنع طيرا ثم نفخ فيه، فإذا هو طير حقيقى بإذن الله، ففسره الكاتب بأن المقصود هو اتصال عيسى برجل وضيع تكمن فيه إمكانات الترقى آمن برسالته وتحول على يديه من إنسان يتمرغ فى التراب ولا يلتفت لغير حاجاته المادية إلى طائر، أىْ شخص يحلق عاليا فى سماء الروحانية. أما الطين الذى صُنِع منه ذلك الطير فيشير إلى أن أصل الإنسان من طين. ولكن هل انفرد عيسى وحده بهذا الإنجاز حتى يجعله الله من المعجزات؟ لقد صنع الأنبياء جميعا هذا لا مع شخص واحد أو اثنين، بل مع المئات والألوف، وأحيانا مع عشرات الألوف كما هو الحال فى دعوة الإسلام على يد رسولنا الكريم. أما معجزة الناقة فيؤولونها على أنها ناقة عادية كان صالح عليه السلام يركبها ويتنقل بها هنا وهناك داعيا الناس إلى الإيمان بدينه. وأما معجزة ابيضاض اليد عند موسى فيقول فيها إن أجسام الأتقياء تصدر أشعة من ألوان مختلفة حسب درجة تطورهم الروحى بخلاف الأنبياء، فأشعة أيديهم بيضاء. وهذا كل ما هنالك. وفاته أننا لا نرى أية أشعة تصدر من أى جسد بأى لون. ولو حدث هذا لكان مفارقا لنواميس الكون وأمرا إعجازيا. فهو كالذى هرب من حفرة ليقع فى بئر عميق ليس له منه مخرج. كما يفسر الطير الأبابيل التى كانت ترمى جيش أبرهة عند هجومه على البيت الحرام بحجارة من سجيل بأنها طيور أكلت جثث الجنود الأحباش وكانت تضربها بالصخور. ويؤول تعلم سليمان منطق الطير باستعماله له فى نقل الرسائل وما أشبه. كما يؤول الهدهد الذى أرسله سليمان إلى سبإ، بأنه ضابط فى جيشه برتبة "لواء"... إلخ.

أما المسلمون فيؤمنون بصحة وقوع المعجزات. وأنا، رغم إيمانى بصحتها، لا أحب للمسلمين أن ينشغلوا بهذا الجانب لأنه لا يمكن وضعه تحت التجربة على عكس ما قلنا فى العين وفى السحر ولأن المعجزات قد مضت وانتهى أمرها كما قال القرآن الكريم، بل يركزوا كل جهودهم فى فهم الرسالة الحضارية العظيمة التى أتى بها الإسلام وفى تطبيقها حتى يخرجوا من الشرنقة الفولاذية التى تغلفهم وتطبق على أنفاسهم وتكتف حركتهم. إن الإسلام هو دين العلم والعقل والعمل والإنتاج

والتنظيم والنظافة والإتقان والتفكير والإبداع والطموح والتطلع لإحراز أرفع الدرجات والتنافس فى الخيرات وعمل الصالحات... إلخ، لكن المسلمين بوجه عام يغضون الطَّرْف عن كل هذه المبادئ الكريمة والقيم النبيلة ويركزون على السحر والعين واللحية وما أشبه متصورين أنهم هكذا يكونون مسلمين ملتزمين، بينما الحقيقة أن بينهم وبين الإسلام الحضارى الصحيح أمداء شاسعة وأنهم سيظلون فى ما هم فيه من تخلفٍ مُخْزٍ ومُزْرٍ ما داموا مصرين على إهمال قيم دينهم الحضارية العظيمة.

لقد مضت المعجزات وانتهى أمرها، وليس إلى استعادتها ولا إلى وقوعها مرة أخرى من سبيل. لقد انتهى عصر المعجزات منذ أزمان، وأعلن القرآن أنه لا يمكن إنزال آية كما كان الكفار يقترحون على النبى عليه السلام متحججين بأنهم متى أتاهم ما يطلبون من آيات فسيسارعون إلى الإيمان بما جاء به، فكان رد القرآن دائما أن زمن المعجزات قد ولى، وأنها كانت تنزل على الأنبياء السابقين دون أن تجدى نفعا، إذ يظل الكافرون والمشركون على عنادهم وكفرهم وشركهم، وكأنهم لم يطلبوا آية، وكأن الآية لم تنزل. قال تعالى: "وما منعَنا أن نُرْسِل بالآيات إلا أن كذَّب بها الأولون. وآتينا ثمودَ الناقةَ مُبْصِرَةً فظَلَمُوا بها. وما نُرْسِل بالآيات إلا تخويفا".

وأنا على ذكر من أن العقل الحديث المادى يستغرب وقوع المعجزات، فهو ينظر حواليه فلا يجد المعجزات تقع فى أى مكان على الأرض، ومن هنا يشك كثير جدا من الناس فيما يقال فى الكتب المقدسة عن حدوث المعجزات، إذ يتساءلون متشككين ومشككين: ترى لماذا وقعت المعجزات من قبل ولا تقع الآن؟ ومثل هذا التساؤل يمكن أن يستمر إلى الأبد دون الوصول إلى شىء. لكنى أنظر إلى المسألة بطريق مخالفة، إذ أنا أومن بنبوة مُحَمَّد عليه السلام وبإلهية القرآن أولا، ومن ثم أومن بما جاء فى الكتاب الكريم من كلام عن المعجزات، وبخاصة أن النبى مُحَمَّدا كان، كلما طولب بآية، كان رده طبقا لما أمره الله أن يقول: "سبحان ربى! هل كنتُ إلا بشرا رسولا؟"، ولَفَتَهم إلى الكون الرائع أمامهم ليُعْمِلوا فى ما يشاهدونه منه عقولهم. فقد مضى عصر المعجزات، وآن للعقل البشرى أن يُفْطَم عن تلك الطلبات الطفولية، ويبدأ مرحلة جديدة يقوم فيها الإيمان على تشغيل العقل.

وهنا يكمن صدق النبى مُحَمَّد عليه الصلاة والسلام وتتجلى عظمته. لقد أخذ القرآن الكريم منذ وقتٍ جِدَّ مبكرٍ فى مكة يذكر معجزات الأنبياء السابقين ويكرر ذكرها. ومعروف ما يقوله كثير ممن لا يؤمنون به عليه الصلاة والسلام من الغربيين من أنه كان صاحب عقل كبير ودهاء واسع عريض. فلو كان القرآن من تأليفه كما يزعمون لقد كان الأحرى به، وهو الداهية الأريب حسبما يؤكدون، ألا يأتى على سيرة معجزات النبيين الماضين بكلمة لأنها سوف تدفع الكفار إلى مطالبته أن يأتيهم هو أيضا بمعجزات ما دام الأنبياء القدامى لهم معجزات. وحتى لو قلنا إنه لم يتنبه فى البداية إلى هذه الورطة التى تورط فيها لقد كان يستطيع أن يصلح خطأه وأن يكف عن الاستمرار فى الحديث عن معجزاتهم ما دام يعلن فى كل مرة يطالبه فيها قومه بمعجزةٍ أنه ليس إلا بشرا رسولا وأن المعجزة لا تقع بقرار منه بل هى شأن إلهى محض، وأن عصرها فوق ذلك قد ولى، وانتهى أمرها. ومع هذا كله ظل

القرآن يتحدث بأريحية عن معجزات إخوانه الأنبياء والرسل السابقين. وهو موقف عجيب يدل على صدقه وعظمته.

وليس هذا هو الدليل الوحيد على صدقه ﷺ، فكل شىء فى حياته قائم على الصدق والإخلاص والبعد عن الأطماع الدنيوية. ولقد وضعت كتابا فى أواسط ثمانينات القرن الماضى عن "مصدر القرآن" قسمته قسمين: قسم فى تحليل شخصية النبى مُحَمَّد وسبر أغوارها، وقسم عن شخصية القرآن، فتبين لى أن مُحَمَّدا لا يمكن أن يكون كذابا مخادعا ولا واهما مخدوعا ولا مريضا بمرض عصبى كما يزعم أعداؤه، واستعنت فى ذلك ببعض كتب علم النفس والطب، ونجح مُحَمَّد عليه السلام فى هذا الاختبار العلمى نجاحا باهرا يكافئ نبوته العظيمة. كما تبين لى أن القرآن بما فيه من روح إلهى سائد، ونبوءات عن المستقبل صادقة، ومعلومات علمية دقيقة تصمد لما تقرر وفُرِغ منه ومن صوابه فى عصرنا الحديث، لا يمكن أن يكون من صنع بشر بل من صنع الله القوى القدير العليم الحكيم.

ولم أتوقف عند هذا بل أتبعت "مصدر القرآن" بكتاب آخر يقع فى ستمائة صفحة خصصته للمقارنة بين سمات الأسلوب القرآنى فى الكلمة والصيغة الصرفية والمقترنات اللفظية والعبارات والتراكيب والأبنية وبين سمات الحديث الشريف، فاتضح بما لا يدع مجالا للريب أن كلا من القرآن والحديث قد أتى من ينبوع غير الينبوع الذى أتى منه الآخر. أى أن مُحَمَّدا لا يمكن أن يكون هو مؤلف القرآن البتة. ثم إنى لم أكتف بهذا بل أتابع دائما ما يقوله المستشرقون والمبشرون عن الرسول الكريم وما تخترعه آلات إعلامهم ومؤلفاتهم ضده من تخرصات بغية تشويهه، فكانت شخصيته عليه السلام فى كل مرة تخرج من الاختبار أشد تألقا وسطوعا رغم أنى فى كل مرة أعيد فيها النظر فى شخصيته أضع نفسى موضع المستشرق أو المبشر وأنظر إليه عليه السلام بالعين التى ينظران بها إليه وأشتد فى ذلك، فلا أجد الأمور تستقيم بتاتا، فلا أملك إلا أن أردد ما يقوله القرآن الكريم: "الله أعلم حيث يجعل رسالته". وقد عالجت هذا كله فى بضع عشرات من الكتب. والواقع أنه لا يمكن أى شخص عنده ذرة من الإخلاص للعلم والحقيقة أن يقول فى حقه ﷺ ما يمكن أن يسىء إليه.

وما دام الأمر كذلك فعلى المسلمين الانشغال بالقيم والمبادئ السامية التى أتى بها القرآن وألا يضيعوا أوقاتهم فيما لا يفيد فيقلبوا الأمور رأسا على عقب. ولسوف أسوق هنا نصوصا قرآنية كريمة تتعلق كل طائفة منها بجانب من جوانب الحياة الإنسانية. ولسوف نرى أننا مقصرون فى ذات ديننا وفى ذات أنفسنا تقصيرا رهيبا.

ففى مجال الأخلاق نقرأ الآيات التالية: "يا أَيهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣) وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْياءٌ وَلَكِنْ لا تَشْعُرُونَ (١٥٤) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧)" (سورة البقرة).

"كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يوْمَ الْقِيامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ (١٨٥) لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٨٦)" (سورة آل عمران).

"يا أَيهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠)" (سورة آل عمران).

"وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦)" (سورة الأنفال).

"وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ (٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (١٠) إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١١)" (سورة هود).

"وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١١٥)" (سورة هود).

"وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيةً وَيدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢)" (سورة الرعد).

"أُولَئِكَ يجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيةً وَسَلامًا (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٧٦)" (سورة الفرقان).

"وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (٤٣)" (سورة الشورى).

"قَالَ اللَّهُ هَذَا يوْمُ ينْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِي اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١٩)" (سورة المائدة).

"عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يتَبَينَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ (٤٣)" (سورة التوبة).

"وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا (٨٠)" (سورة الإسراء).

"أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يتْرَكُوا أَنْ يقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣)" (سورة العنكبوت).

"وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (٧) لِيسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٨)" (سورة الأحزاب).

"مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ ينْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (٢٣) لِيجْزِي اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يتُوبَ عَلَيهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (٢٤)" (سورة الأحزاب).

"إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٣٥)" (سورة الأحزاب).

"قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (١٥) الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٦) الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ (١٧)" (سورة آل عمران).

"إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥)" (سورة الحجرات).

وفى القرآن آيات كثيرة تبرز أهمية العلماء والعلم وسعة آفاقه وعدم انتهائها عند حد، كقوله تعالى: "سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تُنْبِت الأرضُ ومن أنفسهم ومما لا يعلمون" (يس/ ٣٦)، "والخيلَ والبغالَ والحميرَ لتركبوها وزينةً، ويخلق ما لا تعلمون" (النحل/ ٨)، "وما أوتيتم من العلم إلا قليلا" (الإسراء/ ٨٥)، "وفوق كل ذى علم عليم" (يوسف / ٧٦)، وكذلك هذه الآية التى ترفع شأن العلماء: "يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات"، وتلك التى تنفى تساوى العلماء مع الجهلاء: "قل: هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون؟". ثم هذه الآية التى يأمر فيها العليم الحكيم رسوله مُحَمَّدا عليه الصلاة والسلام أنْ "قل: رب، زدنى علما" (طه/ ١١٤). وهذه هى المرة الوحيدة فى القرآن التى يأمر فيها الله رسوله أن يستزيد من شيء. ولنلاحظ أن المأمور بذلك هو مُحَمَّد، الذى كان يتنزل عليه الوحى صباح مساء. وعندنا كذلك هذه الآية التى يسوى فيها القرآن بين الجهاد فى سبيل الله وطلب العلم، إذ يسمى كلا منهما: "نَفْرًا"، والتى يحض فيها المؤمنين أن يبقى من كل فرقة منهم طائفة مع الرسول فى المدينة حين لا يخرج للغزو مع الجيش من أجل أن تتفقه هذه الطائفة فى الدين: "وما كان المؤمنون لِيَنْفِروا كافَّةً. فلولا نَفَرَ من كل فرقة منهم طائفةٌ ليتفقهوا فى الدين وليُنْذِروا قومَهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يَحْذَرون" (التوبة/ ١٢٢).

وفى العمل وتقديسه والتحذير من البلادة والشحاتة: "وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥)" (سورة التوبة).

"وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا... (٧)" (سورة هود).

"مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيبَةً وَلَنَجْزِينَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يعْمَلُونَ (٩٧)" (سورة النحل).

"مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يبَدِّلُ اللَّهُ سَيئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٧٠)" (سورة الفرقان).

"وَلَمَّا وَرَدَ (أى موسي) مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَينِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّى يصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَى مِنْ خَيرٍ فَقِيرٌ (٢٤) فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْياءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يدْعُوكَ لِيجْزِيكَ أَجْرَ مَا سَقَيتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيهِ الْقَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٥) قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِى الأَمِينُ (٢٦) قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَى هَاتَينِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) قَالَ ذَلِكَ بَينِي وَبَينَكَ أَيَّمَا الأَجَلَينِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَى وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٢٨)" (سورة القَصَص).

"وَلَقَدْ آتَينَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ (أى دروعا سابغة) وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ (أى أحْكِم النسج) وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١)" (سورة سبأ).

"وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يعْمَلُ بَينَ يدَيهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (١٢) يعْمَلُونَ لَهُ مَا يشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِياتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِى الشَّكُورُ (١٣)" (سورة سبأ).

"وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٣)" (سورة الزخرف).

"وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيرٍ فَلأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيرٍ يوَفَّ إِلَيكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ (٢٧٢) لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِياءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لا يسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢٧٣)" (سورة البقرة).

وفى أمور الجمال والذوق واللياقة والنظافة والطهارة: "وَهُوَ الَّذِى أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يوْمَ حَصَادِهِ وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (١٤١) وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ... (١٤٢)" (سورة الأنعام).

"وَيسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (٢٢٢)" (سورة البقرة).

"وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا... (٨٣)" (سورة آل عمران).

"وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ حَسِيبًا (٨٦)" (سورة النساء).

"يا أَيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيدِيكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا... (٦)" (سورة المائدة).

"يا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِي لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا خَالِصَةً يوْمَ الْقِيامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآياتِ لِقَوْمٍ يعْلَمُونَ (٣٢)" (سورة الأعراف).

"لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يحِبُّونَ أَنْ يتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨)" (سورة التوبة).

"وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَينَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦)" (سورة الحِجْر).

"فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (٨٥)" (سورة الحِجْر).

"وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٧) وَالْخَيلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨) وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (٩) هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) ينْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيةً لِقَوْمٍ يتَفَكَّرُونَ (١١) وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يعْقِلُونَ (١٢) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيةً لِقَوْمٍ يذَّكَّرُونَ (١٣) وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤) وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥) وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يهْتَدُونَ (١٦)" (سورة النحل).

"أَوَلَمْ يرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيءٍ يتَفَيأُ ظِلالُهُ عَنِ الْيمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (٤٨)" (سورة النحل).

"وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يعْرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيةً لِقَوْمٍ يتَفَكَّرُونَ (٦٩)" (سورة النحل).

"يا أَيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيوتًا غَيرَ بُيوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨)" (سورة النور).

"أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يؤَلِّفُ بَينَهُ ثُمَّ يجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَينَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيصِيبُ بِهِ مَنْ يشَاءُ وَيصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يشَاءُ يكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يذْهَبُ بِالأَبْصَارِ (٤٣)" (سورة النور).

"يا أَيها الَّذِينَ آَمَنُوا لِيسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاءِ ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيسَ عَلَيكُمْ وَلا عَلَيهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يبَينُ اللَّهُ لَكُمُ الآَياتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٨) وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يبَينُ اللَّهُ لَكُمْ آَياتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٩)" (سورة النور).

"فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيبَةً كَذَلِكَ يبَينُ اللَّهُ لَكُمُ الآَياتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦١) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آَمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يذْهَبُوا حَتَّى يسْتَأْذِنُوهُ... (٦٢)" (سورة النور).

"وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا (٦٣)" (سورة الفرقان).

"أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يعْدِلُونَ (٦٠)" (سورة النمل).

"وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) وَاقْصِدْ فِي مَشْيكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩)" (سورة لقمان).

"أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨)" (سورة فاطر).

"جَنَّاتُ عَدْنٍ يدْخُلُونَهَا يحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣)" (سورة فاطر).

"وَزَينَّا السَّمَاءَ الدُّنْيا بِمَصَابِيحَ... (١٢)" (سورة فُصِّلَتْ).

"يا أَيهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِي وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ الَّذِينَ يغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣) إِنَّ الَّذِينَ ينَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يعْقِلُونَ (٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيهِمْ لَكَانَ خَيرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥)" (سورة الحجرات).

"يا أَيهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لا يسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يكُونُوا خَيرًا مِنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يكُنَّ خَيرًا مِنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١)" (سورة الحجرات).

"أَفَلَمْ ينْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيفَ بَنَينَاهَا وَزَينَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (٦) وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَينَا فِيهَا رَوَاسِي وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٨) وَنَزَّلْنَا مِنَ

السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (١٠)" (سورة ق).

"إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (١٧) فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (١٨) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩) مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (٢٠)" (سورة الطور).

"وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦) فَبِأَي آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٧) ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (٤٨) فَبِأَي آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٩) فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيانِ (٥٠) فَبِأَي آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥١) فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ (٥٢) فَبِأَي آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٣) مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (٥٤) فَبِأَي آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٥) فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ (٥٦) فَبِأَي آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٧) كَأَنَّهُنَّ الْياقُوتُ وَالْمَرْجَانُ (٥٨) فَبِأَي آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٩) هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ (٦٠) فَبِأَي آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦١) وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ (٦٢) فَبِأَي آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٣) مُدْهَامَّتَانِ (٦٤) فَبِأَي آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٥) فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ (٦٦) فَبِأَي آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٧) فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (٦٨) فَبِأَي آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٩) فِيهِنَّ خَيرَاتٌ حِسَانٌ (٧٠) فَبِأَي آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧١) حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيامِ (٧٢) فَبِأَي آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٣) لَمْ يطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ (٧٤) فَبِأَي آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٥) مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِي حِسَانٍ (٧٦) فَبِأَي آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٧) تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ (٧٨)" (سورة الرحمن).

"وَأَصْحَابُ الْيمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيمِينِ (٢٧) فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ (٢٨) وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ (٢٩) وَظِلٍّ مَمْدُودٍ (٣٠) وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ (٣١) وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ (٣٣) وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ (٣٤)" (سورة الواقعة).

"يا أَيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١)" (سورة المجادلة).

"وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا (١٢) مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لا يرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلا زَمْهَرِيرًا (١٣) وَدَانِيةً عَلَيهِمْ ظِلالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا (١٤) وَيطَافُ عَلَيهِمْ بِآنِيةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ (١٥) قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا (١٦) وَيسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا (١٧) عَينًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا (١٨) وَيطُوفُ عَلَيهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا (١٩) وَإِذَا رَأَيتَ ثَمَّ رَأَيتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا (٢٠) عَالِيهُمْ ثِيابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (٢١) إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيكُمْ مَشْكُورًا (٢٢)" (سورة الإنسان).

"فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ (٣٢)" (سورة عَبَس).

"وُجُوهٌ يوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ (٨) لِسَعْيِهَا رَاضِيةٌ (٩) فِي جَنَّةٍ عَالِيةٍ (١٠) لا تَسْمَعُ فِيهَا لاغِيةً (١١) فِيهَا عَينٌ جَارِيةٌ (١٢) فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ (١٣) وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ (١٤) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (١٥) وَزَرَابِي مَبْثُوثَةٌ (١٦)" (سورة الغاشية)... إلخ.

فهذه قراءة للقرآن، وهى تطلعنا على القيم الحضارية العظيمة التى أتى بها نبينا مُحَّد، وترتب عليها أن صار العرب فى وقت قصير جدا سادة العالم فى كل المجالات، وعلى رأسها مجال العلم والنظافة والإبداع. وثم قراءة أخرى للقرآن لا ترى فيه إلا أنه كتاب يثبت العين والسحر تقريبا وتُسْتَمَدّ البركة من ورقه وألفاظه لا من العمل بمضامينه التقدمية العظيمة، وكأنه رُقًى سحرية. ولا يمكن القول إن القراءتين متساويتان وشرعيتان، وينبغى أن نحرص عليهما جميعا، وإلا فلا صواب ولا خطأ فى الحياة، وكل شىء يساوى كل شىء، وهو ما لا يقول به إلا المجانين.

والآن يمكننا أن نفهم مرامى السطور التالية التى اقتطفتها من مقال لمحمد عبد الفتاح السرورى بعنوان "النص الدينى فى الإسلام من التفسير إلى التلقى" منشور فى "الحياة" بتاريخ ٢١ نوفمبر ٢٠١٥م: "والقول إن كل ما خاطب به النص الدينى إبان صدوره فى زمن الوحى هو موجه فى شكلٍ مباشر إلى كل الذين يتلقَّوْنه فى الأزمنة اللاحقة، مع قطع النظر عن طريقة التلقى وكيفيته، لهو أمر يحتاج إلى عنايةٍ زائدة على ما يُسْتَدَلّ به من النصوص الدينية الموحية بإطلاق الخطاب المباشر لكل الأزمنة. فالخطاب المباشر هو خطاب شفاهى ينحصر مجال المخاطبين فيه بمجال الخطاب. الخطاب ذاته ومداه الزمنى الذى لا يتعدى دائرة الاشتغال التاريخية التى يتحرك فيها حيث يمكن ضم الموجودين ضمن المدى الزمنى للخطاب على رغم عدم حضورهم بذواتهم أثناء تبليغ الخطاب، ولكنهم مندرجون ضمن المخاطبين نظرًا الى حضورهم الزمنى والمكانى فى مجاله ومداه. أما مَنْ هم خارج هذا المدى فهم خارجون عن دائرة المخاطبين، ما يعنى أن العلاقة بينهم وبين النص ستتخذ وضعية مختلفة بالكامل فى طبيعة المعنى المفهوم من النص ومرامه.

وقد أنتج المسلمون عددًا لا يحصى من التفاسير وعلم القرآن وعلوم السنة ونصوص أئمة المذاهب، وهى نصوص نُسِجَت حول النصوص الدينية الأصلية. ولأن أى قراءة للنص الأصلى أو أى مسعى إلى تحصيل معناه لا بد أن يمرا عبرَ التفاسير والشروحات والتعليقات، لذا لم نَعُد فى معرض قراءتنا للنص قراءةً مستقلة بل عبر تفاسير وكتب استنباطٍ وشروحاتٍ عديدة، تُبَيِّن ما خَفِى علينا من معانٍ وترشدنا إلى أصول فهمه وتفسيره. إلا أن مقولاتها، مقولات التفاسير، الخاصة تفرض نفسها بالمقابل وتحجّم فضاءات النص الأصلى بتحكماتها الاستدلالية، الأمر الذى يعيق عملية التلقى المباشر بين القارئ والنص ويحجب التفاعل المباشر والإيحاء الخالص الذى يتدفق من النص باتجاه المتلقى، ويعطّل قدرته على التموضع داخل النص ويشوّش عليه التقبل الشفاف والمباشر لما يبثه

النص، المتن، فى وعيه وما يمكن أن يفتح عليه من آفاق ورؤى". وكأن سيادته سوف يستطيع فهم القرآن بدون مساعدة التفاسير والأحاديث وكتب التاريخ وكتب علوم القرآن! ولو حدث هذا لسوف نجد أنفسنا فى آخر المطاف قد بعدنا عن القرآن بعدا لا رأب له. ولنلاحظ شيئا آخر. فهو، رغم انطلاقه من نظرية القراءة كما هو واضح، وهى نظرية تهمل المبدع والنص لحساب القارئ وقراءته حسبما نعرف، يدعو إلى إهمال القراءات التى قرأها المفسرون والالتحام بالنص مباشرة. أى أنه باسم نظرية القراءة يمشى عكس نظرية القراءة. وهذا تخبط مشين. ولله فى خلقه شؤون.

وبعد فقد كان ما مضى خاصا باختلاف القراءات والقارئين داخل الإسلام، أما الآن فسوف نأخذ فكرة عن قراءة أخرى أبعد مدى وأكثر جرأة وأشد تحررا، ومن ناس كانوا يتظاهرون بالإسلام، لكنهم فى أعماقهم كافرون به. جاء فى كتاب "الفَرْق بين الفِرَق" للبغدادى عن الباطنية أنهم لم يكونوا مؤمنين بالأنبياء وكانوا يقولون بقدم العالم، ولا يعتقدون فى البعث والحساب، بل كانوا يرون أن الجنة هى نعيم الدنيا وأن العذاب إنما هو اشتغال أصحاب الشرائع بالصلاة والصيام والحج والجهاد، وأن أهل الشرائع يعبدون إلها لا يعرفونه ولا يحصلون منه إلا على اسم بلا جسم. والباطنية يرفضون المعجزات وَيُنْكِرُونَ نزُول الملائِكَة من السَّمَاء بالوحى والامر والنهى بل ينكرون أن يكون فى السماء ملك، ويتأولون الملائِكَة على دُعَاتِهِمْ الى بدعتهم، ويتأولون الشَّيَاطِين والأبالسة على مخالفيهم، ويزعمون ان الأنبياء قوم أَحبُّوا الزعامة فساسوا الْعَامَّة بالنواميس والحيل طلبا لتلك الزعامة بِدَعْوَى النُّبُوَّة والإمامة. وعندهم أن مؤولى النصوص القرآنية هم من الملائكة البررة، ومَنْ عَمِلَ بالظاهر فهم من الشياطين الكفرة. كما تأولوا كل ركن من أركان الشريعة فادَّعَوْا أن الصلاة هى موالاة إمامهم، والصوم الإمساك عن إفشاء سر الإمام، والحج هو زيارته وإدمان خدمته، والزنى إفشاء سرهم بغير عهد وميثاق، وأن من عرف معنى العبادة سقطت عنه، وقالوا عن نبوات الأنبياء إنها مخاريق خدعوا بها الناس، واتهموهم بأنهم متناقضون فى كلامهم، وأن محمدًا (ويسمونه: "صاحب الأمة المنكوسة") حين سأله اليهود عن الروح لم يعلم الجواب فقال: "الروح من أمر ربى"، وأنه استباح أموال أتباعه، وحرم عليهم الطيبات، واتخذهم له ولذريته من بعده خَوَلا وخدما...

هذه قراءتهم للقرآن فى خطوطه العامة، أما قراءتنا فتظهر فى الرد على هذا الكلام: فأما ادعاؤهم أن الله اسم بلا جسم فمن الواضح أنهم لا يفهمون شيئا فى الألوهية. فالله هو المطلق، أى لا يحده حد وليس له أول ولا آخر، وليس كمثله شىء. فمن الطبيعى ألا يراه البشر لأن عيونهم محدودةُ نطاقِ الرؤية وبصرهم نسبى لا يمكنه إدراكه سبحانه، وإلا كان الله كخلقه. وأما أن محمدًا قد اتخذ من المسلمين خدما له ولذريته من بعده فلا أدرى من أين أتى الباطنيون بهذا الكلام المضحك. بالله متى عامل الرسول أتباعه كأنهم خدم له ولذريته من بعده؟ لقد كان الرسول فى الغاية من التواضع ولين الجانب والتسامح فلا يدعى أنه يعلم الغيب مثلا ولا أنه فوق الحساب الإلهى ولا أنه لا يخطئ أبدا، وكان يخفض جناحه لمن اتبعه من المسلمين ويستشيرهم ويعاملهم برحمة ولين حسبما أمره الله بذلك، وهو ما أغرى البدو الأجلاف بالتخاشن معه، فكان يحتويهم ويوجههم فى رفق وعطف. بل إنه لم

يتعرض للمنافقين بعقاب رغم كل ما فعلوه، مُفَضِّلا أَخْذَهم بظاهر أمرهم ما داموا لم يجحدوا الإسلام علانية. أما توريث الحكم لذريته فهذا لم يحدث قط. والحمد لله أَنْ لم يعش له أولاد ذكور، فانتهت هذه الشبهة السخيفة. ثم متى طالب الرسول أتباعه بدفع مال له؟ هذا لم يحدث. كما أنه كان يعيش عيشة الزاهدين ولا يصيب من رفاهية الدنيا شيئا. ولم يكن جوابه عن حقيقة الروح هروبا بل كانت هذه سياسته دائما فيما لا علم له به كتوقيت وقوع الساعة مثلا ومعرفة الغيب والإحاطة بكل أمور الدنيا. بل لقد صرح بأنه من الممكن أن يكون أحدُ الخصمين اللذين يفصل بينهما فى الدعاوى القضائية أبرعَ من الآخر فى عرض حجته فيقضى له تصورا منه أنه صاحب الحق رغم أنه ليس كذلك.

وفى القرآن آيات يعاتبه الله سبحانه فيها عتابا شديدا بل يهدده فى بعضها الآخر وينبهه إلى المزالق والمكائد التى تنصب له حتى لا يقع فى أشراكها. كما كان ﷺ يعلن بكل بساطة وإنسانية وكرم نفس أنه ليس سوى ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد بمكة. ولم يكن يتخذ جلاوزة يمشون أمامه ويوسعون له الطريق ويقفون حاجزا يمنع الناس من الاقتراب منه جريا على سنة الطغاة والمتكبرين. وإذا كان فى سفر مع أصحابه وأرادوا الأكل قام بجمع الحطب لإشعال النار من أجل تجهيز الطعام لا يميز نفسه عليهم فى شىء. أما المخاريق فمتى اصطنعها مُحَمَّد؟ لقد كان أمره ظاهرا تمام الظهور، وليس فى حياته أسرار وخبايا، ولم يتكلم أحد لا من المنافقين ولا حتى من النصارى أو اليهود عن شىء من ذلك. ولو وُجِد شىء من ذلك لفضحوه فضيحة مخزية تهدمه وتقضى على دينه. بل لقد أغلق القرآن باب المعجزات بالضبة والمفتاح. والمعجزات هى ما يسميه الباطنيون: "مخاريق"، فكيف يزعمون أنه ضحك على أتباعه بها؟ ثم متى كان النبى منهوما إلى الزعامة؟ وماذا يعمل بها، وقد كان مثالا للرقة والعطف والمرحمة وعظمة النفس والتواضع ولين الجانب؟ وقد سبق فى مكة أن عرض عليه قومه تلك الزعامة فرفضها فى حسم قاطع. ويتبقى تأويل الباطنية للعبادات، وهى تأويلات مضحكة لا تجوز على أى شخص عنده شظية من عقل.

والآن هل يقول عاقل محايد إن موقفنا من هاتين القراءتين يجب أن يكون واحدا فلا ننصر قراءة على قراءة بل نتعامل معهما على السوية، ونجعل وُكْدَنا جمع القراءات جميعا دون التفرقة بين قراءة وقراءة، ودون الانحياز إلى أى منها. إن معنى هذا هو أن نهجر الإسلام بل أن نهاجر الأرض كلها ونتخذ مسكنا لنا فى الفضاء الخارجى نلقى منه نظرنا على ما يجرى على البسيطة دون أن يكون لنا اهتمام بصواب من خطإ.

هذا فى القديم فى المجتمعات الإسلامية. ثم ننتقل بعد هذا إلى العصر الحديث بل الوقت الحالى حيث نتناول قراءة كريستوف لوكسنبرج مثلا للقرآن الكريم، الذى يدعى بسخف منقطع النظير أنه لا يمكن فهمه إلا من خلال اللغة السريانية رغم أنه يقول فى ذات الوقت بوجود السريانية آنذاك فى الشام والعراق فقط. ومن ثم كان سؤالنا المشروع بل وسؤال أى شخص عنده عقل ومنطق: إذا كان موطن السريانية على هذا البعد الشاسع من مكة حيث ظهر مُحَمَّد والقرآن فكيف يا ترى نفسر تأثر

القرآن بها؟ وأين الدليل على ذلك التأثر؟ ومتى تم؟ ومن كان الوسيط أو الوسطاء الذين أخذ مُحَمَّد السريانية عنهم وأدخلها قرآنه؟ وفى أية ظروف كان ذلك؟ ولماذا سكت معلموه أو معاونوه عن ذكر دورهم، وبخاصة حين خدعهم وجعل من نفسه نبيا وتركهم يقشرون بصلا وفاز هو بالغنيمة وصار اسمه يدوى كالطبل: أولا فى بلاد العرب، وبعد هذا فى بلاد الدنيا كلها، فى الوقت الذى لا يذكرهم ولا يبالى بهم ولا يعرفهم أحد، وقبعوا فى الظلام والخفاء ونسجت عليهم العنكبوت بيتها ونسيهم العالم أجمع؟ بل لماذا خرس سائر سريان الشام كلهم طوال تلك القرون فلم يحاولوا فضح هذه اللعبة المحمدية؟ واضح أن كلام المستشرق لا يساوى خردلة!

والعجيب أن كلمتى "السريانية" و"السريان" لا وجود لهما لا فى الشعر الجاهلى ولا فى شعر المخضرمين ولا فى شعر صدر الإسلام بما فى ذلك شعر أمية بن أبى الصلت المتصل بكتب أهل الكتاب ولا فى القرآن ولا فى السيرة. ويؤكد البروفسير دانيال كينج، أستاذ اللغة السريانية– الآرامية بجامعة كارديف، فى بحثه: "A Christian Qur'an?" أن فى كلام لكسنبرج عن الألفاظ السريانية المزعومة فى القرآن ما يدل على اضطراب علمه بتلك اللغة، وعلى تسرعه وتعسفه فى استنتاج نتائجه. بل لقد لاحظ أن بعض تلك الألفاظ لا وجود لها أساسا فى لغة السريان.

ثم إن القرآن يكرر فى كل المناسبات أنه قرآن عربى نزل بلسان عربى: "وما أرسلنا من رسولٍ إلا بلسان قومه ليبيّن لهم"، "بلسانٍ عربى مُبِينٍ"، "قرآنًا عربيًّا غيرَ ذى عِوَجٍ"، "ولو جعلناه قرآنا أعجميًّا لقالوا: لولا فُصِّلَتْ آياتُه؟ أأعجميٌّ وعربِيٌّ؟". فلو كان القرآن سريانيا لهب أهل مكة والعرب جميعا، وعلى رأسهم اليهود والنصارى، يصرخون فى وجه النبى عليه السلام متهميه بالكذب الصراح قائلين: كيف تجرؤ على أن تنكر الحقائق الساطعة سطوع الشمس فى وضح النهار وتقول إن القرآن الذى أتيتنا به قرآن عربى فى حين أنه سريانىٌّ؟ ثم هل تظن أننا نائمون على صماخ آذاننا فلا نعرف أن فلانا وفلانا وفلانا ممن يعرفون السريانية يعينونك فى تأليف قرآنك؟ الحق أنى لا أدرى كيف تواتى بعضَ الناسِ الوقاحةُ فيتهموا القرآن الكريم بأنه يجرى على قواعد النحو السريانى، بينما هو أمامنا يتبع نحو العرب ومعجم العرب وتعابير العرب وصور العرب وتراكيب العرب. ألا إنها لجرأة بلغت المدى فى السماجة وجمود الوجه، وبخاصة حين تصدر عن مستشرق أعجمى يريد أن يعلمنا لغتنا بجهل وتنطع لا يطاقان!

وهنا نصل إلى بهلوانيات لكسنبرج فى هذا المجال. إنه مثلا يدعى أن لغة القرآن لا تتطابق ولغة الشعر الجاهلى. كيف؟ هذا ما لا أدريه ولا يدريه أى عاقل فى رأسه مسكة من العلم والفهم. ترى هل الشعر الجاهلى يرفع الفاعل بينما ينصبه القرآن؟ ترى هل الشعر الجاهلى يجر المضاف إليه بينما يجزمه القرآن؟ ترى هل الجملة العربية فى الشعر الجاهلى فعلية أو اسمية، بينما هى فى القرآن حرفية؟ ترى هل يأتى حرف الجر فى الشعر الجاهلى قبل الاسم المجرور بينما يأتى فى القرآن بعده؟ ترى هل يسبق الموصوفُ الصفةَ فى الشعر الجاهلى بينما يقع العكس فى القرآن؟ أم هل يا ترى تختلف مفردات المعجم أو المشتقات أو أنواع الأزمنة أو أدوات الشرط مثلا هنا عنها هناك؟ أم هل ينتمى الشعر

الجاهلى إلى اللغة العربية بينما ينتمى القرآن إلى اللغة اللاوندية؟ هل العرب منذ نزول القرآن قد صاروا عربَيْن: عربا يفهمون القرآن ولا يفهمون شيئا فى الشعر الجاهلى، وعربا يفهمون الشعر الجاهلى بكل أريحية بينما يجدون القرآن معمَّيات وألغازا؟ وهل كان المشركون ليسكتوا على تحدى القرآن لهم أن يأتوا ولو بسورة من مثله فلا يردوا عليه بأن لغته غير لغتهم التى يعرفونها وينظمون شعرهم ويلقون خطبهم بها؟ بل هل كان يمكن أن يفهموا القرآن، وهو بلغة وقواعد غير لغتهم وقواعدهم؟

والآن مع أهم ما قاله لكسنبرج عن الآيات الثمانى عشرة الأولى من سورة "النجم"، التى اتخذها فى بحث له مجالا لتطبيق منهجه السخيف فى التفسير السريانى للقرآن المجيد. وسوف أعقب على كلامه أولا بأول. ولسوف يتضح بكل جلاء أن الرجل مجرد بهلوان ليس ثم موضع أحق به من السيرك. يقول عن الآية الأولى من السورة الكريمة: "إنّ التحليل الفيلولوجى لسورة "النَّجْم" سيقيم الدليل على أنّ موضوعها الرئيسى هو الجدل الشائع فى محيط الرّسول (لم يُذْكَر اسمه فى السورة)، الذى رُمِى بالجنون. ففى الآية ٢٥ من "المؤمنون": "إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ"، وفى الآية ٨ من "سبأ": "أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ؟" اتُّهِم محمّد بأنّه ركِبه "جِنٌّ"، وفى خمس آيات أخرى وُصِف بأنّه "مَجْنُون" (ليس بالمعنى الحديث للكلمة، ولكن بمعنى "استحوذ عليه جنّ"، "ركبه جنّ"). يدحض القرآن التهمة الأولى فى ثلاث مناسبات: "أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ" (الأعراف/ ١٨٤)، "أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ" (المؤمنون/ ٧٠)، "مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُم" (سبأ/ ٤٦)، ويدحض كذلك التهمة الثّانية فى آيات ثلاث: "فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ" (الطور/ ٢٩)، "مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ" (القلم/ ٢)، "وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ" (التكوير/ ٢٢). إنّ سورة "النجم" تتناول سبب بعض العوارض التى تنتاب النبى والتى لاحظها خصومه. والسؤال يتمثّل فى معرفة ما إذا كانت هذه العوارض نتيجةَ وَسْوَسةٍ شيطانيّةٍ أم وَحْى إلهى. القرآن، بطبيعة الحال، يتمسّك بالحالة الثانية، وينسب أيضا نفس "المرض المقدّس" إلى رُسُلٍ آخرين كانوا قد سبقوا رسول القرآن. ولهذا السبب صرّح القرآن فى سورة "الذاريات" (٥١/ ٥٢): "كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِنْ رَّسُولٍ إلا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ". وقد اتُّهِم نوح بنفس التهمة فى سورة "القمر" (٥٤/ ٩): "كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ". وبعد أن وضّحنا السياق الذى يجب أن نتناول فيه سورة "النّجم" يمكننا عندئذ الشروع فى تحليل النّص تحليلا دقيقا، آخذين بعين الاعتبار، وفى نفس الوقت، اللّغة العربيّة واللّغة السريانيّة الآراميّة.

تحليل فيلولوجى لكلّ آية على حدة: "وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى"... إنّ ما يصفه نولدكه بخصوص النّحو السريانى، والذى كثيرا ما يُحَيِّر المختصّين فى العربيّة، نجده أيضا جليّا فى الجملة التى تأتى فى مقدّمة السورة التى نحن بصددها. فوحدة الجملة، التى انكسرت بفعل إدخال الفاصلة الخاطئة (بعد "هَوَى")، لم يهْتدِ إليها المفسّرون والمترجمون. فى الحقيقة تحتوى الآيتان الافتتاحيتان على جملة مركّبة من شرط (آية ١) وجواب شرط (آية ٢). وهكذا فإنّ التركيب النحوى للجملة يكون كالتّالى: الكلمة الأولى: "والنَّجْمِ" ليست الفاعل فى الآية ١ بل هى قَسَمٌ لا دور آخر له سوى تقديم الجملة

التى تأتى لاحقا. وبناء على هذا فإنّ الجملة (الآية) كلّها تكون: "وَالنَّجْمِ"، وليس "وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى"... زمن الجملة التى تأتى بعدها "إِذَا هَوَى" زمن شرطى، والفاعل هو الشخص المذكور فى جواب الشرط فى الآية ٢: "صَاحِبُكُمْ". يجب إذن أن نفهم الجملة على النحو التالى: "إِذَا هُوَ (صَاحِبُكُم) هَوَى". جواب الشّرط (جواب القسم) يأتى منطِقيًّا فى الآية ٢: "مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى". عندما يُترجِم بِلْ (Bell) هذه الآية هكذا: " Your comrade has not gone astray, nor has he erred"، فهو لا يرى بوضوحٍ كافٍ ما تشير إليه، أى المسّ الشيطانى الذى يُعْتَقَد أنّ الذى يُصَاب به يخرج عن الطريق المستقيم وينتابه الهذيان. فلهذا السّبب إذن يؤكّد القرآن أنّ النَّبى (صَاحِبكُمْ) لم يَحِدْ عن الحقّ ولا زال عنه، ولم يُصَب بالهذيان. فتصبح ترجمة الآية الأقرب إلى الصواب كالتّالى: "Your companion has not gone astray, nor has he become delirious".

وأول شيء ألفت الانتباه إليه هو قول المستشرق إن القرآن ينسب المرض المقدس (أى الجنون) إلى الأنبياء الآخرين. وهذا كذب وافتراء، فلم يحدث قط أن نسب القرآن الجنون إلى أى نبى أو رسول كائنا من كان، وإلا كان هذا منه تكذيبا لهم. كل ما فعل هو ذِكْرُه اتهامَ أقوام النبيين والمرسلين لهم بالجنون مفندا اتهاماتهم ومسخفا عقولهم ومتوعدا إياهم بأسوإ مصير. وشتان هذا وذاك. وهذا يذكرنى بما افتراه خليل عبد الكريم على القرآن من أنه يصف أتباع نوح بـ"الأرذلين" مع أن القرآن لم يفعل أكثر من إيراد ما يقوله المستكبرون الكافرون عن أولئك المؤمنين مشفوعا بالدفاع عنهم. كذلك فزعم المستشرق أن الآيات الأولى من سورة "النجم" إنما تتحدث عن اتهام المشركين له ﷺ بالجنون والهذيان هو زعم جاهل. فالآيات تذكر الضلال والهوى والغواية، وهذه أمور أخلاقية. ولو كانت تريد أن تنفى عنه الجنون لذكرت الهذيان لأنه أمر عصبى يرتبط بالجنون. وهذا من الوضوح بمكان مكين، ومن ثم فكل ما قاله الرجل فى هذا الموضوع سخف فى سخف.

أما قوله إن المفسرين، ومن ثم المترجمين، قد أخطأوا فهم التركيب الموجود فى الآيات الثلاث الأولى من السورة بسبب جريها على النحو السريانى فلا أدرى أى جنون سول له هذا الهذيان. أى نحو سريانى؟ وأى بطيخ؟ إن معنى الآيتين واضح تماما، وهو القَسَم بالنجم عند هُوِيّه بأن الرسول لم يضلَّ ولم يَغْوِ ولم ينطق عن الهوى. فما المشكلة فى ذلك؟ أهى فى الفصل بين القسم وجوابه ووجود هذا فى آية، وذاك فى آية أخرى؟ لكن ذلك يتكرر كثيرا فى القرآن. وحتى لو سرنا على دربه الملتوى الخبيث وقلنا: إن المعنى هو "والنجم إنَّ صاحبكم إذا هوى ما كان ضالا ولا غاويا ولا ناطقا عن الهوى" لظل الفصل قائما بين الشرط وجوابه كما هو واضح، إذ إن فعل الشرط موجود فى الآية الأولى، وجوابه موجود فى الآية الثانية. وهذا يعنى أن اعتراضه لا يخرج عن أن يكون زوبعة فى كستبان. أما الطنطنة بالنحو السريانى وإنجاده لنا فى فهم هذه الآية التى يزعم أبو جهل غموضها، وما هى بغامضة إلا على لسان الكذاب الدجال، فهى ضجة سخيفة لا معنى لها ولا محصَّل من ورائها لأنه لا يوجد هنا نحو سريانى البتة. إن هى إلا شعوذة يحاول لكسنبرج التأثير بها على السطحيين من أمثاله.

والآن أحب أن أنبه القراء إلى أننا لو فصلنا "والنجم" عن "إذا هوى" وجعلنا "إذا" شرطية (وليست ظرفية بمعنى "حين يهوى") لوجدنا أنفسنا إزاء تركيب لا وجود له فى القرآن قط. فالقرآن، حين يستخدم واو القسم مع شىء كالنجم، فهو يرفد المُقْسَم به إما بـ"إذا" الظرفية وإما بنعت أو عطف مثلا، أو يفعل الأمرين جميعا: "والقرآن ذى الذِّكْر * بل الذين كفروا فى عِزّةٍ وشقاق"، "والكتابِ المبِين * إنا جعلناه قرآنًا عربيًّا لعلكم تعقلون"، "والكتابِ المبِين * إنا أنزلناه فى ليلةٍ مباركةٍ. إنا كنا منذِرين"، "والقرآنِ المجيد * بل عجبوا أنْ جاءهم منذرٌ منهم، فقال الكافرون: هذا شىء عجيب"، و"الذاريات ذَرْوا * فالحاملات وِقْرا * فالجاريات يُسْرا * فالمقسِّمات أمرا * إنَّ ما تُوعَدون لَصَادِق"، "والطُّور * وكتابٍ مسطور * فى رَقٍّ منشور * والبيت المعمور * والسقف المرفوع * والبحر المسجور * إن عذاب ربك لواقع"، "والسماءِ ذات البروج * واليوم الموعود * وشاهِدٍ ومشهود * قُتِل أصحابُ الأخدود"، "والسماء والطارق * وما أدراك ما الطارق؟ * النَّجْمُ الثاقب * إنْ كلُّ نفسٍ لمَّا عليها حافظ"، "والشمسِ وضُحاها * والقمر إذا تلاها * والنهار إذا جَلّاها * والليل إذا يغشاها *... ونفسٍ وما سوّاها * فألهمها فجورَها وتقواها * قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دسّاها"، "والليلِ إذا يَغْشَى * والنهارِ إذا تجلَّى * وما خَلَقَ الذَّكَرَ والأنثى * إنّ سَعْيَكم لَشَتَّى"، "والضُّحَى * والليلِ إذا سَجَا * ما ودَّعك ربك وما قَلَى"، "والتينِ والزيتون * وطُورِ سِينِين * وهذا البلدِ الأمين * لقد خلقنا الإنسانَ فى أحسن تقويم"...

وبالمثل سوف يكون عندنا تركيب لا يعرفه القرآن بل ولا تعرفه اللغة العربية. ذلك أن تركيب الآيتين الأُولَيَيْنْ طبقا للتوجيه الغبى لذلك المستشرق سوف يكون كالآتى: "والنجم: إذا هوى لم يضل صاحبكم" بمعنى أن صاحبكم إذا هوى لم يضل. أى أنه إذا كان قد هوى من الصَّرْع فإنه لم يضل. والآن هل لاحظتم أن فاعل "هوى" ضمير يعود على متأخر لفظا ورتبة، وهو "صاحبكم" (فاعل فعل جواب الشرط)؟ وهذا لا تعرفه اللغة العربية ولا يعرفه القرآن. ثم متى يقول العربى: "إن فلانا قد هوى" هكذا بإطلاق دون أى تحديد أو توضيح، ويكون المقصود أنه قد سقط مصروعا؟

بل من قال أصلا إن مُحَمَّدا كان يصيبه الصَّرْع؟ إن ذلك الشيطان يحاول بخبث، لكنه مفضوح، أن يمرِّر فى هدوءٍ الزعمَ بأن النبى عليه الصلاة والسلام كان مصابا بالصَّرْع وكان يسقط دائما أمام المشركين فى الشارع كلما جاءته نوبة الوحى. يريد أن يقول إن وحى القرآن لم يكن وحيا سماويا بل أثرا من آثار الصَّرْع. ولكن منذ متى كان الصَّرْع يثمر شيئا مثل القرآن أو يثمر أى فكر أصلا؟ إن الصَّرْع حالة يفقد معها الإنسان حسه وشعوره وعقله وتفكيره، فكيف يتسق هذا وذاك؟ وكيف، عندما ينهض مُحَمَّد من نوبة الصَّرْع، يكون جاهزا بنص قرآنى بلغ القمة فى روعة الأسلوب وفى رُقِيِّ مضمونه العقيدى والأخلاقى والاجتماعى والاقتصادى والنفسى والسياسى والعسكرى حسب النص الموحى به؟ ولقد سبق أن تناولت تلك التهمة الغبية فى الفصل الثالث من الباب الأول فى كتابى: "مصدر القرآن"، وبينت من خلال ما كتبه الأطباء عن أعراض الصَّرْع أن أعراض الوحى شىء آخر مختلف تماما عن هذا المرض وعن أى مرض غيره. ثم لو كان مُحَمَّد مريضا بالصَّرْع ويسقط فى شوارع مكة دائما

أكان المشركون يؤمنون به حتى لو انطبقت السماء على الأرض؟ وهل المصروع يمكن أن يكون قائدا سياسيا وعسكريا ومشرِّعا وزوجا وصديقا وأبا وحَمًا وقاضيا يبعث على الإجلال والتبجيل بين أتباعه، بل وبين الخصوم الكارهين له؟ وقبل ذلك كله هل حدث أن اتهمه قومه بأنه مصروع؟ الواقع أن ذلك لم يحدث قط. ألا إن ما يقوله كرستوف لكسنبرج لكلام ساذج مفضوح.

كذلك يقول الكاتب إن "الهَوَى" فى الآية الثالثة هو الصَّرْع. فهل يمكن أن يقول العربى إن فلانا لم ينطق ما نطقه عن الصَّرْع؟ يمكننا أن نقول إن فلانا ينطق عن علم أو عن جهل أو عن كبر أو عن فرط سذاجة مثلا، أما أن نقول إنه ينطق (بمعنى "يأتى بأفكار ومبادئ وعقائد وأخلاق") عن صَرْعٍ فلا. ذلك أن الصرع غياب عن الوعى والإدراك والتفكير والتقدير، وليس حالة يمكن أن يصدر عنها أى شىء من هذا القبيل. أما استشهاده بقوله تعالى عن خمر الجنة: "لا يُصَدَّعون عنها ولا يُنْزِفون" فهو استشهاد فى غير محله، إذ التصديع (أى الإصابة بالصداع) هو نتيجة لشرب الخمر، أما التفكير والتقدير فليسا نتيجة للصرع. وهذا يريك كيف يخبط الرجل خبط عشواء!

وهنا أود اهتبال الفرصة السانحة لسَوْق بعضٍ من كلامه فى تحليل الألفاظ العربية وانتقالها المزعوم من السريانية إلى العربية كى يلمس القارئ بنفسه أنه أمام هلاوس مضحكة ليس إلا. يقول ذلك الأعجمى المتساخف مخطئا القرآن بعد أربعة عشر قرنا لم يستطع أن يدرك خطأه خلالها عمالقة الشعراء والخطباء والبلغاء من مشركين ويهود ونصارى معاصرين للنبى ولا متعصبة اليهودية والنصرانية الذين كانوا يعملون طوال الوقت على تصيد العورات للإسلام فلم يفلحوا حتى هل هلال لكسنبرج فالتقطت عيناه فى الحال تلك الأخطاء. يقول:

"القراءة التقليديّة: "يُنْزِفُونَ" قراءة خاطئة. والتعديل المقْتَرَح هنا يُبَرّره الفعل السّريانى "اتْرَفِّ" ("استرخى")، وما الصيغة القرآنيّة إلا ترجمة له. أنظر:

R. Smith، Thesaurus Syriacus، vol. I, Oxford 1879, vol. 2, 1901.

مثلا: "رَفِّيُوتا" و"مرَفِّيُوتا" وما يقابلهما بالعربيّة، حسب بار على وبار بهلول: "رَخَاوَة"، "ارْتِخَاء"، اسْتِرْخَاء". أن يكون الجذر السريانى "رْ فَ ا" هو نفسه صيغة مُشتقَّة من "رْ/فَ/ح" بحذف الحاء فذلك ما تبرهن عليه دلالة هذا اللّفظ الذى يقابِله منّا (Manna) فى العربيّة بكلمة "رَخَفَ" (وهو تبادل صوتى لكلمة "رَفَحَ"، فالحرف العربى "خَ" هو صوتم آرامى منبثق عن حرف "حَ"، ويؤكّد هذا عديد اللّهجات الآراميّة البابليّة بما فيها اللّهجات الآراميّة الجديدة التى تُعْرَف بالآشوريّة فى بلاد ما بين النهرين) ثمّ "اسْتَرْخى" بالمعنى المادّى للكلمة (مثل العجين بالنّظر إلى طبيعته غير المتماسكة).

إن هذا الاستشهاد الأخير يُظهر لنا أنّ الجذر العربى "رَ/خَ/ا" هو اشتقاق تطوّر من حذف حرف النهاية: "ف" للفظة "رَخَفَ" (مثلا فى اللّهجة الحلبيّة المعاصرة فإنّ لفظة "ب-أَعْرِفْ" تُنْطَق "ب-أَعْرَا"). وهذه الأخيرة هى بدورها نطق مشتق من الجذر السريانى الآرامى "ر ح ى ف" الذى يُنْطَق بدوره من خلال تخفيف الحرف الوسطى "ح"، والفعل العربى المشتق "رَأَفَ/رَؤُفَ"، ومنه اللّفظ

السريانى "رَاحُوفَا" الذى يعطى اللّفظ العربى "رَئِيف". وهذا يمكن مقارنته بالجذر "رْ/حِ/يـ/مْ"، بالعربيّة "رَ/حِ/ي/مْ". أخيرا، نلاحظ أنّ "لسان العرب" يستشهد عند تعرّضه للجذر "رَ/فَ/حَ" بحديث عمر لما تزوّج أمّ كلثوم بنت على، إذ قال: "رَفِّحُونِى"، أى قولوا لى ما يُقال للمُتزوّج، بمعنى "تَفْرَحُ" (وهذه العبارة ما زالت تُقال إلى يومنا هذا قبل أو عند الزّواج)، وكذلك فإنّ عبارة "فَرَحْ" تُطلق على حفلة الزفاف فى مصر مثلا، (وكذلك فى تونس). وهذا يُفسِّر لنا أن الصيغة المشتقّة من الفعل العربى "فَرِحَ" هى تبادل صوتمى للجذر السريانى الآرامى "ر/ف/ح" (أمّا الصيغة العربية الأخرى "رَ/قَ/حَ" التى ذكرها "لسان العرب" على أنّها تؤدّى نفس المعنى هى بوضوح نتيجة للتّنقيط الخاطئ الذى أفرز "ق" عوضا عن "ف"). نودّ أيضا أن نجلب الانتباه إلى صيغة أخرى للإشتقاق العربى لنفس الجذر التى هى نتيجة لقلب "الحاء" إلى "هاء" لكى تعطى: "رَفَهَ/رَفُهَ"، تَرَفَّهَ، والأسماء المشتقّة مثل "رَفَاهَة" و"رَفَاهِيَّة"... إلخ".

أما "شديد القوى" فإن لكسنبرج يرى أنه هو الله وأن معنى "ذو مِرَّة": "الذى هو مارا"، أى الرب. وأما جملة "وهو بالأفق الأعلى" فالواو فيها استئنافية لا حالية، وتعنى أن الله يسكن فى الأعالى، أى أن مسكنه فى السماء، وأن "دنا فتدلى" معناها أنه سبحانه قد تواضع فنزل من عليائه ليكون فى مستوى عبده تحببا إليه وتنازلا حتى لا يكسر خاطره. أما من أين أتى هذا التواضع فمن كلمة "استوى"، التى أوصلها لكسنبرج ببهلوانياته إلى أن معناها: "تواضَعَ". أى أن الله قد نزل من عليائه نزولا ماديا.

والآن إلى التفاصيل. فهو، بكل وضوح، لا يتصور أو لا يريدنا أن نتصور، أن صفة "القوة" يمكن أن يوصف بها أحد سوى الله، مع أن هذه الصفة قد تكررت فى القرآن كثيرا نعتا للمخلوقين كما فى قوله تعالى: "إنى عليه لقوى أمين"، "إنّ خَيْرَ مَنِ استأجرتَ القوىُّ الأمين"، "اللهُ الذى خلقكم من ضعفٍ ثم جعل من بعد ضعفٍ قوة"، "مَنْ أشدُّ منا قوةً وأكثرُ جمعا؟"، "كانوا أشدَّ منهم قوة". بل إن قوله تعالى فى سورة "النجم": "شديد القوى" قد وُصِف به جبريل فى سورة "التكوير" فى الحديث عن نفس الموقف: "وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِى قُوَّةٍ عِنْدَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ * وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ * وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ". فـ"شديد القُوَى" فى "النجم" هو نفسه الموصوف هنا بـ"ذى قوة عند ذى العرش مكين". وهناك رأى محمد جبريل "بالأفق الأعلى"، وهنا رآه "بالأفق المبين". وأرجو أن يتنبه معى القارئ إلى أننا هنا، كما هو الحال مع سورة "النجم" أيضا، إزاء قَسَمٍ متلوٍّ بـ"إذا" الظرفية، مع فصل القسم عن جوابه كذلك.

ومعروف فى الإسلام وفى العقل وفى المنطق أن الله لا يُرَى لنا، على الأقل: فى الدنيا ونحن بإمكاناتنا الحالية. وقد سبق موسى أنْ طلب من الله رؤيته، فكان جوابه سبحانه عليه: "لن ترانى. ولكن انظر إلى الجبل. فإن استقرَّ مكانَه فسوف ترانى". ثم إنه سبحانه تجلَّى للجبل، فخرَّ موسى صَعِقًا، واعتذر حين أفاق قائلا: "سبحانك! تبتُ إليك، وأنا أول المؤمنين". وقد نفت عائشة أن يكون الرسول رأى ربه البتة. والإسلام لا يعرف التجسيد كالنصرانية، ومن ثم فرؤية الله مستحيلة فى

دنيانا هذه إلى أن ننتقل إلى الاخرة، فيصير لكل حادث حديث لا نريد استباقه قبل الأوان. وإذا كان بعض الصوفية يظنون أنهم أفضل من الأنبياء ويستطيعون مشاهدة الحضرة الإلهية فهم وذاك. وللأسف نجد فيهم كذبا وغرورا وقلة خشية رغم تشدقهم بقربهم من ربهم وبلوغهم فى معاريج التطور الروحى درجات سامقة. ولا أدل على ذلك من القصة التى نجدها فى بعض كتبهم عن موسى وصَعْقته، إذ يقال إنه عليه السلام، حين تجلى ربه للجبل عقب طلبه رؤيته، قد خرَّ صَعِقًا، وكان يفيق والملائكة تقول له: يا ابن الحيض، أَمِثْلُك مَنْ يسأل الرؤية؟ ونحن بدورنا نسأل: إذا كان موسى ابنا من أبناء الحيض، وهو فعلا كذلك، فهل السادة الصوفية أبناء القشدة والعسل؟ إن ما قاله القشيرى كلام لا يليق، إن لم نقل فيه أكثر من ذلك. ومعروف أن بعض الصوفية يَرَوْن رغم هذا إمكان تجلى الله لهم.

وهذا هو الحديث الخاص بكلام عائشة فى إنكار رؤية النبى ربه. فعن مسروق أنها رضى الله عنها قالت له: "يا أبا عائشةَ، ثلاثٌ مَنْ تَكَلَّمَ بواحِدةٍ منهنَّ فقد أعظمَ على اللهِ الفِرْيةَ: مَنْ زَعمَ أنَّ محمَّدًا رأى ربَّهُ فقَد أعظمَ الفِرْيةَ على الله. والله يقول: "لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ"، "وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ"... فقلتُ: يا أمَّ المؤمنينَ، أَنْظِرِينِي ولا تُعْجِلِينِي. أليسَ اللهُ تعالى يقول: "وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى"، "وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ"؟ قالَت: أنا واللهِ أَوَّلُ مَن سألَ رسولَ اللهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ عَن هذا. قالَ: "إنَّما ذلك جبريلُ. وما رأيتُهُ فى الصُّورةِ التى خُلِقَ فيها غيرَ هاتينِ المرَّتينِ. رأيتُهُ منهبِطًا منَ السَّماءِ سادًّا عِظَمُ خَلْقِهِ ما بينَ السَّماءِ والأرضِ". ومن زعمَ أنَّ محمَّدًا كَتَمَ شيئًا مِمَّا أنزلَ الله عليهِ فقَد أعظمَ الفِرْيةَ على اللهِ. يقولُ الله: "يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ". ومَنْ زعمَ أنَّهُ يعلَمُ ما فى غدٍ فقد أعظمَ الفريةَ على اللَّهِ، واللَّهُ يقولُ: لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إلا اللَّهُ".

ومن ثم فكل ما قاله لكسنبرج هو كلام فارغ لا مَعْدَى لنا عن وصفه بذلك. والعجيب أن لكسنبرج يحسب نفسه خفيف الدم فيقول إن "ذو" فى "ذو مِرّة"، ليس معناها "ذو قوة" بل معناها "الذى هو الرب" لأن "مِرّة" هى فى السريانية "مارا"، أى الرب. وعلى ذلك فمعنى الكلام هو "علّمه شديد القوى الذى هو الرب". وهو يستعين بما يقال فى كتب النحو من أن بعض القبائل العربية تستخدم "ذو" لا بمعنى "صاحب" بل بمعنى "الذى/ التى" كما فى قول الشاعر: "وبئرى ذو حفرْتُ وذو طويتُ"، أى "بئرى التى حفرتها والتى بطَّنتها بالحجارة". لكنْ فاته أن "ذو" (عندما تكون اسما موصولا) تحتاج إلى جملة صلة. وهنا لا توجد جملة صلة. فهل يمكن أن يقول العرب: "شديد القوى الذى الله"؟ هذا ليس كلاما عربيا بل خواجاتيا لكسنبرجيا سخيفا تافها. والعجيب أنه يحاول استغفالنا فى الزحمة فيقول فى عجلة ولهوجة إن "ذو" معناها: "الذى هو"، أى "الذى هو مِرَّة" أى مارا، بمعنى "الذى هو الرب"، وذلك حتى تستقيم له الجملة. وشتان! فـ"ذو" معناها "الذى" فقط دون "هو". ورؤيته حلمة أذنه أقرب إليه من بلوغ غايته من خلال هذه البهلوانية. أما كيف تحولتْ، على يديه الخفيفتين كأيدى اللصوص، كلمةُ "مِرَّة" إلى "مارا"، أى الرَّبّ فى السريانية كما يقول، فمن

خلال الزعم بأن هناك خطأ فى قراءة كلمة "مارا" أدى إلى نطقها وكتابتها: "مِرَّة". خيبة الله عليك وعلى سماجتك ووخامة روحك وثقل ظلك!

ومثل ذلك قوله عن عبارة "فكان قابَ قوسين أو أدنى": "قَابَ: ليست لفظة عربيّة، ولا هى ظرف مكان ولا وحدة قياس، بل هى بالأحرى قراءة خاطئة لصِفَةٍ مشبّهة سريانيّة آراميّة. فعوضا عن "قَابَ" يجب قراءة "قَايث"، الذى هو فعل سريانى آرامى يعنى "جَمَد، بقى ساكنا، تسمَّر". ومهما يكن من أمر، فإنّ الحَرْفَم (grapheme: وحدة صوتية) القرآنى "قَات" يتطابق مع الصفة المشبّهة السريانيّة، ومن هنا ينبغى للمرء أن يقرأ "قايث" (أنظر "قايم"= فى العربيّة "قايم/قائم")، التى تعنى "واقف، ثابت، ساكن". وإذا وضعنا الفعل العربى "كان" فإنّ معنى الجملة يصبح "كَانَ قَائِمًا". إنّ القراءة التقليديّة "قَوْسَيْن" هى قراء خاطئة ولا علاقة لها لا بقوس واحد ولا بقوسين إثنين. فالكلمة ليست عربيّة، إذ يجب ازالة النقطتين عن القاف وتعويضهما بنقطة واحدة للحصول على الحرف السريانى "فَ" (أو پ = p)، ثم يجب إضافة ثلاث نقاط إلى السّين للحصول على شين، وهذا يقود إلى قراءة سريانيّة بصيغة التثنية العربيّة "پوْشَيْن/فَوْشَيْن"، الذى يعنى، حسب معجم منّا تحت مادّة "پَوْشَا" (وقفة، استراحة، انقطاع). وبالتّالى فإنّ الكلمة يُصبح لها معنى "وَقْفَتَيْن = لَحْظَتَيْن من الزمن". وهكذا فبدل القراءة العربيّة التقليديّة: "فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىَ"، يجب أن نقرأ "فَكَانَ قَايِثْ فَوْشَيْنِ أَوْ أَدْنَىَ"، التى تعنى "فَبَقِى (العَبْد) مَذْهُولًا لَحْظَتَيْنِ أَوْ أَقَلَّ".

وهو خبث جاهل لا يخرج العاقل منه بشىء سوى أن ذلك النصاب يريد إلى القول بأن الآية القرآنية قائمة على قراءة خاطئة لإحدى العبارات السريانية. والواقع أن العرب كانوا يستخدمون مثل ذلك التعبير ببساطة شديدة. قال الأجدع الهمدانى، وهو شاعر مخضرم معمَّر:

كَانَ، لولا بَدَرَ المهْرُ بِهِ، قابَ سَوْطٍ أَن يُدَهْدَى لِلذَّقَنْ

وقال كذلك:

حَسْبِى مِنَ الإِقْدَامِ قَابُ رُمْحِي

وبالمناسبة فلكلمة "قاب" عدة صيغ كما جاء فى "تاج العروس" للزَّبِيدِىّ مثلا: "القَابُ: المِقْدارُ، كالقِيبِ بالكَسْر. تقول: بَيْنَهُمَا قابُ قَوْسٍ، وقِيبُ قَوْسٍ، وقادُ قوْسٍ، وقِيدُ قَوْسٍ، أَى قَدْرُ قَوْسٍ... وفى الحديث: لَقَابُ قَوْسِ أَحَدِكُم خَيْرٌ من الدُّنْيا وما فيها".

ومن شواهد "قِيد" قول خداش العامرى، وهو مخضرم مات على الشرك:

مَوَالِى بَنِى عَمْرٍو وَأَهْلِ أَمانَةٍ وَقُرْبَى، فَلَمْ يَنفَعْهُمُو قِيدَ إِصْبَعِ

فهل كل هذا خطأ فى قراءة الكلمة السريانية المزعومة؟ وإذا كان هذا المجنون يتهم النبى ومن يعاونونه حسب هذيانه بأنهم أخطأوا قراءة الكلمة السريانية فكيف نصنع مع أولئك الشعراء؟ وكيف فهم العرب الآية الكريمة التى نحن بصددها والحديث الشريف الذى أورده الزبيدى فى معجمه آنفا إذا كانت الكلمة لا وجود لها أصلا فى اللغة العربية ولا فى السريانية؟

إن هـذا الجاهـل يظـن أنـه، بجهلـه ذاك، قـادر علـى تخطئـة القـرآن والعـرب والمسلمين أجمعين بنحوييهم ولغوييهم ومعجمييهم ومفسريهم ونقادهم وشعرائهم وكُتّابهم ومفكريهم وحُفّاظهم ومحدِّثيهم وعلمائهم وفلاسفتهم والزعم بأنه الوحيد الذى اكتشف فى القرآن أخطاء لم يتنبه إليها أحد طوال أكثر من أربعة عشر قرنا، ولاحَظَ أن جانبا كبيرا من كتاب الله مأخوذ من السريانية، التى لم يكن أحد يعرف عنها شيئا فى مكة إبان عصر الرسول! خيبة الله على الجهل والتنطع الغليظ! بالله عليك أيها القارئ لِمَ يتنكب القرآن كلمة "الرب" ويلجأ إلى "مارا" تلك، وهى كلمة سريانية كما يقول المؤلف الملتاث رغم أن أحدا هناك لم يكن يعرف السريانية؟ ترى بالله كيف كان العرب يفهمون القرآن لو كان بالسريانية، التى لم يكونوا يعرفون منها ولا كلمة؟ ثم أكان المشركون يسكتون فلا يشنعون على مُحَمَّد وينجحون فى تهييج الخلق عليه وتنفيرهم من دينه؟

هذا هو مستوى لكسنبرج فى ميدان العلم والتفكير والعقل واحترام المنهج العلمى، وهذه هى قراءته للنص القرآنى الكريم. فهل ينبغى أن نسكت فلا نفتح فمنا استنكارا لهذه الجريمة العلمية البائسة ونردد مع أصحاب نظرية القراءة أن كل القراءات شرعية ومتساوية ولا تَفْضُل واحدةٌ منها الأخرى؟

نبذة عن المؤلف

إبراهيم محمود عوض
من مواليد قرية كتامة الغابة – غربية – مصر فى ٦/ ١/ ١٩٤٨م
تخرج من آداب القاهرة عام ١٩٧٠م
حصل على الدكتورية من جامعة أكسفورد عام ١٩٨٢م
أستاذ النقد الأدبى بجامعة عين شمس
البريد الضوئى: (ibrahim_awad9@yahoo.com)

المؤلفات:

معركة الشعر الجاهلى بين الرافعى وطه حسين
المتنبى– دراسة جديدة لحياته وشخصيته
لغة المتنبى– دراسة تحليلية
المتنبى بإزاء القرن الإسماعيلى فى تاريخ الإسلام (مترجم عن الفرنسية مع تعليقات ودراسة)
المستشرقون والقرآن
ماذا بعد إعلان سلمان رشدى توبته؟ دراسة فنية وموضوعية للآيات الشيطانية
الترجمة من الإنجليزية – منهج جديد
عنترة بن شداد – قضايا إنسانية وفنية
النابغة الجعدى وشعره
من ذخائر المكتبة العربية
السجع فى القرآن (مترجم عن الإنجليزية مع تعليقات ودراسة)
جمال الدين الأفغانى – مراسلات ووثائق لم تنشر من قبل (مترجم عن الفرنسية)
فصول من النقد القصصى
سورة طه – دراسة لغوية وأسلوبية مقارنة
أصول الشعر العربى (مترجم عن الإنجليزية مع تعليقات ودراسة)
افتراءات الكاتبة البنجلاديشية تسليمة نسرين على الإسلام والمسلمين — دراسة نقدية لرواية "العار"
مصدر القرآن – دراسة لشبهات المستشرقين والمبشرين حول الوحى المحمدى
نقد القصة فى مصر من بداياته حتى١٩٨٠م
د. مُحَمَّد حسين هيكل أديبا وناقدا ومفكرا إسلاميا
ثورة الإسلام – أستاذ جامعى يزعم أن مُحَمَّدا لم يكن إلا تاجرا (ترجمة وتفنيد)
مع الجاحظ فى رسالة "الرد على النصارى"

كاتب من جيل العمالقة: مُحَّد لطفى جمعة — قراءة فى فكره الإسلامى
إبطال القنبلة النووية الملقاة على السيرة النبوية – خطاب مفتوح إلى الدكتور محمود على مراد فى الدفاع عن سيرة ابن إسحاق
سورة يوسف – دراسة أسلوبية فنية مقارنة
سورة المائدة – دراسة أسلوبية فقهية مقارنة
المرايا المشوِّهة – دراسة حول الشعر العربى فى ضوء الاتجاهات النقدية الجديدة
القصاص محمود طاهر لاشين – حياته وفنه
فى الشعر الجاهلى – تحليل وتذوق
فى الشعر الإسلامى والأموى – تحليل وتذوق
فى الشعر العباسى– تحليل وتذوق
فى الشعر العربى الحديث – تحليل وتذوق
موقف القرآن الكريم والكتاب المقدس من العلم
سورة النورين التى يزعم فريق من الشيعة أنها من القرآن الكريم – دراسة تحليلية
منكرو المجاز فى القرآن والأسس الفكرية التى يستندون إليها
أدباء سعوديون
شعر عبد الله الفيصل – دراسة فنية تحليلية
دراسات فى المسرح
دراسات دينية مترجمة عن الإنجليزية
د. مُحَّد مندور بين أوهام الادعاء العريضة وحقائق الواقع الصلبة
دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية – أضاليل وأباطيل
شعراء عباسيون
من الطبرى إلى سيد قطب – دراسات فى مناهج التفسير ومذاهبه
القرآن والحديث – مقارنة أسلوبية
اليسار الإسلامى وتطاولاته المفضوحة على الله والرسول والصحابة
مُحَّد لطفى جمعة وجيمس جويس
"وليمة لأعشاب البحر" بين قيم الإسلام وحرية الإبداع – قراءة نقدية
لكن مُحَّدا لا بواكى له – الرسول يهان فى مصر ونحن نائمون
مناهج النقد العربى الحديث
دفاع عن النحو والفصحى– الدعوة إلى العامية تطل برأسها من جديد
عصمة القرآن الكريم وجهالات المبشرين
الفرقان الحق – فضيحة العصر

قراءة فى كتابات ابن حزم وابن رشد وابن مضاء حول النحو والنحاة مع محاولة تيسير بعض المسائل النحوية

القرآن ونظرية القراءة فى نسختها العربية الإسلامية

علاوة على الدراسات المنشورة فى المواقع المشباكية المختلفة

الفهرست